

(قصة الخلق الأول)

(المخلوق بيدي الله ﷻ مسجود الملائكة عليهم السلام، أبو البشر، آدم عليه السلام)

الطبعة الأولى

1445 هـ

2024 م

اسم الكتاب: (قصة الخلق الأول) (أبو البشر، آدم ﷺ)

التأليف: فضل بن يسلم صنبور البهاني

موضوع الكتاب: (أبو البشر، آدم ﷺ)

عدد الصفحات: 512 صفحة

عدد الملازم: 32 ملازم

مقاس الكتاب: 17x24

عدد الطباعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2024 / 17422

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 8795 - 06 - 3



يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلم

elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com

01152806533 - 01012355714

الإصدار الأول في سلسلة:
﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾
(من قصص القرآن الكريم)

(قصة الخلق الأول)

(المخلوق بيدي الله ﷻ مسجود الملائكة عليهم السلام، أبو البشر، آدم ﷺ)

إعداد: الشيخ الدكتور / فضل بن يسلم صنبور اليمني

تقديم

الحمد لله منزل الكتاب ومجري السحاب وخالق خلقه من تراب؛ والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإخوانه الأنبياء؛ وبعد:

لقد شرفت بالاطلاع على كتابي: (قصة الخلق الأول - أبو البشر آدم عليه السلام) / وقصة الرسالة الأولى شيخ الأنبياء وأطولهم عمرا في الدعوة إلى الله؛ نوح عليه السلام) من سلسلة (فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) لفضيلة العلامة الأستاذ الدكتور/ فضل بن يسلم صنبور اليماني حفظه الله تعالى.

وهي سلسلة مباركة وكيف لا تكون مباركة وهي دراسة حديثة علمية تأصيلية - لم يسبق لها نظير في عالم التأليف - لصفوة خلق الله تعالى وهم النخبة المختارة الذين اختارهم الله تعالى لحمل دينه وتبليغ رسالته والواسطة بينه وبين خلقه؛ وهم الأنبياء - عليهم السلام - وجعل حياتهم نبراسا وقدوة لكل من حمل لواء الدعوة إلى الله من هذه الأمة المختارة فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فِيمَ هَدَاهُمْ أَفَتَدْرِكُ﴾ (١).

وقد بدأت هذه السلسلة المباركة بسيدنا آدم - أبو البشر - عليه السلام الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وكرمه وذريته؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٢).

وأعلن عن وظيفته ومنصبه في هذا الكون؛ وهو - خلافة الله في الأرض - أي تطبيق قوانين الله وأحكامه على نفسه وعلى غيره في الأرض، ولذا أسجد له ملائكته

(١) سورة الأنعام، الآية رقم: (٩٠).

(٢) سورة الإسراء، الآية رقم: (٧٠).

ليبين لهم شرف مهمته وذريته في الحياة، وأخبر عنه قبل أن يخلقه؛ فكل حدث عظيم له إرهاباته ونبوءاته:

ففي سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)، وفي سورة الحجر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾^(٢)، فإذا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٣)، وفي سورة ص قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾^(٤)، فإذا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٥).

ولما صور الله - تعالى - آدم عليه السلام جعل إبليس يطوف به كما في الحديث: عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك)^(٦)، ومن هنا بدأت قصة حسد إبليس لآدم عليه السلام.

وأسكن الله - تعالى - آدم جنته؛ وخلق له حواء من ضلعه الأيسر الذي فوق قلبه لتكون قرية منه وتونسه؛ وأباح له أن يأكل من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٧).

ولكن لابد أن تجري أقدار الله - تعالى - فنسي آدم ذلك العهد الذي أخذه الله

(١) سورة البقرة، الآية رقم: (٣٠).

(٢) سورة الحجر، الآيتان رقم: (٢٨ - ٢٩).

(٣) سورة (ص)، الآيتان رقم: (٧١ - ٧٢).

(٤) الحديث: رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب - بَابِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ خَلْقًا لَا يَمْلِكُ بِرَقْمٍ: (٢٦١١).

(٥) سورة البقرة، الآية رقم: (٣٥).

عليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُحْدِثْ لَهُ عَزْماً﴾^(١)، فتحايل عليهما إبليس كما قال الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٢)، وعلى أثر هذا النسيان نزل آدم وحواء من الجنة إلى الأرض لتبدأ معاناته وذريته في طلب المعاش وفي مجاهدة عدوه الله إبليس الذي أقسم بعزة الله كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُنَّ أَجْمَعِينَ﴾^(٣) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ.

فما فقدناه بالنسيان لا يرجع إلينا إلا بالتذكير؛ ولذا جاءت قصص الأنبياء في القرآن لنأخذ منها العبر والعظات والفوائد النافعة.

ونستنبط منها أصول دعوة الأنبياء؛ ونحن نسير في درب الدعوة إلى الله، ونأخذ منها مزاج النبوة في الدعوة إلى الله كالعفو واللين والرحمة والشفقة على الخلق وعاطفة إرضاء الله تعالى؛ ولذا نجد الله تعالى يقول: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾^(٧)، وقال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾^(٨) أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ^(٩) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ^(١٠) وَخَذْ بِيَدِكَ ضَغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ.

(١) سورة طه، الآية رقم: (١١٥).

(٢) سورة البقرة، الآية رقم: (٣٦).

(٣) سورة (ص) الأيتان رقم: (٨٢ - ٨٣).

(٤) سورة مريم، الآية رقم: (٤١).

(٥) سورة مريم، الآية رقم: (٥١).

(٦) سورة مريم، الآية رقم: (٥٤).

(٧) سورة مريم، الآية رقم: (٥٦).

وَلَا تَحْنَتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١﴾.

فالمأمل في هذه الآيات يرى أن وراء كل ذكر نبي من الأنبياء قصة دعوية تحمل أخلاقاً لا غني للدعاة عنها.

ومن فوائد ذكر قصص الأنبياء تثبيت قلوب الدعاة إلى الله؛ قال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِيَتْ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

ومن قصة أطول الأنبياء أعماراً نوح عليه السلام نتعلم الصبر على المدعويين وإن طال الزمن؛ ونتيقن بأن النتائج بيد الله تعالى وليست بيد الداعي فعلينا بالجهد والنتيجة على الله تعالى، وأن عدم قبول المدعويين للدعوة لا ينقص من قدر الداعي إلى الله مادام قام بواجبه كما ينبغي.

والمأمل في القرآن يجد أنه لا يخلو جزء من القرآن من قصص الأنبياء عليهم السلام؛ وذلك لإعداد وتربية هذه الأمة الخاتمة على دعوة الأنبياء بنهج الأنبياء، وبسبب قيامها على الدعوة بالترتيب الصحيح تشهد على الخلائق بأن رسلهم ما قصرُوا في دعوتهم إلى الله؛ ففي صحيح البخاري: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَغْتَ؟ فيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، فيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغْتُمْ؟ فيَقُولُونَ: لَا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ، فنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ، وهو قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (٣)(٤)، والوسَطُ: العَدْلُ.

(١) سورة (ص)، الآيات رقم: (٤١ - ٤٤).

(٢) سورة هود، الآية رقم: (١٢٠).

(٣) الحديث: صحيح البخاري - رقم الحديث أو الصفحة: ٤٤٨٧.

(٤) سورة البقرة، الآية رقم: (١٤٣).

وهذا ما تناوله فضيلة الدكتور/ فضل بن يسلم صنبور اليماني حفظه الله تعالى بالتفصيل في هذين الكتابين المباركين الماتعين الذي لا غنى لأحد من طلبة العلم والعلماء والدعاة إلى الله من النظر فيهما والاستفادة منهما في درب الدعوة إلى الله تعالى.

فقد تكلم حفظه الله تعالى باستفاضة في بيان أهمية القصص القرآني وأنواعه ومزاياه وخصائصه وفوائده وأغراضه ومقاصده وأهدافه وحكمة تكراره؛ وعاش مع القرآن الكريم وآياته؛ وغاص في بطون كتب التفسير واستخرج منها فوائد قصص القرآن الكريم فأفاد وأجاد جزاه الله خيرا.

ولهذا أرى أن هذين السفيرين الماتعين يغنيان حاملهما عن كثير من كتب الأخيار. وفي النهاية أسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يمد لنا في عمر فضيلة الدكتور/ فضل ويكمل لنا هذه السلسلة المباركة فيتطرق لحياة كل الأنبياء عليهم السلام. والله ولي التوفيق

كتبه الفقير إلى ربه المنان

محمد بن علي محمد إمام

ميت غمر - محافظة المنصورة

غرة صفر 1446 هـ - الموافق:

الخامس من شهر أغسطس 2024 م

مقدمة السلسلة

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عِوَجًا، الحمد لله جابر القلوب المنكسرة من أجله، وغافر ذنوب المستغفرين بفضلِهِ، نحمدك اللهم حمد الشاكرين، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا شيء كمثله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وخيره بين أن يكون ملكا نبيا أو عبدا رسولا، فاختار مقام العبودية مع رسوله.

وبعد

فهذه هي السلسلة الثانية جمعتها من أقوال أهل العلم والفضل من الفقهاء والمفسرين وأساتذة الإقراء وعلوم القرآن وسميتها بقوله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

ولقد كان ومنذ زمن يحذو بي الشوق إلى سبر أغوار قصص القرآن وقد توالى الأسئلة على عقلي وقلبي عن أغراض تعدد القصص في القرآن باختلاف ألفاظها من سورة إلى أخرى.

— ففي قصة الخلق الأول مثلا نقرأ في سورة البقرة قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) نقرأ في سياق هذا الخبر حوارات وتساؤلات تمت بين الخالق جل في علاه وبين الملائكة الكرام البررة الذين لم يكونوا

(١) الآية: رقم ١٧٦ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٣٠ من سورة البقرة.

يعلمون الحكمة من خلق الإنسان حتى بين لهم الله تعالى ذلك، ثم أمرهم بالسجود لآدم عليه السلام فسجدوا كلهم إلا إبليس فقد أبى السجود فبين الله رده الأمر بالسجود بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(١)، ذكرت ذلك آيات سورة البقرة من قوله ﷻ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، إلى قوله ﷻ: ﴿فَنَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ قُنَابٍ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢)، وذلك ما لم يذكر في غيرها من السور، وفي سورة الأعراف تبدأ القصة بسياق مختلف حيث يقول المولى عن بدايتها: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾^(٣)، وعن قصة السجود ورفض إبليس السجود بين الله لنا ذلك بصيغة غير ما جاء في سورة البقرة فيقول سبحانه: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾^(٤)، ثم تنساب القصة في سياق جديد يذكر فيه ربنا سؤاله لإبليس عن امتناعه عن السجود وهذا ما لم يذكر في سورة البقرة، ويذكر كذلك جراءة إبليس ورده الأمر على الله تعالى بعلّة ادعائها لنفسه ولم يميزه الله تعالى بها، وهي ادّعاؤه أنه خير من آدم عليه السلام، وتفصل القصة في سياق هذه السورة قصة الإغواء والأسلوب الذي اتخذته إبليس اللعين مع آيينا آدم عليه السلام وذلك من قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءِئِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَدَلَّهُمَا يَمْرُورٌ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾^(٥).

(١) الآية: رقم ٣٤ من سورة البقرة.

(٢) الآيات: رقم ٣٠-٣٧ من سورة البقرة.

(٣) الآية: رقم ١١ من سورة الأعراف.

(٤) الآية: رقم ١٢ من سورة الأعراف.

(٥) الآيات: رقم ٢٠-٢٢ من سورة الأعراف.

ونقرأ في سورة الحجر قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنَّ خَلْقَ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾^(١)، ثم يتوجه المولى في سياق القصة في هذه السورة مباشرة إلى أمر الملائكة بالسجود لآدم ﷺ وبين أنهم سجدوا إلا إبليس فيقول عنه: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾^(٢)، وفي سياق هذه السورة يذكر الله ﷻ ما لم يذكره في سياق القصة في سورة البقرة من طرده لإبليس ولعنته وتوعده له إلى يوم الوقت المعلوم يوم القيامة، ونقرأ هذا من قوله ﷻ: ﴿قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(٣) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٤)، كما نقرأ في سياق القصة في سورة الإسراء تعليلاً آخر تعلق به إبليس في رفضه السجود لآدم ﷺ ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾^(٥)، وفي سياق القصة في سورة الكهف نرى المولى ﷻ يبين لنا في سياق قصة رفض إبليس السجود لآدم ﷺ أن إبليس قد تمرد على أمر الله ﷻ فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(٦)، كما نقرأ في سياق القصة في سورة طه وهي تبدأ بذكر العهد الذي أخذه الله تعالى على أبنينا آدم فنسيه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا آلَ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَفِىْ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(٧)، ويستمر السياق في أمور لم تذكر فيما سبقها من السور؛ من ذكر وعد الله لآدم بعدم الشقاء في الجنة، وأنه لن يجوع فيها ولن يظمأ ولن يضحى، ثم يذكر قصة وسوسة الشيطان لآدم في سياق آخر غير ما ذكر في سورتي البقرة والأعراف وذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، إلى قوله

(١) الآية: رقم ٢٨ من سورة الحجر.

(٢) الآية: رقم ٣١ من سورة الحجر.

(٣) الآيات: رقم ٣٢-٤٢ من سورة الحجر.

(٤) الآية: رقم ٦١ من سورة الإسراء.

(٥) الآية: رقم ٥٠ من سورة الكهف.

(٦) الآية: رقم ١١٥ من سورة طه.

﴿قَالَ أَهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾^(١).

ونقرأ في سورة ص قوله جل في علاه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾^(٢).

— وفي قصة الرسالة الأولى إلى أهل الأرض: نقرأ للقصة صيغا مختلفة من سورة إلى أخرى، في سورة الأعراف وهي أول سورة ففي ترتيب المصحف الذي بين أيدينا ذكرت فيها قصة نوح عليه السلام الرسول الأول إلى أهل الأرض كما ورد في الأثر نرى السورة تبدأ بقول المولى عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنَ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٣)، وفي سورة هود مثلا نرى القصة تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(٤)، ونراها تبدأ في سورة يونس بقوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنَ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٥)، وأما في سورة الصافات فتبدأ بقوله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحَ فَلَنِعْمَ أَلْمِجِبُونَ﴾^(٦) وَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ^(٧)، وفي سورة الذاريات نرى القصة التي تصور نجاة المؤمنين مع نوح عليه السلام وتصور مآل المكذبين من قوم نوح، نراها تبدأ بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ﴾^(٨)، وأخيرا وفي سورة كاملة من سور القرآن سُميت بسم نوح عليه السلام نرى القصة الكاملة الموضحة لكل السبل التي سلكها نوح في دعوة قومه نراها تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ

(١) الآيات: رقم ١١٦-١٢٣ من سورة طه.

(٢) الآية: رقم ٧١ من سورة ص.

(٣) الآية: رقم ٥٩ من سورة الأعراف.

(٤) الآية: رقم ٢٥ من سورة هود.

(٥) الآية: رقم ٧١ من سورة يونس.

(٦) الآية: رقم ٧٥ من سورة الصافات.

(٧) الآية: رقم ٩ من سورة القمر.

(٨) الآية: رقم ٩٠ من سورة هود.

أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾، وذلك إلى قصة الدعاء الذي دعاه نوح عليه السلام على قومه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٧﴾﴾.

— كذلك قصة الخليل الأول إبراهيم عليه السلام فقد جاءت في سورة كثيرة من سور القرآن منها ما ذكر فصولاً من القصة في سورة واحدة ومنها ما ذكر طرفاً من القصة مما تقتضيه أهداف السورة ومقاصدها، ففي سورة البقرة وهي أول سورة ذكر فيها اسم الخليل إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿٣﴾﴾.

ثم يذكر في سياق القصة في هذه السورة قضية الإمامة لإبراهيم عليه السلام بما استحقه من التكليف بالقيام بشأن البيت الحرام من بناء وتطهير ودعوة إلى الحج إليه، ثم بما أوصى به بنيه من بعده أن يتمسكوا بالدين الخالص لله ﷻ وهو دين الإسلام، وذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَآ إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾، وفي هذه السورة أيضاً وفي سياق قصصها الكثيرة المتنوعة جاءت قصة الخليل إبراهيم عليه السلام مع الملك الظالم الذي ادعى لنفسه كذبا القدرة على الإحياء والإماتة والتي هي حق خالص لله ﷻ، فرد عليه الخليل إبراهيم عليه السلام بما أدهش حجته وأخرس لسانه وأبهت قلبه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِيهٖ أَنْ ءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُعْجِى وَيُعْمِىٓتُ قَالَ أَنَا أُخْبِىءُ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّكَ اللَّهُ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ

(١) الآية: رقم ١ من سورة نوح.

(٢) الآيتان: رقم ٢٦-٢٧ من سورة نوح.

(٣) الآية: رقم ١٢٤ من سورة البقرة.

(٤) الآيات: رقم ١٢٥-١٣٢ من سورة البقرة.

فَأَتَتْ بِهِمَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَٰلِغِينَ ﴿١﴾، وفي سورة الأنعام يبين لنا القرآن ما كان من إبراهيم عليه السلام من لفت نظر قومه إلى الله الواحد الأحد بما أراه من شك في البحث عن ربه حتى أوصلهم إلى أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ۖ أَأَزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ۖ إِلَٰهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾، وفي قصة الحيرة قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ۖ آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۖ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ۖ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

ففي سورة مريم جاءت قصة نداء إبراهيم عليه السلام لأبيه والتودد إليه ليؤمن بالله وحده ويترك ما عليه قومه من الشرك قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّيِّبًا ﴿٤١﴾﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾، إلى قوله جل وعلا: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ﴿٤٣﴾﴾.

وفي سورة الأنبياء جاءت القصة في صورة أخرى صورة التغيير للمنكر باليد وذلك بتحطيم الأصنام التي كانت تُعبد من دون الله ووضع أئمة الكفر وسدنة الشرك في صورة مزرية أمام اتباعهم في عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تُغني عن نفسها شيئاً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥٥﴾﴾.

وكذلك قصة البشرى التي جاءت في سورتي هود والذاريات، ففي سورة هود قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ

(١) الآية: رقم ٢٥٨ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ٧٤ من سورة الأنعام.

(٣) الآيات: رقم ٨٣-٧٥ من سورة الأنعام.

(٤) الآيات: رقم ٤١-٤٧ من سورة مريم.

(٥) الآيات: رقم ٦٩-٥١ من سورة الأنبياء.

حَنِيزٍ ﴿١﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَرَ أَنَّهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَفَشَّرَتْهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ﴿١﴾، وأما في سورة الذاريات فيقول تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ كَأَنَّ أَهْلَهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ ﴿٢﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣﴾.

— وفي قصة الكليم موسى عليه السلام، والتي غطت في كتاب الله مساحة واسعة، جهاد نبي كريم ورسول أمين، جاهد أمته التي أرسل إليها وجاهد عدو أمته الذي كان يسومها سوء العذاب، فنرى القرآن يذكر لنا قصة الولادة والعودة إلى الأم بعد نزاع منها بالوحي من الله الحافظ لما استودع والكافي لمن خاف وفرع، ففي سورة طه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٢٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ. وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ ﴿٣﴾، وأما في سورة القصص، فيقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَمَا تَفَرَّقَ عَنْهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤﴾.

وفي قصة الوحي بالنبوة والتي جاءت في سور عدة وبصيغ مختلفة الألفاظ متلاقية المعاني، ففي سورة طه يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِذْ رَأَيْنَا أَهْلَهُ أَتَمَكُّوا وَإِنْ ءَانَسْتُمْ نَارًا لَّعَلَّ ءَانِيكُمْ مِنْهَا يَقْبَئِسُ أَوَّاجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾، إلى قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿٥﴾، وفي سورة الشعراء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

(١) الآيات: رقم ٦٩-٧١ من سورة هود.

(٢) الآيات: رقم ٢٤-٢٩ من سورة الذاريات.

(٣) الآيات: رقم ٣٨-٤١ من سورة طه.

(٤) الآيات: رقم ١٣-٧ من سورة القصص.

(٥) الآيات: رقم ٩-٢٤ من سورة طه.

﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَنْفَقُونَ ﴿١﴾، إلى قوله ﴿٢﴾: ﴿أَن أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(١)،

وفي سورة النمل يقول جل وعلا: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ سَهَابٍ فَبِئْسَ لَكُمُ تَصَلُّوٓتُ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٨﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَقِنتَہَا أَنفُسُہُمْ ظُلُمًا وَّطُلُوءًا فَأَنظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩﴾﴾، وفي سورة القصص قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَتٰہَا نُودِيَ مِّن شَطِیْ ٱلْأَوْدِ ٱلْأَیْمَنِ فِی ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبْرَكَةِ مِّنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن یَمُوسٰی إِنِّیٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِیْنَ ﴿١٠﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَٱخْذٰنٰہُ وَحُودَہٗ فَنَبَذْنٰہُمْ فِی ٱلْیَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِیْنَ ﴿١١﴾﴾.

وفي قصة العصا واليد وما تنقلبان إليه آيات مبسوطات في سور شتى، ففي سورة الأعراف يقول تعالى: ﴿فَٱلْقَىٰ عَصَاہٗ فَإِذَا هِیَ تُعْبَاۗتٌ مُّبِیۡنٌ ﴿١٧﴾ وَنَزَعَ يَدَہٗ فَإِذَا هِیَ بَیضَاۗءٌ لِّلنَّظْرِیۡنَ ﴿١٨﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحِیْنَا إِلَىٰ مُوسٰی أَن ٱلْقِی عَصَاكَ فَإِذَا هِیَ تَلْقَفُ مَا یَأْفِكُونَ ﴿١٩﴾ فَوَقَّ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا یَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾، وفي سورة طه قوله تعالى: ﴿فَٱلْقٰہَا فَإِذَا هِیَ حِیۡةٌ سَمٰی ﴿٢١﴾ قَالَ خُذْہَا وَلَا تَحْزَنْ سَنُعِیْدُہَا سِیرَتَہَا ٱلْأُولٰٓئِی ﴿٢٢﴾ وَأَضْمُمُ یَدَکَ إِلَىٰ جَنَاحِکَ تَخْرُجُ بَیضَاۗءٌ مِّنْ غَیْرِ سُوۡءٍ ؕ ؕآیۡةٌ أُخْرٰی ﴿٢٣﴾، إلى قوله جل وعلا: ﴿وَٱلْقِی مَا فِی یَمِیۡنِکَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ کِبٰرٌ وَلَا یَفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُ حِیۡثُ أَتٰی ﴿٢٤﴾، وفي سورة الشعراء، قوله جل في علاه: ﴿فَٱلْقَىٰ عَصَاہٗ فَإِذَا هِیَ تُعْبَاۗتٌ مُّبِیۡنٌ ﴿٣٣﴾ وَنَزَعَ يَدَہٗ فَإِذَا هِیَ بَیضَاۗءٌ لِّلنَّظْرِیۡنَ ﴿٣٤﴾، إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿فَٱلْقَىٰ مُوسٰی عَصَاہٗ فَإِذَا هِیَ تَلْقَفُ مَا یَأْفِكُونَ ﴿٣٥﴾، وفي سورة النمل قوله تعالى:

(١) الآيات: رقم ١٠_١٧ من سورة الشعراء.

(٢) الآيات: رقم ٧_١٤ من سورة النمل.

(٣) الآيات: رقم ٣٠_٤٠ من سورة القصص.

(٤) الآيات: رقم ١٠٧_١١٨ من سورة القصص.

(٥) الآيات: رقم ٢٠_٦٩ من سورة طه.

(٦) الآيات: رقم ٣٢_٤٥ من سورة الشعراء.

﴿وَأَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ يَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي رِشِّعٍ أَيْتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ سبحانه: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَفْتِنَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١)، وفي سورة القصص قوله ﷺ: ﴿وَأَنْ أَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقِيلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ يَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَىكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بَرْهَانُكَ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(٢).

وهكذا تكررت القصص في كتاب الله ﷻ لاسيما قصص الأنبياء الذين كانت تنزل قصصهم في سور شتى وبألفاظ مختلفة وأساليب مشوقة، تسلية لقلب النبي ﷺ ومن معهم من المؤمنين الصابرين الذين يتعرضون لأنواع كثيرة من الابتلاءات، وتثبيتا للنبي ﷺ والمسلمين.

فقد تكررت قصص الأنبياء إسحاق ويعقوب وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل ويونس ولوط، عليهم السلام.

ومن القصص ما ورد مرة واحدة ولم يتكرر كقصة يوسف ﷺ وقصة عزيز وقصة لقمان وقصة أصحاب الكهف وأصحاب الجنة وأصحاب الأخدود إلى غيرها من قصص القرآن الكريم.

وقد تبين لي مما مضى أن الغرض من تعدد مواضع القصة في سور القرآن الكريم، أن تستقر القصة في ذهن القارئ ويثبت الهدف منها بأخذ أكثر من ملمح لأكثر من واقعة.

(١) الآيات: رقم ١٠-١٤ من سورة النمل.
(٢) الآيتان: رقم ٣١-٣٢ من سورة القصص.

فقصة آدم مثلاً: في سورة البقرة: تحدثت عن عدم الاقتراب من الشجرة وفي الأعراف و طه ذكرت وسوسة الشيطان وفي سور أخرى ذكرت ملاحاً أخر وكل هذا لتثبيت أخذ الهدف والفائدة من القصة، فلو ذكر القرآن قصة آدم كلها في سورة البقرة مثلاً سينساها القارئ عندما يصل إلى آخر الكتاب ولكن عندما تقرأ عنها في العديد من السور وتجدها في أكثر من مكان ترسخ في البال وتستقر في القلب وتحصل منها الفائدة وتنفع العظة.

وهكذا بقية القصص التي تكررت كثيراً في القرآن كقصة نوح وهود وصالح وموسى وعيسى ولوط وشعيب عليهم السلام وغيرهم من أنبياء الله المرسلين.

والقصص في كتاب الله ﷻ كان لها التأثير البالغ والأهمية القصوى في هداية المسلمين وتمسكهم بدينهم وصبرهم على البلاء في ذات الله ﷻ وذلك لما يلي:

ـ ورودها منسوبة إلى رب العزة والجلال في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ ﴾^(١).

ـ أمر الله ﷻ أن يقص على الناس ما أوحى إليه: ﴿ فَأَقْصِصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٢).

ـ القصة معلم بارز من معالم القرآن الكريم لتوضح الحقائق وإزالة الشبهات: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾^(٣).

ـ القصص بالمفهوم العام كان من مهمات الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿ يَمْعَشَرُ لَيْلٍ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾^(٤).

(١) الآية: رقم ٣ من سورة يوسف.

(٢) الآية: رقم ١٧٦ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ٧٦ من سورة النمل.

(٤) الآية: رقم ١٣٠ من سورة الأنعام.

_ حياة الأنبياء هي محور القصص، وهم موضع القدوة والأسوة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَةٌ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(١).

جمعه وكتبه/

الدكتور/ فضل بن يسلم على صنبور اليمني

(١) الآية: رقم ٩٠ من سورة الأنعام.

(مقدمة الإصدار الأول)

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وبعد...

فلقد جاء القرآن الكريم داعياً إلى الهداية والرشاد، بأساليب شتى ومن تلك الأساليب كان أسلوب القصص الذي هو أقرب الوسائل التربوية إلى فطرة الإنسان، وأكثر العوامل النفسية تأثيراً فيه، وذلك لما في هذا الأسلوب من المحاكاة لحالة الإنسان نفسه، فتراه يعيش بكل كيانه في أحداث القصة، وكأنه أحد أفرادها.

ولقد كنت وأنا أقرأ قصص القرآن العظيم أتعجب من اختلاف ألفاظ القصص من سورة إلى أخرى، صحيح أن المضمون لم يكن فيه اختلاف ولا تغيير، فلما حُبِّب إليَّ القراءة في كتب التفسير وعلوم القرآن، رأيت بحراً خصباً فيما يتعلق بالقصص مما كتبه الأجلة العلماء المحققون؛ سواء في كتب المتشابهات، أو في كتب الإعجاز القرآني أو فيما كتبه من وجوه التفسير والتأويل، فوجدت ضالتي التي تمسكت بها وعضضت عليها بنواجذي، وشرعت أقرأ في تلك الكتب بنهم وشوق، وهذا غيظ من فيض مما سمح به قليل الوقت في زحمة أغراض الدنيا ومتطلباتها، وما فتئتني فيه وأبناء عصري من ضياع الأوقات فيما نظنه خيراً من الاطلاع في وسائل التواصل بأنواعها على أحوال الأمة مما يذهب بالعمر هدرًا، ولو أننا بقدر حُبنا لأمة الإسلام ورفعتها وسؤدها تفرغنا لتخليص علومها من الشوائب والمدخلات فيها ظلمًا وعدوانًا، وتلخيص وتقريب ما يمكن تقريبه إلى أذهان الناس من العلوم لكان خيراً لنا وأقوم.

وهذا هو الإصدار الأول في هذه السلسلة، سميته بعون الله ﷻ: (قصة الخلق

الأول)، ذكرت فيه وجوه العرض في كتاب الله جل وعلا لهذه القصة التي هي البداية لخلق الإنسان وكيف تحدث عنها القرآن في صور شتى فتراه يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ وتراه تارة ثانية يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ۖ﴾، وتراه تالة، يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۖ﴾، فهل تكررت المرات التي أخبر المولى ﷺ ملائكته الكرام بأنه سيخلق الإنسان هذا ما ستقرأه في هذا الإصدار بعون الله وتوفيقه، بعد أن تقرأ ما كتبه الفضلاء عن القصص القرآني في مجمله، وذاك مني عملٌ بذلتُ الوسع فيه ليصل إليك أخي القارئ نقياً صالحاً، فما كان في هذا العمل من صواب فمن الله تعالى توفيقاً وهداية وما كان غير ذلك فمني ومن الشيطان.

القصص القرآني

القصص القرآنيّ هي مجموعة الأخبار التي أخبر الله تعالى بها رسوله الكريم وجماعة المؤمنين والمسلمين، وكلّ أفراد البشرية، وهذه الأخبار هي أخبار الأمم البائدة والرسل والأنبياء السابقين الذين جاؤوا برسالاتهم قبل الرسول الأعظم خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

والقصص في القرآن الكريم لم توجد من باب المرح والتسلية وإضفاء مساحات فاصلة تروّج عن النفس بين الآيات الأخرى، ولكنها كانت جزءاً أصيلاً من كتاب الله ﷻ حتى تؤخذ العظة والعبرة منها، وحتى تكون دليلاً يهتدي به الناس في أشدّ الأوقات عتمة.

فلم يكن كتاب الله يوماً من الأيام كتاباً عادياً، لهذا فإنه ينبغي أن يتمّ التعامل معه على هذا الأساس، أي تعاملًا غير عاديّ، والتعامل غير العاديّ مع القرآن يكون بتنزيهه عن كلّ النواقص مهما كانت، بالإضافة إلى ذلك فإنه ينبغي أن تكون هناك العديد من الدراسات الجدّيّة التي يجب أن تستعين بعلوم اللغة العربية كلها، وأن تكون هناك جهود متضافرة متعاضدة في سبيل تحقيق هذه الغاية، والقصص القرآنيّ يجب أن يتم إسقاطها على الواقع لمعرفة كيفيّة التعامل مع الأحداث أولاً بأول.

والقصص القرآني وسيلة من وسائل القرآن الكريم الكثيرة إلى تحقيق هدفه الأصيل، والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة، وتبثيتها، شأنها في ذلك شأن مشاهد القيامة، وصور النعيم والعذاب، وشأن الأدلة التي يسوقها على البعث، وعلى قدرة الله، وشأن الشرائع التي يفصلها، والأمثال التي يضر بها. وهي جزء من القرآن تأخذ كل ما يحوزه القرآن من صفات لنفسه، كربانية المصدر،

دينية الغرض والهدف، واعجاز المعني والأسلوب واللفظ.

والعناصر في القصة القرآنية، تابعة للهدف منها، وللعبرة التي سيقى من أجلها، في الوقت الذي تكون فيه القصة البشرية، تابعة لعناصرها.

القصة لغة: القصة: الخبر، وهو القصص، وقص علي خبره يقصه قصا: أورده^(١).

ومنه: القص وهو تتبع الأثر، والقصص: الأثر، والقصص: الأخبار المتتعة^(٢).

وللقصة معان أخرى متقاربة، فهي تأتي بمعنى: الخبر، والأمر، والحديث، والجملة من الكلام^(٣).

والقصص: الخبر المقصوص، بالفتح، وُضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه، والقصص، بكسر القاف: جمع القصة التي تكتب^(٤).

وحين ننظر إلى المعنى اللغوي للقصة نجد أن أصل اشتقاقها يتلاقى مع أصل التسمية للقصص القرآني، فالقصة مشتقة من القصص وهو تتبع الأثر واقتفائه، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهُ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٥)، ومن هذا قولهم: (قص الأثر)، أي: نظر إليه، واقتفى آثاره وشواهد، قال الشاعر:

قُلْتُ فِي عَيْنِهِ أَفْئِدَةٌ تُنَحِّي مَا قَصَّ مِنْ أَثَرِهِ

يقال: قصصت أثره واقتصصته وتقصصته، وخرجت في أثر فلان قصصا، قال تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ آثَارِهِمَا﴾^(٦)، ومنه: قص عليه الرؤيا والحديث،

(١) انظر: لسان العرب ج ٧ ص ٧٤.

(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن ص ٦٧١.

(٣) انظر: لسان العرب ج ٧ ص ٧٤-٧٣.

(٤) انظر: لسان العرب ج ٧ ص ٧٤-٧٣.

(٥) الآية: رقم ١١ من سورة القصص.

(٦) الآية: رقم ٦٤ من سورة الكهف.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَبْنِي لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾^(١).

فالقصص للآثر أشبه بما يعرف الآن بتصوير البصمات، أو رفع الآثار وتصويرها، ليستدل على ما وراءها من أحداث مضت، والقصة في القرآن هي تتبع أحداث ماضية واقعة، يعرض فيها ما يمكن عرضه، ومن هنا جاءت تسمية الأخبار التي جاء بها القرآن قصصاً، مما يدخل في المعنى العام لكلمة (خبر)، أو (نبأ)، فقد استعمل القرآن الخبر والنبأ بمعنى: التحدث عن الماضي، وإن كان قد فرق بينهما في المجال الذي استعملاه فيه، ومن هذه التفرقة نتبين دقة ألفظ القرآن الكريم، جرياً على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام وإعجاز، فقد استعمل: (النبأ) عن الأحداث البعيدة زمناً أو مكاناً، في حين استعمل: (الخبر) في الكشف عن الوقائع قريبة العهد والوقوع، أو التي لا تزال مشاهدتها قائمة للعيان^(٢)، قال تعالى: ﴿لَنَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾^(٣)، نجد أن القصص القرآني من قبيل الأنباء أو الأخبار التي بُعد الزمن بها، واندثرت أو كادت تندثر؛ ولهذا سماها القرآن "أنباء الغيب"، وعندما نمضي بالنظر في القصص القرآني نرى أنه يحییء بمآدته من الماضي البعيد، دون أن يكون فيه شيء من واقع الحال أو من متوقعات المستقبل^(٤).

القصة اصطلاحاً: أما مفهوم القصة في القرآن الكريم فقد تفاوتت فيه وجهات النظر، وذلك نظراً لما في القصة القرآنية من خصائص تميزها عن غيرها، من صدق في الواقعية التاريخية، وجاذبية في العرض والبيان، وشمولية في الموضوع، وعلو في الهدف، وتنوع في المقصد والغرض، ووضوح في الإعجاز فمدلول القصة في القرآن الكريم: هو مدلولها

(١) الآية: رقم ٥ من سورة يوسف.

(٢) انظر: القصص القرآني: عبد الكريم خطيب، دار الفكر العربي، ص: ٤٤.

(٣) الآية: رقم ١٣ من سورة الكهف.

(٤) انظر: الفن القصصي: محمد أحمد خلف الله، مكتبة النهضة، ص ٧٨.

اللغوي مضافاً إليه تلك الخصائص والسمات التي تميز بها القصص القرآني على غيره^(١). والقرآن الكريم لم يعتمد أسلوباً واحداً لإيصال رسالته إلى الناس، بل تعددت أساليبه وتنوعت طُرُقُهُ، فهو حيناً يعتمد أسلوب الحوار، وحيناً آخر يعتمد أسلوب ضرب المثل، وتارة يعتمد أسلوب التربية النفسية والتوجيه الخلقي، إلى غير ذلك من الأساليب التي لا تحفى على من تأمل وتدبر كتاب الله العزيز.

وأسلوب القصة من الأساليب التي اعتنى القرآن الكريم بها عناية خاصة، لما فيها من عنصر التشويق، وجوانب الاتعاض والاعتبار.

وقد ألمح القرآن إلى هذا في أكثر من آية من ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢)، وقوله ﷻ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِيكَ﴾^(٣)، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلِئِنَّ اللَّهَ لَهوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤)، إلى غير ذلك من الآيات التي تبين اعتماد القرآن أسلوب القصص، تحقيقاً لمقاصد وأغراض تنبئها فيما يلي.

(١) انظر: كتاب الدعوة إلى الله تعالى لمحمد تقي الدين الهلالي ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) الآية: رقم ١٧٦ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ٣ من سورة يوسف.

(٤) الآية: رقم ٦٣ من سورة آل عمران.

أهمية القصة فيه القرآن الكريم

القصة في القرآن الكريم تذكير دائم بأحداث الأمم الغابرة، والأقوام البائدة الذين تنكبوا صراط الهداية الربانية، وتنكروا لرسالات الأنبياء، وهدى القادة المصلحين، فما ينفع الندم حيثئذٍ للعصاة الظلمة، ولا تفيد الشكوى والحسرة والألم، وإنما يجب علي العقلاء الاتعاظ، والاعتبار ووقاية أنفسهم من أسباب الدمار والخراب والإبادة الشاملة، واستئصال دابر الجريمة والمخالفة، والعودة السريعة إلى دائرة الحق والاستقامة والهداية.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

يقول الدكتور فضل حسن عباس في مقالته الموسومة أهمية القصص القرآني:

إن المساحة التي شغلتها القصة القرآنية من كتاب الله كانت مساحة واسعة، ما نظن أن موضوعاً آخر كان له ما كان للقصة من نصيب، فالقصص القرآني لا يقل الحيز الذي شغله من كتاب الله تعالى عن الربع إن لم يزد قليلاً حتى يتربع بين الربع والثلث، فإذا كان القرآن ثلاثين جزءاً، فإن القصص يبلغ قرابة الثمانية أجزاء من هذا الكتاب ولا تعجب من ذلك، لأن القصة القرآنية لم تأت لتقرر هدفاً واحداً، بل إن هذا القصص كانت له أهدافه الكثيرة وغاياته المتعددة، وتبرز أهمية القصة في القرآن الكريم من حيث:

— أنها وردت منسوبة إلى رب العزة والجلال كما في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾.

(١) الآية: رقم ١١١ من سورة يوسف.

— وأنها أمرُ الله إذ أمرُ رسوله ﷺ أن يقص على الناس ما أوحى إليه، قال تعالى:
﴿فَأَقْصِبْ قَصَصَ الْقَصَصِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

— وأنها معلّم بارز من معالم القرآن الكريم لتوضيح الحقائق وإزالة الشبهات، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(١).

— وأنه بالمفهوم العام كان القصُّ من مهمات الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَرُّوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾^(٢).

وحياة الأنبياء هي محور القصص، وهم موضع القدوة والأسوة، قال جل وعلا:
﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فِيمَ هَدَتْهُمْ أَقْتَدِ﴾^(٣).

وللتوسع في تفصيل الأهمية فإننا نجد أن القصص القرآني جاء:

أولاً: ليعمق العقيدة في النفوس ويبصر بها العقول، ويحيي بها القلوب، ويسلك لتلك القضية المهمة الخطيرة أحسن الطرق إمتاعاً وإقناعاً، إمتاعاً للعاطفة، وإقناعاً للعقل، هذه العقيدة بأسسها الكبرى، الألوهية والرسالة واليوم الآخر، وكل من هذه الأصول الثلاثة ذو قضايا رئيسة كثيرة، فلقد ركزت القصة القرآنية في مقام الألوهية على وحدانية الله، وعدله، وقدرته، وحكمته، وحبِّه لعباده.

وفي مجال الرسالة ركزت القصة القرآنية على الصفات الخيرة للأنبياء، ليكون للناس فيهم أسوة، وبهم قدوة فهم وإن كانوا بشراً إلا أنهم أكرموا بالوحي والرسالة، وكذلك في الحديث عن اليوم الآخر، وما يكون فيه من أحداث، قال تعالى: ﴿لَنُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾^(٤).

(١) الآية: رقم ٧٦ من سورة النمل.

(٢) الآية: رقم ١٣٠ من سورة الأنعام.

(٣) الآية: رقم ٩٠ من سورة الأنعام.

(٤) الآية: رقم ١٥ من سورة طه.

ثانياً: السمو بهذا الانسان حتى يمتاز عن الحيوان الذي يشترك معه في بعض الصفات، هذا السمو، الذي لا يركز على جانب واحد في هذا الانسان، فهو سمو روحي، وخلقى، ونفسي يشعر به الفرد، وتجده حلاوته ولذته، وهو بعد ذلك سمو اجتماعي تجدد الجماعة فيه بغيتها وأمنها وضالتها وفضيلتها، والقصاص القرآني يسلك أكثر من أسلوب للوصول بالإنسان إلى هذه النتيجة الطيبة.

ثالثاً: كان لهذا القصاص عناية خاصة ببيان أسباب الهلاك التي يمكن أن تصيب الأمم والجماعات والأفراد، وقد فصل ذلك تفصيلاً عجبياً، وهو يتحدث عن الترف والطغيان، والبطر والظلم، والاستعباد الفكري والإرهاب والسخرية والرضا بالذل إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة الماثلة في هذا القصاص، قال جل وعلا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾^(١).

رابعاً: في هذه القصاص كثير من الحقائق العلمية المتعلقة بالكون، والإنسان، والحياة والأحياء في السماوات والأرض، والتي تزيدها الأيام وضوحاً وظهوراً. قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾.

خامساً: تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذبين له، لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾^(٣).

(١) الآية: رقم ٦ من سورة الأنعام.

(٢) الآيتان: رقم ٣٢-٣٣ من سورة ابراهيم.

(٣) الآيتان: رقم ٢٥-٢٦ من سورة فاطر.

سادساً: ترغيب المؤمنين في الإيمان والثبات عليه والازدياد منه، إذا علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصارهم، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُومُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

سابعاً: تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا﴾^(٣).

ثامناً: إثبات رسالة النبي ﷺ فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله ﷻ، قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٤)، وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ لَئِنْ آمَنُوا لَآتِيَنَّهُمْ نَارٌ مِنْ قَبْلِهِمْ فَبَدَّلَ اللَّهُ آيَاتِهِمْ لَعَلَّ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٥).

هذا كله عدا ما في القصة القرآنية من رونق الأسلوب، وبديع النظم، وجمال الصورة، مما ترقص له قلوب الأدباء، وعدا ما فيها كذلك من المواقف والتحاليل النفسية، والاستنتاجات الكامنة وراء الأحداث التي يجد فيها علماء النفس بغيتهم، وغير هؤلاء وأولئك، مما يطلع عليه من يتأمل هذه القصص ويتدبره.

(١) الآية: رقم ٨٨ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية: رقم ٤٧ من سورة الروم.

(٣) الآية: رقم ١٠ من سورة محمد.

(٤) الآية: رقم ٤٩ من سورة هود.

(٥) الآية: رقم ٩ من سورة إبراهيم.

أنواع القصص القرآني

بعد أن عرفنا أهمية القصص القرآنية نتقل إلى النقطة التالية له وهي معرفة الأنواع الذي سماها القرآن قصصاً فما هي أنواع قصص القرآن؟

القصص القرآني على ثلاثة أنواع:

الأول: القصة التاريخية: وهي قصص الأنبياء، وقد تضمنت دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذابين.

كقصة نوح، وإبراهيم، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام، والقصة التاريخية كما تتمثل في قصص الأنبياء من أهم العوامل النفسية التي لجأ إليها القرآن في الجدال مع مخالفيه، وفي التبشير برضوان الله، والتحذير من معصيته، وفي شرح مبادئ الدعوة الإسلامية وأهدافها، وفي تثبيت قلب النبي ومن اتبعه، وفي الدلالة على صدق نبوة محمد ﷺ وأنه مبلغ عن ربه.

الثاني: قصص واقعية: تتعلق بحوادث غابرة، كقصة: الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة: طالوت وجالوت، وقصة: ابني آدم، وقصة: أهل الكهف، وذو القرنين، وقصة: قارون، وقصة: أصحاب السبت، وقصة: مريم عليها السلام، وقصة: أصحاب الأخدود، وقصة: أصحاب الفيل وغيرهم.

الثالث: قصص تتعلق بالحوادث: التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ، كغزوة بدر، وأحد، وحنين، وتبوك، والأحزاب، والهجرة، والإسراء، ونحو ذلك.

ولا يخرج القصص القرآني عن هذه الأنواع الثلاثة.

مزايا القصص القرآني

يمتاز القصص القرآني بمزايا ينفرد بها عن القصص الإنساني، من ذلك أن القصص القرآني:

_ هو أصدق القصص، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾^(١)، وقال ﷺ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾^(٢).

_ والقصص القرآني هو أحسن القصص، قال سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(٣).

_ والقصص القرآني هو أنفع القصص، قال ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٤)، وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

علاوة على ذلك، فإن القصص القرآني يمتاز بسمو الغاية، وشرif المقصد، وصدق الكلمة والموضوع، وتحري الحقيقة، بحيث لا يشوبها شائبة من الوهم أو الخيال أو مخالفة الواقع.

ومن مزايا القصص القرآني:

أنه تربوي في المقام الأول: يعالج المشاكل والأفكار والوقائع علاجاً معيناً على ضوء المبادئ الإسلامية والأحكام الشرعية في قالب فني جمالي لتعميق المفاهيم التي يراد غرسها في النفس الإنسانية أو لاجتثاث جذور الأفكار السيئة التي يريد الإسلام تزكية

(١) الآية: رقم ٨٧ من سورة النساء.

(٢) الآية: رقم ٦٢ من سورة آل عمران.

(٣) الآية: رقم ٣ من سورة يوسف.

(٤) الآية: رقم ١١١ من سورة يوسف.

النفس منها، فمثلاً عندما تعرض قضية الطاعة والامتثال والتضحية من خلال قصة إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، تكون أوقع في النفس واشد أثراً، وكذلك آداب طلب العلم من خلال قصة موسى والخضر عليهما السلام في سورة الكهف، وكذلك وعندما تعالج قضية الشح والبخل في النفس من خلال قصة أصحاب الجنة في سورة: (ن) تكون ادعى للاعتبار والاتعاظ وكذلك الغرور والبخل من خلال قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف ولم يترك القرآن جانباً من جوانب الحياة الإنسانية ألا وأورد منه القصص التربوي على طريقته الخاصة، ومن الزوايا الإنسانية العامة، فساق نماذج بشرية تمثل الفطرة المهيمنة، وأخرى تمثل الفطرة المنحرفة.

ـ القصص القرآني يهمل عن قصد في حالات كثيرة الناحية الزمنية والمكانية، وأحياناً أسماء الأشخاص (أبطال القصة) كما نجد ذلك في قصة: أصحاب الكهف، وقصة: صاحب الجنتين، وقصة: ذي القرنين وذلك لان الهدف العام من سوق القصة اخذ العبرة والعظة وترسيخ الفكرة المعينة من خلال أحداث القصة، فينبغي أن يركز الفكر وتشار المشاعر وتوجه العواطف حول الغرض منها، وصرف الاهتمام إلى أي عنصر آخر في القصة تبديد للطاقات العقلية والملكات النفسية وصرفها عن التفاعل مع الغرض الأساسي الذي سبقت القصة من اجله.

ـ القصص القرآني كلها حقائق وقعت أحداثها، ولأن عجز الجهد البشري عن إدراك تفصيلات هذه الوقائع، وتحديد زمانها ومكانها أو أشخاصها بوسائله القاصرة من كتابات وآثار فليس ذلك حجة لمن يزعم أنها قصص تمثيلي أو تخيلي، سواء أوردت هذه القصص في كتب أهل الكتاب أم لم ترد، فلا تأثير لكل ذلك على الحقائق والأحداث التي ذكرها القرآن الكريم، وقد جعل القرآن الكريم سرد مثل هذه القصص مثل سورة الكهف وغيرها دليلاً على صدق رسول الله ﷺ في دعوته، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ

أَفَعَيَّبْ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿١﴾

ومن مزايا القرآن الكريم:

أن يقدم للفئة المؤمنة من خلال قصصه تجارب البشرية وخبرتها من خلال عرض هذه النماذج المختلفة من السمو الفكري والروحي والصفات الخلقية النبيلة.

والخلاصة: إن القصص القرآني عرض بأساليب معينة ووزع على السور توزيعا خاصا بين إيجاز وإطناب، وكل منها منسجم مع أهداف السورة الأساسية، ولا ينفصل أسلوب القصة عن أجواء السورة وأغراضها ومن هنا كانت الحكمة في عدم تكرار القصة الواحدة في السورة الواحدة.

خصائص القصص القرآني

يتميز القصص القرآني عن غيره من سائر القصص بخصائص يعلو بها جلاله وقداسته، ويزداد بها بلاغة وإعجازاً، ويعظم بها أهمية وتأثيراً، وبهذه الخصائص استحق أن يوصف بأحسن القصص في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، فمن تلك الخصائص:

ـ التكرار الهادف المعجز في القصص القرآني: ويطلق التكرار بمعنى: ذكر الشيء مرة بعد مرة، وأكثر ما يتحقق في ذلك المفهوم أن يُعاد ذكر الشيء بلفظه أو مرادفه من غير أن يكون هناك جديد في الإفادة، وهذا المعنى لا يتحقق في القصص القرآني الكريم، بل لا يمكن أن يتحقق أو يكون.

فالتكرار نوعان: صوري وحقيقي:

فالأول: هو الواقع في القرآن الكريم، لأن ظاهره التكرار، وحقيقة ليس فيه أي تكرار، والثاني: يستحيل وقوعه في القرآن الكريم، ونحن إذ ننفي عن القرآن الكريم أمراً ما فإننا ننفيه أولاً لإيماننا المطلق بأنه كلام الله القديم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليس هذا فحسب، بل ولأننا بحثنا عنه في القرآن الكريم فلم نجده أصلاً وكذلك بحث الأولون فأعياهم البحث دون جدوى.

والقرآن إذا كرر القصة الواحدة فإنما هو لفائدة اشتمل عليها كل موضع خلت منها المواضع الأخرى^(١)، ومن أمثلة ذلك: عصا موسى عليه السلام، ففي سورة طه: وصفها الحق سبحانه بأنها: ﴿حِجَّةٌ مَسْعَى﴾، وفي الأعراف: ﴿تُعَبِّانُ مُيِّنٌ﴾، وفي النمل: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا

(١) انظر: كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي ج ٣ ص ٢٥ - ٢٧.

جَانٌّ، فهي: حية باعتبار ضخامتها، وثعبان من حيث الخفة والنشاط وسرعة الحركة، وهي كأنها جان لكونها مرعبة^(١).

إن القصة المكررة تكون متجهة إلى هدف غير الهدف الذي تتجه إليه القصة في مواضع أخرى، أو تتحدث من جهة غير الجهة التي تعرضت إليها في مواضع أخرى، وذلك نظراً لأن القرآن الكريم كتاب هداية وعبرة، وليس كتاب سرد تاريخي، ولا متعة أدبية فارغة فتكون القصة وسيلة لتحقيق تلك الأهداف المتعددة متجهة نحو الغرض الذي سبقت من أجله^(٢).

ولقد ألف العلماء قديماً وحديثاً مصنفاتٍ واسعة في بيان: أسرار التكرار والوجوه والنظائر الواردة في القرآن الكريم، في ألفاظه وفي قصصه، كالإمام الكرمانى في كتابه: (أسرار التكرار في القرآن)، والإمام ابن الخطيب الفيروز أبادي صاحب القاموس المحيط في كتابه: (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري في كتابه: (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن).

— الواقعية التاريخية^(٣): ونعني بها أن كل ما في قصص القرآن الكريم من أخبار الأولين هي حقائق تاريخية صادقة لا يصادمها عقل، ولا يخالفها نقل، وسواءً في تلك المصدقات ما كان من أخبار الأنبياء مع أقوامهم، وما كان من قبيل المعجزات وخوارق العادات، كإفلاق البحر وكلام الهدهد والنملة، وليس فيها أي نوع من التناقض أو الاختراع، ولا أي شكل من أشكال الخيال أو التصوير المجرد عن الحقيقة، ولا أي صورة من صور الرمز أو الإشارة.

— كونها هادفة^(٤): فالغاية الأولى من قصص القرآن الكريم هي تأملها وأخذ العبرة

(١) انظر: كتاب الدعوة إلى الله ص ١٦١.

(٢) انظر: كتاب بحوث في قصص القرآن ص ١٨٠ - ١٨١.

(٣) انظر: كتاب بلاغة القرآن الكريم لبهجت الشخيلي ص: (١٠٥)، القصة القرآنية هداية وبيان للشيخ / وهبة الزحيلي ص: (١٨).

(٤) انظر: كتاب القصة القرآنية للزحيلي ص ٥.

منها وتصحيح العقائد والأخلاق، حتى ينصلح الفرد والمجتمع، وليست الغاية قاصرة على إمتاع النفوس بسماع قصص مسلية أو بطولات خيالية، أو إظهار براعة أدبية مجردة عن هدف الإصلاح (كما هو الحال في عامة الفن القصصي) وليست الغاية أيضا سرًا تاريخيًا جافًا، كما هي مهمة المؤرخين، فالقرآن الكريم بكل ما فيه من قصص وغيرها هو كتاب هداية وعبرة بالدرجة الأولى، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

ـ الإعجاز القصصي: إن القصة تمثل جزءًا كبيرًا من القرآن الكريم، وبالتالي فهي كسائر القرآن في كل خصائصه وسماته العامة، ومن ذلك كونه معجزًا، فوجوه الإعجاز التي تجدها في سائر القرآن الكريم تجدها في القصص، لكن القصص يزيد على ذلك بوجوه أخرى من الإعجاز تميزه عن غيره.

فمن تلك الوجوه: التكرار الهادف، حيث تجد في كل موطن من العبر واللطائف والإشارات ما لا تجده في نفس القصة في موطن آخر، ومن وجه آخر، حيث يعجز إنسان مهما أوتي من البيان عن التنويع في قصة واحدة بضروب من الفصاحة، دون أن تظهر عليه علامات الضعف أو الركة أو التفكك أو التكلف.

ومنها: إخباره عن قصص ماضية دارسة صدقها أهل الكتاب.

ومنها: إخباره عن قصص مستقبلية غيبية، منها ما صدقها الأيام، ومنها ما سيقع، وغير ذلك مما هو مبسوط في مظانه من كتب الإعجاز. انتهى بتصرف.

(١) الآية: رقم ١١١ من سورة يوسف.

عظمة قصص القرآن

بالتأمل فيما أنزله المولى ﷺ، سنجد أنه هناك دلائل لعظمة القرآن كما بينتها آياته الحكيمة، تتمثل في أمور متعددة منها:

ثناء الله ﷻ عليه، وعظمة مُنزله تعالى، وكونه مستقيماً لا عوج فيه، وخشوع الجبال وتصدها لو نزل عليها، وانقياد الجمادات لعظمة القرآن، وتحدى الحق سبحانه الأنس والجن بالقرآن، بالإضافة إلى المعجزات العديدة التي ذكرها.

ومن دلائل عظمة القرآن أيضاً، كثرة العلوم المستنبطة منه، كما أن خصومه وأعداؤه شهدوا بعظمته على مر العصور.

وأما مظاهر عظمة القرآن الكريم:

في القرآن الكريم جانب كبير من الآيات والصور ولا سيما السور المكية، فإن مظاهر عظمتها هي عصية على الحصر، ولكن منها كثرة أسماء القرآن، حيث سمي بأسماء عديدة منها: (الفرقان – البرهان – الحق – النبأ العظيم – البلاغ – الروح – الموعظة – الشفاء – أحسن الحديث).

ووصف القرآن بأوصاف متعددة، منها: (الحكيم – العزيز – الكريم – المجيد – العظيم – البشير والنذير)، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن مظاهر عظمة القرآن الكريم: التنويه به في مفتاح السور، والحديث عنه في أواخر السور، والقسم بالقرآن وعليه.

ومنها كذلك تفضل الحق تبارك وتعالى بإنزال القرآن، ونزوله في أفضل الأزمنة،

ونزوله بأرقى اللغات وأجمعها، وتيسير فهم القرآن وتلاوته للعالمين، كذلك حفظ الله ﷻ له، وكونه كتاباً للعالمين، وتصديق القرآن لكتب الله السابقة وهيمته عليها.

ومن أبرز مظاهر العظمة في قصص القرآن:

_ ربّانية مصدره: بمعنى: أنه يثبت له كل ما يثبت للقرآن من مزايا^(١)، فهو كلام الله تعالى، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾^(٢)، وقال سبحانه عن القصص القرآني: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾^(٣)، وقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾^(٤).

_ صدقه ومطابقته للواقع: عاشه أصحابه كما وُصف تماماً في القرآن، دون أن يكون للخيال أو الوهم أو المبالغة مدخل فيه أبداً، كما هو الحال في القصص البشري، الذي يكون من نسيج خيال القصاص^(٥).

_ له مقاصد متنوعة تُلتمس فيها العبرة والعظة^(٦): مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٧).

(١) انظر: معالم القصة في القرآن الكريم، محمد خير العدوي (ص ٩١).

(٢) الآية: رقم ٦٢ من سورة آل عمران.

(٣) الآية: رقم ٤٤ من سورة آل عمران.

(٤) الآية: رقم ١١١ من سورة يوسف.

(٥) انظر: سيكولوجية القصة في القرآن، تهامي نقرة (ص ٢٢١).

(٦) انظر: روائع الإعجاز في القصص القرآن، محمود السيد حسن (ص ٦١، ٦٢).

(٧) الآية: رقم ١١١ من سورة يوسف.

فوائد قصص القرآن

للقصص القرآني فوائد نجمل أهمها فيما يأتي:

— إيضاح أسس الدعوة إلى الله ، وبيان أصول الشرائع التي يبعث بها كل نبي ، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(١).

— تثبيت قلب رسول الله ﷺ وقلوب المؤمنين على دين الله وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده، وخذلان البطل وأهله، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِكَ بِهِ مُؤَكَّدُونَ﴾^(٢).

— تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم.

— إظهار صدق محمد ﷺ في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال.

— مقارنته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣).

— والقصص ضرب من ضروب الأدب، يصغى إليها السامع، وترسخ عبره في النفس، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ

(١) الآية: رقم ٢٥ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية: رقم ١٢٠ من سورة هود.

(٣) الآية: رقم ٩٣ من سورة آل عمران.

تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾، ﴿٢﴾.

_ بيان حكم الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ ﴿٣﴾.

_ بيان عدله تعالى بعقوبة المكذبين لقوله تعالى عن المكذبين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ﴾ ﴿٤﴾.

_ بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٢٤﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ ﴿٥﴾.

_ تسلية النبي (ع) أصابه من المكذبين له لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿٦﴾.

_ ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين وانتصار من أمروا بالجهاد لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآمُورَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧﴾.

_ تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا

(١) الآية: رقم ١١١ من سورة يوسف.

(٢) انظر مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان (٣١٧_٣١٨).

(٣) الآيتان: رقم ٤ _ ٥ من سورة القمر.

(٤) الآية: رقم ١٠١ من سورة هود.

(٥) الآية: رقم ٣٥ من سورة القمر.

(٦) الآيتان: رقم ٢٥ _ ٢٦ من سورة فاطر.

(٧) الآية: رقم ٨٨ من سورة الأنبياء.

أغراض القصص القرآني

ليس ثمة حجة لإنكار أن في القصص القرآني توجيهات دينية لكل ما جاء به الإسلام من مبادئ وعقائد، ولكل ما أنكره الإسلام من أخلاق وعادات وآراء زائفة وعقائد وعادات باطلة، لكن مع كل هذا لا نستطيع عدّ هذه الأمور أغراضاً حين ندرس أغراض القصص القرآني، ذلك أن هذه الأمور كانت تأتي بين طيات هذه القصص وثناياها، وهي في هذا الوضع أو من هذا الجانب تشبه تمامًا تلك الآراء والصور المنشورة التي تأتي أثناء العرض القصصي في كل قصة^(١).

فالغرض هنا هو: القصد الذي نزلت من أجله القصة القرآنية، وهو الذي من أجله بنيت على صورة خاصة، وعرضت بأسلوب خاص، وإلى جانب هذه الأغراض نجد الوظيفة التي تؤديها القصة في المجتمع وتخدم بها الحياة والأحياء، هذه الوظيفة نستطيع عدها غرضاً عاماً للقصة أدته في المجتمع المسلم على اختلاف ألوانه، وعلى ما فيه من مؤيدين ومعارضين^(٢)، ونورد فيما يلي أهم وأظهر هذه المقاصد:

أولها وأهمها: ومن جهة نظر القرآن نفسه تخفيف الأذى على النبي ﷺ فهذا الأذى كان قوياً وعنيفاً، وكانت أسبابه واضحة جلية من كيد للنبي والقرآن والدعوة للإسلام، وهذا قد أثر بصورة مباشرة في نفس النبي ﷺ، ودفعه إلى أن يضيق صدرًا، فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾^(٣)، وقال سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ

(١) انظر: القرآن الكريم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين: محمد الصادق عرجون، ص: ٣٧.

(٢) القرآن نظرة عصرية جديدة: عبد المنعم الجداوي، القاهرة، ص: ٦٠.

(٣) الآية: رقم ٩٧ من سورة الحجر.

الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأَتِ اللَّهُ بِمَحْذُونٍ ﴿١﴾، لقد كان لما يقوله الكفار أثر بالغ في نفس النبي ﷺ ونفس أتباعه، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿٢﴾، فإن كنت يا محمد ﷺ ﴿فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القصص فرضاً ﴿فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ فإنه ثابت عندهم يخبرونك بصدقه، قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: (لا أشك، ولا أسأل) ﴿٣﴾، إن هذا الأذى لم يقف عند حد بل تجاوز ذلك إلى ما هو أبعد مدى، قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن تَذَكَّرْتُمْ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَئِنِّي بِالْغَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ﴿٤﴾، وقال سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿٥﴾، ونجد أن القرآن صرح بهذا الغرض، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦﴾، تبين من هذه الآية أن الغرض هو التثبيت للنبي ﷺ، وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿٧﴾.

ثانيها: توجيه العواطف القوية الصادقة نحو عقائد الدين الإسلامي ومبادئه، ونحو التضحية بالنفس والنفيس في سبيل كل ما هو حق، وكل ما هو خير، وكل ما هو جميل، ولعل هذه العواطف هي التي تدفع إلى النشاط للدعوة، كما تجعل الإنسان يستعذب الألم،

(١) الآية: رقم ٣٣ من سورة الأنعام.

(٢) الآية: رقم ٩٤ من سورة يونس.

(٣) الحديث: أخرجه عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة.

(٤) الآيتان: رقم ٤٨-٤٩ من سورة الأنعام.

(٥) الآية: رقم ١٢ من سورة هود.

(٦) الآية: رقم ١٢٠ من سورة هود.

(٧) انظر: بحوث في قصص القرآن: عبد الحافظ عبد ربه، دار الكتاب اللبناني، ص: ٨٩.

ويتحمل الأذى في سبيلها، ومن هنا يكون التوجيه نحو القيم الجديدة، والإيمان بها، ثم الدفاع عنها، والعمل على حثّ الناس على الإيمان بها، إيماناً لا ترعزعه الحوادث، وأيضاً تكوين عواطف قوية وصادقة ضد ما هو قبيح وذميم من الأشياء والعادات والأعمال.

ومن أهم الأمور التي وجه القرآن العواطف نحوها مشكلات البعث والوحدانية، وبشرية الرسل، وتأييد بعضهم بالمعجزات^(٨)، وإثبات الوحي والرسالة، وبيان أن الدين كله من عند الله، من عهد نوح عليه السلام إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم، وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة، والله واحد رب الجميع^(٩).

أما الأشياء التي وجه القرآن العواطف ضدها فهي كثيرة ومتنوعة، فعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر:

— بخس الناس أشياءهم، وتطيف المكيال والميزان، والزنا، والربا، والسرقة، والنميمة.

— إبليس لعنه الله، فقصة إبليس مع آدم قصة بليغة، وهي إحدى نماذج القصص القرآني.

— الإيحاء أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول حقاً، وتأييده بما اصطفاه الله من الرسالة، من التحدي بالغيب، والإعجاز بمعرفة تفاصيل لا يطلع عليها أحدٌ إلا علام الغيوب ولهذا نتيجتان: الأولى: بلوغ قمة التوحيد، والإيمان، والتسليم، والتوكل على الله اعتزازاً به.

مما يحقق الأسوة الصالحة، والقُدوة الطيبة؛ لتملأ النفس المطمئنة بالعزة بالله، واللجوء إلى حماه.

(٨) انظر: الفن القصصي في القرآن، ص: ٢٠٠.

(٩) انظر: روح الدين الإسلامي، ص: ١٥٩.

الثانية: تعليم الأدب في الحوار، والرقعة، والتلطف، والعطف، ليتعلم الداخلون في الإسلام تلك القيم، ويعيشونها.

ومن ناحية أخرى تصديق الأنبياء السابقين، وتخليد مآثرهم، وبيان نعمة الله تعالى عليهم، كقصص سليمان، وداوود، وأيوب، وإبراهيم عليهم السلام وغيرهم، إذ وردت حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء عليهم السلام برزت فيها النعمة من الله في مواقف شتى. _ بيان قدرة الله على الخوارق، وبيان عاقبة الاستقامة والصلاح، وعاقبة الانحراف والإفساد، وبيان الحكمة الإنسانية العاجلة، والحكمة الكونية البعيدة الآجلة كقصة موسى عليه السلام والخضر.

مقاصد القصص القرآني

إن قصص القرآن كنزٌ لا ينفد، ومَعِين لا ينضب، في عبره ودروسه، في الإيمان، وفي العمل والدعوة، وفي الجهاد والتربية، وفي المنطق والأسلوب، وفي الصبر والثبات، وفي الموازين والحقائق، هذا علاوة على أن أفضل الفوائد والفرائد وأهم الدروس والعبر في القصص القرآني هو تنبيه الناس على سنن الله تعالى في نشوء المجتمعات واندثارها، وتأثير أعمال الخير والشر فيها، ومطالعة أمر الله في أحوال الكافرين وسنته المطردة التي لا تتعطل. فيهم قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(١).

لقد عني القرآن الكريم عناية كبيرة بالقصص، ونبه عقول الناس بلفت أنظارهم إلى ما حدث للأمم الغابرة، وأورد الكثير منها على وجه التفصيل، لا لمجرد التسلي والاطلاع على الأخبار، بل تعتبر تلك الأحداث التاريخية مرآة تتجلى فيها سنن الله في خلقه، ولهذا فإذا عرف الناس قصص الأنبياء والرسل مع أقوامهم واعتبروا بها وأخذوا دروسها نجوا من الهلاك والخسران المبين، وصدق الله القائل: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢)، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾^(٣).

ولا ينكر أحدٌ أبداً ما جاء به القصص القرآني من توجيهات دينية لكل ما جاء به الإسلام

(١) الآية: رقم ٣١ من سورة الرعد.

(٢) الآية: رقم ١١١ من سورة يوسف.

(٣) الآية: رقم ٣٧ من سورة ق.

من مبادئ وعقائد، ولكل ما أنكره الإسلام من خلق وعادات وآراء زائفة وعقائد وعبادات باطلة، نلمح هذا ونحسه أغراضاً وأهدافاً تأتي بين طيات هذا القصص وفي ثناياه.

وفي قصص القرآن تقويم للأخلاق، وتزكية للنفوس، وتهذيب للطباع من خلال ما يثبته على مسامع الناس من المواعظ والعبر والمواقف الدالة بمضمونها على نوازع الخير والشر في الإنسان، والتنبيه على سبل اكتساب الخير وسبل السلامة من دوافع الشر.

فهو منهج تربوي حكيم ليس له نظير، لأنه تعبير عن واقع الإنسانية كلها وتصوير صادق لغرائزها وملكاتهما، ورغباتها ومقوماتها، وأحوالها المختلفة، وما يؤول إليه أمرها في تقلباتها، وقربها أو بعدها عن فطرتها، وسنرى ذلك واضحاً جلياً في كل قصة من قصصه.

والقرآن كله كتاب هداية ومنهج حياة، وفي قصصه عبرة لأولي الألباب وفيه بيان مشرق لكل ما يحتاج إليه الناس في دنياهم، وكشف عما يلقونه في أخراهم بأسلوب يخلو من الغموض والالتباس والقصص في القرآن العظيم بلغ قرابة ثلث القرآن، فهذه الأجزاء من القرآن موضوعها (القصص)، والقصص القرآني منهج ربّاني مبارك، ويُعدُّ خلاصة لتجارب الأمم السابقة على مرّ التاريخ تظهر من خلالها سنن الله تعالى في الأمم، ومدى تحقق هذه السنن في كلّ مرة يبين لنا المقاصد التي من أجلها سيق هذا الكم الكبير من القصص في كتاب الله عزّ وجل فمن هذه المقاصد:

— تثبيت عقيدة الإيمان بالله وإبطال العقائد الفاسدة والضالة: وهذا هو أعظم مقاصد القصص القرآني، الذي جاء ليُظهر حقيقة التوحيد، ويُبطل الشرك والوثنية، وهذا المقصد هو من أمهات المقاصد وأسماها، إذ يبدو واضحاً في القصص القرآني أنه يتجه في جملته إلى إرساء دعائم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وذلك بذكر أقوال المرسلين وأفعالهم، وتصوير ما هم عليه من كمال في الدين وسمو في الخلق ونبل في السلوك.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۖ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾^(١)، وكلُّ نبي قال لقومه: ﴿يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ﴾^(٢).

هذه الآية الكريمة تكررت تسع مرات في سياق القصص المبثوث في القرآن العظيم.

— إثبات صدق نبوة رسول الله ﷺ ورسالته: القصص القرآني فيه دلالة واضحة على صدق نبوة محمد ﷺ، لأنه كان أمياً وما طالع كتاباً ولا تتلمذ على أستاذ، ولا يوجد في هذا القصص تناقض أو اختلاف، فقد دلَّ ذلك أنه وحي من عند الله تعالى ويدلُّ كذلك على صحَّة نبوته ﷺ^(٣)، قال الله سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ ۚ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٤)، وقوله جل وعلا: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(٥).

— إثبات البعث والجزاء: كثيراً ما يرد في سياق القصص القرآني إثبات البعث والجزاء بأساليب مختلفة وطرائق شتى، ليتحقَّق الإيمان بذلك اليوم العظيم^(٦)، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾^(٧)، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ ۚ فَخَذَ مِنْهُم مِّنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ لِيَلْجَأَنَّ إِلَىٰكَ ثُمَّ أَجَعَلَ عَلَىٰ كُلِّ

(١) الآية: رقم ٣٦ من سورة النحل.

(٢) الآية: رقم ٢٣ من سورة المؤمنون.

(٣) انظر: تفسير الطبري، (١٤ / ١٤٠).

(٤) الآية: رقم ٤٩ من سورة هود.

(٥) الآية: رقم ٩ من سورة ق.

(٦) انظر: بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، (٢ / ٨٩٩).

(٧) الآية: رقم ٢٥٨ من سورة البقرة.

جَبَلٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ أَتَمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾.

— تثبيت النبي ﷺ وأُمَّته: من أعظم مقاصد القصص القرآني تثبيت النبي ﷺ وأُمَّته على لزوم الدَّعوة إلى الحقِّ، وتحمُّل مشاقها، والصَّبر على العذاب في سبيلها^(٢)، ولذلك نرى القرآن الكريم يحض في ثنايا القصص على التَّأسي بالأنبياء والمرسلين والافتداء بهم في سيرتهم مع أمهم حتى يتمكنوا من تبليغ الرسالة على أحسن الوجوه وأكملها قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

— العبرة بأحوال المرسلين وأممهم: للاقتداء بالمرسلين في: الصَّبر على الأذى، وتبليغ الدَّعوة والافتداء بإيمانهم القويِّ، وتخليد آثارهم، والإشارة إلى فضلهم ومكانتهم الرِّفِعة عند الله تعالى، وفي المقابل: الابتعاد عن مثل تصرُّفات المخالفين من الأمم السابقة^(٤)، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَهْلَكْنَاهُمْ نَصْرًا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٥).

— بيان جزاء الأمم السَّابقة ونهاية مصيرها: فالأمم الغابرة التي لم تلتزم بدعوة الأنبياء والمرسلين، كان مصيرها الهلاك والدمار، نتيجةً لانحرافها عن الطريق المستقيم، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَّكَّنْتُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَارْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾^(٦).

(١) الآية: رقم ٢٦٠ من سورة البقرة.

(٢) انظر: معالم القصص في القرآن الكريم، (ص ٤١، ٤٢).

(٣) الآية: رقم ١٢٠ من سورة هود.

(٤) انظر: انظر: بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، (٢ / ٩٠٣، ٩٠٤).

(٥) الآية: رقم ٣٤ من سورة الأنعام.

(٦) الآية: رقم ٦ من سورة الأنعام.

— بيان أن من أسباب هلاكهم الأمم السابقة: الإشراف بالله تعالى، والظلم والطغيان، والتكذيب بالبعث والجزاء، والتقليد الأعمى، والتهديد للمؤمنين، وإيذاؤهم، كل ذلك ليعتبر المسلمون بأحوال هذه الأمم، ويتعدوا عن أفعالها وأقوالها، حتى لا يصيبهم ما أصابهم من الهلاك والدمار^(١)، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلرُّسُلِ هُمْ أَنْتُمْ خَرَجْتُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنْلَکِنَّ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾﴾.

— تربية المؤمنين: التربية الصحيحة الشاملة، ومن أعظمها: التربية على العقيدة الصحيحة، من الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالبعث والجزاء، والإيمان بالأنبياء والمرسلين، والصبر على أذى الكافرين وإعراضهم عن الحق، حتى يظهره الله تعالى ويهلك أعداءه.

— الدعوة إلى الخير والإصلاح، ومنع الفساد: ففي قصة شعيب عليه السلام دعوة صريحة إلى ناحية عملية، تتصل بالإصلاح الاجتماعي، ومنع الفساد في الأرض، والقيام بحق الأمانة في التعامل، قال شعيب لقومه: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

مواجهة اليأس بالصبر: وأوضح مثال لذلك قصة يوسف عليه السلام وفيها جملة من الآيات تؤكد هذا المعنى، ومنها قوله تعالى: ﴿وَجَاءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿٤﴾﴾.

تقويم سلوك الأفراد والجماعات وأخلاقهم: لتحقيق سنة الاستخلاف في الأرض، وهذا واضح وجلي من خلال معالجة كل نبي ورسول لصفة معينة في قومه كان يسعى

(١) انظر: بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، (٢ / ٩٠٥ - ٩١٣).

(٢) الآية: رقم ١٣ من سورة إبراهيم.

(٣) الآية: رقم ٨٥ من سورة الأعراف.

(٤) الآية: رقم ١٨ من سورة يوسف.

لإصلاحها، كما سعى نبي الله لوط عليه السلام لإصلاح ما وقع فيه قومه من الفواحش والرذائل الدنيئة، وسعى نبي الله شعيب عليه السلام لإصلاح خلق قومه قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْنَوزَ قَوْمٍ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(١)، وقال جل وعلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢).

وكما سعى كل الأنبياء والرسل لإصلاح أقوامهم، ففي هذه القصص عبرة وعظة ودروس بارزة لهذه الأمة، حتى لا تقع فيما وقع فيه أولئك فيحيق عليها العذاب الآجل والعاجل.

والخلاصة: أن مقاصد القصص القرآني وغاياته هي الدعوة إلى الحق، والهداية إلى مواقع الخير، وإقامة وجه الإنسانية على مسالك الحق والخير والميل بها عن مسارب الضلال والبوار، فليس في القصص القرآني ما في غيره من القصص من تلك المواقف والصور التي يراد منها استثارة العواطف المريضة، واسترضاء الميول المنحرفة في الإنسان وتملقه بها، واقتياده منها.

(١) الآية: رقم ٨٥ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٨٦ من سورة الأعراف.

أهداف القصص القرآني

إن الهدف الأول من القصص القرآني لا يتجاوز المحور الأعظم لأهداف القرآن الكريم، ألا وهو كونه هداية للناس أجمعين، فالقصة القرآنية تمثل جزءاً كبيراً من القرآن الكريم، وهي تتحد مع ما سواها مصدراً وموضوعاً وغايةً، والقصة في القرآن الكريم تخضع للأغراض الدينية تماماً بتسام في موضوعها وطريقة عرضها، وأهداف القصة القرآنية إنما جاءت لتحقيق هذه الأغراض كثيرة ومتنوعة، فترسيخ الوحي وإثبات الرسالة للرسول ﷺ، وإظهار وإبراز قدرة الله تعالى الفائقة، وبيان عاقبة الخير والشر والتحلي بالصبر، وما أعده الله تعالى للصابرين، والجزع وعواقبه الوخيمة، ومعجزات الأنبياء والرسل كل هذه الأمور من أهداف القصة وأغراضها على سبيل الإجمال، وأما تفصيلاً فإن للقصة القرآنية أهدافاً مهمة، نذكر منها:

ـ إثبات الوحي والرسالة حيث ذكر قصص الأمم السالفة، والنبى ﷺ أمي لم يجالس أحبار اليهود ولا رهبان النصرارى، وأتى على ذكر من سبق من الأمم، وما حدث بينهم وبين الأنبياء المرسلين دليل على صدق ما أتى به، وأنه وحي من الله.

ـ بيان أن الدين الذي دعا له الأنبياء كله من عند الله، ويصدر من مشكاة واحدة، وذلك لوحدة الدعوة إلى الله وتوحيده، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١).

ـ بيان أن الدين كله موحد الأساس، يركّز على العقيدة، ويدعو إلى الإيمان بالله

(١) الآية: رقم ١٣ من سورة الشورى.

الواحد، قال تعالى: ﴿وَالِىَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنَّا نَتَّبِعُ إِلَّا مَفْزُوتٌ﴾^(١)، وقال جل وعلا: ﴿وَالِىَ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۖ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾^(٢)، وهكذا دعوة كل الأنبياء.

— بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة، وكذلك رد فعل الأقوام متقاربة، الرفض والإيذاء والوقوف ضد النبي وأتباعه، وممارسة التعذيب، والتآمر لقتل الأنبياء.

— بيان الأصل المشترك بين دعوة إبراهيم عليه صلوات الله ودعوة محمد ﷺ بصفة خاصة، وبقية الرسالات بصفة عامة: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۖ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾^(٣).

— بيان أن العُقْبَى في الصراع للمسلمين، ويندحر الكفار الذين يصدون عن سبيل الله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(٤).

— تصديق وعد الله ووعيده، التبشير والتحذير، والإنذار والتخويف، وأنه حقيقة مشاهدة، يأتي في الوقت المناسب؛ كما في قصة لوط لما ظن قومُه أنهم سيصلون إلى ضيوفه بقوتهم وضعف لوط أمامهم، جاء النصر، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصْلُوا إِلَيْكَ﴾^(٥)، وكذلك في بدر، حيث نصر الله القلة على الكثرة.

— بيان نعم الله على أنبيائه وأصفياه من خلال ما يرد في القصة، كقصة يونس وداود وسليمان وما أفاء الله عليهم من النعم، قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ

(١) الآية: رقم ٥٠ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٦١ من سورة هود.

(٣) الآيتان: رقم ١٨_١٩ من سورة الأعلى.

(٤) الآية: رقم ٥١ من سورة غافر.

(٥) الآية: رقم ٨١ من سورة هود.

نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾.

_ تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ قصة امتناع الشيطان عن السجود لآدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾.

_ بيان قدرة الله على الخوارق والمعجزات، كما في قصة خلق آدم وعيسى عليهما السلام، قال تعالى: ﴿ إِنْ مَثَلْ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٣).

وثمة أهداف أخرى كثيرة لمن تأملها من أولي الألباب، مثل التوكل على الله، لاسيما بالنسبة للدعاة والمصلحين، وانتهاج الأسوة الحسنة في الأنبياء، والتجمل بمكارم الأخلاق، وتعلم آداب الحوار، والجدال بالحسنى، وأساليب الدعوة إلى الله تعالى، وكيف يدخل الداعية إلى قلوب المدعوين، ومعرفة طبائع الناس عامة عند كفرهم وإيمانهم، وطبائع أقوام بعينهم مثل بني إسرائيل، وكيفية التعامل معها، وتشخيص أمراض المنحرفين والمعاندين، وكيفية معالجتها، وغير ذلك.

(١) الآيتان: رقم ٨٧_٨٨ من سورة الأنبياء.

(٢) الآيات: رقم ١٤_١٧ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ٥٩ من سورة آل عمران.

حكمة التكرار فيه قصص القرآن

القرآن العظيم مشتمل على أروع أنواع البلاغة وأقوى تحديات الإعجاز، وأنفع أساليب البيان، وتكرار القصة الواحدة في مواضع متعددة من هذا القليل.

فأما من ناحية البلاغة فإبراز المعنى الواحد في صور متعددة وأساليب متنوعة وتفنن شيق وألفاظ مختلفة رفيعة غاية في البلاغة.

وأما من ناحية الإعجاز فإيراد المضمون الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة واحدة منها أبلغ في التحدي، علماً بأن العرب في ذلك الوقت وصلوا إلى قمة التفنن في البلاغة وحازوا قصب السبق في الفصاحة وملأوا الدنيا نثراً ونظماً.

وأما من ناحية البيان فتكرار القصة الواحدة يلفت الانتباه إليها ويشعر بالاهتمام بها، ويُمكن الاعتبار بها في النفس ويرسخها فيها على أساس أن: ما تكرر تقرر.

ومن الحكم أيضاً لتكرار القصة الواحدة في سور متعددة تناسب كل سياق مع السورة التي ورد فيها من حيث الطول والقصر والإطناب والإيجاز إلى غير ذلك من الحكم الكثيرة الجليلة.

والقصص القرآنية تنفرد بأسلوبها الشيق الذي أصبح دليلاً يهتدي له الأدباء، وهذا سهّل على الناس أخذ العبرة والعظمة منها، ولكن يجب الانتباه إلى أمر هام وهو أنه ومع تفرد القصص القرآنية بهذا الأسلوب الجميل فإنّ الهدف الأساسي لقراءة القصص القرآني هو العبرة والعظة وأخذ الدروس منها وليس المتعة بالأسلوب فحسب.

فالله تعالى أخبرنا بهذه القصص تحديداً ولم يخبرنا بباقي القصص مع إيماننا واقتناعنا

التأمين بوجود غيرها الكثير مما لا يعد ولا يحصى مما حدث في الأزمان الغابرة. وحتّى في القصة الواحدة نجد أنّ الله تعالى لم يخبرنا بتفاصيل معيّنة وأخبرنا بتفاصيل أخرى، كلّ هذا هو للعبرة والعظة، فالله تعالى لم يخبرنا بما لا جدوى منه. ولتكرار بعض الكلمات، وكذلك القصص في القرآن الكريم، فوائد جمة نتعرف عليها بعد معرفة معناها:

معنى التكرار:

التكرار: هو مصدر كرّر إذا ردّد وأعاد^(١).

فتارة يكون التكرار مرتين، كقوله تعالى: ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾^(١٩) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ^(٢٠)، وقوله جل وعلا: ﴿أَوَلَيْكَ فَأُولَىٰ﴾^(٣٤) ثُمَّ أَوَلَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ^(٣٥)، وقوله سبحانه: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾^(٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ^(٤)، وقوله ﷻ: ﴿كَلَّا سِعَامُونَ﴾^(٤) ثُمَّ كَلَّا سِعَامُونَ^(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٦)، وقوله سبحانه: ﴿فَأَسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا أَصْنَعُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾^(٧).

وفائدته العظمى: التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرّر تقرر.

وقد أخبر الله سبحانه بالسبب الذي لأجله كرّر القصص والأخبار في القرآن فقال

(١) انظر: (البرهان في علوم القرآن للزركشي ج ٣ ص ٨).

(٢) الأيتان: رقم ١٩-٢٠ من سورة المدثر.

(٣) الأيتان: رقم ٣٤-٣٥ من سورة القيامة.

(٤) الأيتان: رقم ٦-٧ من سورة التكاثر.

(٥) الأيتان: رقم ٤-٥ من سورة النبأ.

(٦) الآية: رقم ٧٨ من سورة آل عمران.

(٧) الآية: رقم ٦٩ من سورة التوبة.

سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(١).

وقال جل وعلا: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾^(٢).

وحقيقته: إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى معيناً، خشية تناسي الأول لطول العهد به^(٣).

فوائد التكرار في القرآن:

أما فوائد التكرار فإننا نوجزها فيما يلي:

الأول: التأكيد: اعلم أن التكرير أبلغ من التأكيد، لأنه وقع في تكرار التأسيس، وهو أبلغ من التأكيد، فإن التأكيد يقرر إرادة معنى الأول وعدم التجوز.

فلهذا قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾^(٤) ﴿تَوَكَّلَا سَيَعْلَمُونَ﴾^(٥)، إن الثانية تأسيس لا تأكيد، لأنه جعل الثانية أبلغ في الإنشاء، وقال كذلك: وفي ﴿تَوَكَّلَا﴾: تنبيه على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾^(٦) ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾^(٧)، وقوله تعالى: ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرُوا﴾^(٨) ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرُوا﴾^(٩)، وقوله تعالى: ﴿يَعْمَرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(١٠)، وقوله سبحانه: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ﴾^(١١)، وكقوله

(١) الآية: رقم ٥١ من سورة القصص.

(٢) الآية: رقم ١١٣ من سورة طه.

(٣) انظر: (البرهان في علوم القرآن للزركشي ج ٣ ص ١٠: ٩).

(٤) الآيتان: رقم ٥-٤ من سورة النبأ.

(٥) الآيتان: رقم ١٧-١٨ من سورة الانفطار.

(٦) الآيتان: رقم ١٩-٢٠ من سورة المدثر.

(٧) الآية: رقم ٤٢ من سورة آل عمران.

(٨) الآية: رقم ١٩٨ من سورة البقرة.

تعالى حكاية عن موسى: ﴿كَىٰسِحَك كَثِيرًا ۖ ۝٣٣ وَذَكَرَكَ كَثِيرًا﴾^(١)،

وكنوله جل وعلا: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلَهُمْ أَيْ ذَا كُنَّا تَرْبًا لِّئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِيْٓ أَغْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢)، كرر ﴿أُولَٰئِكَ﴾ ثلاث مرات في الآية، وكذلك قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣)، وكذا قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَمْوَسَّىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِيْ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ﴾، إلى قوله ﷻ: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾^(٤)، كررت ﴿أَنْ﴾ في أربع مواضع تأكيداً.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٥).

الثاني: زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَرَ يَتَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝٣٨ يَتَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾^(٦)، فإنه كرر فيه النداء.

الثالث: إذا طال الكلام، وخشي تناسي الأول، أعيد ثانياً، تجديدًا لعهد، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَنَّمَ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٧)، وقوله جل وعلا: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَٰجَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا فِتْنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٨)، فقله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ليس تكررًا وإنما تجديدًا للعهد بالأول ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾.

(١) الآيتان: رقم ٣٣_٣٤ من سورة طه.

(٢) الآية: رقم ٥ من سورة الرعد.

(٣) الآية: رقم ٥ من سورة البقرة.

(٤) الآية: رقم ١٩ من سورة القصص.

(٥) الآيتان: رقم ١١_١٢ من سورة الزمر.

(٦) الآيتان: رقم ٣٨_٣٩ من سورة غافر.

(٧) الآية: رقم ١١٩ من سورة النحل.

(٨) الآية: رقم ١١٠ من سورة النحل.

خشية تناسيه، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كُنُتٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾^(١)، فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا﴾ ليس تكراراً للأول وإنما تجديد للعهد، ومثله قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرُحُونَ بِمَا آتَوْا﴾، ثم قال سبحانه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾^(٢)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ﴾^(٣)، كذلك تكرار للأول وتجديدا للعهد به، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(٤)، فقوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ تجديد للعهد بالأول: ﴿رَأَيْتُ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَيُّدِكُمْ أَكْثَرُ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنْتُمْ تُخْرِجُونَ﴾^(٥)، فقوله: ﴿أَنْتُمْ﴾ الثاني بناءً على الأول، إذكارة به، خشية تناسيه.

الرابع: في مقام التعظيم والتهويل، كقوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢﴾^(٦)، وقوله جل وعلا: ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢﴾^(٧)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَزْدَرَكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٨﴾^(٨).

وقوله سبحانه: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝٩﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ۝٩﴾^(١٠).

الخامس: في مقام الوعيد والتهديد كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٢﴾ ثم كلاً

(١) الآية: رقم ٨٩ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ١٨٨ من سورة آل عمران.

(٣) الآية: رقم ٢٥٣ من سورة البقرة.

(٤) الآية: رقم ٤ من سورة يوسف.

(٥) الآية: رقم ٣٥ من سورة المؤمنون.

(٦) الأيتان: رقم ٢_١ من سورة الحاقة.

(٧) الأيتان: رقم ٢_١ من سورة القارعة.

(٨) الأيتان: رقم ٢_١ من سورة القدر.

(٩) الآية: رقم ٢٧ من سورة الواقعة.

(١٠) الأيتان: رقم ٩_٨ من سورة الواقعة.

سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾، وذكر ﴿ثُمَّ﴾ في المكرر دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول، وفيه تنبيه على تكرار ذلك مرة بعد أخرى، وإن تعاقبت عليه الأزمنة لا يتطرق إليه تغيير، بل هو مستمر دائماً.

السادس: التعجب، كقوله تعالى: ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرُوا﴾ ﴿١٩﴾ ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرُوا﴾ ﴿٢٠﴾، فهذا ليس تكرار وإنما أعيد تعجباً من تقديره وإصابته الغرض على حد: (قَاتَلَهُ اللَّهُ مَا أَشْجَعَهُ!)

السابع: لتعدد المتعلق كما في قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُمْ آيَ الْآلَاءِ رَيْكُوسًا تَكْذِبُونَ﴾ ﴿٣٠﴾، فإنها وإن تعددت فكل واحد منها متعلق بما قبله، وإن الله تعالى خاطب بها الثقلين من الإنس والجن، وعدد عليهم نعمه التي خلقها لهم، فكلما ذكر فصلاً من فصول النعم، طلب إقرارهم، واقتضاهم الشكر عليه، وهي أنواع مختلفة، وصور شتى ^(٤).

وقيل أن من فوائد التكرار في قصص القرآن مايلي:

— بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها: فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر، وتصاغ في قالب غير القالب، ولا يمل الإنسان من تكرارها، بل تتجدد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى.

— قوة الإعجاز: فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي.

— الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها في النفس: فإن التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام، كما هو الحال في قصة موسى مع فرعون، لأنها تمثل الصراع بين الحق

(١) الآيتان: رقم ٣-٤ من سورة التكاثر.

(٢) الآيتان: رقم ١٩-٢٠ من سورة المدثر.

(٣) الآية: رقم ١٣ من سورة الرحمن.

(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن (للزركشي ج ٣ ص ١١-١٨).

والباطل أتم تمثيل، مع أن القصة لا تتكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها.

— اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة: فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، وتبرز معان أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال.

— بيان أهمية تلك القصة لأن تكرارها يدل على العناية بها.

— مراعاة الزمن وحال المخاطبين بها: ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالباً فيما أتى من القصص في السور المكية والعكس فيما أتى في السور المدنية.

— ظهور صدق القرآن وأنه من عند الله: حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدون تناقض.

لقد أولى علماء المسلمين عناية كبيرة لظاهرة التكرار في القرآن الكريم، ويبدو أن موافقهم كانت متباينة من هذه الظاهرة القرآنية، فكان هنا فريق يقول: بوجود التكرار في القرآن الكريم للتأكيد، وفريق آخر يرى:

أن التكرار في القرآن الكريم لا يأتي للتأكيد دون فائدة جديدة وحجة وبيان، ومن هؤلاء تاج القراء محمود بن حمزة الكرمانى: (ت: ٥٠٥ هـ) والذي ألف كتاباً تحت عنوان: (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان)، وتحدث فيه عن: الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان أو تقديم أو إبدال.

ولعل من أبرز العلماء الذين جاؤوا بعد الكرمانى واهتموا بظاهرة التكرار في القرآن الكريم وتوصلوا إلى أن القرآن الكريم لا توجد فيه لفظة زائدة لا تفيد معنى: شيخ الإسلام وعلامة الأنام الحبر البحر في علوم العقل والنقل أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، (ت: ٧٢٨ هـ)، الذي ألف رسائل وكتباً عديدة في القرآن الكريم وعلومه وتفسيره، وكان مشهوراً في الأوساط العلمية بترجيحاته الجميلة، وكانت له مدرسة خاصة في

التفسير؛ أوضح معالمها في كتابه المشهور: (مقدمة في أصول التفسير)^(١).

وقد دفع هذا التميز في التفسير والترجيح البعض إلى اعتبار ابن تيمية فارس التفسير في عصره، حيث شهد له الكثير من العلماء بالتميز والفطنة والدقة في تفسير القرآن الكريم وعلومه، فقال فيه الشيخ علم الدين البرزالي (ت: ٧٣٨ هـ): وكان إذا ذكر التفسير أبهت الناس من كثرة محفوظه، وحسن إيراده، وإعطائه كل ما يستحقه من الترجيح والتصنيف والإبداع، فيما قال عنه ابن رجب (ت: ٧٩٥ هـ): (برع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه، بطبع سيال، وخاطر إلى مواقع الإشكال ميال، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها).

_ ولا جدال في أن مؤلفات ابن تيمية ﷺ تعالى تنطق بجهوده الجبارة في المجالات العلمية المختلفة، ومنها تفسير القرآن الكريم وعلومه، وقد وردت في كتاب: (أسماء مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية) عناوين عدة رسائل لابن تيمية حول القرآن الكريم، والظاهر أن بعض رسائل ابن تيمية أحياناً تركز على آية قرآنية واحدة، مثل: (رسالة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٢)، و(رسالة في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾^(٣)).

وهناك رسائل أخرى لابن تيمية تهتم بآيات قرآنية عديدة، مثل: (رسالة في علوم القرآن)، التي تتحدث عن التكرار في القرآن الكريم، ولأهمية رسالة التكرار في القرآن الكريم تعتبر (رسالة في علوم القرآن) من أهم رسائل ابن تيمية النفيسة، فهي رسالة خفيفة تسعى إلى التأكيد على أن ليس في القرآن لفظة زائدة لا تفيد معنى أو لمجرد التأكيد المحض دون فائدة جديدة، وظاهرة التكرار في القرآن الكريم، تعتبر من أهم الظواهر القرآنية المهمة التي شغلت بال العلماء والباحثين في حقل الدراسات القرآنية قديماً وحديثاً.

(١) انظر: كتاب البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرمانى ج ١ ص ٦٣.

(٢) الآية: رقم ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٣) الآية: رقم ٢١ من سورة البقرة.

ورسالة ابن تيمية في علوم القرآن: عبارة عن دراسة تطبيقية على مجموعة من الآيات القرآنية التي يرى بعض العلماء أنها تتضمن تكراراً للتأكيد، وقد استطاع ابن تيمية من خلال هذه الرسالة أن يؤكد خلوّ لغة القرآن الكريم من التكرار للتأكيد المحض دون فائدة جديدة، حيث صرّح في ديباجة رسالته بأن: (ليس في القرآن لفظة واحدة زائدة لا تفيد معنى، ولا كلمة قد فهم معناها مما قبلها فأعيدت لا لمعنى، أو لمجرد التأكيد المحض دون فائدة جديدة، وهذا في اللفظ المستقل بنفسه بخلاف الحروف التي لا تستقل كالباء واللام).

وقد قام ابن تيمية من خلال هذه الرسالة، بتطبيق منهجه في التفسير والترجيح على حوالي ٢٨ آية قرآنية من سور مختلفة، لينفي وجود أي لفظة واحدة زائدة لا تفيد معنى في القرآن الكريم، فكان يذكر الآية القرآنية، ثم يشير إلى نوع التكرار الذي قال البعض به، ثم يقوم بنفي وجود أي تكرار بدون فائدة، مقدماً الأدلة اللغوية والمنطقية على رأيه في كل آية قرآنية.

أما أنواع التكرار في القرآن الكريم قبل الدخول في خضم الآيات القرآنية التي توقف معها ابن تيمية في رسالته النفيسة، قد يكون من المهم التذكير بأن التكرار في القرآن الكريم ينقسم إلى نوعين:

النوع الأول: التكرار في اللفظ والمعنى، مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكَ فَاؤْلَىٰ ۖ ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَاؤْلَىٰ ۖ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۖ﴾^(٢).

أما النوع الثاني: فهو التكرار في المعنى دون اللفظ، مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ

(١) الآيتان: رقم ٣٤_٣٥ من سورة القيامة.

(٢) الآيتان: رقم ٢١_٢٢ من سورة البقرة.

أَلْبَارِئِ الْمُصَوِّرِ ﴿١﴾، وقوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٢) وقد أورد ابن تيمية في رسالته هذه آيات قرآنية تعكس هذين النوعين من التكرار، سنشير إلى بعضها في السطور الآتية:

أولاً: التكرار في اللفظ والمعنى في سياق التكرار في اللفظ والمعنى، توقف ابن تيمية مع قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿١١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٣)، فقام بتفنيد رأي الطائفة التي ترى أن هذا التكرار جاء للتأكيد، وقال إن المراد هنا هو: الدَّكُّ المتتابع، أي: دَكًّا بعد دَكٍّ، مؤكداً أن الحكم نفسه ينطبق على قوله تعالى: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾، فالمراد هنا صفًّا بعد صفٍّ.

— أما التكرار المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (٤) من طرف بعض المفسرين، فقد ذهب ابن تيمية إلى أنه ليس من التكرار في شيء، فإن إضافة الزلزال يفيد معنى زائداً، وهو زلزالها المختص بها المعروف منها المتوقع منها، كما تقول: غضب زيدٌ غضبه، وقاتل قتاله، أي: غضبه الذي يعهد منه، وقتاله المختص به الذي يعرف منه، ويتعلق المثال الثالث على التكرار في اللفظ والمعنى بقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (٥)، وقد قال ابن تيمية إنه ليس من التكرار، نظراً لاختلاف مقصود الفعلين، فالأول منهما: دعاء يراد به الإنشاء، والثاني: خبر، أي: تبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وقد تبَّ، أما قوله تعالى: ﴿أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى﴾ (٦)، فذكر ابن تيمية أيضاً أنه ليس من باب التكرار، بل هو وعيدٌ ودعاءٌ، يعني: قرب منك ما يهلك قريباً بعد قرب.

(١) الآية: رقم ٢٤ من سورة الحشر.

(٢) الآية: رقم ٦ من سورة التحريم.

(٣) الآيتان: رقم ٢١-٢٢ من سورة الفجر.

(٤) الآية: رقم ١ من سورة الزلزلة.

(٥) الآية: رقم ١ من سورة المسد.

(٦) الآيتان: سبق ذكرهما

ثانياً: التكرار في المعنى دون اللفظ في سياق التكرار في المعنى دون اللفظ، استعرض ابن تيمية بعض الآيات القرآنية التي تشير إلى وجود هذا النوع في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١)، حيث قام ابن تيمية بنفي وجود التكرار في هذه الآية، وقال إنها تتضمن جملتين مفيدتين معنيين:

الأول: أن الله سبحانه وتعالى إذا أمر الملائكة بالأمر لا يعصونه في أمره.

والثاني: أنهم لا يفعلون شيئاً من عند أنفسهم، بل أفعالهم ائتمار وطاعة لأمر ربهم.

— أما بخصوص التكرار الذي يرى البعض أنه موجود في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾^(٢)، فقال ابن تيمية: إنه ليس بتكرار، بل هي معان مغايرة بينها قدر مشترك، وبيانه أن الإيجاد يتعلق بالمادة وبالصورة وبمجموعهما، ولهذا فإن الباري للمادة، والمصور للصور، والخالق لهما جميعاً، وبالتالي لا يوجد أي تكرار.

وهكذا يبدو أن التكرار في القرآن الكريم لا يأتي إلا لتقديم فائدة جديدة وحجة وبيان، لذلك يمكن القول إن من فوائد التكرار في القرآن الكريم أنه يأتي للتذكير، والرفع من قيمة الشيء، وتنبية الغافل، وإزالة التوهم، وتعدد الآلاء والنعم، وقد ذكر ابن تيمية في رسالته بعض الآيات القرآنية التي تعكس جانباً من فوائد التكرار في القرآن الكريم، ولعل من أبرز الآيات الدالة على أن التكرار قد يأتي لإزالة التوهم والغموض، قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ دَاْبَتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيرٌ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾^(٣)، وقد توقف ابن تيمية مع هذه الآية ونفى أن تكون ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، زائدة في هذه الآية، بل ذهب إلى أن هذه الآية فيها فائدة زائدة، وهي أن: الطيران يستعمل في الخفة وشدة الإسراع في الشيء، واستدل على ذلك بأشعار العرب.

ومن هنا، أوضح ابن تيمية أن الآية لو اقتصرَت على: ﴿وَمِمَّنْ دَاْبَتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيرٌ

(١) الآية: رقم ٣٨ من سورة الأنعام.

يَطِيرُ ﴿١﴾، لكان ظاهر العطف يوهم ولا طائر في الأرض، لأن العطف المعطوف عليه إذا قيد بظرفٍ أو حال تقيد به المعطوف، فكان ذلك يوهم اختصاصه بطير الأرض الذي لا يطير بجناحيه، كالدجاج والأوز والبط ونحوها، ولذلك كان من اللازم وجود قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، لإزالة التوهم، فبدون هذا القول سيكون هناك توهم جلي في الآية.

ولا تقتصر فوائد التكرار في القرآن الكريم على ما سبق ذكره، بل هناك أيضاً آيات قرآنية تشير إلى أن التكرار يأتي لتعديد الآلاء والنعم الإلهية الجليلة التي لا تحصى، ومن تلك الآيات قول الله تعالى: ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا تَكَذَّبَانِ﴾^(١)، حيث ذهب ابن تيمية إلى أن هذه الآية: تعديد ذلك في مقابلة تعديد الآلاء، وقارئ القرآن الكريم يلاحظ أن ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ﴾، وردت مرات عديدة.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن تكرار ﴿أَنكُم﴾ أو ﴿أَنَّهُ﴾ في بعض الآيات القرآنية، مثل قوله تعالى: ﴿أَعِدُّكُمْ أَنكُم إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنتُمْ تُخْرَجُونَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدُ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ﴾^(٣)، جاء لكي لا يطول الفصل بين أن واسمها وخبرها، لكن يبدو أن ابن تيمية لم يُعجبه هذا الرأي كثيراً، فعلق قائلاً:

وأحسن من هذا أن يُقال: إن كل واحد من هاتين الجملتين جملة شرطية مركبة من جملتين خبريتين، فأكدت الجملة الشرطية، ثم أكدت الجملة الجزائية.

ويبدو أن هناك نوعاً من التكرار في القرآن الكريم من الصعب الكشف عن المغزى منه بدقة، ولذلك ذكر ابن تيمية في ختام رسالته النفيسة أن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا

(١) الآية: رقم ١٣ من سورة النجم.

(٢) الآية: رقم ٣٥ من سورة المؤمنون.

(٣) الآية: رقم ٦٣ من سورة التوبة.

مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لِمُبْلِسِينَ ﴿١﴾، من الآيات القرآنية التي أشكل على الناس فهمها، وقد كشف ابن تيمية عن بطلان أقوال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية من وجهة نظره، مثل الزمخشري الذي قال إنها من باب التكرار والتأكيد، في حين ذهب ابن تيمية إلى عكس ذلك، فقال: إنه ليس من التكرار بل تحته معنى دقيق، والمعنى فيه: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم الودق من قبل هذا النزول لمبلسين.

آيات ورد فيها كلمة (القص)

ومشتقاتها فيه القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾^(١)، وقال ﷺ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ أَلَا لَبِيبٌ لِّعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢)، وقال جل وعلا: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾^(٣)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾^(٦)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾^(٧)، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَرِّوْنَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾^(٨)، وقال ﷺ: ﴿فَلْنَقُصِّصْ عَلَيْهِمْ بَعْلُومَ مَا كُنَّا عَابِدِينَ﴾^(٩)، وقال جل وعلا: ﴿يَبْنِي ءَادَمُ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾^(١٠).

(١) الآية: رقم ١٧٨ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ١٧٩ من سورة البقرة.

(٣) الآية: رقم ١٩٤ من سورة البقرة.

(٤) الآية: رقم ٦٢ من سورة آل عمران.

(٥) الآية: رقم ١٦٤ من سورة النساء.

(٦) الآية: رقم ٤٥ من سورة المائدة.

(٧) الآية: رقم ٥٧ من سورة الأنعام.

(٨) الآية: رقم ١٣٠ من سورة الأنعام.

(٩) الآية: رقم ٧ من سورة الأعراف.

(١٠) الآية: رقم ٣٥ من سورة الأعراف.

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْقُرْآنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾^(١)، وقال ﷻ: ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾^(٣)، وقال سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(٥)، وقال جل وعلا: ﴿قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقُصُّ رَأْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٧)، وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا مَا كُنَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾^(٨)، وقال سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾^(٩)، وقال تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾^(١٠)، وقال جل وعلا: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ﴾^(١١).

(١) الآية: رقم ١٠١ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ١٧٦ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ١٠٠ من سورة هود.

(٤) الآية: رقم ١٢٠ من سورة هود.

(٥) الآية: رقم ٣ من سورة يوسف.

(٦) الآية: رقم ٥ من سورة يوسف.

(٧) الآية: رقم ١١١ من سورة يوسف.

(٨) الآية: رقم ١١٨ من سورة النحل.

(٩) الآية: رقم ١٣ من سورة الكهف.

(١٠) الآية: رقم ٦٤ من سورة الكهف.

(١١) الآية: رقم ٢٥ من سورة القصص.

مقدمة القصة

إن القرآن الكريم يكثر من ذكر الأنبياء السلف، رغبة في أن نتأسى بهديهم، ونكتشف الدروس من حياتهم، ومع الأسف فإننا ننظر إلى أن هذه قصص كباقي القصص، والحال بأن القرآن الكريم، لم يرد ذكر هذه الأمور لمجرد الذكر، وإنما لأجل الاعتبار بما وقع على الأنبياء عليهم السلام.

نبدأ بنبي الله آدم، الذي نرتبط به ارتباطاً عاطفياً وعضوياً، لأنه هو أبونا وحواء أمنا، ولهذا فإن البعض من الصالحين، يوصي بأنه في ضمن ذكر الأرحام والوالدين والأجداد، علينا أن نخص آدم بالذكر، لأنه جدنا الأكبر.

— إن تذكر هذه الحالة الجامعة، وهي أننا جميعاً من نسل آدم عليه السلام، أيضاً يلقننا شيئاً من حالة الإحساس بالأخوة مع من حولنا، فالأخوة الأرضية بالإضافة إلى الأخوة الإسلامية، والإيمانية، هي من العناصر المشتركة بيننا وبين كل إنسان على وجه الأرض، كوننا من هذا الوجود المبارك.

— إن الله ﷻ عندما ذكر آدم في سورة البقرة، جعل الآية تبدأ بهذه المقولة الإلهية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالمستفاد من هذه الآية، ومن آيات أخرى شبيهة، أن الكلام ليس بالنسبة لآدم فحسب!..

فكلمة الخليفة في القرآن أطلقت على آدم، كما في هذه الآية..

وفي نفس الوقت في سور أخرى، فبني آدم هم المخاطبون بهذه الخلافة كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي

(١) الآية: رقم ١٦٥ من سورة الأنعام.

الْأَرْضِ ﴿^(١)﴾، فإذا، إن هذه الآيات تؤكد على أن هذه السمة العظيمة سمة، الخلافة الإلهية، سمة أعطيت لآدم، وبني آدم.

وتبدأ قصة آدم قبل خلقه في ذلك الحوار السماوي العظيم بين الرب سبحانه وتعالى والملائكة عليهم السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أراد أن يجعل خليفة يحكم الأرض ويعمرها، خليفة يترك وراءه خلائف، خلفاً تلو خلف، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ^(٢)، يريد هذه الأرض أن تعمر، لكن الجن أقل شأنًا من أن يعمروا الأرض وأقل عقلًا من أن يعمروا الأرض حيث يقول ابن القيم عن الجن: (أعقلهم بعقل صبي عشر سنين)، رغم ما لديهم من قدرات خارقة تتجاوز إمكانات البشر.

أمر الله ملكاً منهم بأن يذهب إلى الأرض فيأخذ من كل ترابها شيئاً، الأبيض والأسود والأحمر، فصار منه بنو آدم، اختلفت ألوانهم واختلفت طباعهم، ولذلك سمي آدم؛ لأنه خلق من أديم الأرض، أي: التراب الذي على وجهها، وقد بين الله تعالى في آيات كثر المراحل والكيفية التي خلق فيها آدم من التراب:

وخلاصتها: أن آدم عليه السلام خلق في آخر ساعة من يوم جمعة، بُلِّل التراب بالماء فصار: طينا، ثم ازداد تماسكه فصار: طينا لازباً، ثم صار: حمأ مسنوناً، أي: طينا أسود له رائحة، ثم ييس وصار صلصالاً كالْفَخَارِ، وبقي هكذا جسداً بلا روح.

— وقصة آدم في القرآن الكريم وردت مجرياتها وأحداثها في سبعة مواطن في القرآن الكريم: في سورة البقرة، وسورة الأعراف، وسورة الحجر، وسورة الإسراء، وسورة الكهف، وسورة طه، وسورة "ص"

(١) الآية: رقم ١٤ من سورة يونس.

(٢) الآية: رقم ٦١ من سورة هود.

_ وذكرت أحداث هذه القصة في هذه السور على درجات متفاوتة من الطول والقصر، والبسط والاختصار، وهي في مجموعها تشكل وحدة متكاملة مترابطة، لا اختلال فيها ولا انقطاع.

_ وحاصل هذه القصة القرآنية أنه سبحانه أمر آدم عليه السلام بأن يسكن وزوجه في الجنة، وأن يأكلا منها حيث شاء، إلا شجرة معينة، بيد أن الشيطان لم يتركهما وشأنهما، بل وسوس لهما، واستجرهما للأكل منها، فأكلا من تلك الشجرة، مخالفين في ذلك أمر الله سبحانه.

_ ثم جاء الأمر الإلهي لهما بالهبوط من الجنة، والاستقرار في الأرض، وطلب منهما الالتزام بما يأتيهما من الهدي الإلهي.

وبعد استقرارهما في الأرض تناسلت منهما ذرية البشر، وكان إبليس من المطرودين من الجنة بعد ما كان منه، وكان رد فعله على هذا الطرد أنه أقسم على نفسه بإغواء بني آدم، وصدهم عن سواء السبيل، وقد تخلل هذه القصة في مواطنها القرآنية المختلفة حديث عن أصل خلق آدم عليه السلام، وأمره سبحانه للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، وموقف إبليس من هذا السجود، واستخلاف الله سبحانه لآدم عليه السلام في الأرض، وإسكانه الجنة، وإغواء إبليس له، وتحذير بني آدم من مغبة متابعة الشيطان فيما يوسوس به.

أحداث بين يدي القصة:

أولاً: الإخبار من الله سبحانه للملائكة أنه سيجعل في هذه الأرض من يكون خليفة عنه، يقيم أمرها، ويصلح شأنها، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ثانياً: الإعلان عن المادة التي سيخلق منها سبحانه هذا الكائن الجديد، الذي سيكون خليفة له في الأرض، جاء ذلك في قوله عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾^(١)، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

(١) الآية: رقم ٢٨ من سورة الحجر.

لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿١﴾.

ثالثاً: الاحتفاء بميلاد هذا المخلوق الجديد، ودعوة الملائكة للسجود له، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ﴿٢﴾، وقد تكرر الأمر بالسجود لـ آدم عليه السلام في سبعة مواضع قرآنية، ما يدل على عظيم الاحتفاء والتقدير لهذا الكائن الجديد.

رابعاً: امتناع إبليس عن السجود لـ آدم وحجته على هذا الامتناع، وفي جميع المواضع السبعة التي جاء الأمر فيها بالسجود لـ آدم عليه السلام، جاء فيها امتناع إبليس عن السجود، وتأبيه عن فعل ذلك، نحو قوله سبحانه: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣﴾، وقوله ﷻ: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٤﴾، والآيات التي ذكرت امتناع إبليس عن السجود، ذكرت له صفات، تكشف حقيقة موقفه من أمر ربه، وتفضح فعلته التي فعلها، وقد علل إبليس امتناعه بالسجود بعلل واهية، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ ﴿٥﴾، وقوله تعالى: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلَاسِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ ﴿٦﴾.

خامساً: صدور الحكم الإلهي بحق إبليس جراء رفضه لأمر ربه بالطرد من الجنة، وهذا ما صرحت به بعض الآيات، من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ﴿٧﴾، ولم يتقبل إبليس هذا الحكم، بل عقب عليه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٨﴾، بيد أنه سبحانه رد عليه جراءته ووقاحته،

(١) الآية: رقم ٧١ من سورة ص.

(٢) الآية: رقم ٣٤ من سورة البقرة.

(٣) الآية: رقم ٣٤ من سورة البقرة.

(٤) الآية: رقم ١١ من سورة الأعراف.

(٥) الآية: رقم ١٢ من سورة الأعراف.

(٦) الآية: رقم ٣٣ من سورة الحجر.

(٧) الآية: رقم ١٣ من سورة الأعراف.

(٨) الآية: رقم ١٦ من سورة الأعراف.

بقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(١).

سادساً: وصية الحق سبحانه لـ آدم عليه السلام، وتحذيره من إغواء إبليس اللعين، قال سبحانه: ﴿فَقُلْنَا يَتَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(٢).

سابعاً: النهي الإلهي لـ آدم عليه السلام وزوجه بعدم الأكل من الشجرة، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣)، ويلاحظ أن الآية الكريمة نهت عن الاقتراب من الشجرة، لا عن الأكل منها، وهذا أبلغ في النهي، لأن مجرد الاقتراب يوقع في الإثم، فكيف بالأكل منها؟

ثامناً: إغواء إبليس لـ آدم وزوجه بالأكل من الشجرة، واستجابة آدم وزوجه لهذا الإغراء، قال ﷻ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾^(٤) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى^(٥).

تاسعاً: عتاب الله لـ آدم لاستجابته لإغواء إبليس، وتوبته مما أقدم عليه، قال ﷻ: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٦) قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ^(٧)، وقال سبحانه: ﴿فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٨)، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾^(٩).

(١) الآية: رقم ٤٢ من سورة الحجر.

(٢) الآية: رقم ١١٧ من سورة طه.

(٣) الآية: رقم ٣٥ من سورة البقرة.

(٤) الآيتان: رقم ١٢٠-١٢١ من سورة طه.

(٥) الآيتان: رقم ٢٢-٢٣ من سورة الأعراف.

(٦) الآية: رقم ٣٧ من سورة البقرة.

(٧) الآية: رقم ١٢٢ من سورة طه.

عاشراً: خروج آدم من الجنة، وتحذيره وذريته من إغواء إبليس وكيدته، قال تعالى:

﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا آدَمُ فَامْكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾^(١).

هذه أهم الأحداث الرئيسة التي أبرزتها قصة آدم كما عرضها القرآن الكريم، وهي في مجملها تبرز صورة الصراع بين الحق والباطل، وبين الإنسان وعدوه الأول والأخير إبليس الرجيم.

(١) الآية: رقم ١٢٣ من سورة طه.

(آيات القصة فيه سور القرآن)

آيات القصة في سورة البقرة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّخِذُ أُنثِيَتُهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَتَّخِذُ أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَلَنَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾).

آيات القصة في سورة الأعراف:

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِ لِأَفَعِدَنَّ لَكُمْ صِرْطَكُمْ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾

قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْخُورًا لَمَنْ يَتَّبِعَكَ مِنْهُمْ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَتَادَمُ اسْتَكْنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنْ لَكُمْ لِنِ الْتَصْحِيحِ ﴿٢١﴾ فَذَلَّلَهُمَا بِفُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهبطَا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

آيات القصة في سورة الحجر:

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَبْنَطُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾

آيات القصة في سورة الإسراء:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ

(١) الآيات: رقم ١١-٢٥ من سورة الأعراف.

(٢) الآيات: رقم ٢٨-٤٢ من سورة الحجر.

لَا حَتْرَ لَكُمْ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿١٧﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٨﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿١٩﴾.

آيات القصة في سورة الكهف:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ﴿٥١﴾﴾.

آيات القصة في سورة طه:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَى وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عِزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَتَّعِدُ أَنْ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعِدُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ أَخْلَدُ وَمُلْكٍ لَا يَبُلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ النَّابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَاِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾﴾.

آيات القصة في سورة ص:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الرَّجِيِّ﴾.

(١) الآيات: رقم ٦١-٦٥ من سورة الإسراء.

(٢) الآيتان: رقم ٥٠-٥١ من سورة الكهف.

(٣) الآيات: رقم ١١٥-١٢٣ من سورة طه.

الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدَّتِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾
 قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَخُذْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ
 لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ
 الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾
 قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾^(١)

(١) الآيات: رقم ٧١-٨٥ من سورة ص.

أقوال المفسرين في القصة

أقوال المفسرين في آيات القصة في سورة (البقرة):

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

١- قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره المسمى (الجامع لأحكام القرآن): اختلف أهل التأويل في قوله تعالى: إِنِّي جَاعِلٌ، فقال بعضهم: أن معناه: إني فاعل^(٣).

قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: وقال آخرون: أن معناه: (إني خالق).

فعن أبي روق، قال: كل شيء في القرآن (جَعَلَ)، فهو خلق^(٤).

قال أبو جعفر: والصواب في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أي: مستخلف في الأرض خليفة، ومُصَيَّر فيها خلقاً، وقيل: إن الأرض التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية هي: (مكة).

روي عن ابن سابط: أن النبي ﷺ قال: دُحِيت الأرض من مكة، وكانت الملائكة تطوف بالبيت، فهي أول من طاف به، وهي: (الأرض) التي قال الله عنها: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وكان النبي إذا هلك قومه، ونجا هو والصالحون، أتاها هو ومن

(١) الآية: رقم ٣٠ من سورة البقرة.

(٢) الإمام الطبري: هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ).

(٣) الأثر: ورد هذا الأثر عن الحسن وقتادة وأورده ابن كثير تفسيره ج ١ ص ١٢٧.

(٤) الأثر: ٥٩٨ _ نقله السيوطي ١: ٤٤ عن الطبري، ولكنه جعله من كلام الضحاك.

معه فعبدوا الله بها حتى يموتوا، فَإِنَّ قَبْرَ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَشَعِيبٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بَيْنَ زَمْزَمَ وَالرُّكْنِ وَالْمَقَامِ^(١).

وأما قوله تعالى: ﴿خَلِيفَةً﴾، والخليفة: الفعيلة من قولك: خلف فلان فلاناً في هذا الأمر، إذا قام مقامه فيه بعده، كما قال جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(٢)، يعني بذلك أنه أبدلكم في الأرض منهم، فجعلكم خلفاء بعدهم.

ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة، لأنه خلف الذي كان قبله، فقام بالأمر مقامه، فكان منه خلفاً.

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أول من سكن الأرض الجنُّ فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضاً.

فبعث الله تعالى إليهم إبليس في جند من الملائكة، فقتلهم إبليس ومن معه حتى أحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، ثم خلق آدم فأسكنه إياها^(٣)، فلذلك فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

فعلى هذا القول: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، من الجن، يخلفونهم فيها فيسكنونها ويعمرونها.

فعن الربيع بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال: قال ابن زيد: قال الله تعالى ذكره للملائكة: إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً وأجعل فيها خليفةً، وليس لله يومئذ خلق إلا الملائكة، والأرض ليس فيها خلق، وهذا القول يحتمل ما حكى

(١) الحديث: ٥٩٩ _ نقل ابن كثير في التفسير ١: ١٢٧ معناه من تفسير ابن أبي حاتم.

(٢) الآية: رقم ١٤ من سورة يونس.

(٣) الأثر: ٥٩٨ _ نقله السيوطي ١: ٤٤ عن الطبري، ولكنه جعله من كلام الضحاك. وأبو روق يكثر رواية التفسير عن الضحاك.

عن الحسن، ويحتمل أن يكون أراد ابنُ زيد أن الله أخبر الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة له يحكم فيها بين خلقه بحكمه^(١).

وقال ﷺ: أن الله جل ثناؤه قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذُرِّيَّةٌ يُفْسِدُونَ في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً، فكان تأويل الآية على هذه الرواية التي ذكرناها عن ابن مسعود وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إني جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بين خلقي، وذلك الخليفة هو آدم عليه السلام ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه^(٢).

وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها، فمن غير خلفائه، ومن غير آدم ومن قام مقامه في عبادة الله، لأنها أخبراً أن الله جل ثناؤه قال لملائكته، إذ سأله: ما ذاك الخليفة؟ إنه خليفة يكون له ذُرِّيَّةٌ يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً، فأضاف الإفساد وسفك الدماء بغير حقها إلى ذُرِّيَّةٍ خليفته دونه، وأخرج منه خليفته.

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان إبليس من حَيٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم: (الحنّ)، "بالحاء المهملة" خُلقوا من نار السموم من بين الملائكة^(٣) قال: وكان اسمه الحارث، قال: وكان خازناً من خُزَّان الجنة.

قال: وخلق الملائكة كلهم من نور غير هذا الحيّ، قال: وخلق الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا ألهبت، قال: وخلق

(١) الأثر: ٦٠٢ _ رواه الطبري في التاريخ ٤٣: ١، بهذا الإسناد.

(٢) الأثر: ٦٠٥ _ في ابن كثير ١: ١٢٧.

(٣) في المطبوعة في الموضعين "الجن" بالجيم، وهو خطأ، يدل عليه سياق هذا الأثر، فقد ميز ما بين إبليس، وبين الجن الذين ذكروا في القرآن، إبليس مخلوق من نار السموم، والآخرين خلقوا من مارج من نار. والجن (بالجيم) أول من سكن الأرض، وإبليس جاء لقتالهم في جند من الملائكة، وهذا بين، وقد قال الجاحظ في الحيوان ٧: ١٧٧، وبعض الناس يقسم الجن على قسمين فيقول: هم جن وحن (بالحاء)، ويجعل التي بالحاء أضعفها. وقال في ١: ٢٩١-٢٩٢، وبعض الناس يزعم أن الجن والجن صنفان مختلفان.

الإنسان من طين، فأول من سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضاً.

قال: فبعث الله تعالى إليهم إبليس في جند من الملائكة، وهم هذا الحي الذين يقال لهم الحن، فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، فلما فعل إبليس ذلك اغترّ في نفسه، وقال: قد صنعتُ شيئاً لم يصنعه أحد، قال: فاطلع الله على ذلك من قلبه، ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه، فقال الله للملائكة الذين معه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فقالت الملائكة مجيبين له: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، كما أفسدت الجن وسفكت الدماء، وإننا بُعثنا عليهم لذلك، فقال: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يقول: إني قد اطلعتُ من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه، من كبره واغتراره.

قال: ثم أمر بترية آدم فرفعت، فخلق الله آدم من طين لازب، واللازب: اللزج الصلب، من حمأ مسنون، أي: مُتَتِن، قال: وإنما كان حمأ مسنوناً بعد التراب، قال: فخلق منه آدم بيده، قال فمكث أربعين ليلة جسداً ملقى، فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله فيصلصل أي: فيصوت، قال: فهو قول الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾^(١)، يقول: كالشيء المنفوخ الذي ليس بمُصْمِت^(٢)، قال: ثم يدخل في فيه ويخرج من دُبُرِه، ويدخل من دُبُرِه ويخرج من فيه، ثم يقول: لست شيئاً، للصلصلة، ولشيء ما خلقت! لئن سُلِّطْتُ عليك

لأهلكنك، ولئن سُلِّطْتُ علي لأعصينك، قال: فلما نفخ الله فيه من روحه، أتت النفخة من قبل رأسه، فجعل لا يجري شيء منها في جسده إلا صار لحماً ودماً، فلما انتهت

(١) الآية: رقم ١٤ من سورة الرحمن.

(٢) المصمت: الذي لا جوف له، وكل ذي جوف إذ قرع صوت، أما المصمت فهو صامت لا صوت له. فمن الصمت أخذوه.

النفخة إلى سرته، نظر إلى جسده، فأعجبه ما رأى من حسنه، فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْجُولًا﴾^(١)، قال: ضَجِرًا لا صَبْرَ له على سَرَاءٍ ولا ضَرَاءٍ. قال: فلما تمت النفخة في جسده عطس، فقال: (الحمد لله رب العالمين)، بإلهام من الله تعالى، فقال الله له: (يرحمك الله يا آدم)، قال: ثم قال الله للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين في السموات: ﴿أَسْجُدُوا لِلْآدَمَ﴾^(٢)، ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(٣)، لما كان حدث به نفسه من كبره واغتراره، فقال: لا أسجد له، وأنا خير منه وأكبر سنًا وأقوى خلقًا، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾^(٤)، يقول: إن النار أقوى من الطين، قال: فلما أبى إبليس أن يسجد أبلسه الله، أي آيسه من الخير كله وجعله شيطانًا رجيمًا عقوبة لمعصيته.

قال أبو جعفر: وهذه الرواية عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، تُنبئ عن أن قول الله جل ثناؤه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، خطابٌ من الله جل ثناؤه لخاص من الملائكة دون الجميع، وأن الذين قيل لهم ذلك من الملائكة كانوا قبيلة إبليس خاصة الذين قاتلوا معه جن الأرض قبل خلق آدم ﷺ وأن الله إنما خصهم بقيل ذلك امتحانًا منه لهم وابتلاءً، ليعرفهم قصور علمهم وفضل كثير ممن هو أضعف خلقًا منهم من خلقه عليهم، وأن كرامته لا تنال بقوى الأبدان وشدة الأجسام، كما ظنه إبليس عدو الله.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٥).

(١) الآية: رقم ١١ من سورة الإسراء.

(٢) الآية: رقم ٣٤ من سورة البقرة.

(٣) الآيتان: رقم ٣٠-٣١ من سورة الحجر.

(٤) الآية: رقم ١٢ من سورة الأعراف.

(٥) الآية: رقم ٣٠ من سورة البقرة.

وقال الإمام الطبري رحمه الله: وَمُصَرِّحٌ بِأَن قِيلَهُمْ لِرَبِّهِمْ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، كانت هفوةً منهم ورجماً بالغيب، وأن الله جل ثناؤه أطلعهم على مكروه ما نطقوا به من ذلك، ووقفهم عليه حتى تابوا وأنابوا إليه مما قالوا ونطقوا من رَجَمَ الغَيْبَ بالظُّنُونِ، وتَبَرَّأُوا إِلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ الغَيْبَ غَيْرُهُ، وأظهر لهم من إبليس ما كان منظوياً عليه من الكبر الذي قد كان عنهم مستخفياً.

اطلع الله على ذلك منه، فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قالوا: ربنا، وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً، قالوا: ربنا، ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ، يعني: من شأن إبليس.

فبعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشينني، فرجع، ولم يأخذ، وقال: ربّ إنها عاذت بك فأعذتها، فبعث الله ميكائيل، فعاذت منه، فأعازها، فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث ملك الموت فعاذت منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض، وخلط فلم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين، فصعد به، قبل التراب حتى عاد طيناً لازباً، واللازب: هو الذي يلتزق بعضه ببعض، ثم ترك حتى أنتن وتغير، وذلك حين يقول الله تعالى: ﴿مِنَ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾^(١)، قال: متنن، ثم قال للملائكة: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾^(٢) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ^(٣)، فخلقه الله بيديه لكيلا يتكبر إبليس عنه، ليقول له: تتكبر عما عملت بيدي، ولم أتكبر أنا عنه؟ فخلقه بشراً، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة: فمرت به الملائكة ففرغوا منه لما رأوه.

(١) الآية: رقم ٢٦ من سورة الحجر.

(٢) الآيتان: رقم ٧١-٧٢ من سورة (ص).

وكان أشدهم منه فرعاً إبليس، فكان يمر به فيصوت الجسد كما يصوت الفخار وتكون له صلصلة، فذلك حين يقول الله جل وعلا: ﴿مِنْ صَلَٰصِلِ كَالْفَخَّارِ﴾^(١)، ويقول لأمر ما خلقت! ودخل من فيه فخرج من دبره، فقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا، فإن ربكم صمدٌ وهذا أجوف، لئن سلطت عليه لأهلكته، فلما بلغ الحين الذي يريد الله جل ثناؤه أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفختُ فيه من رُوحِي فاسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس، فقالت له الملائكة: قل الحمد لله، فقال الحمد لله، فقال له الله: رحمك ربك، فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجله عجلان إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول الله ﷻ: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾^(٢)، قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾^(٣) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ^(٤)، أي: استكبر وكان من الكافرين. قال الله له: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾^(٥)، وقال له سبحانه: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾^(٦)؟ فقال إبليس: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٧)، وقال عدو الله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَٰصِلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾^(٨) فقال الله له: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾^(٩)، يعني ما ينبغي لك أن تتكبر فيها، ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾^(١٠)، والصغار: هو الذل.

(١) الآية: رقم ١٤ من سورة الرحمن.

(٢) الآية: رقم ٣٧ من سورة الأنبياء.

(٣) الآيتان: رقم ٣٠_٣١ من سورة الحجر.

(٤) الآية: رقم ١٢ من سورة الأعراف.

(٥) الآية: رقم ٧٥ من سورة ص.

(٦) الآيتان: رقم ١٢ من سورة الأعراف.

(٧) الآية: رقم ٣٣ من سورة الحجر.

(٨) الآية: رقم ١٣ من سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْشِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

وقال الإمام الطبري رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾، وقوله ﷺ في معنى ﴿آدَمَ﴾: عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةِ قَبْضِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَالْأَبْيَضُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ)^(٢).

فعلى التأويل الذي تأول ﴿آدَمَ﴾: من تأوله، بمعنى أنه خُلِقَ من أديم الأرض، يجب أن يكون أَصْلُ ﴿آدَمَ﴾: فعلاً سُمِّيَ به أبو البشر، كما سمي: (أحمد) بالفعل من الإحَادِ، و(أسعد) من الإِسْعَادِ، فلذلك لم يُجَرَّ.

ويكون تأويله حيثئذ: آدَمَ الْمَلِكُ الْأَرْضَ، يعني به بلغ أدمتها وأدمتها: وجهها الظاهر لرأي العين، كما أَنَّ جلدة كل ذي جلدة له أدمة، ومن ذلك سُمِّيَ الْإِدَامُ إِدَامًا، لأنه صار كالجلدة العليا مما هي منه، ثم نقل من الفعل فجعل اسماً للشخص بعينه.

قوله تعالى: ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في الأسماء التي علمها آدَمَ ثم عَرَضَهَا عَلَى الْمَلَائِكَةِ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: (علم الله آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسانٌ ودابة، وأرضٌ وسهلٌ وبحرٌ وجبلٌ وحمارٌ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها)^(٣).

(١) الآية: رقم ٣١ من سورة البقرة.

(٢) الحديث: ٦٤٥_ هو حديث صحيح. ورواه أحمد في المسند ٤: ٤٠٠، ٤٠٦ (حلبى)، وابن سعد في الطبقات ١/١/٦٠٥، وأبو داود: ٤٦٩٣، والترمذي ٤: ٦٧-٦٨، والحاكم ٢: ٢٦١-٢٦٢، كلهم من طريق عوف بن أبي جميلة الأعرابي، عن قسامة بن زهير، به. قال الترمذي: "حسن صحيح". وقال الحاكم: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وذكره السيوطي ١: ٤٦، ونسبه لهؤلاء، ولعبد بن حيد، وابن المنذر، وابن مردويه، وغيرهم. ورواه أيضاً الطبري في التاريخ ١: ٤٦، بهذه الأسانيد التي هنا، بزيادة في آخره.

(٣) الخبر: ٦٤٦_ في ابن كثير ١: ١٣٢، والدر المنثور ١: ٤٩، والشوكاني ١: ٥٢ وقد مضى برقم: ٦٠٦، مطولاً.

وعن مجاهد، في قول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، قال: (علمه اسم كل شيء)^(١).

وعن مجاهد رحمه الله، قال: (علمه اسم الغراب والحمامة واسم كل شيء)^(٢).

وعن سعيد بن جبير رحمه الله، قال: (علمه اسم كل شيء، حتى البعير والبقرة والشاة)^(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (علمه اسم القصعة والفسوة والفُسيّة)^(٤).

وعن قتادة رحمه الله، قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، حتى بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٣) قَالَ يَتَادَمُ أَنْبَتْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، (فأنبأ كل صنف من الخلق باسمه، وأجاء إلى جنسه)^(٥).

وعن قتادة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، قال: (علمه اسم كل شيء، هذا جبل، وهذا بحر، وهذا كذا وهذا كذا، لكل شيء، ثم عرض تلك الأشياء على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين)^(٦)، وعن الحسن وقاتدة، قالوا: (علمه اسم كل شيء: هذه الخيل، وهذه البغال والإبل والجنّ والوحش، وجعل يسمي كل شيء باسمه)^(٧)، وقال آخرون: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾: أسماء الملائكة، وعن

(١) الأثران: ٦٤٧، ٦٤٨ _ في الدر المنثور ١: ٤٩، وكأنها اختصار لما بعدهما.

(٢) الأثر: ٦٤٩ _ لم أجده بنصه ولعله مطول الذي قبله، وانظر ما سيأتي رقم: ٦٦٦. و"مسلم الجرمي": ثبت في الأصول بالحاء. وقد مضى في: ١٥٤ ترجيحنا أنه بالجيم.

(٣) الأثر: ٦٥٠ _ في الدر المنثور ١: ٤٩.

(٤) الخبر: ٦٥١ _ سعيد بن معبد: تابعي، يروي عن ابن عباس، لم أجده له ترجمة إلا في التاريخ الكبير للبخاري ١/ ٢/ ٤٦٨، والجرح لابن أبي حاتم ١/ ٢/ ٦٣. وكلاهما ذكر أنه يروي عن ابن عباس، ويروي عنه: القاسم بن أبي بزة. فجاءنا الطبري بفائدة زائدة، في هذا الإسناد، وفي الإسناد: ٦٥٣: أنه يروي عنه أيضاً عاصم بن كليب. وهذا الخبر ذكره بنحوه: ابن كثير ١: ١٣٢، والسيوطي ١: ٤٩. ونسباه أيضاً لابن أبي حاتم. وهذا الخبر والثلاثة بعده، متقاربة المعنى، هي روايات لخبر واحد.

(٥) الأثر: ٦٥٥ _ في الدر المنثور ١: ٤٩، بغير هذا اللفظ. وانظر رقم: ٦٩٧.

(٦) الأثر: ٦٥٦ _ في ابن كثير ١: ١٣٣ مختصراً، وفي الدر المنثور ١: ٤٩ مطولاً وفي ابن كثير: "ثم عرض تلك الأسماء".

(٧) الأثر: ٦٥٧ _ في ابن كثير ١: ١٣٣ بغير هذا اللفظ مختصراً، وفي الدر المنثور ١: ٤٩، وسيأتي كما جاء فيها برقم: ٦٦٧.

الربيع ﷺ قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، قال: (أسماء الملائكة)^(١)، وقال آخرون: إنها علمه أسماء ذريته كلها، وقال ابن زيد في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، قال: (أسماء ذريته أجمعين)^(٢).

وأولى هذه الأقوال بالصواب، وأشبهها بما دل على صحته ظاهر التلاوة، قول من قال في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، إنها أسماء ذريته وأسماء الملائكة، دون أسماء سائر أجناس الخلق، وذلك أن الله جل ثناؤه قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾، يعني بذلك: أعيان المسَّمَّين بالأسماء التي علمها آدم، ولا تكاد العرب تكني بالهاء والميم إلا عن أسماء بني آدم والملائكة، وأما إذا كانت عن أسماء البهائم وسائر

الخلق سوى من وصفناها، فإنها تكني عنها بالهاء والألف أو بالهاء والنون، فقالت: (عرضهن) أو (عرضها)، وكذلك تفعل إذا كنت عن أصناف من الخلق كالبهائم والطيور وسائر أصناف الأمم وفيها أسماء بني آدم والملائكة، فإنها تكني عنها بما وصفنا من الهاء والنون أو الهاء والألف، وربما كنت عنها، إذا كان كذلك بالهاء والميم، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾^(٣)، فكنى عنها بالهاء والميم، وهي أصناف مختلفة فيها الآدمي وغيره، وذلك وإن كان جائزاً، فإن الغالب المستفيض في كلام العرب ما وصفنا، من إخراجهم كناية أسماء أجناس الأمم إذا اختلطت بالهاء والألف أو الهاء والنون.

فلذلك قلت: أولى بتأويل الآية أن تكون الأسماء التي علمها آدم أسماء أعيان بني آدم وأسماء الملائكة، وإن كان ما قال ابن عباس جائزاً على مثال ما جاء في كتاب الله من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾.

(١) الأثر: ٦٥٩ - في ابن كثير ١: ١٣٢، والدر المنثور ١: ٤٩، والشوكاني ١: ٥٢.

(٢) الأثر: ٦٦٠ - في ابن كثير ١: ١٣٢، والدر المنثور ١: ٤٩، والشوكاني ١: ٥٢.

(٣) الآية: رقم ٤٥ من سورة النور.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾، ويعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾، أي: ثم عرض أهل الأسماء على الملائكة، وقد اختلف المفسرون في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾، نحو اختلافهم في قوله جل وعلا: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، فعن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾، أي: (ثم عرض هذه الأسماء، يعني أسماء جميع الأشياء، التي علّمها آدم من أصناف جميع الخلق)^(١)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾، أي: (ثم علمه اسم كل شيء، ثم عرض الخلق على الملائكة)^(٢)، وقال ابن زيد: (أسماء ذريته كلها، أخذهم من ظهره)، قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾^(٣)، وعن قتادة رضي الله عنه: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾، قال: (عرض تلك الأسماء على الملائكة)^(٤)، وعن مجاهد: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾، أي: (عرض أصحاب الأسماء على الملائكة)^(٥)، وعن مجاهد: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾، يعني: (عرض الأسماء، الحماة والغراب)^(٦).

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنِثُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾، قال أبو جعفر: وتأويل قوله تعالى: ﴿أَنِثُونِي﴾: أخبروني.

فعن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿أَنِثُونِي﴾، يقول: (أخبروني بأسماء هؤلاء)^(٧)، ومنه قول نابغة بني ذبيان:^(٨)

وَأَنْبَاهُ النَّبِيُّ أَنَّ حَيًّا حُلُولُ مِنْ حَرَامٍ أَوْ جُذَامٍ^(٩)

(١) الخبر: ٦٦١ _ هو من تمام الآثار السالفة قريباً.

(٢) الخبر: ٦٦٢ _ مختصر من الخبر الطويل الماضي قريباً، وفي ابن كثير ١: ١٣٢.

(٣) الأثر: ٦٦٣ _ في الدر المنثور ١: ٤٩.

(٤) الأثر: ٦٦٤ _ مختصر أثر سلف بإسناده هذا، وفي ابن كثير ١: ١٣٣.

(٥) الأثر: ٦٦٥ _ في ابن كثير ١: ١٣٣، والدر المنثور ١: ٤٩، والشوكاني ١: ٥٢.

(٦) الأثر: ٦٦٦ _ في ابن كثير ١: ١٣٤، وانظر ما مضى قريباً بإسناده.

(٧) الخبر: ٦٦٨ _ مختصر من الخبر رقم: ٦٠٦.

(٨) ديوانه: ٨٧ من قصيدة له، في عمرو بن هند، وكان غزا الشام بعد قتل المنذر أبيه.

يعني بقوله: (أنبأه): أخبره وأعلمه.

قوله جل ذكره: ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾، قال أبو جعفر: فعن مجاهد رضي الله عنه في قول الله تعالى: ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾، قال: بأسماء هذه التي حدثت بها آدم، وعن مجاهد رضي الله عنه في قول الله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، يقول: (بأسماء هؤلاء التي حدثت بها آدم)^(١).

قوله تعالى ذكره: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في ذلك. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، إن كنتم تعلمون لم أجعل في الأرض خليفة^(٢).

وعن ابن عباس ابن مسعود رضي الله عنهما، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء^(٣).

وعن الحسن وقتادة رحمهما الله قالا: ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين^(٤).

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية، تأويل ابن عباس رضي الله عنهما ومن قال بقوله، ومعنى ذلك:

فقال أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيتها الملائكة القائلون: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ من غيرنا، أم منا؟ فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين في قيلكم أي إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني ذريته

(١) الأثران: ٦٦٩، ٦٧٠ - قال القرطبي: لم أجدهما في مكان.

(٢) الخبر: ٦٧١ - مختصر من الخبر السالف رقم ٦٠٦، وانظر التعليق، هناك على هذه الفقرة. وانظر الشوكاني ١: ٥٢.

(٣) الخبر: ٦٧٢ - مختصر من الخبر السالف رقم ٦٠٧، وابن كثير ١: ١٣٣، والدر المنثور ١: ٥٠، والشوكاني ١: ٥٢.

(٤) الأثر: ٦٧٣ - مختصر من الأثر السالف رقم ٦١١، وابن كثير ١: ١٣٣.

وأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعموني، واتبعتكم أمري بالتعظيم لي والتقديس، فإنكم إن كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضتكم عليكم من خلقي، وهم مخلوقون موجودون تروهم وتعاينونهم، وعلمه غيركم بتعليمي إياهم؛ فأنتم: بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد بعد، وبما هو مستتر من الأمور التي هي موجودة عن أعينكم أخرى أن تكونوا غير عالمين، فلا تسألوني ما ليس لكم به علم، فإني أعلم بما يصلحكم ويصلح خلقي وهذا الفعل من الله جل ثناؤه بملائكته الذين قالوا له: ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، من جهة عتابه جل ذكره إياهم نظير قوله جل جلاله لنبيه نوح صلوات الله عليه إذ قال: ﴿إِنَّ أَبْنَىٰ مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكِيمِينَ﴾^(١)، فقال له سبحانه: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢)، فكَذلك الملائكة سألت ربها أن تكون خلفاءه في الأرض ليسبحوه ويقدسوه فيها، إذ كان ذرية من أخبرهم أنه جاعله في الأرض خليفة، يفسدون فيها ويسفكون الدماء، فقال لهم جل ذكره: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني بذلك: إني أعلم أن بعضكم فاتح المعاصي وخائنها، وهو إبليس، منكراً بذلك تعالى ذكره قولهم، ثم عرفهم موضع هفوتهم في قيلهم ما قالوا من ذلك، بتعريفهم قصور علمهم عما هم له شاهدون عياناً، فكيف بما لم يروه ولم يخبروا عنه؟ بعرضه ما عرض عليهم من خلقه الموجودين يومئذ.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٣).

قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ذكره عن ملائكته، بالأوبة إليه، وتسليم علم ما لم يعلموه له، وتبرئهم من أن يعلموا أو يعلم أحد شيئاً إلا ما علمه تعالى ذكره.

(١) الآية: رقم ٤٥ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٤٦ من سورة هود.

(٣) الآية: رقم ٣٢ من سورة البقرة.

وفي هذه الآيات الثلاث العبرة لمن اعتبر، والذكرى لمن اذكر، والبيان لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد، عما أودع الله جل ثناؤه آيَ هذا القرآن من لطائف الحكم التي تعجز عن أوصافها الألسن.

وذلك أن الله جل ثناؤه احتجّ فيها لنبينا ﷺ على من كان بين ظهرانيه من يهود بني إسرائيل، بإطلاعه إياه من علوم الغيب التي لم يكن جل ثناؤه أطلع عليها من خلقه إلا خاصاً، ولم يكن مُدرّكاً علمه إلا بالإنباء والإخبار، لتتقرر عندهم صحة نبوته، ويعلموا أن ما أتاهم به فمن عنده، ودلّ فيها على أن كل مخبر خبراً عما قد كان، أو عما هو كائن مما لم يكن، ولم يأت به خبر، ولم يُوضع له على صحته برهان، فمتقوّل ما يستوجب به من ربه العقوبة.

ألا ترى أن الله جل ذكره ردّ على ملائكته قيلهم: **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴿١﴾، قال: **قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٢﴾، وعرفهم أن قيل ذلك لم يكن جائزاً لهم، بما عرفهم من قصور علمهم عند عرضه ما عرض عليهم من أهل الأسماء، فقال: **﴿فَقَالَ أَنِ غُوِيَ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** ﴿٣﴾، فلم يكن لهم مفرّجٌ إلا الإقرار بالعجز، والتبرّي إليه أن يعلموا إلا ما علمهم، بقولهم: **﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾** ﴿٤﴾.

قال: وأما تأويل قوله تعالى: **﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾** ﴿٤﴾، فهو: عن ابن عباس رضي الله عنهما: **﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾** ﴿٥﴾: تنزيهاً لله من أن يكون أحدٌ يعلم الغيب غيره، تُبنا إليك، **﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾** ﴿٦﴾، تبرّياً منهم من علم الغيب، **﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾** ﴿٧﴾، كما علمت آدم.

وسُبحان: مصدر لا تصرف له، ومعناه: نسبّحك، كأنهم قالوا: نسبّحك تسبيحاً، ونزهك تنزيهاً، ونبرّئك من أن نعلم شيئاً غير ما علمتنا.

قوله تعالى: **﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾** ﴿٨﴾، قال أبو جعفر: وتأويل ذلك: أنك أنت يا

ربنا العليم من غير تعليم بجميع ما قد كان وما وهو كائن، والعالم للغيوب دون جميع خلقك، وذلك أنهم نفّوا عن أنفسهم بقولهم: ﴿لَا عَلَمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ ، أن يكون لهم علم إلا ما علمهم ربهم، وأثبتوا ما نفّوا عن أنفسهم من ذلك لربهم بقولهم: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ، يعنون بذلك العالم من غير تعليم، إذ كان مَنْ سِوَاكَ لا يعلم شيئاً إلا بتعليم غيره إياه، والحكيم: هو ذو الحكمة.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿الْعَلِيمُ﴾: الذي قد كمل في علمه، و﴿الْحَكِيمُ﴾: الذي قد كمل في حكمه.

وقد قيل: إن معنى الحكيم: الحاكم، كما أنّ العليم بمعنى: العالم، والخير بمعنى: الخابر.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَكَاذِبُ أَتَبْتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(١).

قال أبو جعفر: إن الله جل ثناؤه عَرَفَ ملائكته الذين سألوه أن يجعلهم الخلفاء في الأرض، ووصفوا أنفسهم بطاعته والخضوع لأمره، دون غيرهم الذين يُفسدون فيها ويسفكون الدماء، أنهم من الجهل بمواقع تدبيره ومحلّ قضائه، قبل إطلاعه إياهم عليه، على نحو جهلهم بأسماء الذين عَرَضَهُمْ عليهم، إذ كان ذلك مما لم يعلمهم فيعلموه، وأنهم وغيرهم من العباد لا يعلمون من العلم إلا ما علمهم إياه ربهم، وأنه يخص بما شاء من العلم من شاء من الخلق، ويمنعه منهم من شاء، كما علم آدم أسماء ما عرض على الملائكة، ومنعهم علمها إلا بعد تعليمه إياهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَكَاذِبُ أَتَبْتُهُمْ﴾، يقول: أخبر الملائكة، والهاء والميم في قوله تعالى: ﴿أَتَبْتُهُمْ﴾، عائدتان على الملائكة، وقوله تعالى: ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾، يعني: بأسماء الذين

(١) الآية: رقم ٣٣ من سورة البقرة.

عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَالهَاءُ وَالْمِيمُ اللَّتَانِ فِي: ﴿يَأْتِيَهُمْ﴾: كناية عن ذكر ﴿هَؤُلَاءِ﴾ التي في قوله تعالى: ﴿أُنِثُّوْنِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾، يقول: فلما أخبر آدمُ الملائكةَ بأسماء الذين عرضهم عليهم، فلم يعرفوا أسماءهم، وأيقنوا خطأ قيلهم: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وأنهم قد هَفَوْا في ذلك وقالوا ما لا يعلمون كيفية وقوع قضاء ربهم في ذلك لو وقع، على ما نطقوا به، قال لهم ربهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، والغيب: هو ما غاب عن أبصارهم فلم يعاينوه؛ توبيخاً من الله جل ثناؤه لهم بذلك، على ما سلف من قيلهم، وفَرَطَ منهم من خطأ مسألتهم.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿يَقَادُمُ أَنْبِيَاهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ﴾، يقول: أخبرهم بأسمائهم، ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ﴾، قال: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ﴾ أيها الملائكة خاصة، ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولا يعلمه غيري^(١)، وقال ابن زيد في قصة الملائكة وآدم عليه السلام: فقال الله للملائكة: كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم، إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها، هذا عندي قد علمته، فكذلك أخفيتُ عنكم أني أجعل فيها من يعصيني ومن يُطيعني، قال: وَسَبَقَ مِنَ اللَّهِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٢)، قال: ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه، قال: فلما رأوا ما أعطى الله آدم عليه السلام من العلم أقروا لآدم عليه السلام بالفضل^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾، يقول: ما تظهرون، ﴿وَمَا

(١) الخبر: ٦٧٦ _ مختصر من الخبر السالف رقم: ٦٠٦.

(٢) الآية: رقم ١٣ من سورة السجدة.

(٣) الأثر: ٦٧٧ _ في ابن كثير ١: ١٣٥.

كُنْتُمْ تَكْنُتُونَ ﴿١﴾، يقول: أعلم السرّ كما أعلم العلانية، يعني: ما كنتم إبليس في نفسه من الكبر والاعتزاز^(١).

وعن ابن عباس ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُتُونَ﴾، قال: قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، فهذا الذي أبدوا، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُتُونَ﴾، يعني ما أسرّ إبليس في نفسه من الكبر^(٢).

وعن سعيد بن جبیر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُتُونَ﴾، قال: (ما أسرّ إبليس في نفسه)^(٣).

والخلاصة: قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو أن معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾، أي: وأعلم مع علمي غيب السموات والأرض ما تُظهرون بالستكم، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُتُونَ﴾، وما كنتم تخفونه في أنفسكم، فلا يخفى عليّ شيء، سواءً عندي سرائركم وعلانياتكم.

والذي أظهره بالستهم ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوه، وهو قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، والذي كانوا يكتُمونه، ما كان منطويًا عليه إبليس من الخلاف على الله في أمره، والتكبر عن طاعته، لأنه لا خلاف بين جميع أهل التأويل أن تأويل ذلك غير خارج من أحد الوجهين اللذين وصفت، وهو ما قلنا، والآخر ما ذكرنا من قول الحسن وقتادة، ومن قال إن معنى ذلك كتمان الملائكة بينهم لن يخلق الله خلقًا إلا كنا أكرم عليه منه.

فإذ كان لا قول في تأويل ذلك إلا أحد القولين اللذين وصفت، ثم كان أحدهما غير

(١) الخبر: ٦٧٨ _ في ابن كثير ١: ١٣٥، والدر المنثور ١: ٥٠، والشوكاني ١: ٥٢.

(٢) الخبر: ٦٧٩ _ في ابن كثير ١: ١٣٥، والدر المنثور ١: ٥٠، والشوكاني ١: ٥٢، وهو مختصر الخبر السالف رقم: ٦٠٦.

(٣) الأثر: ٦٨٠ _ لم أجده في مكان. وقد مضى في: ٦٤١ ترجمة (عمرو بن ثابت) وأبيه. وبيننا ما في ذلك من شبهة الخطأ في قوله: (عن جده)، وهذا الإسناد هنا صواب، لأن: (ثابت ابن هرمز) معروف بالرواية عن سعيد بن جبیر.

موجودة على صحته الدلالة من الوجه الذي يجب التسليم له صح الوجه الآخر.
 فالذي حكى عن الحسن وقتادة رحمهما الله ومن قال بقولهما في تأويل ذلك: غير
 موجودة الدلالة على صحته من الكتاب، ولا من خبر يجب به حجة.
 والذي قاله ابن عباس: يدل على صحته خبر الله جل ثناؤه عن إبليس وعصيانه إياه،
 إذ دعاه إلى السجود لآدم فأبى واستكبر، وإظهاره لسائر الملائكة من معصيته وكبره، ما
 كان له كاتماً قبل ذلك.

فإن ظن ظأن أن الخبر: عن كتمان الملائكة ما كانوا يكتُمونه، لما كان خارجاً مخرج الخبر
 عن الجميع، كان غير جائز أن يكون ما روي في تأويل ذلك عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومن
 قال بقوله: من أن ذلك خبر عن كتمان إبليس الكبر والمعصية صحيحاً، فقد ظن غير
 الصواب.

وذلك أن: من شأن العرب، إذا أخبرت خبراً عن بعض جماعة بغير تسمية شخص
 بعينه، أن تخرج الخبر عنه مخرج الخبر عن جميعهم، وذلك كقولهم: (قتل الجيش وهُزِموا)،
 وإنما قتل الواحد أو البعض منهم، وهزم الواحد أو البعض، فتخرج الخبر عن المهزوم
 منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ
 مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(١)، قال أبو جعفر: أمّا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾: فمعطوف على قوله
 تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾، كأنه قال جل ذكره: لليهود الذين كانوا بين
 ظهرائي مُهاجِر رسول الله ﷺ من بني إسرائيل، معدداً عليهم نعمه، ومذكراً لهم آله،
 على نحو الذي وصفنا فيما مضى قبل: اذكروا فعلي بكم إذ أنعمت عليكم، فخلقت لكم
 ما في الأرض جميعاً، وإذ قلت للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، فكرمت أباكم آدم

(١) الآية: رقم ٣٤ من سورة البقرة.

بما أتيته من علمي وفضلي وكرامتي، وإذا أسجدت له ملائكتي فسجدوا له، ثم استثنى من جميعهم إبليس، فدل باستثنائه إياه منهم على أنه منهم، وأنه ممن قد أمر بالسجود معهم، كما قال جل ثناؤه: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ (٢)، فأخبر جل ثناؤه أنه قد أمر إبليس فيمن أمره من الملائكة بالسجود لآدم، ثم استثناه جل ثناؤه مما أخبر عنهم أنهم فعلوه من السجود لآدم، فأخرجه من الصفة التي وصفهم بها من الطاعة لأمره، ونفى عنه ما أثبتته لملائكته من السجود لعبده آدم.

القول في معنى: (إِبْلِيسَ)، قال أبو جعفر: وإبليس (إفعل)، من الإبلاس، وهو الإياس من الخير والندم والحزن، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: (إبليس، أبلسه الله من الخير كله، وجعله شيطاناً رجيماً عقوبة لمعصيته) (٣)، قال أبو جعفر: وكما قال الله جل ثناؤه: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤)، يعني به: أنهم آيسون من الخير، نادمون حزناً، كما قال العجاج: يَا صَاحِبَ، هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسًا؟ قَالَ: نَعَمْ، أَعْرِفُهُ! وَأَبْلَسَا وقال رؤبة:

وَحَضَرَتْ يَوْمَ الْخَمِيسِ الْأَخْمَاسُ وَفِي الْوُجُوهِ صُفْرَةٌ وَإِبْلَاسُ

يعني به اكتئاباً وكسوفاً.

قوله تعالى: ﴿أَبَى﴾، يعني جل ثناؤه بذلك: إبليس، أنه امتنع من السجود لآدم فلم يسجد له، ﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾، يعني بذلك: أنه تعظم وتكبر عن طاعة الله في السجود لآدم، وهذا، وإن كان من الله جل ثناؤه خبراً عن إبليس، فإنه تقريرٌ لضربائه من خلق الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأمر الله، والانقياد لطاعته فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه،

(١) الآيتان: رقم ١١_١٢ من سورة الأعراف.

(٢) الحديث: (رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه من حديث عبد الحميد بن جعفر، عن سعيد ... وقد وقع نحو من

هذا لثابت بن قيس بن شماس _ رضي الله عنه، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس.....)

(٣) الآية: رقم ٤٤ من سورة الأنعام.

والتسليم له فيما أوجب لبعضهم على بعض من الحق.

وكان ممن تكبر عن الخضوع لأمر الله، والتذلل لطاعته، والتسليم لقضائه فيما ألزمهم من حقوق غيرهم اليهود الذين كانوا بين ظهرائي مُهاجِر رسول الله ﷺ، وأحبارهم الذين كانوا برسول الله ﷺ وصِفته عارفين، وبأنه لله رسول عالين، ثم استكبروا مع علمهم بذلك عن الإقرار بنبوته، والإذعان لطاعته، بَغْيًا منهم له وحسدًا، فقرَّعهم الله بخبره عن إبليس الذي فعل في استكباره عن السجود لآدم حسدًا له وبغْيًا، نظيرَ فعلهم في التكبر عن الإذعان لمحمد نبي الله ﷺ ونبوته، إذ جاءهم بالحق من عند ربهم حسدًا وبغْيًا.

ثم وَصَفَ إبليس بمثل الذي وصف به الذين ضربه لهم مثلاً في الاستكبار والحسد والاستنكاف عن الخضوع لمن أمره الله بالخضوع له، فقال جل وعلا: ﴿وَكَانَ﴾، يعني: إبليس، ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، من الجاحدين نعم الله عليه وأياديه عنده، بخلافه عليه فيما أمره به من السجود لآدم، كما كفرت اليهود نعم ربها التي آتاها وآبأها قبل: من إطعام الله أسلافهم المن والسلوى، وإظلال الغمام عليهم، وما لا يحصى من نعمه التي كانت لهم، خصوصًا ما خصَّ الذين أدركوا محمدًا ﷺ بإدراكهم إياه، ومشاهدتهم حجة الله عليهم، فجحدت نبوته بعد علمهم به، ومعرفتهم بنبوته حسدًا وبغْيًا، فنسبه الله جل ثناؤه إلى ﴿الْكَافِرِينَ﴾، فجعله من عدادهم في الدين والملة، وإن خالفهم في الجنس والنسبة، كما جعل أهل النفاق بعضهم من بعض، لاجتماعهم على النفاق، وإن اختلفت أنسابهم وأجناسهم، فقال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾^(١)، يعني بذلك: أن بعضهم من بعض في النفاق والضلال، فكذلك قوله في إبليس: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، كان منهم في الكُفْرِ بالله ومخالفته أمره، وإن كان مخالفًا جنسه أجناسهم ونسبه نسبهم.

(١) الآية: رقم ٦٧ من سورة التوبة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أنه كان حين أبى عن السجود من الكافرين حيثئذ.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، قال أبو جعفر: وفي هذه الآية دلالة واضحة على صحة قول من قال: إن إبليس أخرج من الجنة بعد الاستكبار عن السجود لآدم، وأسكنها آدم قبل أن يهبط إبليس إلى الأرض، ألا تسمعون الله جل ثناؤه يقول: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣٥) فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ، فقد تبين أن إبليس إنما أزلهما عن طاعة الله بعد أن لعن وأظهر التكبر، لأن سجود الملائكة لآدم عليه السلام كان بعد أن نفخ فيه الروح، وحيثئذ كان امتناع إبليس من السجود له، وعند الامتناع من ذلك حلت عليه اللعنة، كما:

جاء عن ابن عباس وعن ابن مسعود رضي الله عنهما، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: (أن عدو الله إبليس أقسم بعزة الله ليغوين آدم وذريته وزوجه، إلا عباده المخلصين منهم، بعد أن لعنه الله، وبعد أن أخرج من الجنة، وقبل أن يهبط إلى الأرض)^(٣).

ثم اختلف أهل التأويل في الحال التي خلقت لآدم زوجته، والوقت الذي جعلت له سكنًا.

وجاء عن ابن عباس وعن ابن مسعود رضي الله عنهما، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: (فأخرج إبليس من الجنة حين لعن، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشًا

(١) الآية: رقم ٣٥ من سورة البقرة.

(٢) الحديث: أورده الإمام الطبري في تفسيره قال: حدثني به موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدي في خبر ذكره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، ص: ٥١٣.

ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنت؟ فقالت: امرأة.

قال: ولم خلقت؟ قالت: تسكن إليّ، قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء.

قالوا: ولم سُميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حيّ، فقال الله له: ﴿يَتَّكُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، فهذا الخبر يُنبئ أن حواء خلقت بعد أن سكن آدم الجنة، فجعلت له سكنًا.

وقال آخرون: بل خلقت قبل أن يسكن آدم الجنة^(١).

قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، قال أبو جعفر: أما الرّغد، فإنه الواسع من العيش، الهنيء الذي لا يُعني صاحبه، يقال: أرغد فلان: إذا أصاب واسعًا من العيش الهنيء، كما قال امرؤ القيس بن حُجر:

بَيْنَمَا الْمَرْءُ تَرَاهُ نَاعِمًا ... يَأْمَنُ الْأَحْدَاثَ فِي عَيْشٍ رَغَدٍ^(٢)

وجاء عن ابن عباس وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ قال: الرغد، الهنيء، وعن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿رَغَدًا﴾، قال: لا حسابَ عليهم^(٣)، وعن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، أي: لا حسابَ عليهم^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، قال أبو جعفر: والشجر في كلام العرب: كل ما

(١) الأثر: ٧١٠_ في تاريخ الطبري ١: ٥٢، مع اختلاف في بعض اللفظ. وابن كثير ١: ١٤٢ والشوكاني ١: ٥٦، وقوله: "وحشًا" أي ليس معه غيره، خلوا. ومكان وحش: خال.

(٢) لم أجد البيت فيها جمعوا من شعر امرئ القيس.

(٣) الخبر: ٧١٢_ في الدر المنثور ١: ٥٢، والشوكاني ١: ٥٦.

(٤) الآثار: ٧١٣_ ٧١٥ في الدر المنثور ١: ٥٢، والشوكاني ١: ٥٦.

قام على ساق، ومنه قول الله جل ثناؤه: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾^(١)، يعني: بالنجم ما نجم من الأرض من نبت، وبالشجر ما استقل على ساق.

ثم اختلف أهل التأويل في عين الشجرة التي نهى عن أكل ثمرها آدم، فقال بعضهم: هي السنبلة، وقال بعضهم هي: البر.

فعن أبي مالك رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، قال: هي السنبلة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه كان يقول: الشجرة التي نهى عنها آدم: البر^(٢)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته، السنبلة^(٣)، وعن وهب بن منبه اليماني، أنه كان يقول: هي البر، ولكن الحبة منها في الجنة ككلى البقر، ألين من الزبد وأحلى من العسل، وأهل التوراة يقولون: هي البر^(٤).

وعن الحسن، قال: هي السنبلة التي جعلها الله رزقاً لولده في الدنيا، وقال أبو جعفر: وقال آخرون: هي الكرم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: هي الكرم.

وجاء عن ابن عباس وعن ابن مسعود رضي الله عنهما، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، قال: هي الكرم، وتزعم اليهود أنها الحنطة، وقال آخرون: هي التينة.

فعن ابن جريج رضي الله عنه، عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: تينة^(٥).

قال أبو جعفر رضي الله عنه: والقول في ذلك عندنا أن الله جل ثناؤه أخبر عباده أن آدم وزوجه

(١) الآية: رقم ٦ من سورة النجم.

(٢) الخبر: ٧٢٤ _ ابن كثير ١: ١٤٢، والدر المنثور ١: ٥٢، والشوكاني ١: ٥٦. والذي في ابن كثير: "عن رجل من أهل العلم، عن حجاج، عن مجاهد".

(٣) الأثر: ٧٢٥ _ في ابن كثير ١: ١٤٢.

(٤) الأثر: ٧٢٦ _ في ابن كثير ١: ١٤٢-١٤٣، والدر المنثور ١: ٥٢-٥٣. ولكن ليس فيها قوله "وأهل التوراة".

(٥) الأثر في ابن كثير ١: ١٤٢، والدر المنثور ١: ٥٣ والشوكاني ١: ٥٦.

أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَاَهُمَا رَبُّهُمَا عَنْ الْأَكْلِ مِنْهَا، فَأَتَيَا الْخَطِيئَةَ الَّتِي نَهَاَهُمَا عَنْ إِتْيَانِهَا بِأَكْلِهِمَا مَا أَكَلَا مِنْهَا، بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَهَا عَيْنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَاَهُمَا عَنْ الْأَكْلِ مِنْهَا، وَأَشَارَ لَهَا إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، وَلَمْ يَضَعْ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِعِبَادِهِ الْمُخَاطَبِينَ بِالْقُرْآنِ، دَلَالَةً عَلَى أَيِّ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ كَانَ نَهْيُهُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَقْرَبَهَا، بِنَصٍّ عَلَيْهَا بِاسْمِهَا، وَلَا بِدَلَالَةٍ عَلَيْهَا، وَلَوْ كَانَ لِلَّهِ فِي الْعِلْمِ بِأَيِّ ذَلِكَ مِنْ أَيِّ رَضَا، لَمْ يُحَلِّ عِبَادَهُ مِنْ نَصْبِ دَلَالَةٍ لَهُمْ عَلَيْهَا يَصِلُونَ بِهَا إِلَى مَعْرِفَةِ عَيْنِهَا، لِيَطِيعُوهُ بِعِلْمِهِمْ بِهَا، كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ فِي كُلِّ مَا بِالْعِلْمِ بِهِ لَهُ رَضَا، فَالْصَّوَابُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَقَالَ: إِنْ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ نَهَى آدَمَ وَزَوْجَتَهُ عَنْ أَكْلِ شَجَرَةٍ بَعَيْنِهَا مِنْ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ دُونَ سَائِرِ أَشْجَارِهَا، فَخَالَفَا إِلَى مَا نَهَاَهُمَا اللَّهُ عَنْهُ، فَأَكَلَا مِنْهَا كَمَا وَصَفَهُمَا اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِهِ، وَلَا عِلْمَ عِنْدَنَا أَيِّ شَجَرَةٍ كَانَتْ عَلَى التَّعْيِينِ، لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ لِعِبَادِهِ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا فِي السَّنَةِ الصَّحِيحَةِ، فَأَنَّى يَأْتِي ذَلِكَ؟ وَقَدْ قِيلَ: كَانَتْ شَجَرَةُ الْبَرِّ، وَقِيلَ: كَانَتْ شَجَرَةُ الْعَنْبِ، وَقِيلَ: كَانَتْ شَجَرَةُ التِّينِ، وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً مِنْهَا، وَذَلِكَ عِلْمٌ، إِذَا عُلِمَ لَمْ يَنْفَعِ الْعَالَمَ بِهِ عِلْمُهُ^(١)، وَإِنْ جَهِلَهُ جَاهِلٌ لَمْ يَضُرَّهُ جَهِلُهُ بِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فَقَالَ بَعْضُ نَحْوِيِّي الْكُوفِيِّينَ: تَأْوِيلُ ذَلِكَ: وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ، فَإِنْ كَسَا إِنْ قَرَبْتَاهَا كَتَبْنَا مِنَ الظَّالِمِينَ، فَصَارَ الثَّانِي فِي مَوْضِعِ جَوَابِ الْجَزَاءِ، وَجَوَابُ الْجَزَاءِ يَعْمَلُ فِيهِ أَوَّلُهُ، كَقَوْلِكَ: إِنْ تَقُمَ أَقُمَ، فَتَجْزَمُ الثَّانِي بِجَزْمِ الْأَوَّلِ.

فكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَكُونَا﴾، لَمَا وَقَعَتِ الْفَاءُ فِي مَوْضِعِ شَرْطِ الْأَوَّلِ نَصَبَ بِهَا، وَصُيرَتْ بِمَنْزِلَةِ: (كَي) فِي نَصْبِهَا الْأَفْعَالِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، لِلزُّومِهَا الْإِسْتِقْبَالَ، إِذْ كَانَ أَصْلُ الْجَزَاءِ الْإِسْتِقْبَالَ.

(١) الخبر: ٧٤٠ _ فِي ابْنِ كَثِيرٍ ١: ١٤٣، وَالْدُرُّ الْمَشْهُورُ ١: ٥٣، وَالشُّوْكَانِيُّ ١: ٥٦.

وقال بعض نحويي أهل البصرة: تأويل ذلك: لا يكن منكما قُربُ هذه الشجرة فأن تكونا من الظالمين، غير أنه زعم أن: (أن) غير جائز إظهارها مع (لا)، ولكنها مضمرة لا بد منها، ليصح الكلام بعطف اسم وهي (أن) على الاسم، كما غير جائز في قولهم: (عسى أن يفعل)، عسى الفعل، ولا في قولك: (ما كان ليفعل): ما كان لأن يفعل.

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وجهان من التأويل: أحدهما: أن يكون: ﴿فَتَكُونَا﴾، في نية العطف على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾، فيكون تأويله حيثنذ: ولا تقربا هذه الشجرة ولا تكونا من الظالمين، فيكون: ﴿فَتَكُونَا﴾، حيثنذ في معنى الجزم مجزوماً بما جُزم به ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾، كما يقول القائل: لا تكلم عمرا ولا تؤذه، وكما قال امرؤ القيس:

فَقُلْتُ لَهُ: صَوِّبْ وَلَا تَجْهَدْنَهُ ...

فَيُذْرِكَ مِنْ أُخْرَى الْقَطَاةِ فَتَزْلَقُ^(١)

فجزم: (فيذرك) بما جزم به: (لا تجهدنه)، كأنه كرّر النهي.

والثاني: أن يكون: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، بمعنى جواب النهي، فيكون تأويله حيثنذ: لا تقربا هذه الشجرة، فإنكما إن قُربتَها كُتبتا من الظالمين، كما تقول: لا تشتم عمرا فيشتُمك، مجازاة، فيكون: ﴿فَتَكُونَا﴾، حيثنذ في: موضع نصب، إذ كان حرفاً عطف على غير شكله، لما كان في: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾، ديوانه، من رواية الأعم الشتمري، القصيدة رقم: ٣٠، البيت: ٢٦، وفي معاني القرآن للفراء ١: ٢٦، ونسبه سيوييه في الكتاب ١: ٤٥٢، لعمر بن عمار الطائي.

حرف عامل فيه، ولا يصلح إعادته في: ﴿فَتَكُونَا﴾، فنصب على ما قد بينت في أول هذه المسألة.

(١) ديوانه، من رواية الأعم الشتمري، القصيدة رقم: ٣٠، البيت: ٢٦، وفي معاني القرآن للفراء ١: ٢٦، ونسبه سيوييه في الكتاب ١: ٤٥٢، لعمر بن عمار الطائي.

وأما تأويل قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فإنه يعني به: فتكونا من المتعدين إلى غير ما أذن لهم وأبيح لهم فيه، وإنما عني بذلك أنكما إن قربتما هذه الشجرة، كنتما على منهاج من تعدى حدودي، وعصى أمري، واستحل محارمي، لأن الظالمين بعضهم أولياء بعض، والله وليّ المتقين.

وأصل (الظلم) في كلام العرب: وضع الشيء في غير موضعه، ومنه قول نابغة بني ذبيان:

إِلَّا أَوَارِيَّ لَيَا مَا أُبَيِّنُهَا ... وَالتَّوَيَّ كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَلَدِ

فجعل الأرض مظلومة، لأن الذي حفر فيها التوى حفر في غير موضع الحفر، فجعلها مظلومة، لموضع الحفرة منها في غير موضعها، ومن ذلك قول ابن قميّة في صفة غيث:

ظَلَمَ الْبِطَاحُ بِهَا انْهَالُ حَرِيصَةٍ ... فَصَفَا النَّطَافُ لَهُ بُعِيدَ الْمُقْلَعِ

وظلمه إياه: مجيئه في غير أوانه، وانصبابه في غير مصبّه، ومنه: ظلم الرجل جزوره، وهو نحره إياه لغير علة، وذلك عند العرب وَضَعَ النحر في غير موضعه.

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(١).

قال الإمام الطبري رحمه الله: قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾، قال أبو جعفر: اختلفت القرأة في قراءة ذلك: فقرأته عامتهم: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾، بتشديد اللام، بمعنى: استزلّهما، من قولك: زلّ الرجل في دينه: إذا هفا فيه وأخطأ، فأتى ما ليس له إتيانه فيه، وأزله غيره: إذا سبب له ما يزلّ من أجله في دينه أو دنياه، ولذلك أضاف الله تعالى ذكره إلى إبليس خروج آدم وزوجته من الجنة، فقال سبحانه:

﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ يعني: إبليس ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، لأنه كان الذي سبّب لهما الخطيئة التي

(١) الآية: رقم ٣٦ من سورة البقرة.

عاقبها الله عليها بإخراجها من الجنة، وقرأه آخرون: ﴿فَازِلَهُمَا﴾، بمعنى: إزالة الشيء عن الشيء، وذلك تنحيته عنه.

وقد روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تأويل قوله تعالى: ﴿فَازِلَهُمَا﴾، قال: أغواهما^(١). فعن ابن إسحاق قال: حدثت: أن أول ما ابتدأهما به من كيدِهِ إياهما، أنه ناح عليهما نياحةً أحزنتهما حين سماعها، فقالا: ما يبكيك؟ قال: أبكي عليكما، تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة والكرامة، فوقع ذلك في أنفسهما، ثم أتاها فوسوس إليهما، فقال: ﴿يَتَكَادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾^(٢).

وقال: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾^(٣).

أي: تكونا مَلَكَينَ، أو تخلدا، إن لم تكونا ملكين في نعمة الجنة فلا تموتان^(٤)، يقول الله جل ثناؤه: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾^{(٥)(٦)}، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن عدو الله إبليس عرض نفسه على دواب الأرض أتيها يحمله حتى يدخل الجنة معها ويكلم آدم وزوجته، فكلّ الدواب أبى ذلك عليه، حتى كَلَّم الحية فقال لها: أمنعك من ابن آدم، فأنت في ذمتي إن أنت أدخلتني الجنة.

فجعلته بين نايتين من أنيابها، ثم دخلت به، فكلمهما من فيها، وكانت كاسية تمشي على أربع قوائم، فأعراها الله وجعلها تمشي على بطنها.

قال: يقول ابن عباس: (اقتلوا حيث وجدتموها، أخفروا ذمة عدو الله فيها)^(٧).

(١) الخبر: ٧٤١ - في الدر المنثور ١: ٣٥، والشوكاني ١: ٥٦.

(٢) الآية: رقم ١٢٠ من سورة طه.

(٣) الآية: رقم ٢٠ من سورة الأعراف.

(٤) الخبر: ٧٤١ - في الدر المنثور ١: ٥٣، والشوكاني ١: ٥٦.

(٥) الأثر: ٧٤٧ - في تاريخ الطبري ١: ٥٥.

(٦) الآية: رقم ٢٠ من سورة الأعراف.

(٧) الأثر: ٧٤٨ - في تاريخ الطبري ١: ٥٥.

والخلاصة:

قال أبو جعفر: وقد رُويت هذه الأخبار عن روينها عنه من الصحابة والتابعين وغيرهم في صفة استزلال إبليس عدو الله آدم وزوجته حتى أخرجهما من الجنة.

وأولى ذلك بالحق عندنا ما كان لكتاب الله موافقاً، وقد أخبر الله تعالى ذكره عن إبليس أنه وسوس لآدم وزوجته ليبدي لهما ما وُري عنهما من سَوَاتِمَا، وأنه قال لهما: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾، وأنه: ﴿وَقَاسَمُهُمَا إِنْى لَكُمَا لَئِنْ أَتَيْتُمَا هَٰذِهِ النَّصْحَيْنِ﴾، مُدْلِيَا لهما بغرور، ففي إخباره جل ثناؤه عن عدو الله أنه قاسم آدم وزوجته بقبيله لهما: ﴿إِنْى لَكُمَا لَئِنْ أَتَيْتُمَا هَٰذِهِ النَّصْحَيْنِ﴾، الدليل الواضح على أنه قد باشر خطابهما بنفسه، إما ظاهراً لأعينهما، وإما مستجناً في غيره، وذلك أنه غير معقول في كلام العرب أن يقال: قاسم فلان فلاناً في كذا وكذا، إذا سبب له سبباً وصل به إليه دون أن يحلف له، والحلف لا يكون بتسبب السبب، فكذا قال تعالى: ﴿فَوَسَّوْا لِلَّهِ الشَّيْطَانُ﴾، لو كان ذلك كان منه إلى آدم على النحو الذي منه إلى ذريته، من تزيين أكل ما نهى الله آدم عن أكله من الشجرة، بغير مباشرة خطابه إياه بما استزله به من القول والحيل لما قال جل ثناؤه: ﴿وَقَاسَمُهُمَا إِنْى لَكُمَا لَئِنْ أَتَيْتُمَا هَٰذِهِ النَّصْحَيْنِ﴾، كما غير جائز أن يقول اليوم قائلٌ من أتى معصية: قاسمني إبليس أنه لي ناصحٌ فيما زَيَّن لي من المعصية التي أتيها، فكذا الذي كان من آدم وزوجته، لو كان على النحو الذي يكون فيما بين إبليس اليوم وذرية آدم لما قال جل ثناؤه: ﴿وَقَاسَمُهُمَا إِنْى لَكُمَا لَئِنْ أَتَيْتُمَا هَٰذِهِ النَّصْحَيْنِ﴾، ولكن ذلك كان إن شاء الله على النحو ما قال ابن عباس ومن قال بقوله.

فأما سبب وصوله إلى الجنة حتى كلم آدم بعد أن أخرجه الله منها وطرده عنها، فليس فيما رُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ووهب بن منبه في ذلك معنى يجوز لذي فهم مُدَافَعَتُهُ، إذ كان ذلك قولاً لا يدفعه عقل ولا خبر يلزم تصديقه من حجة بخلافه، وهو من الأمور الممكنة.

والقول في ذلك أنه: وصل إلى خطابها على ما أخبرنا الله جل ثناؤه، ويمكن أن يكون وصل إلى ذلك بنحو الذي قاله المتأولون، بل ذلك إن شاء الله كذلك، لتتابع أقوال أهل التأويل على تصحيح ذلك، وإن كان ابن إسحاق قد قال في ذلك والله أعلم، كما قال ابن عباس وأهل التوراة: إنه خلص إلى آدم وزوجته بسُلطانه الذي جعل الله له لبيتلي به آدم وذريته، وأنه يأتي ابن آدم في نومه وفي يقظته، وفي كل حال من أحواله، حتى يخلص إلى ما أراد منه، حتى يدعو إلى المعصية، ويوقع في نفسه الشهوة وهو لا يراه، وقد قال الله ﷻ: ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَنْبَغِيءَ آدَمَ لَا يَفْنِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَرِيَهُمَا إِنَّهُ يَبْرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١)، وقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ ۝٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾^(٢).

ثم ذكر الأخبار التي رويت عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)^(٣)، ثم قال ابن إسحاق: وإنما أمر ابن آدم فيما بينه وبين عدو الله، كأمره فيما بينه وبين آدم، فقال الله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾^(٤)، ثم خلص إلى آدم وزوجته حتى كلمهما، كما قص الله علينا من خبرهما، فقال: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَذَكَّرُ هَلْ أَذْلَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾^(٥)، فخلص إليهما بما خلص إلى ذريته من حيث لا يريانه فالله أعلم أي ذلك كان فتابا إلى ربهما.

(١) الآية: رقم ٢٧ من سورة الأعراف.

(٢) الآيات: رقم ١-٦ من سورة الناس.

(٣) الحديث: صحيح رواه أحمد والشيخان وأبو داود، من حديث أنس، ورواه الشيخان وأبو داود وابن ماجه، من حديث صفية، وهي بنت حبي، أم المؤمنين، كما في الجامع الصغير: ٢٠٣٦.

(٤) الآية: رقم ٣١ من سورة الأعراف.

(٥) الآية: رقم ١٢٠ من سورة طه.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، قال أبو جعفر: وأما تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾، فإنه يعني: فأخرج الشيطان آدم وزوجته، ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، يعني: مما كان فيه آدم وزوجته من رغد العيش في الجنة، وسعة نعيمها الذي كانا فيه.

وقد بينا أن الله جل ثناؤه إنما أضاف إخراجهما من الجنة إلى الشيطان وإن كان الله هو المخرج لهما لأن خروجهما منها كان عن سبب من الشيطان، فأضيف ذلك إليه لتسبيبه إياه، كما يقول القائل: لرجل وصل إليه منه أذى حتى تحول من أجله عن موضع كان يسكنه: (ما حولني من موضعي الذي كنت فيه إلا أنت)، ولم يكن منه له تحويل، ولكنه لما كان تحولاً عن سبب منه، جاز له إضافة تحويله إليه.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، قال أبو جعفر: يقال هبط فلان أرض كذا ووادي كذا، إذا حل ذلك الموضع كما قال الشاعر:

مَا زِلْتُ أَرْمُقُهُمْ، حَتَّى إِذَا هَبَطْتُ ... أَيْدِي الرِّكَابِ بِهِمْ مِنْ رَاكِسٍ فَلَقَا^(١)

وقد أبان هذا القول من الله جل ثناؤه، عن صحة ما قلنا من أن المخرج آدم من الجنة هو الله جل ثناؤه، وأن إضافة الله إلى إبليس ما أضاف إليه من إخراجهما، كان على ما وصفنا.

ودلّ بذلك أيضاً على أن: هبوط آدم وزوجته وعدوهما إبليس، كان في وقت واحد، بجمع الله إياهم في الخبر عن إهاباتهم، بعد الذي كان من خطيئة آدم وزوجته، وتسبب إبليس ذلك لهما، على ما وصفه ربنا جل ذكره عنهم.

قال أبو جعفر: وقد اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾، مع إجماعهم

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، ديوانه: ٣٧، أرمقهم: يعني أحبابه الراحلين، وينظر إليهم حزناً كثيلاً، والركاب: الإبل التي يرحل عليها. وراكس: واد في ديار بني سعد بن ثعلبة، من بني أسد. وفلق: المطمئن من الأرض بين ربوتين أو جبلين أو هضبتين، وقالوا: فلق وفلق، كما قالوا: يابس ويبس (بفتحتين).

على أن آدم وزوجته ممن عني به، فعن أبي صالح: ﴿أَهْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، قال: آدم وحواء وإبليس والحية^(١).

وعن مجاهد: ﴿أَهْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، آدم وإبليس والحية، ذرية بعضهم أعداء لبعض، وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿أَهْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، قال: لها ولذريتهما. قيل: أما عداوة إبليس آدم وذريته، فحسده إياه، واستكباره عن طاعة الله في السجود له حين قال لربه: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾^(٢).

وأما عداوة آدم وذريته إبليس، فعداوة المؤمنين إياه لكفره بالله وعصيانه لربه في تكبره عليه ومخالفته أمره، وذلك من آدم ومؤمني ذريته إيماناً بالله، وأما عداوة إبليس آدم فكفر بالله، وأما عداوة ما بين آدم وذريته والحية، فقد ذكرنا ما روي في ذلك عن ابن عباس ووهب بن منبه، وذلك هي العداوة التي بيننا وبينها، كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مَا سَالِمَانُهُنَّ مُنْذَ حَارَبْنَاهُنَّ، فَمَنْ تَرَكَهُنَّ خَشِيَةً ثَارَهُنَّ فَلَيْسَ مِنَّا)^(٣).

عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مَا سَالِمَانُهُنَّ مُنْذَ حَارَبْنَاهُنَّ، فَمَنْ تَرَكَ شَيْئًا مِنْهُنَّ خِيفَةً، فَلَيْسَ مِنَّا)^(٤)، قال أبو جعفر: وأحسب أن الحرب التي بيننا، كان أصله ما ذكره علماؤنا الذين قدمنا الرواية عنهم، في إدخالها إبليس الجنة بعد أن أخرجه الله منها، حتى استزله عن طاعة ربه في أكله ما نهي عن أكله من الشجرة.

(١) الأثر: ٧٥٤ _ في الدر المنثور ١: ٥٥.

(٢) الآية: رقم ١٣ من سورة الأعراف.

(٣) والحديث رواه أحمد في المسند: ٩٥٨٦، عن يحيى _ وهو القطان، ١٠٧٥٢، عن صفوان _ وهو ابن عيسى الزهري، كلاهما عن ابن عجلان، به (٢: ٤٣٢، ٥٢٠ من طبعة الحلبي). ورواه أيضاً قبل ذلك مختصراً: ٧٣٦٠ (٢: ٢٤٧) عن سفيان بن عيينة. ورواه أبو داود: ٥٢٤٨ (٤: ٥٣٤) عون المعبود، من طريق سفيان، تاماً. وهذه أسانيد صحاح، وورد معناه من حديث ابن عباس، في المسند أيضاً: ٢٠٣٧، ٣٢٥٤. وقريب من معناه من حديث ابن مسعود، في المسند أيضاً: ٣٩٨٤.

(٤) الحديث: رواه أبو داود في سننه كتاب الأدب أبواب النوم حديث رقم ٤٦٣٣، الإمام أحمد في مسنده _ ج ٧ _ ٧١٤٦ - ٧٨٧٠.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم:

قال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، قال: هو قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾^(١)، وقال الربيع في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، قال: هو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾^(٢)، وقال آخرون: معنى ذلك: ولكم في الأرض قرار في القبور، وعن السدي رحمه الله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، يعني: القبور^(٣)، قال ابن زيد: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، قال: مقامهم فيها^(٤).

قال أبو جعفر رحمه الله: والمستقر في كلام العرب، هو موضع الاستقرار، فإذا كان ذلك كذلك، فحيث كان من في الأرض موجودًا حالًا فذلك المكان من الأرض مستقره. إنما عنى الله جل ثناؤه بذلك: أن لهم في الأرض مستقرًا ومنزلًا بأماكنهم ومستقرهم من الجنة والسماء.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُكُمْ﴾، يعني به: أن لهم فيها متاعًا بمتاعهم في الجنة. قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُكُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: ولكم فيها بلاغ إلى الموت.

فعن السدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُكُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، قال يقول: بلاغ إلى الموت، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمَتَّعُكُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، قال: الحياة، وقال آخرون: يعني بقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُكُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى قيام الساعة، وعن مجاهد رحمه الله: ﴿وَمَتَّعُكُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، قال: إلى يوم

(١) الآية: رقم ٢٢ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ٦٤ من سورة غافر.

(٣) الأثر: ٧٦٧ _ لم أجده في مكان.

(٤) الأثر: ٧٦٩ _ لم أجده في مكان.

القيامة، إلى انقطاع الدنيا، وقال آخرون: ﴿إِلَى حِينٍ﴾، قال: إلى أجل، وعن الربيع: ﴿وَمَتَّعُ إِلَى حِينٍ﴾، قال: إلى أجل.

والمَتَاعُ في كلام العرب: كل ما استمتع به من شيء، من معاش استمتع به أو رِياش أو زينة أو لذة أو غير ذلك، فإذا كان ذلك كذلك وكان الله جل ثناؤه قد جعل حياة كل حيٍّ متاعاً له يستمتع بها أيام حياته، وجعل الأرض للإنسان متاعاً أيام حياته، بقراره عليها، واغتذائه بها أخرج الله منها من الأقوات والثمار، والتذاذه بها خلق فيها من الملاذِّ، وجعلها من بعد وفاته لجنّته كِفَاتاً، ولجسمه منزلاً وقراراً وكان اسم المتاع يشمل جميع ذلك.

وقال الإمام الزجاج رحمه الله: قوله ﷻ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، معناه: أنهما أزلّا بإغواء الشيطان إياهما، فصار كأنّه أزلَّهُما، كما تقول للذي يعمل ما يكون وصلة إلى أن يزلّك من حال جميلة إلى غيرها: أنت أزللتني عن هذا، أي: قبولي منك أزلني، فصرت أنت المزيل لي، ومعنى الشيطان في اللغة الغالي في الكفر المتبعد فيه من الجن والإنس، والشَّطْنُ في لغة العرب الخَبْلُ، والأرض الشطون: البعيدة، وإنما الشيطان فيُعال من هذا، وقد قرئ: ﴿فَأَزَاهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ من زُلْتُ وأزَلّني غيري، وأزلهما من زَلَلْتُ وأزكني غيري، ولزَلْتُ ههنا وجهان: يصلح أن: يكون فأزلهما الشيطان، أي: أكسبهما الزلة والخطيئة، ويصلح أن: يكون فأزلهما، أي: نَحَاهما، وكلا القراءتين صواب حسن.

وقوله ﷻ: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، جمع الله تعالى للنبي ﷺ قصة هبوطهم، وإنما كان إبليس اهبط أولاً، والدليل على ذلك قوله ﷻ: ﴿فَأَخْرَجْ مِنْهَا فِرْعَسًا﴾^(١)، وأهبط آدم وحواء بعد، فجمع الخبر للنبي ﷺ لأنهم قد اجتمعوا في الهبوط وإن كانت أوقاتهم متفرقة فيه.

وقوله ﷻ: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، إبليس عدو للمؤمنين من ولد آدم، وعداوته لهم

(١) الآية: رقم ٣٤ من سورة الحجر.

كفر، والمؤمنون أعداء إبليس، وعداوتهم له إيمان.

وقوله ﷺ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، أي: مُقَام وثبوت

وقوله ﷺ: ﴿وَمَتَّعُ إِلَىٰ حِينٍ﴾، قال قوم: معنى الحين ههنا إلى يوم القيامة، وقال قوم: إلى فناء الآجال، أي: كل مستقر إلى فناء أجله، والحين والزمان في اللغة منزلة واحدة، وبعض الناس يجعل الحين في غير هذا الموضع ستة أشهر، دليله قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيهِمْ أَكْلَهُمَا كُلَّ حِينٍ يَأْذِنَ رَبُّهُمَا﴾^(١).

وإنما (كل حين) ههنا: جُعِلَ لمدة معلومة والحين يصلح للأوقات كلها، إلا أنه في الاستعمال في الكثير منها أكثر، يقال ما رأيتك منذُ حين، تريد منذ حين طويل، والأصل على ما أخبرنا به.

وقال الإمام ابن أبي حاتم رحمه الله: قوله ﷺ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، فعن عاصم بن بهدلة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، قال: فنحاهما، وعن الحسن: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، قال: من قبل الزلل، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ الشيطان، قال: فأغواهما.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، فعن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله ﷻ خلق آدم رجلا طوالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعها، فناداه الرحمن يا آدم مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن، قال: يا رب لا ولكن استحياء)^(٢).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لما ذاق آدم من الشجرة فر هاربا

(١) الآية: رقم ٢٥ من سورة إبراهيم.

(٢) الحديث: رواه الحاكم وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي قي التلخيص: صحيح.

فتعلقت شجرة بشعره فنودي: يا آدم، أفراراً مني؟ قال: بل حياء منك، قال: يا آدم اخرج من جوارى، فبعزتي لا أساكن فيها من عصائي، ولو خلقت ملء الأرض مثلك خلقاتم عصوني لأسكتهم دار العاصين^(١).

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا﴾، عن رجاء بن أبي سلمة قال: (أهبط آدم يديه على ركبتيه مطأطئاً رأسه، وأهبط إبليس مشبكاً بين أصابعه رافعاً رأسه إلى السماء)^(٢).

وقوله ﷻ: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، قال: (آدم وحواء وإبليس والحية)^(٣).

وقوله ﷻ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، قال: المستقر: القبور^(٤)، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، قال: (مستقر فوق الأرض، ومستقر تحت الأرض)^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْ﴾، عن السدي قوله: ﴿وَمَتَّعْ إِلَى حِينٍ﴾، يقول: (بلاغ إلى الموت)^(٦)، قوله: ﴿إِلَى حِينٍ﴾، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ﴿وَمَتَّعْ إِلَى حِينٍ﴾، قال: (الحياة)، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ﴿وَمَتَّعْ إِلَى حِينٍ﴾، قال: (حتى يصير إلى الجنة أو النار)^(٧)، وعكرمة: ﴿وَمَتَّعْ إِلَى حِينٍ﴾، قال: الحين: الذي لا يدرك.

(١) الحديث: ورد في تفسير ابن أبي حاتم برقم ٣٨٩ ص ٨٨، والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور.

(٢) الأثر: ورد في تفسير ابن أبي حاتم ج ٥ ص ١٤٥٥ برقم ٨٣١٣.

(٣) الأثر: أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) الأثر: أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٥) الأثر: رواه ابن أبي حاتم.

(٦) الأثر: قال الإمام الطبري رقم ٧٧٠ لم أجده في مكان.

(٧) الأثر: ٧٧١ _ في الدر المنثور ١: ٥٥، وهو من تمام الأثرين: ٧٦١، ٧٦٨.

قوله تعالى: ﴿فَلَقَّحَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَقَّحَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾، قال أبو جعفر: أما تأويل قوله تعالى: (فتلقى آدم)، فقيل: إنه أخذ وقيل، وأصله التفعّل من اللقاء، كما يتلقى الرجل الرجل مُستقبله عند قدومه من غيبته أو سفره، فكان ذلك كذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَقَّحَ﴾، كأنه استقبله فتلقاه بالقبول حين أوحى إليه أو أخبر به، فمعنى ذلك إذاً: فلقي الله آدم كلمات توبة، فتلقاها آدم من ربه وأخذها عنه تائباً، فتاب الله عليه بقبوله إياها، وقبوله إياها من ربه، قال ابن زيد في قوله: ﴿فَلَقَّحَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾، قال: لقّاها هذه الآية: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢).

وقد قرأ بعضهم: (فتلقى آدم من ربه كلمات)، فجعل الكلمات هي المتلقى آدم وذلك، وإن كان من وجهة العربية جائزاً إذ كان كل ما تلقاه الرجل فهو له مُتلقٍّ، وما لقيه فقد لقيه، فصار للمتكلم أن يوجه الفعل إلى أيها شاء، ويخرج من الفعل أيها أحب، فغير جائز عندي في القراءة إلا رفع ﴿آدَمُ﴾ على أنه المتلقي الكلمات، لإجماع الحجة من القراءة وأهل التأويل من علماء السلف والخلف، على توجيه التلقي إلى آدم دون الكلمات، وغير جائز الاعتراض عليها فيما كانت عليه مجمعة، بقول من يجوز عليه السهو والخطأ.

واختلف أهل التأويل في أعيان الكلمات التي تلقاها آدم من ربه، فقال بعضهم: كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَلَقَّحَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، قال: (أي: رب! ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: أي: رب، ألم تنفخ فيّ من روحك؟ قال: بلى، قال: أي: رب، ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: أي: رب، ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى، قال: أرأيت إن أنا تبت وأصلحت، أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم).

(١) الآية: رقم ٣٧ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ٢٣ من سورة الأعراف.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَثَابَ عَلَيْهِ﴾، قال: إن آدم عليه السلام قال لربه إذ عصاه: (ربُّ أَرَأَيْتَ إِنْ أَنَا تَبْتُ وَأَصْلَحْتُ؟) فقال له ربه: (إني راجعك إلى الجنة)^(١).

وعن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿فَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَثَابَ عَلَيْهِ﴾، قال: إن آدم لما أصاب الخطيئة قال: (يا رب، أَرَأَيْتَ إِنْ تَبْتُ وَأَصْلَحْتُ؟) فقال الله: (إِذَا أَرَجَعْتُكَ إِلَى الْجَنَّةِ)، فهي من الكلمات، ومن الكلمات أيضاً: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فعن السَّدي: ﴿فَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَثَابَ عَلَيْهِ﴾، قال: (ربُّ، أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ؟) قيل له: (بلى)، قال: (ونفخت في من روحك؟) قيل له: (بلى)، قال: (وسبقت رحمتك غضبك؟) قيل له: (بلى)، قال: (ربُّ هل كنت كتبت هذا عليّ؟)، وقال آخرون: روي عن سفيان، عن عبد العزيز بن رُفيع، قال: حدثني من سمع عُبيد بن عمير يقول: قال آدم عليه السلام: (يا رب، خطيئتي التي أخطأتها، أشيء كتبه عليّ قبل أن تخلقني، أو شيء ابتدعته من قبل نفسي؟) قال: (بلى، شيء كتبه عليك قبل أن أخلقك)، قال: (فكما كتبه عليّ فاغفره لي)، قال: فهو قول الله: ﴿فَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾، وقال آخرون بما: روي عن عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية، أنه قال: قوله تعالى: ﴿فَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَثَابَ عَلَيْهِ﴾، قال آدم عليه السلام: (اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك، تب عليّ إنك أنت التواب الرحيم)^(٢).

والخلاصة: أن هذه الأقوال التي حكيناها عن حكيائها عنه، وإن كانت مختلفة الألفاظ، فإن معانيها متفقة في أن الله جل ثناؤه لقَّى آدم كلمات، فتلقَّاهنَّ آدم من ربه قبلهن وعمل بهن، وتاب بقليله إياهنَّ وعمله بهنَّ إلى الله من خطيئته، معترفاً بذنبه،

(١) الخبر: ٧٧٧ - قال الطبري: لم أجده بلفظه في مكان.

(٢) الأثر: ٧٨٦ - لم أجده في مكان. وعبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: ثقة، مترجم في التهذيب، وقال مصعب الزيري: "وكان رجلاً صالحاً". وقال أبو زرعة: "معاوية، وعبد الرحمن، وخالد - بنو يزيد بن معاوية: كانوا صالحي القوم".

متنصلاً إلى ربه من خطيئته، نادماً على ما سلف منه من خلاف أمره، فتاب الله عليه بقبوله الكلمات التي تلقاهن منه، وندمه على سالف الذنب منه.

والذي يدل عليه كتابُ الله، أن الكلمات التي تلقاهنَّ آدمُ من ربه، هن الكلمات التي أخبر الله عنه أنه قالها متنصلاً بقبلها إلى ربه، معترفاً بذنبه، وهو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وليس ما قاله من خالف قولنا هذا من الأقوال التي حكيناها بمدفوع قوله، ولكنه قولٌ لا شاهد عليه من حجة يجب التسليم لها، فيجوز لنا إضافته إلى آدم، وأنه مما تلقاه من ربه عند إنابته إليه من ذنبه.

وهذا الخبر الذي أخبر الله عن آدم عليه السلام من قبله الذي لقاه إياه فقال له تائباً إليه من خطيئته، تعريف منه جل ذكره جميع المخاطبين قوله تعالى: ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾، قال أبو جعفر: قوله تعالى: ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾، يعني: على آدم، والهاء التي في: ﴿عَلَيْهِ﴾، عائدة على: ﴿ءَادَمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾، يعني: رزقه التوبة من خطيئته، والتوبة معناها: الإنابة إلى الله، والأوبة إلى الله معناها: طاعته مما يكره من معصيته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، قال أبو جعفر: وتأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، أن الله جل ثناؤه هو التَّوَّاب على من تاب إليه من عباده المذنبين من ذنوبه، التارك مجازاته بإنابته إلى طاعته بعد معصيته بما سلف من ذنبه.

وأما قوله تعالى: ﴿الرَّحِيمُ﴾، فإنه يعني أنه المتفضل عليه مع التوبة بالرحمة، ورحمته إياه، إقالة عثرته، وصفحته عن عقوبة جرمه.

٢- وقال الإمام الزجاج في رحمه الله ^(١) في كتابه (معاني القرآن): في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قال أبو عبيدة: ﴿وَإِذْ﴾ ههنا: زائدة، وهذا إقدام من أبي عبيدة لأن القرآن لا ينبغي أن يتكلم فيه إلا بغاية تجري إلى الحق، ﴿وَإِذْ﴾: معناها: الوقت، وهي: اسم فكيف يكون لغواً، ومعناها الوقت؛ والحجة في ﴿وَإِذْ﴾: أن الله تعالى ذكر خلق الناس وغيرهم، فكأنه قال: ابتداء خلقكم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وفي ذكر هذه الآية احتجاج على أهل الكتاب بثبوت نبوة النبي محمد صلوات الله عليه، أن خبر آدم وما أمره الله به من سجود الملائكة له معلوم عندهم، وليس هذا من علم العرب الذي كانت تعلمه، ففي إخبار النبي صلوات الله عليه دليل على تثبيت رسالته إذ آتاهم بما ليس من علم العرب، وإنما هو خبر لا يعلمه إلا من قرأ الكتاب أو أوحى إليه به.

وقوله عليه السلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، روي أن خلقا يقال لهم الجان كانوا في الأرض فأفسدوا وسفكوا الدماء فبعث الله ملائكته فأجلتْهم من الأرض، وقيل: إن هؤلاء الملائكة صاروا سكان الأرض بعد الجان، فقالوا: يا رب ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وتأويل استخبارهم هذا على جهة الاستعلام وجهة الحكمة، لا على الإنكار، فكأنهم قالوا: (يا الله) إن كان هذا ظننا فعرفنا وجه الحق فيه.

وقال قوم: المعنى فيه غير هذا وهو أن الله عليه السلام أعلم الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة، وأن من الخليفة فرقة تسفك الدماء وهي فرقة من بني آدم، وأذن الله عليه السلام للملائكة أن يسألوه عن ذلك وكان إعلامه إياهم هذا زيادة في الثبوت في نفوسهم أنه يعلم الغيب،

(١) الزجاج: هو إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/٣٦٠/رقم ٢٠٩)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤/٥١)، معجم الأدباء (١/٥١/رقم ٩)، وفيات الأعيان (١/٤٩/رقم ١٣).

فكانهم قالوا: أنخلق فيها قوماً يسفكون الدماء ويعصونك؛ وإنما ينبغي إذا عرفوا أنك خلقتهم أن يسبحوا بحمدك كما نسبح، ويقدسوا كما نقديس، ولم يقولوا هذا إلا وقد أذن لهم، ولا يجوز على الملائكة أن تقول شيئاً تتظنى فيه، لأن الله تعالى وصفهم بأنهم يفعلون ما يؤمرون.

وقوله ﷻ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: أثبتلي من تظنون أنه يطيع فيهديه الابتلاء، فالألف ههنا إنما هي على إيجاب الجعل في هذا القول، كما قال جرير:

الُسْتُمَّ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا. . . وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحٍ

ومعنى: ﴿وَيَسْفِكُ﴾: يصب، يقال: سفك الشيء إذا صبه، ومعنى: ﴿سُبِّحَ بِحَمْدِكَ﴾: بُرئتُك من السوء، وكل من عمل عملاً قصد به الله فقد سبَّح، يقال فرغت من تسبيحي أي من صلاتي، وقال سيبويه وغيره من النحويين: إن معنى سُبِّحَانَ الله: براءة الله من السوء وتنزيهه من السوء، وقال الأعشى:

أقول لما جاءني فخره... سبَّحَان من علقمة الفاخر.

المعنى البراءة منه ومن فخره..

ومعنى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نظهر أنفسنا لك، وكذلك من أطاعك نقدسه، أي: نظهره، ومن هذا بيت المقدس، أي البيت المطهر أو المكان الذي يُطهر فيه من الذنوب.

وقال الإمام الزجاج رحمه الله: قال أهل اللغة: علم آدم أسماء الأجناس، وعرض أصحاب الأسماء من الناس وغيرهم على الملائكة، فلذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾، لأن فيهم من يعقل.

وقد قال بعض أهل النظر: إن الفائدة في الإتيان بالأسماء أبلغ منها هي الفائدة بأسماء معاني كل صنف من هذه، لأن الحجة في هذا أن الخيل إذا عرضت فقل ما اسم هذه، قيل خيل، فأبي اسم وضع على هذه أنبأ عنها، وإنما الفائدة أن تُنبئ باسم كل معنى في كل

جنس، فيقال هذه تصلح لكذا.

فهذه الفائدة البينة التي يتفق فيها أن تسمى الدابة والبعر بأي اسم شئت، والمعنى الذي فيها وهو خاصها معنى واحد وإن اختلفت عليه الأسماء والله أعلم.

وقال الإمام الزجاج رحمه الله: قرأت القراء **﴿لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾** بالكسر وقرأ أبو جعفر المدني وحده (للملائكة اسجدوا) بالضم، وأبو جعفر من جلة أهل المدينة وأهل الثبوت في القراءة إلا أنه غلط في هذا الحرف، لأن الملائكة في موضع خفض فلا يجوز أن يرفع المخفوض، ولكنه شبه تاء التانيث بكسر ألف الوصل لأنك إذا ابتدأت قلت اسجدوا، وليس ينبغي أن يقرأ القرآن بتوهم غير الصواب^(١).

﴿وَإِذْ﴾ في موضع نصب عطف على **﴿إِذْ﴾** التي قبلها، وقوله: **﴿لَادَمَ﴾** آدم في موضع جر، إلا أنه لا ينصرف لأنه على وزن أفعل: يقول أهل اللغة: إن اشتقاقه من أديم الأرض، لأنه خلق من تراب.

وكذلك الأدمة إنما هي مشبهة بلون التراب، فإذا قلت مررت بآدم وآدم آخر، فإن النحويين يختلفون في أفعل الذي يسمى به وأصله الصفة، فسيبويه والخليل ومن قال بقولهما يقولون: إنه ينصرف في النكرة لأنك إذا نكرته رددته إلى حال قد كان فيها ينصرف، وقال أبو الحسن الأخفش إذا سميت به رجلاً فقد أخرجته من باب الصفة، فيجب إذا نكرته أن تصرفه فتقول: مررت بآدم وآدم آخر.

ومعنى: السجود لآدم عبادة الله ﷻ لا عبادة آدم عليه السلام، لأن الله ﷻ: (إنما خلق ما يعقل لعبادته).

فإذا ابتدأت قلت: اسجدوا فضممت الألف، والألف لا حظ لها في الحركة، أعني هذه الهمزة المبتدأ بها، وإنما أدخلت للساكن الذي بعدها، لأنه لا يبتدأ بساكن، فكان حقها

(١) قراءة أبي جعفر رحمه الله - متواترة، ومن ثم فلا وجه للاعتراض عليها. والله أعلم.

الكسرَ لأن بعدها ساكناً، وتقديرها السكون، فيجب أن تكسر لالتقاء الساكنين، ولكنها ضمت لاستثقال الضمة بعد الكسر، وكذلك كل ما كان ثالثه مضموماً في الفعل المستقبل نحو قوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكَيْبَ﴾^(١)، ونحو قوله ﷻ: ﴿أَقْنُلُوا يُوسُفَ﴾^(٢)، لأنه من انظر يُنظر وقتل يقتل، وإنما كرهت الضمة بعد الكسرة لأنها لا تقع في كلام العرب لثقلها بعدها، فليس في الكلام مثل فعل ولا مثل إفعل.

وقوله ﷻ: ﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾: قال قوم: إن إبليس كان من الملائكة فاستثنى منهم في السجود، وقال قوم من أهل اللغة: لم يكن إبليس من الملائكة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾^(٣)، فقيل: هؤلاء فكيف جاز أن يُستثنى منهم؛ فقالوا: إن الملائكة وإياه أمروا بالسجود، قالوا: ودليلنا على أنه أمر معهم قوله تعالى: ﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾، فلم ياب إلا وهو مأمور.

وهذا القول هو الذي نختاره، لأن إبليس كان من الجن كما قال ﷻ، والقول الآخر غير ممتنع، ويكون ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، أي: كان ضالاً كما أن الجن كانوا ضالين فجعل منهم كما قال في قصته وكان من الكافرين، فتأويلها أنه عمل عملهم فصار بعضهم كما قال عز وجل: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾^(٤)، وفي هذه الآية من الدلالة على تثبيت الرسالة للنبي ﷺ كما في الآية التي قبلها، والتي تليها؛ لأنه إخبار بما ليس من علم العرب ولا يعلمه إلا أهل الكتاب، أو نبي أوحى إليه وإبليس لم

يُصرف لأنه اسم أعجمي اجتمع فيه العجمة والمعرفة فمنع من الصرف.

وقوله تعالى: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتًا فَلَبَّهَا وَهُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾، الكلمات والله

(١) الآية: رقم ٥٠ من سورة النساء.

(٢) الآية: رقم ٩ من سورة يوسف.

(٣) الآية: رقم ٥٠ من سورة الكهف.

(٤) الآية: رقم ٦٧ من سورة التوبة.

أعلم: اعتراف آدم عليه السلام وحواء بالذنب لانهما قالوا: ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، اعترفا بذنبيهما وتابا، وفي هذه الآية موعظة لولدهما، وتعريفهم كيف السبيل إلى التنصّل من الذنوب، وأنه لا ينفع إلا الاعتراف والتوبة، لأن ترك الاعتراف بما حرّم الله تعالى حرامٌ وكُفّر بالله، فلا بد من الاعتراف مع التوبة، فينبغي أن يفهم هذا المعنى فإنه من أعظم ما يحتاج إليه من الفوائد.

وقرأ ابن كثير: (فتلقى آدم من ربه كلمات)، والاختيار ما عليه الإجماع^(١).

٣- وقال ابن أبي حاتم رحمته الله في تفسيره المسمى: (تفسير ابن أبي حاتم): قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فعن السدي عن أبي مالك: قوله: ﴿وَإِذْ﴾: فقد كان.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾: فعن الحسن، قال: قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قال لهم: إني فاعل، وعن محمد بن إسحاق: قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، يقول: ساكنا وعامرا يسكنها ويعمرها خلقا.

ليس منكم.

قوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: فعن ابن سابط أن النبي صلى الله عليه وآله قال: (دحيت الأرض من مكة، وأول من طاف بالبيت الملائكة)^(٢)، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، يعني: مكة.

(١) قراءة ابن كثير متواترة، ومن ثمّ فلا يجوز المفاضلة والترجيح بين القراءات، والله أعلم، وهو في العربية أقوى، لأن آدم تعلم هذه الكلمات فقلّ تلقى هذه الكلمات، والعرب تقول تلقيت هذا من فلان، المعنى فهمي قبله من لفظه.

(٢) ابن أبي حاتم: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، انظر: تاريخ دمشق ٣٥ / ٣٥٧، التقييد ٢ / ٧٨، سير أعلام النبلاء ١٣ / ٢٦٣. تاريخ الإسلام ٢٤ / ٢٠٦، تذكرة الحفاظ ٣ / ٨٢٩.

(٣) الحديث: أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن سابط.

فعن خالد الحذاء قال: سألت الحسن فقلت: يا أبا سعيد، آدم للسماء خلق أم الأرض؟ قال: أما تقرأ القرآن:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، لا بل للأرض خلق.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾: فعن ابن عباس قال: أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يسكنها إياه، ثم قرأ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١) قوله تعالى: ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

فعن ابن سابط في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قال: يعنون الحرام. قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

الوجه الأول: فعن عبد الله بن عمرو قال: كان الجن بنو الجان في الأرض قبل أن يخلق آدم بألفي سنة، فأفسدوا في الأرض، سفكوا الدماء، فبعث الله جندا من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور، فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

والوجه الثاني: فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، قال الله: إني خالق بشر وإنيهم يتحاسدون فيقتل بعضهم بعضا، ويفسدون في الأرض، فلذلك قالوا ما قالوا، يعني: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢).

وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

قال: كان الله أعلم أنه إذا كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فذلك

(١) الأثر: رواه الحاكم ٢ / ٣٦١ وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: صحيح. وهو جزء من رقم ٣٢٢.

(٢) الحديث: الحاكم ٢ / ٢٦١. قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (عن ابن عباس).

حين قالوا: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، يعنون الناس.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

الوجه الأول: فعن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، قال: التسبيح التسبيح.

الوجه الثاني: فعن السدي في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، يقول: نصلي لك.

قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

الوجه الأول: فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، قال: التقديس: التطهير.

الوجه الثاني: وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، قال: التقديس: الصلاة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الوجه الأول: فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان إبليس على ملائكة سماء الدنيا فاستكبر وهم بالمعصية وطغى، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، في نفس إبليس من البغي.

وقال الإمام ابن أبي حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، قوله: ﴿فَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾، اختلف في تفسيره على أوجه:

الوجه الأول: عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: قال آدم عليه السلام: أرأيت يا رب إن تبت ورجعت، أعايدي إلى الجنة؟ قال: نعم.

قال: فذلك قوله: فللقى آدم من ربه كلمات^(١).

(١) قال ابن كثير: هذا غريب من هذا الوجه، وفيه انقطاع ١ / ١١٦.

والوجه الثاني: وعن ابن عباس: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾، قال: قال آدم: يا رب، ألم تخلقني بيدك؟ قيل له: بلى: ونفخت في من روحك؟ قيل له: بلى. وعطستُ فقلت يرحمك الله، وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل: بلى. وكتبت على أن أعمل هذا؟ قيل بلى قال: أرايت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم، وكذلك فسره عطية والسدي رحمهما الله.

والوجه الثالث: وعن رجل من بني تميم قال: أتيت ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فسألته: ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه؟ قال: علم شأن الحج، فهي الكلمات.

والوجه الرابع: وعن عبد الله بن كثير أن مجاهدا كان يقول في قول الله تعالى: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾، الكلمات: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ب إني ظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم.

قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، فعن أبي زرعة يعني ابن عمرو بن جرير قال: إن أول شيء كتب: (أنا التواب أتوب على من تاب)، وعن مجاهد: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾، قال: أي رب أتتوب علي إن تبت: قال: نعم. فتاب آدم، فتاب عليه ربه.

وقوله: ﴿التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، وعن محمد بن إسحاق في قوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾، قال: يرحم العباد على ما فيهم، وعن سعيد بن جبير: قوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾، قال: رحيم بهم بعد التوبة.

٤- وقال الإمام الماتريدي رحمه الله ^(١) في تفسيره: (تأويلات أهل السنة): قوله تعالى:

(١) الإمام الماتريدي: هو محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ)، انظر: اعلام الاخبار من

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فما جاء في كتاب الله ﷻ من ذكر طاعة الملائكة لربهم واثقيادهم له وعدم معارضة أمره كقوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

وقوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ أَرَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ ومن يقل منهم: ﴿إِنَّ إِلَهًا مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾^(١)، وقوله سبحانه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٢).

وما جاءت به الآثار عن رسول الله ﷺ من وصف طاعتهم لله، ومواظبتهم على العبادة. زعم قوم أن هذا زلة منهم، لم يكن ينبغي لهم أن يقابلوا قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ بهذا؛ لما يخرج مخرج الاستعتاب بقولهم: أتفعل ونحن نفعل كذا؟! كالمنكرين لفعله.

وأيدوا ذلك بقوله ﷻ: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أنه لولا كان في ذلك طرف من الجهل يحذر عن مثله قائله، لم يتبع قولهم هذا، ومعلوم عندهم أن يكون هو يعلم ما لا يعلمون.

وأيد ذلك بما امتحنهم بالإنباء عن أسماء الأشياء، مقرونًا بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولولا أنه سبق منهم ما استحقوا عليه التوعد لم يكن لذلك الشرط عند القول: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ وفائدة مع ما يوضع موضع التوبيخ والتهديد.

فقهاء مذهب النعمان، انظر: المختار للكفوي ٩٩٠ اللوح رقم ١٨٠، تحاف السادة المتقين بشرح احياء علوم الدين للمرتضى الزبيدي ١٢٠٥ ج ٢ ص ٥.

(١) الآيات: رقم ٢٦-٢٩ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية: رقم ٥٠ من سورة النحل.

وقال الماتريدي رحمه الله: ومنهم من قال: إن قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ﴾ قول إبليس، هو الذي تعرض بهذا القول، وإن كان الكلام مذكورًا باسم الجماعة؛ لأنه جازز خطاب الواحد على إرادة الجماعة، وذكر الجماعة على إرادة الواحد، وإن كان خطاب الله تعالى لجملة ملائكته حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قوله: ﴿أَنِّيُتَوَيُّنِي﴾ بكذا، وهو يعلم أنهم لا يعلمون ذلك، ولا يحتمل أن يأمرهم بذلك وهم لا يعلمون.

ولو تكلفوا الإخبار للتحقق الكذب في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قال قوم: يريد به آدم عليه السلام، يخلف الملائكة في الأرض ومن تقدمه من الجن.

وذلك بعيد؛ كأنهم قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، ولم يكن آدم عليه السلام بالذي كان يفسد في الأرض، ويسفك الدماء، بل كان يسبح بحمده ويقدر له.

ولكن يحتمل: أن يريد آدم وولده إلى يوم القيامة أن يجعل بعضهم خلفاء لبعض؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾^(١)، أو يجعلهم خلفاء من ذكروا، إن صح الذي قالوا.

وجائز أن يكونوا على وجه الأرض، إذ هي مخلوقة لهم قرارا ومهادًا ومعادًا، وهم جعلوا سكانها وعمارها وأن يكونوا خلفاء، في إظهار أحكام الله تعالى ودينه، كقوله لداود عليه السلام: ﴿يَنَادُوا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾^(٢)، فجعله كذلك ليحكم بين أهلها بحكم الله ولا يتبع الهوى، وبذلك أمر بنو آدم.

وأيد ذلك بما امتحنهم بالإنباء عن أسماء الأشياء، مقرونًا بقوله: ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

(١) الآية: رقم ٦٢ من سورة النمل.

(٢) الآية: رقم ٢٦ من سورة ص.

ولولا أنه سبق منهم ما استحقوا عليه التوعد لم يكن لذلك الشرط عند القول: ﴿أَنِثُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ وفائدة مع ما يوضع موضع التوبيخ والتهديد.

وقال الماتريدي رحمه الله: ومنهم من قال: إن قوله: ﴿أَتَجَعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ قول إبليس، هو الذي تعرض بهذا القول، وإن كان الكلام مذكورًا باسم الجماعة؛ لأنه جائز خطاب الواحد على إرادة الجماعة، وذكر الجماعة على إرادة الواحد، وإن كان خطاب الله تعالى لجملة ملائكته حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قوله: ﴿أَنِثُونِي﴾ بكذا، وهو يعلم أنهم لا يعلمون ذلك، ولا يحتمل أن يأمرهم بذلك وهم لا يعلمون.

ولو تكلفوا الإخبار للحقهم الكذب في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قيل: بأمرك، وقيل: بمعرفتك، وقيل: بالثناء عليك؛ إذ كانوا أضافوا ذلك إلى أنفسهم دون أن يذكروا عظيم منة الله عليهم بذلك، واختصاصه إياهم بالتوفيق له؛ إذ كيف ذكروا من نُعوت البشر شرًّا ما فيهم، دون أن يحمّدوا الله بما وفقوا له أو يدعوا للبشر بالعصمة والمغفرة مما ابتلوا.

ولذلك والله أعلم صرّفوا شغلهم من بعد إلى الاستغفار لمن في الأرض، ونصر أولياء الله، ولا قوة إلا بالله.

ومن الناس من أخبر في ذلك: أن إبليس سألهم: لو فضل آدمٌ عليهم، وأمروا بالطاعة له ما يصنعون؟

فأظهر الله ﷻ أن علم ما كتم إبليس من العصيان، وما أظهرها هم من الطاعة، وهذا

شيء لا يعلم حقيقته؛ لأن المعاتبة كانت في جملة الملائكة، والمخاطبة بالإنبياء، وما ألحق به وأمر بالسجود وكان في غيره، ولم يحتمل أن يكونوا يؤخذون بسؤال إبليس اللعين، ولكن يحتمل وجوه العتاب الإخبار فيما لم يبلغوا العصيان، والله الموفق.

وقال ﷻ: وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾، يحتمل: أن يكون علم لهم، ويحتمل: أن يكون علم بإرسال ملك من غير الذين امتحنوا به.

وفي ذلك تثبيت أحد وجهين: إما أن يكون: العلم بالأشياء حقيقة ضرورة، يقع عند النظر في الأسباب التي هي أدلة وقوعه عند التأمل فيها؛ نحو وقوع الدرك بالبصر عند النظر وفتح العين، وإما أن يكون: الله تعالى خلق فعل التعلم الذي يعلم المرء فيما يضاف فيه إلى الله تعالى أنه علم.

وكذا قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(١)، وكذا قوله جل وعلا: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾^(٢)، ولا يحتمل هذه الأسباب لما كانت له كلها، ولم يكن تعلم حقيقة ليؤذنه، وكذلك قول الملائكة: ﴿لَا عَلَّمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنِ يُعْطِيَ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾، ظاهره أمر، ولكنه يحتمل التوعد والمعاتبة على ما بينا، وذلك في القرآن كثير، وإن كان في الحقيقة أمراً، ففيه دلالة جواز الأمر فيما لا يعلمه المأمور إذا كان بحيث يحتمل العلم به إلى ذي العلم تبين له إذا طلب واستوجب رتبة التعلم والبحث.

ويحتمل: أن يكونوا بُنِّهوا حتى لا يسبق إليهم عند إعلام آدم أن ذلك من حيث يدركونه لو تكلفوا، أو: أراد أن يريهم آية عجيبة تدل على نبوته، ذكرهم عجزهم عن ذلك، وألزمهم الخضوع لآدم ﷺ في إفادة ذلك العلم له، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا تِلْكَ

(١) الآية: رقم ٤ من سورة الرحمن.

(٢) الآية: رقم ٦٩ من سورة يس.

يَمِينِكَ يَمْوَسَى ﴿١﴾، ذكره أولاً حاله وحال عصاه، ليعلم ما أراه ما في يده من آية نبوته على نبينا وعلينا.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، في المعاني التي ذكرها؛ إذ كنتم مذخلقتم موصوفين بالصدق.

أو على تحذير القول بلا علم، وكأنه قال: واصدقوا، واحذروا القول بالجهل، وفي ذلك أنهم لم يتكلفوا بالقول في شيء لم يعلمهم الله تعالى.

قال أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان: وهذا يبطل قول المنجمة والعافة بدعواهم على الغيب بلا تعليم ادعوه من الله تعالى.

وفي قصة آدم عليه السلام دلالة نبوة محمد ﷺ؛ إذ أخبر نبينا محمد ﷺ بما علم بما في غير القرآن من الكتب السماوية من غير أن عرف بالاختلاف إليهم، أو معرفة الألسن التي بها ذكرت في كتبهم، ذكرها على ما لم يدع أحد له العلم بها النكير عليه؛ ليعلم أنه بالله علم ذلك.

وفيها دلالة فضل آدم عليه السلام أبي البشر؛ إذ أحوج ملائكته إليه لاقتباس أصل الأشياء، وهو العلم الذي كل خير له كالتابع، وبه يصلح وينفع، ولا قوة إلا بالله.

وفيها دلالة محنة الملائكة بوجهين: أحدهما: تعلمهم العلم الذي هو أحق شيء يحتمل الخير؛ إذ قد يلهم المرء ربما من غير تكلف، وهم قد أمروا به مع ما قدم ما يخرج مخرج التهديد في القول من قوله: ﴿أَنِيعُونِي﴾ وذلك فيما لا محنة فاسد مع ما سبق من دليل المحنة، والثاني: فيما أمرهم بالسجود لآدم عليه السلام حتى صير من أبى كافراً إبليساً.

وفي ذلك أيضاً دليل فضل آدم عليه السلام؛ إذ جعل موضع عبادة خيار خلق الله معه، وبالله التوفيق.

وقال الماتريدي رحمه الله: فقالوا: ﴿سُبْحَنَكَ﴾؛ نزهوه عما خطر ببالهم، وسبق إلى وهمهم. ووصفوه بأنه ﴿أَعْلَمُ﴾، أي: لا يخفى عليه شيء، ﴿الْحَكِيمُ﴾، الذي: لا يخطئ في شيء، ولا يخرج فعله عن الحكمة، وبالله التوفيق والعصمة، وفي الآية منع التكلم في الشيء إلا بعد العلم به، والفرع به إلى الله عن القول به إلا بعلم، وهذا هو الحق الذي يلزم كل من عرف الله وبه أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(١).

وقال الماتريدي رحمه الله: قوله عليه السلام: ﴿فَازَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾، أي: دعاهما، وزين لهما إلى سبب الزلة والإخراج عنها، لا أن تولى إخراجهما وإزلا لهما، وقد ذكرنا أن الأشياء تسمى باسم أسبابها، أو الأسباب باسم الأشياء.

وذلك ظاهر معروف في اللغة، غير ممتنع تسمية الشيء باسم سببه.

ثم تكلموا فيما أصاب آدم من الشجرة، وفي جهة النهي عنها:

فقال قوم: أكل منها وهو ناس لعهد الله نسيان ترك الذكر، وأبى ذلك قوم، واحتج الحسن بأن نسيانه نسيان تضييع واتباع الهوى، لا نسيان الذكر بأوجه:

أحدها: ما جرى في حكم الله تعالى من العفو عن النسيان الذي هو ترك الذكر، وألا يلحق صاحبه اسم العصيان، وقد عوقب هو به، ونسب إلى العصيان بقوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَى﴾^(٢)، مع ما تقدم القول فيه أن يكونا من الظالمين.

والثاني: أن عدوه قد ذكره لو كان ناسيًا؛ حيث قال تعالى: ﴿مَا نَهْنَهَكَ رُبُّكَ عَنْ هَذِهِ

(١) الآية: رقم ١٧ من سورة الإسراء.

(٢) الآية: رقم ١٢١ من سورة طه.

الشَّجَرَةَ... ﴿١﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَاسَمُهُمَا﴾ ﴿٢﴾، وقوله تعالى: ﴿فَدَلَّهُمَا بِمُرُورِ﴾ ﴿٣﴾.

ولو كان نسيان الذكر لم يكونا ليغترا بالقسم والإغواء عن ذلك، ولا وصفا بأن استزلهما الشيطان ونحو ذلك، فثبت أنه كان نسيان تضييع، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِئُ﴾ ﴿٤﴾، وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ ﴿٥﴾، وغير ذلك مما ذكر فيه النسيان ومعناه: التضييع، سُمي به لما كان كل منسي متروكا، وترك اللازم تضييع، أو بما ينسى به ويغفل عما يحل به من نعمة الله، فسمي به كما وصف ذنب المؤمن بجهالة الجهلة بما يحل به لا بجهله بحقيقة فعله، أو سمي به من حيث لا يقصد بذلك عصيانُ الرب أو طاعة الشيطان، وإلى ذلك يصرف بعض وجوه النسيان، لا حقيقته.

ومن يقول: بأنه كان على النسيان فهو يُخْرِجُ النسيان على وجوه:

أحدها: أنه لكثرة ما كان بينه، وبين عدوه من التراجع اشتغل قلبه بوجوه الدفاع له، والفكر في الأسباب التي بها نجاته، ويتخلص من مكائده، حتى أنساه ذلك ذكر العهد، والسبب الذي يدفع الأشياء عن الأوهام فيالشاهد كثرة الاشتغال، وإنما كان النسيان عدوا في الأمور وسبباً للعفو، لأنه لا يُخْرِجُ الآخذ به عن الحكمة، وذلك معلوم في الشاهد، أن من أقبل على أمر، وأخذ في تحفظه وتذكره عمل عليه ذلك، وإذا أحب ذلك مع الاشتغال بغيره من الأمور صعب عليه، بل الغالب في مثله الخفاء.

وجائز معاتبة آدم مع ذلك وتسميته عصيانا بأوجه:

أحدها: أنه لم يكن امتحن بأنواع مختلفة يتعذر عليه وجه الحفظ في ذلك، وإنما امتحن

(١) الآية: رقم ٢٠ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٢١ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ٢٢ من سورة الأعراف.

(٤) الآية: رقم ١٢٦ من سورة طه.

(٥) الآية: رقم ٥١ من سورة الأعراف.

بالانتهاء عن شجرة واحدة بالإشارة إليها؛ فجائز ألا يُعذر في مثله.

وكذلك النسيان فيما يُعذر في الشاهد، إنما يُعذر في النوع الذي يُبلى به، وتكثر به النوازل، ألا ترى أنه يُعذر بالسلام في الصلاة، وترك التسمية في الذبيحة ونحو ذلك، ولا يُعذر في الأكل في الصلاة، وفي الجماع في الحج، ونحو ذلك، فمثله الأمر الذي نحن فيه. والثاني: أنه جائز أخذ الأخيار ومعاتبه الرسول بالأمر الخفيف اليسير الذي لا يؤخذ بمثل ذلك غيره؛ لكثرة نعم الله عليهم، وعظم منته عندهم، كما أوعدوا التضاعف في العذاب على ما كان من غيره.

والثالث: أنه لما عوتب بالذي يجوز ابتداء المحنة به، ولمثله خلقه حيث قال لملائكته: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ لكنه بكرمه، وبالذي عوّد خلقه من تقديم إحسانه وإنعامه في الابتلاء على الشدائد والشرور، وإن كان له التقديم بالثاني، وذلك في جملة قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَبَلَوَكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(٢)، وبالله التوفيق.

وعلى ما في ذلك من مبالغة غيره، والزجر عن المعاصي، وتعظيم خطره في القلوب؛ إذ جوزي أبو البشر وأول الرسل منهم على ما فضّله بما امتحن ملائكته بالتعلم منه، والسجود بذلك القدر من الزلة؛ ليعلم الخلق أنه ليس في أمره هوادة، ولا في حكمه محاباة؛ فيكونون أبداً على حذر من عقوبته، والفرع إليه بالعصمة عما يوجب مقتته، وألا يكلهم إلى أنفسهم؛ إذ علموا بابتلاء من الذي ذكرت محله في قلوبهم بذلك القدر من الزلة، ولا قوة إلا بالله.

والثاني: أن يكون حفظ النهي عنه، لكنه خطر بباله النهي عن وجهه لا يلحقه فيه

(١) الآية: رقم ١٦٨ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٣٥ من سورة الأنبياء.

وصف العصيان، أو نسي قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وقد ذكرنا النهي في وقت الفعل، ولكن يسمى الوصف بالفعل من الظلم والنهي؛ لعله سبق إلى وهمه غير جهة التحريم، إذ يكون النهي على أوجه:

أحدها: للحرمة، والثاني: نهي لما فيه من الداء وعليه في أكله ضرر، وهذا معروف في الشاهد بما عليه الطباع، نهى قوم عن أشياء محللة هي لهم ما يؤذي ويضر، فيحتمل أن يسبق إلى وهمه ذلك، لما وعد له في ذلك من عظيم النفع.

وقال الماتريدي رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿فَلَقَّحْ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾، أي: أخذ، وقوله: ﴿كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ﴾، قيل: إن فيه وجوهاً:

قيل: ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾، أي: وفق له التوبة، وهدها إليها فتاب، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾^(١)، أي: وفق لهم التوبة فتابوا، وقيل: خلق فعل التوبة منه، فتاب، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْتُهُ﴾^(٢)، أي: خلق فعل الاهتداء منه فاهتدى، وقيل: تاب عليه، أي: تجاوز، وقيل: إن التوبة هي الرجوع، رجع آدم عن

عصيانته؛ فرجع هو إلى الغفران والتجاوز، وبعضه قريب من بعض.

وفي الآية: أنه إنما تاب عليه لكلمات تلقاها من ربه، والآية: تنقض على المعتزلة قولهم؛ لأنهم يقولون: إن من ارتكب صغيرة فهو مغفور له لا يحتاج إلى الدعاء، ولا إلى التوبة.

فآدم عليه السلام دعا بكلمات، تلقاها منه؛ فتاب عليه، ولو كان مغفوراً له ما ارتكب لكان الدعاء فضلاً وتكلفاً، وبالله التوفيق.

وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، أي: قابل التوبة، وقيل: أي: موفق التوبة، وهادي لها؛

(١) الآية: رقم ١١٨ من سورة التوبة.

(٢) الآية: رقم ١٢١ من سورة النحل.

كقوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾^(١)، قوله: ﴿الرَّحِيمِ﴾، بالمؤمنين، ورحيم بالتائبين.

٥_ وقال الإمام السمرقندي رحمه الله ^(٢) في تفسيره: (بحر العلوم): قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾، روي عن أبي عبيدة أنه قال: معناه: (وقال ربك للملائكة وإذ زيادة)، وروي عن الفراء أنه قال: (واذكر معناه إذ قال ربك)، وقال مقاتل: معناه: (وقد قال ربك للملائكة).

والملائكة: جماعة الملك، وهذا اللفظ على غير القياس لأنه يقال: ملائكة بالهمز ويقال للواحد: ملك بغير همز، وإنما قيل ذلك: لأنه في الأصل كان مألِك بالهمز فأسقط الهمز للتخفيف، وأصله من: ألك يألِك ألوْكَ وهو الرسالة.

كما قال القائل:

وَعُلَامٌ أَرْسَلَتْهُ أُمُّهُ ... بِالْوَكِّ، فَبَدَّلْنَا مَا سَأَلْ.

وإنما سميت الملائكة ملائكة، لأنهم رسل الله تعالى وإنما أراد هاهنا بعض الملائكة، (وهم الملائكة الذين كانوا في الأرض)، وذلك أن الله تعالى لما خلق الأرض، خلق الجن من مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ، أي من لهب من نار لا دخان لها، فكثر نسله، وهم الجن بنو الجن، فعملوا في الأرض بالمعاصي وسفكوا الدماء، فبعث الله تعالى ملائكة سماء الدنيا، وأمر عليهم إبليس وكان اسمه عزازيل، حتى هزموا الجن، وأخرجوهم من الأرض إلى جزائر البحار، وسكنوا الأرض فصار الأمر عليهم في العبادة أخف، لأن كل صنف من الملائكة يكون أرفع في السماوات فيكون خوفهم أشد، وملائكة سماء الدنيا يكون أمرهم

(١) الآية: رقم ٣ من سورة غافر.

(٢) الإمام السمرقندي: هو أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ)، انظر: الأعلام " (٢٧/٨)، وسير أعلام النبلاء ج ١٦ ص ٣٢٣.

أيسر من الذين فوقهم، فلما سكنوا الأرض صار الأمر عليهم أخف مما كانوا، وسكنوا الأرض واطمأنوا إليها، وكل من اطمأن إلى الدنيا أمر بالتحول عنها، فأخبرهم الله تعالى أنه يريد أن يخلق في الأرض خليفة فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾، يعني: الذين هم في الأرض، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، يعني: أريد أن أخلق في الأرض خليفة سواكم، فشق ذلك عليهم وكرهوا ذلك.

وقال السمرقندي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾، يعني أخلق فيها ﴿مَنْ يُفْسِدُ﴾، كما أفسدت الجن ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، كما سفكت الجن ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، أي نصلي لك بأمرك، ويقال معناه: نحن نسبح بحمدك ونحمدك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، قال بعضهم: معناها: نقدس أنفسنا لك، يعني نطهر أنفسنا بالعبادة عن المعصية، وقال بعضهم: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: ننسك إلى الطهارة ونقدس أنفسنا لك، ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، قال مجاهد: علم من إبليس المعصية وعلم من آدم الخدمة والطاعة ولم تعلم الملائكة بذلك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قد علم أنه سيكون من بني آدم من يسبح بحمده ويقدس له ويطيعه.

ويقال: قد علم الله تعالى أنه سيكون في ولد آدم من الأنبياء والصالحين والأبرار. وقال رحمه الله: قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾، نزّهوه وتابوا إليه من مقاتلتهم، ومعناه: سبحانك تبتنا إليك من مقاتلتنا فاغفر لنا ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، أي: ألهمتنا. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (سُبْحَانَ اللَّهِ، تَنْزِيَهُ اللَّهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ)^(١). وقال بعض أهل اللغة: اشتقاقه من السباحة، لأن الذي يسبح يباعد ما بين طرفيه، فيكون فيه معنى التباعد.

(١) الحديث: رواه البزار (٩٥٠) والطبري في التفسير ١٢/١٢٨ والشاشي في المسند (١٠) والطبراني في الدعاء (١٧٥١) والحاكم (١٨٤٨) والبيهقي في الأسماء والصفات (٥٩)، قال البزار: «هذا الحديث لا نعلمه يروى عن طلحة، متصلاً إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد»، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

وقال بعضهم: هذه لفظة جمعت بين كلمتي تعجب، لأن العرب إذا تعجبت من شيء قالت: حان، والعجم إذا تعجبت من شيء قالت: سب فجمع بينهما فصار: سبحان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، يعني: أنت العليم بما يكون في السموات والأرض، الحكيم في أمرك، إذا حكمت أن تجعل في الأرض خليفة غيرنا، ويقال: معناه: ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، على وجه الحكمة التي تدرك الأشياء بحقائقها، وكان حكمه موافقاً للعلم.

وقال ﷺ: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَدُمُّ أُنْبِيَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، يعني: أخبرهم بأسمائهم، يعني أسماء الدواب وما فيها من الحكمة وما يحل أكله وما لا يحل أكله.

﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، يعني: أخبرهم بأسمائهم، قال الله تعالى لهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يعني: سر أهل السماوات وسر أهل الأرض، وما يكون فيهما، ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾، أي: ما أظهرتهم من الطاعة يعني: الملائكة ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، يعني: ما أسر إبليس في نفسه حين قال: لئن فُضِّلَ علي لا أطيعه ولئن فضلت عليه لأهلكه، وقال بعضهم: إنهم كانوا يقولون حين أراد الله أن يخلق آدم: إنه لا يخلق أحداً أفضل منهم، فهذا الذي كانوا يكتُمون، وهذا التفسير ذكر عن قتادة.

وقد قيل: إنه لما خلق آدم، أشكل عليهم أن آدم أعلم أم هم؟ فسألهم عن الأسماء، فلم يعرفوها وسأل آدم عن الأسماء فأخبرهم بها، فظهر لهم أن آدم أعلم منهم، ثم أشكل عليهم أنه أفضل أم هم؟ فأمرهم سبحانه وتعالى بالسجود له، فظهر لهم فضله.

وقال السمرقندي ﷺ: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، فأصل السجود في اللغة: هو الميلان والخضوع، والعرب تقول: سجدت النخلة إذا مالت، وسجدت الناقة إذا طأطأت رأسها ومالت، وإنما كانت تلك سجدة التحية لا سجدة العبادة، وكانت السجدة تحية لآدم ﷺ وطاعة لله ﷻ فَسَجَدُوا كُلُّهُمْ إِلَّا إِبْلِيسَ.

يقال: إبليس اسم أعجمي ولذلك لا ينصرف وهو قول أبي عبيدة.

وقال غيره: هو من أبلس يلبس إذا يئس من رحمة الله، وكذا قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في رواية أبي صالح: أنه أيئسه من رحمته.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾، أي: امتنع عن السجود تكبراً، معناه: أن كبره منعه من السجود.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: وصار من الكافرين، كما قال في آية أخرى: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِقِينَ﴾^(١)، أي: صار من المعرقين.

وقال بعضهم: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: كان في علم الله ﷻ من الكافرين، يعني أنه يكفر، وبعضهم قال بظاهر الآية: أنه كان كافراً في الأصل، وهذا قول أهل الجبر، وقالوا: كل كافر أسلم ظهر أنه كان مسلماً في الأصل، وكل مسلم كفر ظهر أنه كان كافراً في الأصل، لأنه كان كافراً يوم الميثاق، ألا ترى أن الله تعالى قال في قصة بلقيس: ﴿إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾^(٢)، ولم يقل إنها كانت كافرة، وقال في قصة إبليس: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

وقال أهل السنة والجماعة: الكافر إذا أسلم كان كافراً إلى وقت إسلامه، وإنما صار مسلماً بإسلامه إلا أنه غفر له ما قد سلف، والمسلم إذا كفر كان مسلماً إلى ذلك الوقت، إلا أنه حبط عمله.

وقال السمرقندي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾، قرأ حمزة: (فأزالهما) بالألف، وقرأ غيره بغير ألف، وأصله في اللغة: من أزل يزل، ومعناه فأغراهما الشيطان واستزلهما.

وأما من قرأ: (فأزالهما) بالألف، فأصله من أزال يزيل إذا أزال الشيء عن موضعه.

(١) الآية: رقم ٤٣ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٤٣ من سورة النمل.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، أي: مما كانا فيه من النعم.

وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: (مكث آدم في الجنة كما بين الظهر والعصر، من أيام الآخرة، لأن كل يوم من أيام الآخرة كألف سنة من أيام الدنيا)^(١).

وقوله ﷻ: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، أي: آدم وحواء وإبليس والحية، فبقي بين إبليس وبين أولاد آدم العداوة إلى يوم القيامة، وكذلك بين الحية وبين أولاد آدم عداوة إلى يوم القيامة.

ثم قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، أي: موضع القرار وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، أي: الحياة والعيش إلى الموت.

وقال ﷻ: قوله تعالى: ﴿فَنَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، قرأ ابن كثير فَنَلَقَّ آدَمُ بنصب آدم ورفع كلمات، وقرأ غيره برفع آدم وكسر كلمات، فأما من قرأ: ﴿فَنَلَقَّ آدَمُ﴾ بالرفع فمعناه: أخذ وقبل من ربه، ومن قرأ: ينصب آدم، يعني: استقبلته كلمات من ربه، يقال: تلقيت فلاناً بمعنى استقبلته،

ومعنى ذلك كله: أن الله تعالى ألهمه كلمات، فاعتذر بتلك الكلمات وتضرع إليه، فتاب الله عليه.

قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، يعني: قبل الله توبته، يقال: تاب العبد إلى ربه وتاب الله على عبده، فهذا اللفظ مشترك إلا أنه إذا ذكر من العبد يقال: تاب إلى الله، وإذا ذكر من الله تعالى يقال: تاب الله على عبده، إذا رجع العبد عن ذنبه، وتاب الله على عبده، إذا قبل توبته.

قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَأْبُ الرَّحِيمُ﴾، يعني: المتجاوز عن الذنوب ﴿الرَّحِيمُ﴾، بعباده.

(١) الحديث: رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

٦- وقال الإمام ابن أبي زمنين عليه السلام ^(١) في تفسيره: (تفسير القرآن العزيز): قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قال الإمام الحسن البصري عليه السلام: إن الله أخبر الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة، (يكون من ولده) من يسفك الدماء، فيها، ويفعل كذا.

وقال عليه السلام: فَقَالَتِ الْمَلَكَةُ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نصلي لك؛ في تفسير بعضهم، وقال محمد: معنى: يسفك: يصب، تقول: سفكت الشيء! إذا صببته، ومعنى: ﴿تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، أي: نبرئك من السوء ونعظمك، وكل من عمل خيراً أراد الله به، فقد سبح الله، أي: عظمه، ومعنى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نطهر أنفسنا لك، وأصل القدس في اللغة: الطهارة.

فقال الله عليه السلام: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، قال قتادة: علم أنه سينشأ من ذلك الخليفة أنبياء، ورسول، وقوم صالحون.

وقال عليه السلام: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ﴾، قال مجاهد: خلق الله آدم آخر ساعات النهار من يوم الجمعة بعد ما خلق الخلق كلهم.

قال الكلبي: ثم علمه أسماء الخلق كلهم بالسرانية، اللسان الأول سرا من الملائكة، ثم حشر الله الدواب كلها، والسباع والطيور وما ذرأ في الأرض، ثم قال للملائكة: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ^(٣١) قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ^(٣٢) قَالَ يَتَادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فقال آدم عليه السلام: هذا كذا، وهذا كذا. قال قتادة: فسمى كل نوع باسمه، ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، قال الله للملائكة: ﴿أَلَمْ

(١) الإمام ابن أبي زمنين: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زمنين المالكي (المتوفى: ٣٩٩هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء ج ١٧ ص ١٨٩، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون (ص ٣٦٦)، الصلة لابن بشكوال (ص ٧٠٨)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (ج ٧ ص ١٨٣)؛ الصلة (ص ٧٠٨).

أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿١﴾، قال الحسن وقادة: لما قال الله ﷻ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قالوا فيما بينهم: ما الله بخالق خلقا هو أكرم عليه منا ولا أعلم، وهو الذي كتموا.

وقال الإمام ابن أبي زمنين رحمته: قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾، قال محمد: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، هو من: الزلل؛ المعنى: كسبهما الزلة والخطيئة.

٧_ وقال الإمام الثعلبي رحمته (١) في تفسيره: (الكشف والبيان): قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾، يعني: وقد قال، وقيل معناه: واذكر إذ قال ربك، وكل ما ورد في القرآن من هذا النحو فهذا سبيله.

و (إذ) و (إذا): حرفا توقيت، إلا أن (إذ): للماضي و (إذا): للمستقبل، وقد يوضع أحدهما موضع الآخر.

قال المبرد: إذا جاء (إذ) مع المستقبل كان معناه ماضيا نحو قوله: ﴿يَمَكُرُ بِكَ﴾ (٢)، و ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ (٣)، يريد: (وإذ مكر) و (إذ قال)، وإذا جاء (إذ) مع الماضي كان معناه مستقبلا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ (٤)، وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ (٥)، وقوله جل وعلا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ (٦)، أي: يجيء، وقال الشاعر:

(١) الإمام الثعلبي: هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء ١٧ : ٤٣٥ ٤٣٧، وفيات الأعيان ١ : ٧٩ ٨٠، طبقات الشافعية للسبكي ٤ : ٥٨، طبقات الشافعية للأسنوي ١ : ١٥٩، طبقات المفسرين ١ : ٦٦.

(٢) الآية: رقم ٣٠ من سورة الأنفال.

(٣) الآية: رقم ١٢ من سورة الأحزاب.

(٤) الآية: رقم ٣٤ من سورة النازعات.

(٥) الآية: رقم ٣٣ من سورة عبس.

(٦) الآية: رقم ١ من سورة النصر.

ثم جزاه الله عنا إذ جزا ... جنّات عدن والعلا إلى العلا^(١) أي: يجزيه.

قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أي: بدلا منكم ورافعكم إليّ، سمي (خليفة) لأنه يخلف الذاهب ويحيي بعده، فالخليفة من يتولى إمضاء الأمر عن الأمر.

وقال الثعلبي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ﴾ بالمعاصي، ﴿وَيَسْفِكُ﴾ يصب ﴿الدِّمَاءَ﴾ بغير حق، فإن قيل: كيف علموا ذلك وهو غيب؟

والجواب عنه ما قال السدي: لما قال الله لهم ذلك، قالوا: وما يكون من ذلك الخليفة؟ قال: تكون له ذرية، يفسدون في الأرض (ويتحاسدون)، ويقتل بعضهم بعضا. قالوا عند ذلك: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾، ومعناه: فقالوا، فحذف فاء التنسيق.

كقول الشاعر:

لما رأيت نبطا أنصارا ... شمّرت عن ركبتني الإزارا

كنت لهم من النصارى جارا.

أي: فكنت لهم.

وقال أكثر المفسرين: أرادوا كما فعل بنو الجانّ قاسوا بالشاهد على الغائب، وقال بعض أهل المعاني: فيه إضمار واختصار معناه: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟ أم تجعل فيها من لا يفسد ولا يسفك الدماء؟ كقوله تعالى: ﴿أَمَنَ هُوَ قَتَلْتُمْ عَادَآءَ آلِ يَثْرَآءَ﴾^(٢)، يعني: كمن هو غير قانت، وهو اختيار الحسن بن الفضل.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، قال الحسن: يقولون: سبحان الله وبحمده، وهو صلاة الخلق وتسييحهم وعليها يرزقون.

يدل عليه الحديث المروي عن أبي ذر إنه قال لرسول الله ﷺ: أي الكلام أفضل؟ قال:

(١) لسان العرب: ١٥ / ٤٦٣، وتاج العروس: ١ / ٤٢٤.

(٢) الآية: رقم ٩ من سورة الزمر.

(ما اصطفاه الله تعالى للملائكة: سبحان الله وبحمده)^(١)، وقيل معناه: ونحن نصلي لك بأمرك، والتسبيح يكون بمعنى التنزيه ويكون بمعنى الصلاة، ومنه قيل: للصلاة سبحة، وقيل معناه: نصلي، ونقرأ فيها فاتحة الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: وننزهك واللام صلة، وقيل: هي لام الأجل، أي ونظهر لأجلك قلوبنا من الشرك بك وأبداننا من معصيتك.

وقال بعض العلماء: في الآية تقديم وتأخير مجازها: ونحن نسبح ونقدس لك بحمدك لأنه إذا حملت الآية على التأويل الأول تنافي قول الملائكة المتركية بالإدلال بالعمل، وإذا حملت على هذا التأويل ضاهى قولهم التحدث بنعمة الله، فكأنهم قالوا: وأن سبّحنا وقدّسنا وأطعنا وعبدنا فذلك كله بحمدك لا بأنفسنا، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من استخلف في الأرض ووجه المصلحة فيه، فلا تعترضوا عليّ في حكمي وتدبري، وقيل: أراد أني أعلم أن من استخلفه في الأرض: أنبياء وأولياء وعلماء وصلحاء، وقيل: أني أعلم إنهم يذنبون وأغفر لهم.

قال بعض الحكماء: إنّ الله تعالى أخرج آدم عليه السلام من الجنة قبل أن يدخله فيها، لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ثم كان خروجه من الجنة بذنبه يدل أنه كان بقضاء الله وقدره.

فعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، قال: علم من إبليس المعصية وخلقها. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله لرسالته وكلامه، ثم تلو مني على أمر قدّر قبل أن أخلق. فحج آدم موسى)^(٢).

(١) الحديث: في مسند الإمام أحمد: ج ٥ ص ١٤٨.

(٢) الحديث: رواه الحاكم وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي في تلخيصه للمستدرک.

وقال ﷻ: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾: تنزيها لك عن الاعتراض لعلمك في حكمك وتديرك، وهو نصب على المصدر، أي نسبح سبحانا في قول الخليل.

وقال الكسائي: خارج عن الوصف، وقيل: على النداء المضاف، أي: يا سبحانك. قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ بخلقك، الحكيم، في أمرك.

وللحكيم معنيان: أحدهما: بمعنى: (المحكم للفعل)، كقوله: عَذَابٌ أَلِيمٌ، وحز وجيع، قال الشاعر:

أمن ريحانة الداعي السميع ... يؤرّقني وأصحابي هموع

أي المؤلم والموجع، والمسمع، فاعيل بمعنى: مفعول وعلى هذا التأويل هو صفة فعل. والآخر: بمعنى (الحاكم العالم)، وحيث أن يكون صفة ذات، وأصل الحكمة في كلام العرب: المنع، يقال: أحكمت اليتيم عن الفساد وحكمته، أي: منعه.

والحكمة تمنع من الباطل، وما لا يجمل فلا يحلّ في المحكم من الأمر بمنعه من الخلل، وفي هذه الآية دليل على جواز تكليف ما لا يطاق، حيث أمر الله تعالى الملائكة بإنباء ما لم يعلموا، وهو عالم بعجزهم عنه.

وقال الثعلبي ﷻ: قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَتَادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، فسَمِيَ كل شيء باسمه، وألحق كل شيء بجنسه، ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، يعني: أخبرهم بأسمائهم، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ يا ملائكتي.

﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ما كن فيها وما يكون، ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾، من الخضوع والطاعة لآدم، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، تخفون في أنفسكم من العداوة له، وقيل: ما تُبْدُونَ من الإقرار بالعجز والاعتذار، وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ من الكراهية في استخلاف آدم.

وقال ﷺ: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، سجدة تعظيم وتحية لا سجود صلاة وعبادة، نظيره قوله تعالى في قصة يوسف: ﴿وَحَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾^(١)، وكان ذلك تحية الناس، ويعظم بعضهم بعضا، ولم يكن وضع الوجه على الأرض، وإنما كان الانحناء والتكبير والتقبيل، فلما جاء الإسلام بطل ذلك بالسلام، وقال بعضهم: كان سجودا على الحقيقة جعل آدم ﷺ قبة لهم والسجود لله ﷻ، كما جعلت الكعبة قبة لصلاة المؤمنين والصلاة لله تعالى.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمرهم الله تعالى أن يأتوا بآدم فسجدت الملائكة وآدم لله رب العالمين.

وقال أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معناه: أقروا لآدم إنه خير وأكرم علي منكم فأقروا بذلك، والسجود على قول عبد الله وأبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بمعنى: الخضوع والطاعة والتذلل، كقول الشاعر:

ترى الأكم فيه سجدا للحوافر... وآدم على وزن افعّل، فلذلك لم يصرفه.

قوله: ﴿أَبَى﴾، أي: امتنع ولم يسجد، وقوله: ﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾، أي: تكبر وتعظم عن السجود، وقوله: ﴿وَكَانَ﴾، أي: فصار من الكافرين.

وقال أكثر المفسرين: معناه فكان في علمه السابق من الكافرين الذين وجبت لهم الشقاوة.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان عنه يبكي فيقول: يا ويلتي أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت في النار)^(٢).

(١) الآية: رقم ١٠٠ من سورة يوسف.

(٢) الحديث: صحيح رواه أبو هريرة - كما في صحيح الإمام مسلم، وفي المسند الصحيح - الصفحة أو الرقم: ٨١.

وقال الإمام الثعلبي رحمه الله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، يعني: استمال آدم وحواء فأخرجهما ونحّاهما. وقرأ حمزة: (فأزالهما الشيطان) وهو إبليس، وهو فيعال من شطن أي بعد. وقيل: إنه من شاط والنون فيه غير أصلية ونودي شيطان سمي بذلك لتمرّده وبعده عن الخير وعن رحمة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿عَنَهَا﴾، أي: عن الجنة وقيل عن الطاعة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، من النعيم، وذلك إن إبليس أراد أن يدخل الجنة ويوسوس لآدم وحواء فمنعته الخزنة، فأتى الحية وكانت من أحسن الدواب لها أربع قوائم كقوائم البعير وكان من خزان الجنة وكان لإبليس صديقا، فسألها أن تدخله في فمها فأدخلته في فمها ومرت به على الخزنة وهم لا يعلمون فأدخلته الجنة، وكان آدم لما دخل الجنة ورأى ما فيها من النعيم والكرامة قال: لو أن خلدا، فاغتنم الشيطان ذلك منه وأتاه من قبل الخلد، ولما دخل الجنة وقف بين يدي آدم وحواء لا يعلمان أنه إبليس، فراح عليهما نياحة أحزنهما وبكى وهو أول من ناح فقالا لم تبكي قال: أبكي عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعيم والكرامة، فوقع ذلك في أنفسهما واغتمتا، ومضى ثم أتاهما بعد ذلك، وقال يا آدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى﴾ فأبى أن يقبل منه، ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ﴾، فاغترا، وما كانا يظنان أن أحدا يحلف بالله كذبا، فبادرت حواء إلى أكل الشجرة، ثم ناولت آدم حتى أكلها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ فِي الْأَرْضِ مَسْنَرٌ وَمَتْنٌ﴾، أي: بلغة ومستمتع.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: الى حين اقتضاء آجالكم ومتهى أعماركم.

وقال رحمه الله: ﴿فَنَلَقَى﴾، أي: فلّقن، ﴿ءَادَمُ﴾، حفظ حين لقن، وأفهم حين ألهم.

وقرأ العامة: ﴿ءَادَمُ﴾، برفع الميم، كلمات بخفض التاء، وقرأ ابن كثير: بنصب الميم،

بمعنى جاءت الكلمات لآدم عليه السلام، ﴿مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾، كانت سبب قبول توبته، واختلفوا في تلك الكلمات، وقد ذكرنا وجوه الاختلاف فيما سبق من أقوال المسرين ولا حاجة للإعادة والتكرار، فقد طولوا بذكرها.

٨_ وقال مكي بن أبي طالب رحمه الله ^(١) في كتابه (الهداية): قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾، معناه: واذكر يا محمد إذ قال ربك، وقيل معناه: ابتداء خلقكم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾، لأنه ذكر معنى ذلك قبل هذا فقال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ^(٢)، أي: خلقكم إذ قال ربك، ودخلت الواو في ﴿إِذْ﴾، عطفاً على ما قبلها لأنه تعالى ذكر خلقه نعمه في إحيائهم بعد الموت، وأنه (خلق لهم) ما في الأرض جميعاً، وسوى لهم السماوات وغير ذلك من نعمه فعدد على خلقه نعمه، ثم قال: واذكروا فعلي بأبيكم آدم إذ قلت للملائكة اسجدوا له تفضيلاً له وابتلاءً للملائكة، وإلى هذا المعنى ذهب الطبري في هذه الواو، وفي واو: ﴿إِذْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِلْمَلَكَةِ﴾، اختلف في اشتقاق (ملك) وتقديره ومعناه.

ف قيل: واحداً مَلَكٌ، وأصله (مَلَأَك) على وزن (مَفْعَل)، والهمزة بعد اللام وهي عين الفعل فجمع على الأصل على مفاعل، ف قيل: (مَلَأْتُكَ) وزيدت الهاء للمبالغة، وقيل: لتأنيت الصيغة.

وقال ابن كيسان: هو مشتق من: (ملكت)، والهمزة في: (مَلَأْتُكَ) زائدة كزيادتها في شَمَالٌ، إذ هو من: (شملت الريح)، أي: عمت.

(١) الإمام مكي: هو أبو محمد مكي بن أبي طالب حمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: ٤٣٧هـ)، انظر: معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ، محمد سالم محيسن الجزء الثاني صفحة ٤٠٦، سير أعلام النبلاء ج ١٩ ص ٥٩١.
(٢) الآية: رقم ٢١ من سورة البقرة.

وقال غيره: هو مشتق من: (الْأُلُوْكَ)، وهي الرسالة بالهمزة بالفعل لكن قلبت همزته وهي فاء، فصارت عيناً فأخرت بعد اللام وأصلها: (مَأْلُكٌ)، ثم نقلت الهمزة بعد اللام فصارت: (مَلَكًا)، وجمع على ذلك، ولم يرد إلى أصله وكان حقه أن يرده الجمع إلى أصله، (فخرج عن الأصل في الجمع).

وقيل: هو مشتق من: (المَلَأَكَة)، وهي الرسالة أيضاً حكاها أبو عبيد، يقال: (لَأَكُ إِلَيْهِ يَلَأُكَ مَلَأَكَةً)، إذا أرسل إليه رسالة، ويقال في لغة أخرى: (أَلَكْتُ إِلَيْهِ أَلَأُكَ مَلَأَكَةً)، إذا أرسلت.

فعلى القول الأول من هذين القولين يكون: (مَلَكٌ)، مخفف الهمزة، أُلقيت حركة الهمزة على اللام وأصله:

(مَلَأُكَ)، وجمعه: (مَلَأِكَةٌ)، والهمزة عين الفعل ولا قلب فيه، إنما فيه في الواحد تخفيف الهمزة بنقل حركتها إلى الساكن قبلها وهو اللام.

وعلى القول الثاني يكون: (مَلَأُكَ)، مقلوباً وأصله: (مَأْلُكٌ)، والهمزة فاء الفعل، ثم قلبت الهمزة، فصارت بعد اللام، ثم خففت الهمزة فأُلقيت حركتها على اللام قبلها كالأول فصار ملكاً، فجمع على قلبه، ولم يرده الجمع إلى أصله لقلته استعماله بالهمز في الواحد، ولو جمع على أصله لقال: (مالكة)، ولكن لم يسمع جمعه على الأصل.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، معناه: إني جاعل في الأرض خلقاً يخلف بعضهم بعضاً لا بقاء لهم.

وقيل: معناه: إني جاعل في الأرض خلقاً يخلفون من كان فيها من هلك، وذلك أن أهل التفسير ذكروا أنه روي أن الأرض كان فيها خلق من الجن فأفسدوا فيها فأهلكهم الله، والهاء في: ﴿خَلِيفَةً﴾، للمبالغة.

وقيل: دخلت لأنه بمعنى داهية في المدح والذم، بمعنى بهيمة. قاله الفراء.

وقيل: الهاء (للتأنيث الصيغة)، وهي بمعنى فاعلة على هذا القول كرحيم بمعنى راحم، وعلى القول الأول يكون خليفة: (فعيلة)، بمعنى مفعولة أي مخلوقة؛ أي: يخلف بعضهم بعضاً لا بقاء لهم، فكل واحد مخلوف، لأن من يأتي من بعده يخلفه، فهو كجريح وقتيل، بمعنى مجروح ومقتول.

ومعنى: ﴿جَاعِلٌ﴾ خالق ومستخلف.

قال ابن عباس: أخرج الله آدم ﷺ من الجنة قبل أن يخلقه، وقرأ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، يريد أنه: (قدّر ذلك وعلمه وشاءه) قبل أن يخلق آدم.

وقال الإمام مكي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، روى كثير من المفسرين أن الملائكة علمت بفساد من سكن الأرض من الجن وسفكهم للدماء، فقالوا على طريق الاسترشاد وطلب الفائدة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، أي: أكونون مثل أولئك الذين أفسدوا؟، فسألوا مسترشدين لا منكبين، إذ لا علم عندهم بما يكون من أمر الخليفة التي أعلمهم الله أنه خالقها.

وقيل: إنهم قالوا ذلك على طريق التعجب كما تقول العرب: (أتحسن إلى فلان وهو سيء إليك!).

وقيل: إن الله جلّ ذكره أذن لهم في السؤال عن ذلك، وقيل: إن الله تعالى ذكره أعلمهم أنه يجعل في الأرض خليفة فسألوا على طريق الاسترشاد: ما يكون ذلك الخليفة؟ فقال: تكون له ذرية يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا عند ذلك على طريق الاستعظام والاستثبات لا على طريق الإنكار: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، قيل: قالوا ذلك على التعجب مما أعلمهم الله به من إفساد ذرية الخليفة في الأرض وسفكهم للدماء، والله أعلم بأي ذلك كان.

فالألف في ﴿أَتَجْعَلُ﴾ لفظها: لفظ الاستفهام ومعناها: الاسترشاد أو التعجب على

قول من رأى ذلك على ما ذكرنا، وقيل: إنما عني بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ﴾، الملائكة الذين كانوا في الأرض بعد هلاك من كان فيها دون غيرهم من ملائكة السماوات، والله أعلم بأي ذلك كان، واللفظ على عمومته حتى يأتي دليل تخصيصه.

وقد قيل: إن معنى قوله تعالى: ﴿إِنِّيْٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: أعلم أنه سيكون من ذرية آدم أنبياء ورسل وصالحون وعباد وأخيار وساكنو الجنة.

وأما قوله جل وعلا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، فمعناه: نعظمك بالحمد والشكر، وقيل: التسبيح الصلاة.

وأصل التسبيح لله عند العرب: التنزيه والتبرئة له سبحانه من إضافة ما ليس من صفته إليه.

وقوله تقدست أسماؤه: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أصل التقديس: التطهير، ومعناه: نظهر أنفسنا لك.

وقيل: التقديس الصلاة، وروي ذلك عن قتادة وعن أبي صالح: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نعظمك ونمجدك.

قوله تعالى ذكره: ﴿إِنِّيْٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، قد تقدم بيانه.

وقد قيل فيه: إن معناه إني اطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه، إني علمت ما أضمر إبليس في نفسه من ترك السجود لآدم ﷺ، ومن عداوته له ولذريته.

وقيل: معناه إني أعلم من آدم المعصية ثم التوبة عليه وإهباطه إلى الأرض، وما يكون من ذريته إلى يوم القيامة ومن هو سعيد، ومن هو شقي منهم.

٩- وقال الإمام الماوردي رحمه الله ^(١) في كتابه (النكت والعيون): قوله **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾**، ففي قوله: **﴿وَإِذْ﴾** وجهان: أحدهما: أنه: صلة زائدة، وتقدير الكلام: وقال ربك للملائكة، وهذا قول أبي عبيدة، واستشهد بقول الأسود بن يعفر:

(فَإِذَا وَذَلِكَ لَا مَهَاةَ لِدِكْرِهِ... وَالذَّهْرُ يَعْقُبُ صَالِحًا بِفَسَادِ)

والوجه الثاني: أن **﴿وَإِذْ﴾**: كلمة مقصورة، وليست بصلة زائدة، وفيها لأهل التأويل قولان: أحدهما: أن الله تعالى لما ذكّر خلقه نِعَمَهُ عليهم بما خلقه لهم في الأرض ذكّرهم نِعَمَهُ على أبيهم آدَمَ **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾**، وهذا قول المفضل.

والثاني: أن الله تعالى ذكر ابتداء الخلق فكأنه قال: وابتدأ خلقكم **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾**، وهذا من المحذوف الذي دلّ عليه الكلام، كما قال النمر بن تَوَلَّب:

(فَإِنَّ الْمَنِيَةَ مَنْ يَخْشَاهَا... فَسَوْفَ تُصَادِفُهُ أَيْنَمَا)

يريد: أينما ذهب، فأما الملائكة: فجمع مَلَكٍ، وهو مأخوذ من الرسالة، يقال: أَلَكْنِي إليها أي: أرسلني إليها، قال الهذلي:

(أَلَكْنِي وَخَيْرُ الرَّسُو... لِأَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرِ)

والألوك: الرسالة، قال لبيد بن ربيعة:

(وَعُغْلَامَ أَرْسَلْتُهُ أُمَّهُ... بِأَلُوكِ قَبَدَلْنَا مَا سَأَلْ)

(١) الإمام الماوردي: هو أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، انظر: سير إعلام النبلاء ج ١٨ ص ٦٤، الأنساب للسمعاني ١٨١، ١٨٢، طبقات الشافعية الكبرى ٤: ٦٤.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، اختلف في معنى ﴿جَاعِلٌ﴾ على وجهين: أحدهما: أنه بمعنى: خالق.

والثاني: أنه بمعنى: جاعل، لأن حقيقة الجعل فعل الشيء على صفة، وحقيقة الإحداث إيجاد الشيء بعد العدم، و﴿الْأَرْضِ﴾ قيل: إنها مكية

وأما (الخليفة) فهو: القائم مقام غيره، من قولهم: خَلَفَ فلانٌ فلاناً، و(الخَلَفُ): بتحريك اللام من الصالحين، و(الخَلْفُ): بتسكينها من الطالحين، وفي التنزيل: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾^(١)، وفي الحديث: (ينقل هذا العلم من كل خَلَفٍ عُدُولُهُ)^(٢).

وفي خلافة آدم وذريته ثلاثة أقاويل: أحدها: أنه كان في الأرض الجنُّ، فأفسدوا فيها سفكوا الدماء فأهلكوا، فَجَعَلَ آدم وذريته بدلهم، وهذا قول ابن عباس.

والثاني: أنه أراد قومًا يَخْلُفُ بعضهم بعضاً من ولد آدم، الذين يخلفون أباهم آدم في إقامة الحق وعمارة الأرض، وهذا قول الحسن البصري.

والثالث: أنه أراد: جاعل في الأرض خليفة يَخْلُفُنِي في الحكم بين خلقي، وهو آدم ومن قام مقامه من ولده، وهذا قول ابن مسعود.

وقال الماوردي رحمه الله: قوله ﷻ: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، وهذا جواب من الملائكة حين أخبرهم أنه: ﴿جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، واختلفوا في جوابهم هذا، هل هو على طريق الاستفهام أو على طريق الإيجاب؟ على وجهين: أحدهما: أنهم قالوه استفهاماً واستخباراً حين قال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فقالوا: يا ربنا أَعْلَمْنَا أَجَاعِلَ أَنْتَ في الأرض من يُفْسِدُ فيها ويسفك الدماء؟ فأجابهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ولم يخبرهم.

(١) الآية: رقم ٥٩ من سورة مريم.

(٢) الحديث: رواه البيهقي، تحقيق العلامة الألباني / مشكاة المصابيح كتاب العلم الفصل الأول ج ١ ص / ٥٣.

والثاني: أنه إيجاب، وإن خرجت الألف مخرج الاستفهام، كما قال جرير:

(أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا... وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونٍ رَاح)

وعلى هذا الوجه في جوابهم بذلك قولان: أحدهما: أنهم قالوه ظناً وتوهمًا، لأنهم رأوا الجن من قبلهم قد أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء، فتصوروا أنه إن استخلف في الأرض مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ، وفي جوابهم بهذا وجهان:

أحدهما: أنهم قالوه استعظاماً لفعلهم، أي: كيف يفسدون فيها ويسفكون الدماء وقد أنعمت عليهم واستخلفتهم فيها، فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

والثاني: أنهم قالوه تعجباً من:

(أَقُولُ لِمَا جَاءَنِي فَخْرُهُ... سُبْحَانَ مَنْ عِلْقَمَةَ الْفَاجِرِ)

أي: براءة من علقمة.

ولا يجوز أن يسبَحَ عَيْرُ اللَّهِ، وإن كان منزهاً، لأنه صار علماً في الدين على أعلى مراتب التعظيم التي لا يستحقها إلا الله تعالى.

وفي المراد بقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، ثلاثة أقاويل: أحدها: معناه: نصلي لك، وفي التنزيل: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾^(١)، أي: من المصلين، وهذا قول ابن عباس وابن مسعود.

والثاني: معناه: نعظمك، وهذا قول مجاهد، والثالث: أنه التسبيح المعروف، وهذا قول المفضل، واستشهد بقول جرير:

(قَبَّحَ إِلَهُهُ وَجُوهَ نَغْلِبَ كُلِّهَا... سَبَّحَ الْحَجِيجُ وَكَبَّرُوا إِهْلَالَآ)

(١) الآية: رقم ١٤٣ من سورة الصافات.

وأما قوله: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، فأصل التقديس: التطهير، ومنه قوله تعالى: ﴿الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾، أي: المطهرة، وقال الشاعر:

(فَأَذْرَكْنَهُ يَأْخُذْنَ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا... كَمَا شَبَّرَقَ الْوَلْدَانُ ثَوْبَ الْمُقَدَّسِ)

أي: المطهر، وفي المراد بقولهم: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ثلاثة أقاويل: أحدها: أنه الصلاة. والثاني: تطهيره من الأدناس.

والثالث: التقديس المعروف.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثلاثة أقاويل:

أحدها: أراد ما أضمره إبليس من الاستكبار والمعصية فيما أمرُوا به من السجود لآدم، وهذا قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، والثاني: مَنْ في ذرية آدم في الأنبياء والرُّسُل الذين يُصْلِحُونَ في الأرض ولا يفسدون، وهذا قول قتادة، والثالث: ما اختص بعلمه من تدبير المصالح.

وقال الماوردي رحمه الله: قوله تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) في تسميته بآدم قولان:

أحدهما: أنه سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض، وأديمها هو وجهها الظاهر، وهذا قول ابن عباس.

والثاني: أنه مأخوذ من الأدمة، وهي اللون، وفي الأسماء التي علّمها الله تعالى آدم ثلاثة أقوال:

أحدها: أسماء الملائكة، والثاني: أسماء ذريته، والثالث: أسماء جميع الأشياء، وهذا قول ابن عباس وقتادة ومجاهد، ثم فيه وجهان: أحدهما: أن التعليم إنما كان مقصوراً على الاسم دون المعنى، والثاني: أنه علمه الأسماء ومعانيها، إذ لا فائدة في علم الأسماء بلا معاني، فتكون المعاني هي المقصودة، والأسماء دلائل عليها، وإذا قيل بالوجه الأول أن

التعليم: إنما كان مقصوراً على ألفاظ الأسماء دون معانيها، ففيه وجهان:

أحدهما: أنه علمه إياها باللغة التي كان يتكلم بها، والثاني: أنه علمه بجميع اللغات، وعلمها آدم ولده فلما تفرقوا تكلم كل قوم منهم بلسان استسهلوه منها وألفوه، ثم نسوا غيره فتطاول الزمن، وزعم قوم أنهم أصبحوا وكل منهم يتكلمون بلغة قد نسوا غيرها في ليلة واحدة، ومثل هذا في العُرف ممتنع.

قوله ﷺ: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾، وفيما عرضه عليهم قولان: أحدهما: أنه عرض عليهم الأسماء دون المسميات، والثاني: أنه عرض عليهم المسمين بها، وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه:

(وَعَرَضَهُنَّ) وفي حرف أبي رضي الله عنه: (وَعَرَضَهَا)، فكان الأصح توجه العرض إلى المسمين. وقال الإمام الماوردي رحمه الله: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾، قدّموا الثناء على ذكر ما اعتذروا به، ونزّهوا حقيقة حكمه عن أن يكون يعرض وهم المعارضون، يعنى ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بما سألتنا عنه، ولا يتوجه عليك لوم في تكليف العاجز بما علمت أنه غير مستطيع له، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، أي: ما تفعله فهو حقّ صدق ليس لأحد عليك حكم، ولا منك سفه وقبح.

وقال الإمام الماوردي رحمه الله: وقوله ﷺ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾، اختلف أهل التأويل في أمره الملائكة بالسجود لآدم على قولين: أحدهما: أنه أمرهم بالسجود له تَكْرِماً وَتَعْظِماً لشأنه.

والثاني: أنه جعله قبلة لهم، فأمرهم بالسجود إلى قبلتهم، وفيه ضرب من التعظيم.

وأصل السجود الخضوع والتطامن، قال الشاعر:

(بِجَمْعِ تَضِلُّ الْبَلْقُ فِي حُجْرَاتِهِ... تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ)

وسمى سجود الصلاة سجوداً، لما فيه من الخضوع والتطامن، فسجد الملائكة لآدم طاعةً لأمر الله تعالى إلا إبليس أبى أن يسجد له حسداً واستكباراً.

وقال الإمام الماوردي رحمه الله: قوله ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، بالتشديد بمعنى استزلهما من الزلل، وهو: الخطأ، سمي زللاً لأنه زوال عن الحق، وكذلك الزلة زوال عن الحق، وأصله الزوال.

والشيطان الذي أزلهما هو: إبليس، واختلف المفسرون: هل خلص إليهما حتى باشرهما بالكلام وشافهما بالخطاب أم لا؟ فقال عبد الله بن عباس ووهب بن منبه وأكثر المفسرين: أنه خلص إليهما، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَقَاَسَمُهُمَا إِيَّيْ لَكُمْآ لَيْنَ النَّصِيحِينَ﴾، وقال محمد بن إسحاق: لم يخلص إليهما، وإنما أوقع الشهوة في أنفسهما، ووسوس لهما من غير مشاهدة، لقوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، والأول أظهر وأشهر.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، يعني: إبليس سبب خروجهما، لأنه دعاهما إلى ما أوجب خروجهما، وقوله ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، الهبوط: بضم الهاء النزول، وبفتحها موضع النزول، وقال المفضل: الهبوط الخروج من البلدة، وهو أيضاً دخولها، فهو من الأضداد وإذا كان الهبوط في الأصل هو النزول، كان الدخول إلى البلدة لسكنائها نزولاً بها، فصار هبوطاً.

واختلفوا في المأمور بالهبوط على ثلاثة أقاويل: أحدها: أنه آدم وحواء وإبليس والحية، وهذا قول ابن عباس، والثاني: أنه آدم وذريته وإبليس وذريته وهذا قول مجاهد، والثالث: أنه آدم وحواء والموسوس.

والعدو: اسم يستعمل في الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، والعداوة: مأخوذة من المجاوزة من قولك: لا يعدونك هذا الأمر، أي: لا يجاوزنك، وعداؤه كذا، أي: جازوه، فسُمي عدواً لمجاوزة الحد في مكروه صاحبه، ومنه العدو بالقدم: لمجاوزة

المثني، وهذا إخبار لهم بالعداوة وتحذير لهم وليس بأمر، لأن الله تعالى لا يأمر بالعداوة. واختلِفَ في الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، على قولين: أحدهما: أنهم الذين قيل لهم اهبطوا على ما ذكرنا من اختلاف المفسرين فيه، والثاني: أنهم بنو آدم وبنو إبليس، وهذا قول الحسن البصري.

قوله ﷺ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، فيه تأويلان: أحدهما: أن المستقر من الأرض موضع مقامهم عليها، لقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ كَرَارًا﴾^(١)، وهذا قول أبي العالية.

والثاني: أنه موضع قبورهم منها، وهذا قول السُّدِّيِّ.

قوله ﷺ: ﴿وَمَتَّعَ الْإِنِّ﴾، والمتاع: كل ما استُمتِعَ به من المنافع، ومنه سُمِّيَتْ متعة النكاح، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ﴾، أي: ادفعوا إليهنَّ ما ينتفعن به والحين: الوقت البعيد، ف(حيثن) تبعيد قولك: (الآن)، وفي المراد بالحين في هذا الموضع ثلاثة أقاويل:

أحدها: إلى الموت، وهو قول ابن عباس والسُّدِّيِّ، والثاني: إلى قيام الساعة، وهو قول مجاهد، والثالث: إلى أجل، وهو قول الربيع.

وقال الماوردي رحمه الله: قوله ﷺ: ﴿فَنَلَقَّ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، أما: (الكلام) فمأخوذ من التأثير، لأن له تأثيراً في النفس بما يدل عليه من المعاني، ولذلك سُمِّيَ الجُرْحُ: (كَلِمًا) لتأثيره في البدن، واللفظ مشتق من قولك: لفظت الشيء، إذا أخرجته من قلبك.

واختلِفَ في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه على ثلاثة أقاويل ذكرناها فيما ورد قبل من أقوال المفسرين.

قوله ﷺ: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، أي قبل توبته، والتوبة: الرجوع، فهي من العبد: رجوعه عن

(١) الآية: رقم ٦٤ من سورة غافر.

الذنب بالندم عليه والإقلاع عنه، وهي من الله تعالى على عبده: رجوع له إلى ما كان عليه. فإن قيل: فلم قال: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، ولم يقل: فتَابَ عليهما، والتوبة قد توجهت إليهما؟ قيل عنه جوابان:

أحدهما: لما ذكر آدم وحده بقوله: ﴿فَنَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾، ذكر بعده قبول توبته، ولم يذكر توبة حواء وإن كانت مقبولة التوبة، لأنه لم يتقدم ذكرها.

والثاني: أن الاثنين إذا كان معنى فعلهما واحداً، جاز أن يذكر أحدهما ويكون المعنى لهما، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، أي: الكثير القبول للتوبة، وعقبه بالرحمة لثلاثي خلق الله تعالى عباده من نعمه، وقال الحسن: لم يخلق الله تعالى آدم إلا للارض أفلو لم يعص لخرج على غير تلك الحال وقال غيره: يجوز أن يكون خَلَقَهُ للارض إن عصى، ولغيرها إن لم يعص، ولم يُخْرِجِ الله تعالى آدم من الجنة ويُهْبِطُهُ على الارض عقوبةً لأمرين:

أحدهما: أن ذنبه كان صغيراً، والثاني: أنه أُهْبِطَ بعد قبول توبته، وإنما أُهْبِطَ لأحد أمرين: إما: تأديباً، وإما: تغليظاً للمحنة.

١٠_ وقال الإمام القشيري رحمه الله (٢) في كتابه: (لطائف الإشارات): قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، هذا ابتداء إظهار سرّه في آدم وذريته، أمر حتى سلّ من كل بقعة طينة ثم أمر بأن يخمّر طينه أربعين صباحاً، وكل واحد

(١) الآية: رقم ٦٢ من سورة التوبة.

(٢) الإمام القشيري: هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، انظر: طبقات الشافعية الكبرى: السبكي (ت ٧٧١هـ)، ج ٥، ص ١٥٣، البداية و النهاية: الحافظ بن كثير، تحقيق: علي نجيب عطوي، ج ١٢، ص ١١٤.

من الملائكة يفضي العجب: ما حكم هذه الطينة؟ فلما ركب صورته لم يكونوا رأوا مثلها في بديع الصنعة وعجيب الحكمة، فحين قال سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ترجمت الظنون، وتقسمت القلوب، وتجتت الأقاويل، وكان كما قيل:

وكم أبصرت من حسن ولكن... عليك من الورى وقع اختياري

ويقال إن الله سبحانه وتعالى خلق ما خلق من الأشياء ولم يقل في شأن شيء منه ما قال في حديث آدم حيث قال جل وعلا: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فظاهر هذا الخطاب يشبه المشاورة لو كان هذا صادر من المخلوقين.

والحق سبحانه وتعالى خلق الجنان بما فيها، والعرش بما هو عليه من انتظام الأجزاء وكمال الصورة، ولم يقل إنى خالق عرشا أو جنة أو ملكا، وإنما قال تشريفا وتخصيصا لآدم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

وقال ﷺ: ولم يكن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ على وجه الاعتراض على التقدير ولكن على جهة الاستفهام، فإن حمل الخطاب على ما يوجب تنزيه الملائكة أولى لأنهم معصومون، قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾^(١).

ويقال استخرج الحق سبحانه منهم ما استكن في قلوبهم من استعظام طاعتهم والملاحظة إلى أفعالهم بهذا الخطاب فأفصحوا عن خفايا أسرارهم بقولهم: ﴿وَنَحْنُ سُجَّادٌ بِحَمْدِكَ﴾.

ثم إن الحق سبحانه عرفهم أن الفضيلة بالعلم أتم من الفضيلة بالفعل، فهم كانوا أكثر فعلا وأقدمه، وآدم عليه السلام كان أكثر علما وأوفره، فظهرت فضيلته ومرتبته.

ويقال لم يقل الحق سبحانه أنتم لا تفسدون فيها ولا تسفكون الدماء بل قال سبحانه:

(١) الآية: رقم ٦ من سورة التحريم.

﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من غفراني لهم.

ويقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من صفاء عقائد المؤمنين منهم في محبتنا، وذكاء سرائرهم في حفظ عهودنا وإن تدنس بالعصيان ظاهرهم، كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

ويقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من محبتي لهم، وأنتم تظهرون أحوالكم، وأنا أخفى عليهم أسراري فيهم، وفي معناه أنشدوا:

ما حطك الواشون عن رتبة ... عندي ولا ضرر مغتاب

ويقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من انكسار قلوبهم وإن ارتكبوا قبيح أفعالهم، وصوله قلوبكم عند إظهار تسييحكم وتقديسكم، فأنتم في رتبة وفاقكم وفي عصمة أفعالكم، وفي تجميل تسييحكم، وهم منكرون عن شواهدهم، متدللون بقلوبهم، وإن لانكسار قلوب العباد عندنا لذماماً قويا.

وقال ﷺ: في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، عموم قوله: ﴿الْأَسْمَاءُ﴾ يقتضي الاستغراق، واقتراح قوله سبحانه: بـ ﴿كُلَّهَا﴾ يوجب الشمول والتحقيق، وكما علمه أسماء المخلوقات كلها على ما نطق به تفسير ابن عباس وغيره، علمه أسماء الحق سبحانه، ولكن إنما أظهر لهم محل تخصصه في علمه أسماء المخلوقات وبذلك المقدار بان رجحانه عليهم، فأما انفراده بمعرفة أسمائه سبحانه فذلك سر لم يطلع عليه ملك مقرب، ومن ليس له رتبة مساواة آدم في معرفة أسماء المخلوقات فأى طمع في مداناته في أسماء الحق، ووقوفه على أسرار الغيب؟ وإذا كان التخصيص بمعرفة أسماء المخلوقات يتقضى أن يصح (به سجود) الملائكة فما الظن بالتخصيص بمعرفة أسماء الحق سبحانه؟ ما الذي يوجب لمن أكرم به؟.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: من آثار العناية بآدم عليه السلام أنه لما قال للملائكة: ﴿أَنِبُّونِي﴾، داخلهم من هيبة الخطاب ما أخذهم عنهم، لا سيما حين طالبهم بإنابائهم إياه ما لم تحط به علومهم.

ولما كان حديث آدم عليه السلام ردّه في الإنباء إليهم فقال: ﴿أُنَبِّئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، ومخاطبة آدم عليه السلام الملائكة لم يوجب له الاستغراق في الهيبة، فلما أخبرهم آدم عليه السلام بأسماء ما تقاصرت عنها علومهم، ظهرت فضيلته عليهم، فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يعنى: ما تقاصرت عنه علوم الخلق، ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾، من الطاعات، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُحُونَ﴾، من اعتقاد الخيرية على آدم عليه السلام.

ولما أراد الحق سبحانه أن ينجى آدم عليه السلام عصمه، وعلمه، وأظهر عليه آثار الرعاية حتى أخبر بما أخبر به، وحين أراد إمضاء حكمه فيه أدخل عليه النسيان حتى نسى في الحضرة عهده، وجاوز حدّه، فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(١)، فالوقت الذي ساعدته العناية تقدم على الجملة بالعلم والإحسان، والوقت الذي أمضى عليه الحكم ردّه إلى حال النسيان والعصيان، كذا أحكام الحق سبحانه فيما تجرى وتمضى، ذلّ بحكمه العبيد، وهو فعّال لما يريد.

ولما توهّموا حصول تفضيلهم بتسييحهم وتقديسهم عرفهم أن بساط العز مقدس عن التجميل بطاعة مطيع أو التدنّس بزلة جاحد عنيد، فردّهم إلى السجود لآدم أظهر الغناء عن كل وفاق وخلاف.

وقال رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، السجود: لا يكون عبادة لعينه، ولكن لموافقة أمره سبحانه، فكان سجودهم لآدم عبادة لله لأنه كان بأمره، وتعظيما لآدم عليه السلام لأنه أمرهم به تشريفا لشأنه، فكان ذلك النوع خضوع له ولكن لا يسمى

(١) الآية: رقم ١١٥ من سورة طه.

عبادة، لأن حقيقة العبادة نهاية الخضوع وذلك لا يصحّ لغيره سبحانه.

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ ﴿أَبَى﴾ بقلبه، ﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾ عن السجود بنفسه، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ في سابق حكمه وعلمه.

وقال القشيري رحمه الله: قوله ﷺ: ﴿فَنَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، جرت على لسان آدم عليه السلام مع الحق سبحانه كلمات، وأسمع الحق سبحانه آدم عليه السلام كلمات، وأجمل الحق سبحانه القول في ذلك إجمالاً ليبقى القصة مستورة، أو: ليكون للاحتمال والظنون مساع، ولما يحتمله الحال من التأويل مطرح.

ويحتمل أن: تكون كلمات آدم عليه السلام اعتذاراً وتنصلاً، وكلمات الحق سبحانه قبولاً وتفضلاً.

وعلى لسان التفسير أن قوله تعالى له: (أفراراً منا يا آدم)؟ كذلك قوله عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾، وقوله: أخرجني أنت من الجنة؟ فقال: نعم، فقال: أتردني إليها؟ فقال: نعم.

١١_ وقال الإمام الواحدي رحمه الله^(١) في تفسيره: (الوسيط): وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾، قال أبو عبيدة: ﴿إِذْ﴾ ههنا زائدة، معناه: وقال ربك للملائكة.

وأنكر الزجاج وغيره هذا القول وقالوا: إن الحرف إذا أفاد معنى صحيحاً لم يجوز إلغاؤه.

قالوا: وفي الآية محذوف، معناه: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، الخليفة: الذي يخلف الذاهب، أي:

(١) الإمام الواحدي: هو أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨ هـ)، انظر: الكامل لابن الأثير ١٠ / ١٠١ [نسخة أخرى ١٠ / ٣٥]، وفيات الأعيان ٣ / ٣٠٣ - ٣٠٤، طبقات السبكي / ٥ / ٢٤٠، سير أعلام النبلاء ج ١٨ ص ٣٤٠.

يجيء بعده، يقال: خلف فلان مكان فلان، وأصل الخليفة: خليف، بغير هاء، لأنه فاعل بمعنى فاعل كالعليم والسميع، فدخلت الهاء للمبالغة بهذا الوصف، وكما قالوا: راوية وعلامة.

ألا ترى أنهم جمعوه خلفاء كما يجمع فعيل، ومن أنث لتأنيث اللفظ قال في الجمع: خلائف.

وقد ورد التنزيل بها، قال الله تعالى: ﴿خُلِفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿خَلَيْفَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢)، وأراد بالخليفة: آدم، في قول جميع المفسرين، جعله خليفة عن الملائكة الذين كانوا سكان الأرض بعد الجن، وذلك أن الله خلق السماء والأرض، وخلق الملائكة والجن، فأسكن الملائكة السماء، وأسكن الجن الأرض، فعبدوا دهرًا طويلًا في الأرض ثم ظهر فيهم الحسد والبغي، فاقتتلوا وأفسدوا، فبعث الله إليهم جنودًا من الملائكة يقال لهم: الجن، رأسهم إبليس، وهم خزان الجنان، اشتق لهم اسم من الجنة، فهبطوا إلى الأرض وطردهوا الجن عن وجوهها إلى شعوب الجبال وجزائر البحور وسكنوا الأرض، وكانوا أخف من الملائكة عبادة، لأن أهل السماء الدنيا أخف عبادة أخف من الذين فوقهم، وكذلك أهل كل سماء، وهؤلاء الملائكة لما صاروا سكان الأرض خفف الله عليهم العبادة، فأحبوا البقاء في الأرض، وكان الله قد أعطى إبليس ملك الأرض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنان، وكان يعبد الله تارة في الأرض وتارة في السماء وتارة في الجنة، فأعجب بنفسه وتداخله الكبر، فاطلع الله ﷻ على ما انطوى عليه من الكبر، فقال له ولجنده: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ جَعَلَ إِبْلِيسَ يُطِيفُ بِهِ، فَلَمَّا

(١) الآية: رقم ٦٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ١٤ من سورة يونس.

نَظَرَ إِلَيْهِ فَوَجَدَهُ أَجُوفًا، قَالَ: ظَفِرْتُ بِهِ خَلْقًا لَا يَتِمَّاسُكَ^(١).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ)^(٢).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، قال السدي: قال ابن عباس: قال الله تعالى لهم: إني خالق بشر، وإنهم يتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً^(٣).

وقال ﷺ: فلذلك: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾؟! وقال أكثر المفسرين: إنهم قاسوا على الغائب، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، كما فعل بنو الجان.

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، معنى التسبيح: تنزيه الله من كل سوء، وكل من أثنى على الله وبعده عن السوء فقد سبّح الله، قال الحسن: معناه: نقول: سبحان الله وبحمده.

وقال غيره: معنى قوله: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾: نتكلم بالحمد لك، والنطق بالحمد لله تسبيح له كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾^(٤)، وقال سبحانه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾^(٥)، أي: احمده، ويكون حمد الحامد له تسبيحاً له، لأن معنى الحمد: الثناء عليه والشكر له، وهذا تنزيه له واعتراف أنه أهل لأن يتزه ويعظم ويشنى عليه، قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نطهرك ونزهك عما لا يليق بك من النقص، واللام فيه صلة، والتقديس: التطهير، والقدس: الطهارة، والبيت المقدس: المطهر.

(١) الحديث: رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، عَنْ يُونُسَ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ حَمَّادٍ.

(٢) الحديث: رواه أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس، نقله أبو داود في سننه، وحكم عنه بأنه: سكت عنه [وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح].

(٣) الأثر: أورده الطبري في تفسيره ج ١ ص ٤٠٥.

(٤) الآية: رقم ٥ من سورة الشورى.

(٥) الآية: رقم ٩٨ من سورة الحجر.

وقوله جل وعلا: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، قال ابن عباس: يعني إضمار إبليس العزم على المعصية وما اطلع عليه من كبره.

وقال قتادة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أنه يكون في أولاد آدم من هو من أهل الطاعة. وقيل: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من تفضيل آدم عليكم وما أتبعكم به من السجود له، وأفضله به عليكم من تعليم الأسماء، وذلك أنهم قالوا، فيما بينهم: ليخلق ربنا ما يشاء فلن يخلق أفضل ولا أكرم عليه منا، وإن كان خيرا منا فنحن أعلم منه، لأننا خلقنا قبله، ورأينا ما لم يره.

وقال الإمام الواحدي رحمه الله: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾، فقالت الملائكة إقرارا بالعجز واعتذارا: سبحانك قال ابن عباس: تنزيها لك، وتعظيما عن أن يعلم الغيب أحد سواك، وقيل: تنزيها لك عن الاعتراض عليك في حكمك، وهو منصوب على المصدر عند الخليل والفراء إذا قلت: سبحان الله، فكأنك قلت سبحت الله تسييحا وسبحانا، فجعل السبحان في موضع التسييح، كما تقول: كفرت عن يميني تكفيرا وكفرانا، وكلمته كلاما، وسلمت سلاما.

وقوله تعالى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، قال المفسرون: هذا اعتراف عن الملائكة بالعجز عن علم ما لم يعلموه، فكأنهم قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، وليس هذا مما علمتنا، فجاء الكلام مختصرا، وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾، أي: العالم، ﴿الْحَكِيمُ﴾: الحاكم، تحكم بالعدل وتقضي به، والحكم: القضاء بالعدل، قال النابغة:

وأحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت ...

إلى حمام سراع وارد الثمد ويجوز أن يكون الحكيم بمعنى: المحكم للأشياء، كالأليم بمعنى المؤلم، والسميع بمعنى المسمع في قول عمرو بن معد يكرب:

أمن ريحانة الداعي السميع ... يؤرقني وأصحابي هجوع

وقال الواحدي رحمه الله: قوله ﷻ: ﴿يَتَكَادَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، فسمى كل شيء باسمه، وألحق كل شيء ببجته، ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، أخبرهم بتسمياتهم، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾، لم: حرف نفي وصل بألف الاستفهام، فصار بمعنى الإيجاب والتقرير كقول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: ما غاب فيهما عنكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١)، أي: له ما غاب فيهما ملكا وخلقاً، ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾، من قولكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُتُونَ﴾، من إضمار إبليس الكفر.

وقال الحسن وقتادة: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُتُونَ﴾، يعني قولهم: لن يخلق الله خلقاً أفضل ولا أعلم منا.

وقال الإمام الواحدي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، موضع إذ نصب نسقا على إذ التي قبلها، وقوله: قلنا هو خطاب الأكابر والعظماء، يقول الواحد منهم: (فعلنا)، لعلمه بأن أتباعه يفعلون كفعله، فأخبر الله تعالى عن نفسه على الجمع لأنه ملك الملوك.

واختلفوا في الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم، من هم؟ فقال بعضهم: هم الذين كانوا مع إبليس في الأرض، وقال آخرون: هم جميع الملائكة حتى جبريل وميكائيل، لأن الله تعالى قال: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾^(٢)، وفي هذا تأكيد للعموم.

وأصل السجود في اللغة: الخضوع والتذلل، وكل من ذل وخضع لما أمر به فقد سجد. وسجود كل موات في القرآن: طاعته لما سخر له، وقال أبو عبيدة:

(١) الآية: رقم ١٢٣ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٣٠ من سورة الحجر.

عين ساجدة، إذا كانت فاترة... ونخلة ساجدة، إذا مالت لكثرة حملها.

وقال الإمام الواحدي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي: نحاهما وبعدهما، يقال: زلت قدمه زللا وزليلا، إذا لم تثبت، وأزلهما صاحبها، إذا حملها على الزلل، ونسب الفعل إلى الشيطان: لأن زوالهما عنها إنما كان بتزيينه وتسويله، فلما كان ذلك منه بسبب أسند الفعل إليه.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، أي: من الرتبة والمنزلة ولين العيش.

فعن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة التي نهي عنها، قال الله تعالى له: يا آدم، ما حملك على ما صنعت؟ فاعتل آدم، فقال: يا رب زيتته لي حواء، قال: فإني أعقبتها أن لا تحمل إلا كرها، ولا تضع إلا كرها، ودميتها في الشهر مرتين، فرنت حواء عند ذلك، فقيل: عليك الرنة، وعلى بناتك^(١)).

قوله عليه السلام: ﴿وَلَكُمُ فِي الْأَرْضِ مَسَرَقُومٌ﴾، موضع قرار، أحياء وأموات، ومتاع هو ما تمتعت به من أي شيء كان، وكل ما حصل التمتع به فهو متاع، قال المفسرون: فلنا في الأرض متاع من حيث الاستقرار عليها، والاغتذاء بما تنبتها من الثمار والأقوات.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، الحين: وقت من الزمان يصلح للأوقات كلها، طالت أم قصرت، ويجمع على: الأحيان، ثم يجمع الأحيان: أحيان، والمراد بالحين ههنا فيما ذكره أهل التفسير: حين الموت.

وقال رحمه الله: قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، التلقي ههنا معناه: الأخذ والقبول، ومنه الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتلقى الوحي من جبريل عليه السلام، أي: يتقبله ويأخذه

(١) الأثر: أخرجه ابن أبي الدنيا في "الرقعة والبكاء" (٣٠٧)، وأحمد بن منيع في "مسنده" كما في "المطالب العالية" (٢١٥)، وابن المنذر في "الأوسط" (٧٧٩)، وأبو الشيخ في "العظمة" (١٥٨٣/٥)، والحاكم في "المستدرک" (٣٤٣٧)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٥٤٠٧)، وإسناده صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما، قال ابن حجر في "المطالب العالية" (٢١٥): "هذا موقف صحيح الإسناد".

وقال الأصمعي: تلقت الرحم ماء الرجل: إذا قبلته.

والكلمات: جمع الكلمة، والكلمة: تقع على القليل والكثير، وتقع على الحرف الواحد من الهجاء، ومعنى تلقى آدم من ربه الكلمات: هو أن الله تعالى ألهم آدم حتى اعترف بذنبه، وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾، فهذه الآية المعنية بالكلمات في قول الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد.

وقوله تعالى: ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾، معنى التوبة في اللغة: الرجوع، وفي الشريعة: رجوع العبد من المعصية إلى الطاعة، فالعبد يتوب إلى الله، والله يتوب عليه، أي: يرجع إليه بالمغفرة، ومعنى قوله: ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾، أي: عاد عليه بالمغفرة والرحمة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَأْبُ الرَّحِيمُ﴾، أي: يتوب على عبده بفضله إذا تاب إليه من ذنبه.

١٢_ وقال الإمام السمعاني رحمه الله (١) في كتابه: (تفسير القرآن): قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، معناه: وقال ربك.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، اتفقوا على أن المراد بهذا الخليفة آدم صلوات الله عليه والخليفة، والخليف: بمعنى واحد، وجمع الخليف: خلفاء، وجمع الخليفة: خلائف.

واختلفوا في أنه لما سمي خليفة؟ منهم من قال: لأنه خليفة الجن؛ فإن الله تعالى لما خلق الأرض أسكنها الجن، ولما خلق السماء أسكنها الملائكة، ثم لما: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢)، قال سبحانه: ﴿

(١) الإمام السمعاني: هو أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء ج ٢٠ ص ٤٥٦، الأنساب: ٧ / ١٣٩ - ١٤٠، المنتظم: ٩ / ١٠٢، اللباب: ٢ / ١٣٨ - ١٣٩، وفيات الأعيان: ٣ / ٢١١.

(٢) الآية: رقم ٢٩ من سورة البقرة.

إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿١﴾، آدم أزعج الجن إلى أطراف الأرض؛ فهو الخليفة في الأرض. وقيل: إنما سماه خليفة؛ لأنه يخلفه غيره، فيكون الخليفة بمعنى: أنه يخلف غيره، ويكون الخليفة أيضاً بمعنى: أنه يخلفه غيره، وقيل: إنما سمى خليفة لأنه خليفة الله في الأرض؛ لإقامة أحكامه، وتنفيذ قضاياه، وهذا هو الأصح.

وقال الإمام السمعاني رحمه الله: قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟ ! فإن قيل: من أين علموا ذلك؟ قيل: إن الله تعالى أعلمهم بذلك.

وقيل: اطلعوا عليه في اللوح المحفوظ.

قوله: ﴿تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، هو: التنزيه عن السوء، ومعناه: ونحن ننزهك عن الأنداد والشركاء وقال الحسن: معنى قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ سُبِّحٌ بِحَمْدِكَ﴾، هو قولهم: سبحان الله وبحمده.

قوله تعالى: ﴿وَتُقَدَّسُ لَكَ﴾، يعني: نشئ عليك بالقدس والطهارة، وقيل معناه: نطهر أنفسنا بطاعتك والثناء عليك.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، له معنيان: أحدهما: إني أعلم فيهم من يعبدني ويطيعني من الأنبياء والأولياء والصلحاء، والثاني معناه: إني أعلم فيكم أيها الملائكة من يعصيني يعني إبليس.

وقال الإمام السمعاني رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟ ! فإن قيل: من أين عملوا ذلك؟ قيل: إن الله تعالى أعلمهم بذلك.

وقيل: اطلعوا عليه في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، هو التنزيه عن السوء، ومعناه: ونحن ننزهك عن الأنداد والشركاء.

وقال الحسن: معنى قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، هو قولهم: سبحان الله وبحمده. وقوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، يعني: نثنى عليك بالقدس والطهارة، وقيل معناه: نطهر أنفسنا بطاعتك والثناء عليك، فإن قيل: قولهم ﴿أَجْعَلُ فِيهَا﴾، يشبه الاعتراض عليه، وقولهم: نحن: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، يشبه التفاخر بالعمل؛ وكلاهما لا يجوز على الملائكة.

فما معنى هذا الكلام؟

قلنا: أما قولهم: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا﴾، معناه: أنت جاعل فيها على سبيل التقدير، وقالوا: إنما قالوه على سبيل التعجب طلبا لوجه الحكمة فيه، وأما قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، فليس على سبيل التفاخر بل معناه: أنه إذا أفسدوا وسفكوا الدماء فنحن نبقي على هيئة التسبيح والتقديس أم لا؟.

قوله سبحانه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، له معنيان: أحدهما: إني أعلم فيهم من يعبدني ويطيعني من الأنبياء والأولياء والصلحاء، والثاني معناه: إني أعلم فيكم أيها الملائكة من يعصيني يعني إبليس.

وقال الإمام السمعي رحمه الله: وإنما علمه ذلك تكريما وتشريفا له.

وذلك دليل على أن الأنبياء أفضل من الملائكة وإن كانوا رسلا كما ذهب إليه أهل السنة.

وإنما عرضهم على الملائكة لإظهار فضيلته عليهم، فإنهم كانوا قد قالوا: لن يخلق الله خلقا أكرم عليه منا، فقال سبحانه: ﴿أَنْبِئُونِي﴾ أي: أخبروني ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ

صَدِيقَيْنِ ﴿١﴾، فيما زعمتم.

وقال ﷻ: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَكَاذِبُ أَتَيْنَهُمْ بِأَسْمَاءٍ﴾، لما عرضهم على الملائكة فعجزوا؛ يقول الله تعالى لآدم: أخبرهم بأسمائهم، ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، فأخبرهم آدم بأسماء تلك المسميات، والحكمة التي لأجلها خلقوا، فلما أخبرهم بها قال الله تعالى للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فإنه قد قال لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وغيب السموات والأرض كل ما غاب وخفي عن الأبصار.

﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾، أي قولكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، فيه قولان: أحدهما: ما كنتموا من قولهم: (لن يخلق الله خلقا أكرم عليه منا).

والثاني: معناه: ما كنتمه إبليس فيهم حين خلق آدم؛ فإنه قد قال: إن سلطت عليه لأهلكه وإن سلط علي لا أطيعه.

وقال الإمام السمعاني ﷻ: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، اختلفوا في أن هذا الخطاب مع أي الملائكة؟ فقال بعضهم: هو خطاب مع ملائكة الأرض خاصة، وقيل: هو خطاب لجميع الملائكة وهو الأصح لقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾^(١).

والأصح: أن هذا السجود كان لآدم على الحقيقة، وتضمن معنى الطاعة لله تعالى بامثال أمره فيه، فعلى هذا يكون السجود لآدم على سبيل التحية له، وهو كسجود إخوة يوسف ليوسف عليهم السلام بمعنى التحية له، ثم نقل ذلك إلى السلام بين المسلمين.

واختلفوا في إبليس، والذي قاله ابن عباس وأكثر المفسرين: أنه كان من الملائكة.

وقال الحسن: كان من الجن لقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(٢)، ولأنه

(١) الآية: رقم ٣٠ من سورة الحجر.

(٢) الآية: رقم ٥٠ من سورة الكهف.

خلق من النار، والملائكة خلقوا من النور، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة.

والأصح أنه كان من الملائكة لأن خطاب السجود كان مع الملائكة.

وأما قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْإِنِّ﴾، قيل: إن فرقة من الملائكة سموا جنا خلقهم الله تعالى من النار.

وعليه دل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾^(١)، حيث قالوا الملائكة بنات الله، فسماهم جنة.

وإنما سموا جنا لاستتارهم عن الأعين، وإبليس كان من ذلك القبيل، وإنما كان له ذرية، لأنه أخرج من الملائكة ثم جعل له ذرية.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي﴾، أي: امتنع، وقوله: ﴿وَأَسْتَكْبِرُ﴾، أي: أنف؛ حيث ظن أنه خير من آدم.

وقال الإمام السمعاني رحمه الله: قوله تعالى: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾، التلقي: هو قبول عن فطنة وفهم دليل فتلقى هو، أي: تعلم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾، إلى آخره.

وقال عبيد بن عمير: هي كلمات قالها آدم حين ابتلاه الله بالمعصية.

قوله: ﴿مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾، قال ابن عباس والأكثر: الكلمات هي قوله: ربنا أي: تعلم بالمعصية يارب هذا شيء كتبت علي، أم ابتدئته من تلقاء نفسي؟ فقال: بل شيء كتبت عليك، فقال آدم: فكما كتبت علي فاغفره، ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾، فقبل توبته ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، هو القابل للتوبة من العباد؛ الرحيم بهم.

١٣_ وقال الإمام الراغب الأصفهاني رحمه الله في تفسيره: قوله عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

(١) الآية: رقم ١٥٨ من سورة الصافات.

(٢) الإمام الراغب الأصفهاني: هو أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، انظر:

لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿١﴾، ﴿إِذْ﴾: يتعلق بمضمرة في موضع المفعول به، لأن تقديره: اذكر لا أذكر فيه، وقول أبي عبيد: إن ﴿إِذْ﴾ في مثل هذه المواضع زائدة، فإنه تقصير منه في النظر، والمملك: أصله (ملاك) مقلوباً عن مالك، والألوك: الرسالة المحفوظة في الفم من: (ألك الفرس اللجام)، إذ لا كه، والخليفة والخلف يتقاربان من قولك: خلف فلان فلاناً إذا قام مقامه، والخلف والسلف يتناقضان كخلف وقدام، فإن قيل: ما وجه استخلاف الله تعالى، والخلافة إنما تكون للنيابة عن الغير؟ إما لغيته أو موته أو عجزه، وذلك لا يجوز على الله تعالى قيل: بل قد يكون على غير ذلك، وهو أن يستخلف المستخلف غيره امتحاناً للمستخلف، أو تهدياً له، أو يستخلفه لقصور المستخلف عليه من قبول التأثير من المستخلف لا لعجز المستخلف وذلك ظاهر في الأشياء المهينة والطبيعية، فإن السلطان جعل الوزير بينه وبين رعيته، إذ هم يقبلون من الواعظ ماله قرب إلى قبولهم منه، وكذا الواعظ جعل بين العامة والحكام، فإن العامة لا يقبلونه من الحكيم، وليس ذلك لعجز الحكيم، بل لعجز العامة عن القبول منه، وعلى هذا فاللحم والعظم لما تباعد ما بينهما عجز العظم عن قبول الغذاء من اللحم، فجعل الله تعالى بحكمته بينهما الغضاريف التي بينهما، ولها مناسبة إليهما لتأخذ ذلك من اللحم وتعطيه العظم، وكذلك جعل تعالى الرسل بين الملك الذي هو من قبله تعالى وبين العباد لفضل قوة أعطاهم ليأخذوا منه الحكمة ويوصلوها إلى الناس، وبهذا الوجه قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾^(١)، والخليفة: يقال للواحد والجمع، وها هنا هو جمع، فإن الخليفة لم يرد به آدم عليه السلام فقط، بل أريد هو وصالحو أولاده، فهم: خلفاؤه وحزبه، لقوله تعالى: ﴿حِزْبُ اللَّهِ﴾^(٢)، وأنصاره، لقوله جل وعلا: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ مَنِ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾^(٣)، وعباده، لقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

سير أعلام النبلاء ج ١٨ ص ١٢٠، وكشف الظنون ج ١: ص ٣٦.

(١) الآية: رقم ٩ من سورة الأنعام.

(٢) الآية: رقم ٢٢ من سورة المجادلة.

(٣) الآية: رقم ٢٥ من سورة الحديد.

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿١﴾، وعبارة في الأرض، لقوله ﷻ: ﴿وَأَسْتَعْمِرَكُمْ فِيهَا﴾^(٢)، والمقصود واحد بهذه العبارات وإن اختلفت بحسب الاعتبارات، وقيل سباهم: خليفة لكونهم بعد جان سكنوا الأرض، فإن كل من تولى شيئاً بعد آخر يقال له: هو خليفة، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾^(٤).

وقال الإمام الراغب الأصفهاني ﷻ: وأما السفك، والسبك، والسفح، والسن، والشن، والصب، فمقاربة، وبينهما فروق، فالصب: أعم من هذه الألفاظ، السفك: يقال في الدم والدمع، وأما التسبيح: فأصله السبح أي سرعة الذهاب في الماء، واستعير لمر النجوم في الفلك، ولجري الفرس، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾^(٥)، أي: سعة ذهاب، وسبحته عن كذا: أي: نزهته، وتسبيح الله: تنزيهه بالقول والحكم، و (سبحان): مصدر، ككفران، وجعل السبحة للتسبيح، وسمى الصلاة بها لكونها تسبيحاً والخرزات: سمي سبحة، ومعنى: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، أي: نسبحك والحمد لك، أو نسبحك بأن نحمدك والتقديس: التطهير.

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، قيل معناه: نظهر أنفسنا لك، إشارة إلى نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٦)، وليس ذلك إظهاراً للمنة، بل هو على حسب ما نقول مجتهد محب أن يفوض صاحبه إليه خدمة ما، فيقول: أتستعين بغيري وأنا مجتهد في خدمتك؟ وعلى ذلك قولهم: ﴿وَلَنَا لَحْنُ الصَّافُونَ﴾^(٧)،

(١) الآية: رقم ٥٦ من سورة الذاريات.

(٢) الآية: رقم ٦١ من سورة هود.

(٣) الآية: رقم ٦٩ من سورة الأعراف.

(٤) الآية: رقم ٧٤ من سورة الأعراف.

(٥) الآية: رقم ٧ من سورة المزمل.

(٦) الآية: رقم ٢٢٢ من سورة البقرة.

(٧) الآيتان: رقم ١٦٥-١٦٦ من سورة الصافات.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، على سبيل الاستشارة، فلا استشارة استمداد علم من المستشار، والله تعالى منزّه عن ذلك، وإنما ذلك إعلام، كإعلامه إيانا كثيراً من الكائنات لمصلحة ما، فإن قيل: فمن أين حكمت الملائكة على الإنسان بالإفساد في الأرض وسفك الدماء، وذلك إما ادعاء علم الغيب أو الحكم بالظن والتخمين، وهم منزّهون عن ذلك؟ قيل: قد قيل إنهم قاسوهم على من كان يسكن الأرض قبل من الجان، فأفسدوا فيها، وقيل: وهو أصح أن الله تعالى كان قد أخبرهم بذلك، لكن لم يقص علينا فيما حكى عنهم تنبيهاً عليه بما ذكر في الجواب وذلك عادة القرآن في كثير من الأفاصيص المذكورة، كقوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (١٥) **يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا.....** (١)، وقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ ليس بإنكار، إنما هو استخبار مجرد ليعرفهم ما تسكن نفوسهم إليه ويرشدهم إلى ما يزيل شبهتهم وليسألوا عن ذلك، ألا وقد أذن لهم في السؤال أما جملة وتفصيلاً، إن قيل كيف أدخل عليهم الشبهة حتى سألوا عن ذلك واستنكروه؟ قيل: إن الله تعالى لما خلق الإنسان جسمانياً وروحانياً وجعله مركباً من قوى ثلاث، قوة شهوية، وقوة غضبية وقوة ملكية، فبقوته الشهوية يفسد في الأرض، وبقوته الغضبية يسفك الدماء متى لم تكونا مهذبتين، ويتولى خلافة الله تعالى ببقوته الملكية التي هي العقل، وعلى ذلك دل النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: (لما خلق الله العقل، قال له:

أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، ثم قال: وعزّي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم علي منك، بك أأخذ، وبك أعطي) (٢)، فلما سمعت الملائكة أن الإنسان مركب من هذا التركيب، ورأوا القوة التي بها تصلح لخلافته القوة التي خصوا بها ونظروا إلى رذيلة

(١) الآيتان: رقم ٤٥-٤٦ من سورة يوسف.

(٢) الحديث: رواه الطبراني في الكبير ج ٨/ ٨٠٨٦. (ضعيف جداً) قال الشوكاني في الفوائد المجموعة ص ٤٧٨/ ٤٧: ورواه العقيلي عن أبي أمامة مرفوعاً وفي إسناده مجهولان.

القوتين الآخرين ولم يعرفوا فضيلتهما استنكروا فراجعوا الله تعالى وقالوا: أما العبادة التي هي التسبيح والتقديس المختصة بالقوة الملكية، فنحن نقيمها، فما معنى الإنسان المركب تركيباً لا ينفك من فساد وقتل؟ فقال تعالى في جوابهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فعرض ولم يصرح ها هنا ليريم فضيلة الإنسان وما خصوا به من العلم والعمل اللذين يفضلان الملك عنهما عياناً ومشاهدة والإجمال في هذه الآية بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقال الإمام الراغب الأصفهاني رحمه الله: الإنباء: إخبار فيه إعلام، وهو متضمن لهما ولذلك كل إنباء أخبار، وليس كل إخبار إنباء، وكل نبأ علماً وليس كل علم نبأ ولكونه متضمناً لهما، ومشتماً عليهما أجري مجرى كل واحد منهما، ف قيل: أنبأته بكذا كقولك أخبرته وأنبأته بكذا، كقولك أعلمته كذا، ولا يقال: (نبأ) إلا لكل خبر يقتضي العلم كالماتر، وخبر الله تعالى، وخبر الأنبياء عليهم السلام وما جرى مجراها، وسُمي النبي لكونه منبئاً بما تسكن نفسه إليه، ومنبأً بما سكن المؤمنون إليه فهو أصح من أن يكون فعلاً بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، أما بمعنى: الفاعل، فلقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(١)، وقوله جل وعلا: ﴿أَوْنَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ﴾^(٢)، وأما بمعنى: المفعول فلقوله سبحانه: ﴿نَبِّأْنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾^(٣).

وقال الإمام الراغب الأصفهاني رحمه الله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾، فالخضوع والخشوع والخنوع والسجود والركوع تتقارب، وبينهما فروق، فالخضوع ضراعة بالقلب، والخشوع بالجوارح، ولذلك قيل: إذا تواضع القلب خشعت الجوارح، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾^(٤)، وقال سبحانه: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ

(١) الآية: رقم ٤٩ من سورة الحجر.

(٢) الآية: رقم ١٥ من سورة آل عمران.

(٣) الآية: رقم ٣ من سورة التحريم.

(٤) الآية: رقم ٢ من سورة المؤمنون.

﴿^(١)﴾ والخشوع ضراعة لمن دونه رغبة في عرض في يده، وكذلك أكثر ما يجمع في الدم، والركوع تذلل مع التطأطؤ، والسجود مع خفض الرأس.

وسجود الملائكة إن أريد به المتعارف في الشرع، فليس بعبادة لآدم عليه السلام، فعبادة غير الله تعالى لا تجوز بوجه، وإن كان على حسب المتعارف للخدمة، فقد قيل: إن ذلك كان مباحاً قبل شرعنا، وعلى ذلك ما روي في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَحَرَّوْا لَهُ سُجَّدًا﴾ ^(٢)، وقد قيل: أريد به التذلل كقوله تعالى: ﴿يَسْجُدْ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ^(٣).

فإن قيل: كيف أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام ومنزلتهم فوق منزلته بدلالة أن إبليس مناه أن يكون إياهم بقوله: ﴿مَا تَهْكُمُا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ﴾ ^(٤)، وبعيد أن يؤمر الفاضل بالتخضع للمفضل؟ قيل: الخشوع لآدم عليه السلام كان خضوعاً لله تعالى من أجل الائتثار له فيما أمرهم به، وظاهر في العادات أن التذلل لخدام كبير خضوع لذلك الكبير، وأيضاً: فإن الإنسان في باب الفضائل التي ذكرناها أنفأ أفضل من الملك وإن كان الملك أفضل منه من وجوه آخر، والشيطان قد يكون كل واحد منهما أفضل من الآخر من وجه ووجه، وإنما المنكر أن بفضل كل واحد منها الآخر من وجه واحد، وفي الآية تنبيه على وجوب الائتثار لمن له الخلق والأمر، ومجانبة عصيانه، وارتكاب التكبر والحسد، وإنما قد يفضيان براكبهما إلى الكفر، كما روي في الخبر: (أن أول ما عصي به الله في السماء والأرض التكبر والحسد)، وحث على ترك الدخول في سره والاعتراض على حكمه.

(١) الآية: رقم ١٠٨ من سورة طه.

(٢) الآية: رقم ١٠٠ من سورة يوسف.

(٣) الآية: رقم ١٨ من سورة الحج.

(٤) الآية: رقم ٢٠ من سورة الأعراف.

١٤_ وقال الإمام الكرمانى عليه السلام ^(١) في تفسيره (غرائب التفسير وعجائب التأويل): قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ﴾، اختلفوا في المخاطبين، فقال بعضهم: هو عام لجميع ملائكة الله، وقال بعضهم: خطاب لمن كانوا سكان الأرض من الملائكة.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قيل: هي الغبراء، التي عليها مستقر الخلق، وقيل: هي مكة، قوله تعالى: ﴿خَلِيفَةً﴾، أي: قوم يخلف بعضهم بعضاً، إذا مات واحد خلفه آخر، وقيل: خَلِيفَةً عنكم يا ملائكتي، وقيل: خَلِيفَةً عن الجن، وقيل: خَلِيفَةً عني يأمر وينهى ويحكم ويقضي، ويجري الأنهار ويغرس الأشجار ويحرث ويحصد.

وقال الكرمانى عليه السلام: قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، أي: من تفسد ذريته فيها، وقيل: تقديره من فيهم أو منهم من يفسد، لأن آدم عليه السلام لم يكن بهذه الصفة، ولا رسل الله وأنبياءه وأوليائه وصالحو المؤمنين، والاستفهام للتقرير، وقيل: للاستعلام، وليس للإنكار، وفي معرفتهم ذلك قيل: أنهم رأوا ذلك في اللوح المحفوظ، وهو مشتمل على الكائنات، وقال بعضهم: قاسوا على الغائب، وكانت الجن بهذه الصفة، وأول من قاس الملائكة، وقيل: عرفوا ذلك من لفظ الخليفة، فإن الخليفة من يقوم مقام الأول، موصوفاً بصفته، وقيل: كان خطاب الله إياهم إني جاعل في الأرض خليفة يفسدون فيها ويسفكون الدماء، فحذف ذلك لأن ما بعده يدل عليه، وقيل: تقديره: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أم نترك التسبيح والتقديس، شكوا في حال أنفسهم، وقيل: تقديره: أتعجل فيها من يفسد كالجن، أم يسبح ويقس معنا ونحن نسبح ونقدس معهم، وقيل: أذن الله لهم في السؤال عن وجه الحكمة فيه.

(١) الإمام الكرمانى: هو محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرمانى، ويعرف بتاج القراء (المتوفى: نحو ٥٥٠هـ)، انظر: خير الدين الزركلي (٢٠٠٢). الأعلام. الجزء السابع. لبنان: دار العلم للملايين. صفحة ١٦٨.

١٥_ وقال الإمام البغوي رحمه الله ^(١) في تفسيره: (معالم التنزيل): قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾، أي: وقال ربك، ﴿وَإِذْ﴾، زائدة، وقيل معناه: واذكر إذ قال ربك، وكذلك كل ما ورد في القرآن من هذا النحو فهذا سبيله، (وإذ وإذا): حرفا توقيت، إلا أن إذ للماضي وإذا للمستقبل، وقد يوضع أحدهما موضع الآخر.

قوله تعالى: ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾، (والملائكة): جمع ملك، وأصله: مألِك من المألِكة والألوكَة والألوك: وهي الرسالة، فقلبت فقيل: ملائِك، ثم حذفت الهمزة طلبا للخفة لكثرة استعماله ونقلت حركتها إلى اللام، فقيل: (ملك)، وأراد به الملائكة الذين كانوا في الأرض.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾، أي: (خالق)، وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أي: بدلا منكم ورافعكم إلي فكرهوا ذلك لأنهم كانوا أهون الملائكة عبادة، والمراد بالخليفة هاهنا آدم عليه السلام، سماه خليفة لأنه خلف الجن، أي: جاء بعدهم.

وقيل: لأنه يخلفه غيره، والصحيح أنه خليفة الله في أرضه لإقامة أحكامه وتنفيذ قضاياه.

وقال رحمه الله: قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، أي: بالمعاصي، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ بغير حق، أي: كما فعل بنو الجان فقاوسوا الشاهد على الغائب، وإلا فهم ما كانوا يعلمون الغيب، وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، قال الحسن: نقول سبحان الله وبحمده وهو صلاة الخلق وصلاة البهائم وغيرهما سوى آدميين وعليها يرزقون.

فعن ابن الصامت عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: (ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده) ^(٢).

(١) الإمام البغوي: هو محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٠هـ)، انظر: مرآة الجنان: ٢١٣/٣، وفيات الأعيان: ١٣٦/٢، سير أعلام النبلاء ٤٣٩/١٩، العبر للذهبي: ٤٠٦/٢، تذكرة الحفاظ: ١٢٥٧/٤-١٢٥٩.

(٢) الحديث: صحيح رواه الإمام مسلم.

وقيل: نحن نصلي بأمرك، قال ابن عباس: كل ما في القرآن من التسييح فالمراد منه الصلاة، وقوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نشني عليك بالقدس والطهارة عما لا يليق بعظمتك وجلالك، وقيل: ونظهر أنفسنا لطاعتك، وقيل: وننزهك، واللام: صلة، وقيل: لم يكن هذا من الملائكة على طريق الاعتراض والعجب بالعمل بل على سبيل التعجب وطلب وجه الحكمة في هـ، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من المصلحة فيه، وقيل: إني أعلم أن في ذريته من يطيعني ويعبدني من الأنبياء والأولياء والصلحاء، وقيل: إني أعلم أن فيكم من يعصيني وهو إبليس، وقيل: إني أعلم أنهم يذنبون وأنا أغفر لهم، قرأ أهل الحجاز والبصرة: إني أعلم (بفتح الياء)، وكذلك كل ياء إضافة استقبلها ألف مفتوحة إلا في مواضع معدودة، ويفتحون في بعض مواضع عند الألف المضمومة والمكسورة، وعند غير الألف، وبين القراء في تفصيله اختلاف.

وقال ﷺ: قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَتَدَأْمُ أَنْبِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، أخبرهم بأسمائهم، فسمى آدم كل شيء باسمه وذكر الحكمة التي لأجلها خلق، ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾، يا ملائكتي ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ما كان منهما وما يكون، لأنه قد قال لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿إِنِّي﴾، بفتح الياء وكذلك يفتحون كل ياء إضافة استقبلها ألف قطع مفتوحة إلا أحرفا معدودة، ويفتح نافع وأبو عمرو عند الألف المكسورة أيضا إلا أحرفا معدودة، ويفتح نافع عند المضمومة إلا أحرفا معدودة، والآخر لا يفتحون إلا في أحرف معدودة، ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾، قال الحسن وقتادة: يعني قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُتُونَ﴾، قولكم: (لن يخلق الله خلقا أكرم عليه منا).

١٦_ وقال الزمخشري ^(١) في تفسيره: (الكشاف): قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿وَإِذْ﴾: نصب بإضمار اذكر، ويجوز أن ينتصب ب(قالوا).
 ب(قالوا).

وقوله تعالى: ﴿لِلْمَلَأِكَةِ﴾: جمع ملائكة على الأصل، كالشمال في جمع شمال وإلحاق التاء لتأنيث الجمع.

وقوله تعالى: ﴿جَاعِلٌ﴾، من جعل الذي له مفعولان، دخل على المبتدأ والخبر، وهما قوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فكانا مفعوليه.

ومعناه: مُصَيِّرٌ في الأرض خليفة، والخليفة: من يخلف غيره، والمعنى: خليفة منكم، لأنهم كانوا سكان الأرض فخلفهم فيها آدم وذريته، فإن قلت: فهلا قيل: خلائف، أو خلفاء؟ قلت: أريد بالخليفة آدم عليه السلام، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما استغنى بذكر أبي القبيلة في قولك: مضر وهاشم، أو أريد من يخلفكم، أو خلفا يخلفكم فوحد لذلك.

وقرئ: خليفة بالقاف ويجوز أن يريد: خليفة مني، لأنَّ آدم عليه السلام كان خليفة الله في أرضه وكذلك كل نبي، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ ^(٢).

فإن قلت: لأي غرض أخبرهم بذلك؟ قلت: ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم، صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم.

وقيل: ليعلم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحاءهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيا عن المشاورة.

(١) الإمام الزمخشري: هو أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، انظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة (٣/٢٦٥ رقم ٧٥٣)، سير أعلام النبلاء (٢٠/١٥١ رقم ٩١)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٦/١٩٤)، العبر في خبر من غبر (٢/٤٥٥).

(٢) الآية: رقم ١٦ من سورة ص.

وقال الإمام الزمخشري رحمه الله: وقيل: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، أي: عن الجنة، بمعنى: أذهبها عنها وأبعدهما، كما تقول: زلّ عن مرتبته.

وزل عني ذاك: إذا ذهب عنك وزل من الشهر كذا.

وقرئ: (فأزالهما)، أي: ممّا كانا فيه من النعيم والكرامة، أو: من الجنة إن كان الضمير للشجرة في عنها.

وقرأ عبد الله: فوسوس لهما الشيطان عنها، وهذا دليل على أن الضمير للشجرة، لأن المعنى صدرت وسوسته عنها، فان قلت: كيف توصل إلى إزلالهما ووسوسته لهما بعد ما قيل له: ﴿فَأَخْرَجَ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَجِيئٌ﴾^(١)، قلت: يجوز أن يمنع دخولها على جهة التقريب والتكرمة كدخول الملائكة، ولا يمنع أن يدخل على جهة الوسوسة ابتلاء لآدم وحواء، وقيل: كان يدنو من السماء فيكلمهما، وقيل: قام عند الباب فنادى، وروى أنه أراد الدخول فمنعته الخزنة، فدخل في فم الحية حتى دخلت به وهم لا يشعرون.

قيل: ﴿أَهْبِطُوا﴾، خطاب لآدم وحواء وإبليس، وقيل: والحية، والصحيح أنه لآدم وحواء والمراد هما وذريتهما، لأنها لما كانا أصل الإنس ومنتشعبهم جعلوا كأنهما الإنس كلهم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾^(٢)، ويدل كذلك على ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٤)، وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم، ومعنى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم لبعض.

(١) الآية: رقم ٣٤ من سورة الحجر.

(٢) الآية: رقم ١٢١ من سورة طه.

(٣) الآيتان: رقم ٣٨-٣٩ من سورة البقرة.

وقال ﷺ: وقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير، ولا يريد إلا الخير، فإن قلت: من أين عرفوا ذلك حتى تعجبوا منه وإنما هو غيب؟ قلت: عرفوه بإخبار من الله، أو: من جهة اللوح، أو ثبت في علمهم أن الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم، أو: قاسوا أحد الثقلين على الآخر حيث أسكنوا الأرض فأفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة، وقرئ: ﴿وَيَسْفِكُ﴾، بضم الفاء، ويُسفك ويُسفك، من أسفك وسفك.

والواو في: ﴿وَنَحْنُ سُبَّحٌ﴾: للحال، كما تقول: أحسن إلى فلان وأنا أحق منه بالإحسان.

والتسبيح: تبعيد الله عن السوء، وكذلك تقديسه، من سبح في الأرض والماء، وقدس في الأرض: إذا ذهب فيها وأبعد، و﴿يَحْمَدُكَ﴾: في موضع الحال، أي: نسبح حامدين لك وملتبسين بحمدك لأنه لولا إنعامك علينا بالتوفيق واللفظ لم نتمكن من عبادتك. وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: أعلم من المصالح في ذلك ما هو خفي عليكم.

فإن قلت: هلا بين لهم تلك المصالح؟ قلت: كفى العباد أن يعلموا أن أفعال الله كلها حسنة وحكمة، وإن خفي عليهم وجه الحسن والحكمة.

وقال الإمام الزمخشري ﷺ: السجود لله تعالى على سبيل العبادة، ولغيره على وجه التكرمة كما سجدت الملائكة لآدم، وأبو يوسف وإخوته عليهم السلام له؟ ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فيه.

١٧_ وقال ابن عطية رحمه الله ^(١) في تفسيره: (المحرر الوجيز): وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾، وقد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم الغيب ولا تسبق بالقول، وذلك عام في جميع الملائكة، لأن قول تعالى: ﴿لَا يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾، خرج على جهة المدح لهم. قال القاضي أبو بكر بن الطيب: (فهذه قرينة العموم، فلا يصح مع هذين الشرطين إلا أن يكون عندهم من إفساد الخليفة في الأرض نبأ ومقدمة).

قال ابن زيد وغيره: إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة.

قال القاضي أبو محمد: فهذا إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه، أو من عصيان من يستخلفه الله في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعاً، الاستخلاف، والعصيان.

وقال أحمد بن يحيى ثعلب وغيره: إنما كانت الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء في الأرض.

وقال رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾، وقد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم الغيب ولا تسبق بالقول، وذلك عام في جميع الملائكة، لأن قول تعالى: ﴿لَا يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾، خرج على جهة المدح لهم.

قال القاضي أبو بكر بن الطيب: (فهذه قرينة العموم، فلا يصح مع هذين الشرطين إلا أن يكون عندهم من إفساد الخليفة في الأرض نبأ ومقدمة).

وقال ابن زيد وغيره: إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون

(١) الإمام ابن عطية: هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، انظر: قلائد العقيان ومحاسن الاعيان، الفتح ابن خاقان ٥٢٨هـ، ص ٦٥٥، الصلة في تاريخ ائمة الاندلس، ابن بشكوال ٥٧٨هـ، ص: ٤٨٧، سير أعلام النبلاء ج ١٩ ص ٥٨٦.

ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة.

وقال القاضي أبو محمد: فهذا إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه، أو من عصيان من يستخلفه الله في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعاً، الاستخلاف، والعصيان.

وقال أحمد بن يحيى ثعلب وغيره: إنما كانت الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء في الأرض فجاء قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾، على جهة الاستفهام المحض، هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا؟.

وقال آخرون: كان الله تعالى قد أعلم الملائكة أنه يخلق في الأرض خلقاً يفسدون ويسفكون الدماء، فلما قال لهم بعد ذلك: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾، على جهة الاسترشاد والاستعلام هل هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به قبل أو غيره؟

وقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، قال بعض المتأولين: هو على جهة الاستفهام، كأنهم أرادوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، أم نتغير عن هذه الحال؟.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يحسن مع القول بالاستفهام المحض في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ﴾؟، وقال آخرون: معناه: التمدح ووصف حالهم، وذلك جائز لهم كما قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلَيْهِمْ﴾.

وقال القاضي أبو محمد: وهذا يحسن مع التعجب والاستعظام لأن يستخلف الله من يعصيه في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ﴾، وعلى هذا أدبهم بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقال قوم: معنى الآية: ونحن لو جعلتنا في الأرض واستخلفتنا نسبح بحمدك، وهذا أيضاً حسن مع التعجب والاستعظام في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ﴾، ومعنى: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، أي: ننزهك عما لا يليق بك وبصفاتك، وقال ابن عباس وابن مسعود: (تسبيح الملائكة صلاتهم لله).

وقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِكَ﴾، معناه: نخلط التسبيح بالحمد ونصله به، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿بِحَمْدِكَ﴾، اعتراضاً بين الكلامين، كأنهم قالوا: ونحن نسبح ونقدس، ثم اعترضوا على جهة التسليم، أي: وأنت المحمود في الهداية إلى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، قال الضحاك وغيره: معناه: نطهر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك، وقال آخرون: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، معناه: ونقدسك أي نعظمك ونطهر ذكرك عما لا يليق به.

وقال قوم: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، معناه: نصلي لك.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، الأظهر أن أَعْلَمُ فعل مستقبل، وما في موضع نصب به، وقيل: ﴿أَعْلَمُ﴾: اسم، و﴿مَا﴾: في موضع خفض بالإضافة، ولا يصح الصرف فيه بإجماع من النحاة، وإنما الخلاف في أفعال إذا سمي به وكان نكرة، فسيبويه والخليل لا يصرفانه، والأخفش يصرفه.

واختلف أهل التأويل في المراد بقوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فقال ابن عباس: (كان إبليس لعنه الله قد أعجب ودخله الكبر لما جعله الله خازن السماء الدنيا وشرفه)، وقيل: بل لما بعثه الله إلى قتل الجن الذين كانوا أفسدوا في الأرض فهزمهم وقتلهم بجنده، قاله ابن عباس أيضاً، واعتقد أن ذلك لمزية له واستحقب الكفر والمعصية في جانب آدم عليه السلام.

قال: فلما قالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وهي لا تعلم أن في نفس إبليس خلاف ذلك، فقال الله لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: ما في نفس إبليس.

وقال قتادة: لما قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، وقد علم الله تعالى أن فيمن يستخلف في الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة، فقال الله لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: أفعال الفضلاء من بني آدم.

وقال الإمام ابن عطية رحمه الله: ﴿أُنْبِئْتُهُمْ﴾، معناه: أخبرهم، وهو فعل يتعدى إلى مفعولين أحدهما بحرف جر وقد يحذف حرف الجر أحياناً، تقول نبئت زيدا، قال سيبويه: معناه نبئت عن زيد، والضمير في ﴿أُنْبِئْتُهُمْ﴾، عائد على الملائكة بإجماع، والضمير في (أَسْمَائُهُمْ) مختلف فيه حسب الاختلاف في الأسماء التي علمها آدم، وقال أبو علي: كلهم قرأ ﴿أُنْبِئْتُهُمْ﴾، بالهمز وضم الهاء، إلا ما روي عن ابن عامر، ﴿أُنْبِئْتُهُمْ﴾، بالهمز وكسر الهاء، وكذلك روى بعض المكيين عن ابن كثير، وذلك على إتباع كسرة الهاء لكسرة الباء، وإن حجز الساكن فحجزه لا يعتد به، قال أبو عمرو الداني: وقرأ الحسن والأعرج: (أُنْبِئْتُهُمْ) بغير همز.

قال ابن جني: وقرأ الحسن: (أُنْبِئْتُهُمْ)، على وزن: (أَعْطَيْتُهُمْ)، وقد روي عنه: (أُنْبِئْتُهُمْ) بغير همز.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، معناه: ما غاب عنكم، لأن الله لا غيب عنده من معلوماته وما في موضع نصب (بأعلم).

قال المهدوي: ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَأَعْلَمُ﴾ اسماً بمعنى التفضيل في العلم، فتكون ما في موضع خفض بالإضافة.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿مَا تَبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكُنُونَ﴾، فقالت طائفة: ذلك على معنى العموم في معرفة أسرارهم وظواهرهم وبواطنهم أجمع.

وحكى مكي أن المراد بقوله: ﴿مَا تَبْدُونَ﴾ قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾.

وقال الإمام ابن عطية رحمه الله: ﴿وَإِذْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ معطوف على ﴿إِذْ﴾ المتقدمة.

وقول الله تعالى وخطابه للملائكة متقرر قديم في الأزل، بشرط وجودهم وفهمهم، وهذا هو الباب كله في أوامر الله سبحانه ونواهيته وخطاباته وقُلْنَا كناية العظيم عن نفسه

بلفظ الجمع، وقوله للملائكة عموم فيهم.

والجمهور على أن: سجود الملائكة لآدم إيماء وخضوع، ذكره النقاش وغيره، ولا تدفع الآية أن يكونوا بلغوا غاية السجود، وقوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَجْدِينَ﴾، لا دليل فيه لأن الجائي على ركبتيه واقع واختلف في حال السجود لآدم عليه السلام، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: (تعبدهم الله بالسجود لآدم، والعبادة في ذلك لله)، وقال علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم: (إنما كان سجود تحية كسجود أبي يوسف عليهم السلام، لا سجود عبادة)، وقال الشعبي: (إنما كان آدم كالقابلة، ومعنى لآدم إلى آدم).

وقال القاضي أبو محمد رحمته الله: وفي هذه الوجوه كلها كرامة لآدم عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ نصبٌ: على الاستثناء المتصل، لأنه من الملائكة على قول الجمهور، وهو ظاهر الآية، وكان خازنا وملكا على سماء الدنيا والأرض، واسمه عزازيل، قاله ابن عباس.

وقال ابن زيد والحسن: (هو أبو الجن كما أن آدم أبو البشر، ولم يكن قط ملكا).

وقال جمهور المتأولين: معنى ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: في علم الله تعالى أنه سيكفر، لأن الكافر حقيقة والمؤمن حقيقة هو الذي قد علم الله منه الموافقة.

وقال الإمام ابن عطية رحمته الله: قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، مأخوذ من الزلل، وهو في الآية مجاز، لأنه في الرأي والنظر، وإنما حقيقة الزلل في القدم.

قال أبو علي: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، يحتمل تأويلين، أحدهما: كسبهما الزلة، والآخر: أن يكون من زل إذا عثر.

وقرأ حمزة: (فأزالهما)، مأخوذ من الزوال، كأنه المزيل لما كان إغواؤه مؤديا إلى الزوال، وهي قراءة الحسن وأبي رجاء، ولا خلاف بين العلماء أن إبليس اللعين هو متولي إغواء

آدم، واختلف في الكيفية، فقال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما وجمهور العلماء: أغواهما مشافهة، وقال بعضهم: إن إبليس لما دخل إلى آدم عليه السلام كلمه في حاله، فقال: يا آدم ما أحسن هذا لو أن خلدا كان، فوجد إبليس السبيل إلى إغوائه، وقال بعضهم: دخل الجنة في فم الحية، وقالت طائفة: إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم عليه السلام بعد أن أخرج منها، وإنما أغوى آدم عليه السلام بشيطانه وسلطانه ووساوسه التي أعطاه الله تعالى، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا حِينَ﴾، فائدة لآدم عليه السلام، ليعلم أنه غير باق فيها ومتقل إلى الجنة التي وعد بالرجوع إليها، وهي لغير آدم دالة على المعاد.

١٨_ وقال بيان الحق رحمه الله في تفسيره: (باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن): قوله عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قيل: كانت الخلافة عن الملائكة، وقيل: عن الجن الذين أجلاهم الملائكة بسبب فسادهم، وقيل: المراد بالخليفة جميع بني آدم أن يخلف بعضهم بعضا، وعن ابن مسعود: المراد أولو الأمر من عهد آدم إلى انقضاء العالم، فكلهم خلفاء الله في الحكم بين الخلق وتدبير ما على الأرض.

وقال رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، قالوا ذلك: على التألم والاعتماد لمن يفسد، وقيل: على الاستعصام للمعصية مع عظيم النعمة، وقيل: على الاستعلام لوجه التدبير فيه، وقيل: على السؤال أن يجعلهم خلفاء الأرض (ليسبّحوا) بدل من يفسد، فقال عليه السلام: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ من صلاح كل واحد ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فدلهم بذلك أن:

(١) الحديث: متفق عليه، انظر: العدة في فوائد أحاديث العمدة ص ٣٣٠.

(٢) الإمام بيان الحق: هو محمود بن أبي الحسن (علي) بن الحسين النيسابوري الغزنوي، أبو القاسم، الشهير بـ (بيان الحق) (المتوفى: بعد ٥٥٣هـ)، انظر: معجم الأدباء: (١٩ / ١٢٤، ١٢٥)، الوافي بالوفيات: (٧٩ / ب، ٨٠، أ، ٨٠ (ب) نسخة طوب قايي رقم (٢٩٢٠)، بغية الوعاة: ٢ / ٢٧٧، طبقات المفسرين للدوادري: ٢ / ٣١١.

صلاحهم في أن أختار لهم السماء وللشعر الأرض.

وقال الإمام النيسابوري (بيان الحق) ﷺ: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾، أي: تنزيها لك أن يخفى عليك شيء، وهو نصب على المصدر، كقولك: تسييحاً لك، وكذلك سائر المصادر العقيمة الغير المتصرفه، مثل: معاذ الله، وعمر ك الله، وقعدك الله، وأشباهه، كلها يجري مجرى المصادر المتصرفه المطلقة.

﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، في موضع الرفع؛ لأنه استثناء من محجود.

قال الإمام بيان الحق النيسابوري ﷺ: قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، وزلة آدم عليه السلام، كانت بالخطأ في التأويل، إما بحمل النهي على التنزيه دون التحريم، وإما بحمل اللام على التعريف لا الجنس، إذ الظاهر دلالة النهي على عين المنهي عنه لا جنسه، إلا أنه تعالى أراد الجنس، ومكن آدم من علم الدليل فغفل عنه وظن أنه لا يلزمه ذلك، وقيل: إن زلته أكله ناسياً بعض النسيان ربما يؤخذ على الأنبياء؛ لما يلزمهم من التحفظ واليقظ كثيراً، فيكون صدوفهم عن تذكر النهي حينئذٍ تفريطاً.

قوله: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾، الهبوط الأول: من الجنة إلى السماء، والهبوط الثاني: من السماء إلى الأرض.

والهبوط الأول: وإن لم يكن نزولاً لأن الجنة في السماء، إلا أنه ما كان فيه انتقال المكان مع سقوط المرتبة، وفي هذه القصة كل التحذير من المعاصي ليحضر العبد قلبه ما جرى على آدم بارتكاب صغير مع التأويل، فلا يرتكب الكبائر.

١٩_ وقال الإمام الرازي ﷺ في تفسيره: (مفتاح الغيب): قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

(١) الإمام الرازي: هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦ هـ)، انظر: طبقات الحنفية (١ / ٨٤)؛ الطبقات السنية في تراجم الحنفية (١ / ١٢٢).

لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿١﴾، اعلم أن هذه الآية دالة على كيفية خلقه آدم ﷺ وعلى كيفية تعظيم الله تعالى إياه فيكون ذلك إنعاما عاما على جميع بني آدم، وفي ذلك مسائل:

المسألة الأولى: في ﴿إِذْ﴾، قولان: أحدهما: أنه صلة زائدة إلا أن العرب يعتادون التكلم بها والقرآن نزل بلغة العرب، الثاني: وهو الحق أنه ليس في القرآن ما لا معنى له وهو نصب بإضمار: اذكر، والمعنى: اذكر لهم ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾، فأضمر هذا الأمرين: أحدهما: أن المعنى معروف، والثاني: أن الله تعالى قد كشف ذلك في كثير من المواضع كقوله: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾^(١)، وقال جل وعلا: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾^(٣) إذ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ ﴿٣﴾.

والقرآن كله كالكلمة الواحدة ولا يبعد أن تكون هذه المواضع المصرحة نزلت قبل هذه السورة فلا جرم ترك ذلك هاهنا اكتفاء بذلك المصريح.

قال صاحب (الكشاف): ويجوز أن ينتصب ﴿إِذْ﴾: بـ (قالوا).

المسألة الثانية: الملك أصله من الرسالة، يقال الكني إليه أي أرسلني إليه والمألكة والألوكة الرسالة وأصله الهمزة من (ملاكة)، حذفت الهمزة وألقيت حركتها على ما قبلها طلبا للخفة لكثرة استعمالها.

قال صاحب (الكشاف): الملائك جمع ملائكة على الأصل، كالمسائل في جمع شمائل وإلحاق التاء لتأنيث الجمع.

المسألة الثالثة: من الناس من قال: الكلام في الملائكة ينبغي أن يكون مقدما على

(١) الآية: رقم ٢١ من سورة الأحقاف.

(٢) الآية: رقم ١٧ من سورة ص.

(٣) الآيتان: رقم ١٣-١٤ من سورة يس.

الكلام في الأنبياء لوجهين:

الأول: أن الله تعالى قدم ذكر الإيمان بالملائكة على ذكر الإيمان بالرسول في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾^(١)، وقال ﷺ: (ابدأوا بها بدأ الله به)^(٢).

الثاني: أن الملك واسطة بين الله وبين الرسول في تبليغ الوحي والشرعة فكان مقدما على الرسول.

وقال الإمام الرازي رحمه الله: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾، اعلم أن الذين اعتقدوا أن الملائكة أتوا بالمعصية في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، قالوا: إنهم لما عرفوا خطأهم في هذا السؤال رجعوا وتابوا واعتذروا عن خطئهم بقولهم: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾.

والذين أنكروا معصيتهم ذكروا في ذلك وجهين: الأول: أنهم إنما قالوا ذلك على وجه الاعتراف بالعجز والتسليم بأنهم لا يعلمون ما سئلوا عنه وذلك

لأنهم قالوا إنا لا نعلم إلا ما علمتنا، فإذا لم تعلمنا ذلك فكيف نعلمه، الثاني: أن الملائكة إنما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، لأن الله تعالى أعلمهم ذلك فكأنهم قالوا: إنك أعلمتنا أنهم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء فقلنا لك: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، وأما هذه الأسماء فإنك ما أعلمتنا كيفيتها فكيف نعلمها.

وقال ﷺ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، اعلم أن هذا هو النعمة الرابعة من النعم العامة على جميع البشر، وهو أنه سبحانه وتعالى جعل أبانا مسجود الملائكة وذلك لأنه تعالى ذكر تخصيص آدم بالخلافة أولا، ثم تخصيصه بالعلم الكثير ثانيا، ثم بلوغه في العلم إلى أن صارت الملائكة عاجزين عن بلوغ درجته في العلم، وذكر الآن كونه مسجودا للملائكة، وهاهنا مسائل:

(١) الآية: رقم ٢٨٥ من سورة البقرة.

(٢) الحديث: رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنها وقد أخرجه النسائي هكذا بلفظ الأمر، وهو عند مسلم بلفظ الخبر.

المسألة الأولى: الأمر بالسجود حصل قبل أن يسوي الله تعالى خلقة آدم ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(١)، على أنه ﷺ لما صار حيا صار مسجود الملائكة لأن الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا﴾ للتعقيب وعلى هذا التقدير يكون تعليم الأسماء ومناظرته مع الملائكة في ذلك حصل بعد أن صار مسجود الملائكة.

المسألة الثانية: أجمع المسلمون على أن ذلك السجود ليس سجود عبادة لأن سجود العبادة لغير الله كفر، والأمر لا يرد بالكفر، ثم اختلفوا بعد ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن ذلك السجود كان لله تعالى وآدم ﷺ كان كالقابلة ومن الناس من طعن في هذا القول من وجهين: الوجه الأول: أنه لا يقال صليت للقابلة بل يقال صليت إلى القابلة فلو كان آدم ﷺ قبله لذلك السجود لوجب أن يقال اسجدوا إلى آدم فلما لم يرد الأمر هكذا بل قيل: ﴿اسْجُدُوا لِلْآدَمِ﴾، علمنا أن آدم ﷺ لم يكن قبله.

والوجه الثاني: أن إبليس قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾^(٢)، أي: أن كونه مسجودا يدل على أنه أعظم حالا من الساجد ولو كان قبله لما حصلت هذه الدرجة، بدليل أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يصلي إلى الكعبة ولم يلزم أن تكون الكعبة أفضل من محمد ﷺ.

والجواب عن الأول: أنه كما لا يجوز أن يقال صليت إلى القابلة جاز أن يقال صليت للقابلة والدليل عليه القرآن والشعر، أما القرآن فقوله تعالى: ﴿اقْرَأِ الصَّلَاةَ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ﴾^(٣)، والصلاة لله لا للدلوك.

فإذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقال صليت للقابلة مع أن الصلاة تكون لله تعالى لا

(١) الآيتان: رقم ٧١-٧٢ من سورة ص.

(٢) الآية: رقم ٦٢ من سورة الإسراء.

(٣) الآية: رقم ٧٨ من سورة الإسراء.

للقبلة، وأما الشعر فقول حسان:

ما كنت أعرف أن الأمر منصرف ... عن هاشم ثم منها عن أبي حسن

أليس أول من صلى لقبلكم ... وأعرف الناس بالقرآن والسنن

فقوله صلى لقبلكم نص على المقصود.

والجواب عن الثاني: أن إبليس شكا تكريمه وذلك التكريم لا نسلم أنه حصل بمجرد تلك المسجودية بل لعله حصل بذلك مع أمور آخر فهذا ما في القول الأول.

وأما القول الثاني: فهو أن السجدة كانت لأدم عليه السلام تعظيماً له وتحية له كالسلام منهم عليه، وقد كانت الأمم السالفة تفعل ذلك كما يحیی المسلمون بعضهم بعضاً بالسلام، وقال قتادة في قوله: ﴿وَحَرُّوْا لَهُ سُجْدًا﴾، كانت تحية الناس يومئذ سجود بعضهم لبعض.

وأما القول الثالث: أن السجود في أصل اللغة هو الانقياد والخضوع قال الشاعر:

ترى الأكهم فيها سجداً للحوافر

أي تلك الجبال الصغار كانت مذلة لحوافر الخيل ومنه قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾^(١)، وهذا القول ضعيف، لأن السجود لا شك أنه في عرف الشرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض فوجب أن يكون في أصل اللغة كذلك.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن إبليس هل كان من الملائكة؟ قال بعض المتكلمين: ولا سيما المعتزلة إنه لم يكن منهم، وقال كثير من الفقهاء: إنه كان منهم واحتج الأولون بوجوه:

أحدها: أنه كان من الجن فوجب أن لا يكون من الملائكة وإنما قلنا إنه كان من الجن

(١) الآية: رقم ٦ من سورة الرحمن.

لقله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾^(١).

واعلم أن من الناس من ظن أنه لما ثبت أنه كان من الجن وجب أن لا يكون من الملائكة لأن الجن جنس مخالف للملك وهذا ضعيف، لأن الجن مأخوذ من الاجتنان وهو الستر ولهذا سمي الجنين جنينا لاجتنانه، ومنه الجنة لكونها ساترة، والجنة لكونها مستتره بالأغصان، ومنه الجنون لاستتار العقل فيه، ولما ثبت هذا والملائكة مستورون عن العيون وجب إطلاق لفظ الجن عليهم بحسب اللغة فثبت أن هذا القدر لا يفيد المقصود، فنقول: لما ثبت أن إبليس كان من الجن وجب أن لا يكون من الملائكة لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾^(٢) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾^(٣)، وهذه الآية صريحة في الفرق بين الجن والملك.

المسألة الرابعة: الكلام على أن آدم أفضل من الملائكة أو العكس، اعلم أن جماعة من أصحابنا يحتجون بأمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام على أن آدم أفضل من الملائكة، فرأينا أن نذكر هاهنا هذه المسألة فنقول: قال أكثر أهل السنة: الأنبياء أفضل من الملائكة، وقالت المعتزلة: بل الملائكة أفضل من الأنبياء وهو قول جمهور الشيعة، وهذا القول اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني من المتكلمين منا وأبي عبد الله الحلي من فقهاءنا ونحن نذكر محصل الكلام من الجانبين:

أما القائلون بأن الملائكة أفضل من البشر فقد احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾^(١) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾^(٢).

وقال ﷺ: قوله تعالى: ﴿فَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، فيه مسائل:

(١) الآية: رقم ٥٠ من سورة الكهف.

(٢) الآيتان: رقم ٤٠ - ٤١ من سورة سبأ.

(٣) الآيتان: رقم ١٩ - ٢٠ من سورة الأنبياء.

المسألة الأولى: قال القفال: أصل التلقي هو: التعرض للقاء ثم يوضع في موضع الاستقبال للشيء الجائي ثم يوضع موضع القبول والأخذ، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَتَلَقَّى الْأَنْفُسَ أَنْفُ الْوَدَّاعِ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾^(١)، أي: تلقنه، ويقال: تلقينا الحجاج أي استقبلناهم، تلقيت هذه الكلمة من فلان أي أخذتها منه.

وإذا كان هذا أصل الكلمة، وكان من تلقى رجلا فتلاقيا لقي كل واحد صاحبه فأضيف الاجتماع إليهما معا صلح أن يشتركا في الوصف بذلك، فيقال: كل ما تلقيته فقد تلقاك فجاز أن يقال: تلقى آدم كلمات أي أخذها ووعاها واستقبلها بالقبول، وجاز أن يقال: تلقى كلمات بالرفع على معنى: جاءته عن الله كلمات ومثله قوله:

﴿لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٢)، وفي قراءة ابن مسعود (الظالمون).

المسألة الثانية: اعلم أنه لا يجوز أن يكون المراد أن الله تعالى عرفه حقيقة التوبة، لأن المكلف لا بد وأن يعرف ماهية التوبة، ويتمكن بفعلها من تدارك الذنوب ويميزها عن غيرها، فضلا عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل يجب حمله على عدة أمور:

أحدها: التنبيه على المعصية الواقعة منه على وجه صار آدم عليه السلام عند ذلك من التائبين المتبينين.

وثانيها: أنه تعالى عرفه وجوب التوبة، وكونها مقبولة لا محالة على معنى: أن من أذنب ذنبا صغيرا أو كبيرا ثم ندم على ما صنع وعزم على أن لا يعود فإني أتوب عليه، قال الله تعالى: ﴿فَلَقَدْ أَتَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾، أي أخذها وقبلها وعمل بها.

وثالثها: أنه تعالى ذكره بنعمه العظيمة عليه فصار ذلك من الدواعي القوية إلى التوبة.

ورابعها: أنه تعالى علمه كلاما لو حصلت التوبة معه لكان ذلك سببا لكمال حال التوبة.

(١) الآية: رقم ٦ من سورة النمل.

(٢) الآية: رقم ١٢٤ من سورة البقرة.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن تلك الكلمات ما هي؟ أولها: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن آدم عليه السلام قال: (يا رب ألم تخلقني بيدك بلا واسطة؟ قال: بلى، قال: يا رب ألم تنفخ في من روحك؟ قال: بلى، قال: ألم تسكنني جنتك؟

قال: يا رب ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى، قال: يا رب إن تبت وأصلحت تردني إلى الجنة؟ قال: بلى فهو قوله: ﴿فَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾، وزاد السدي فيه: يا رب هل كنت كتبت علي ذنبا؟ قال: نعم^(١)، وثانيها: قال النخعي: أتيت ابن عباس رضي الله عنهما فقلت: ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه؟، قال: علّم الله آدم وحواء أمر الحج فحجا، وهي الكلمات التي تقال في الحج، فلما فرغا من الحج أوحى الله تعالى إليهما بأني قبلت توبتكما، وثالثها: قال مجاهد وقتادة في إحدى الروايتين عنهما هي قوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ورابعها: عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنها قوله لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت خير الراحمين.

لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فتاب علي إنك أنت التواب الرحيم، وخامسها: قالت عائشة لما أراد الله تعالى أن يتوب على آدم طاف بالبيت سبعا، والبيت يومئذ ربوة حمراء، فلما صلى ركعتين استقبل البيت وقال: اللهم إنك تعلم سري وعلانيتي فأقبل معذرتي وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي، اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبت لي وأرضى بما قسمت لي، فأوحى الله تعالى إلى آدم: يا آدم قد غفرت لك ذنبك، ولن يأتيني أحد من ذريتك فيدعوني بهذا الدعاء الذي دعوتني به إلا غفرت ذنبه وكشفت همومه وغمومه ونزعت الفقر من بين عينيه وجاءته الدنيا وهو لا يريدتها.

(١) الأثر أورده الرازي في تفسيره ج ٣ ص ١٩، وأورده السيوطي في الدر المنثور ج ١ ص ٣١٤.

٢٠_ وقال القرطبي رحمه الله (١) في تفسيره: (الجامع لأحكام القرآن): قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فيه مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾، (إذ وإذا): حرفا توقيت، ف(إذ) للماضي، و(إذا) للمستقبل، وقد توضع إحداهما موضع الأخرى، ويحتمل أن: تكون متعلقة بفعل مقدر تقديره واذكر (إذ قال).

وقيل: هو مردود إلى قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ (٢)، فالمعنى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾....

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لِلْمَلَكَةِ﴾، الملائكة: واحدها ملك، قال ابن كيسان وغيره: وزن ملك فعل من الملك، وقال أبو عبيدة: هو مفعول من لك إذا أرسل، والألوكه والمألكة، والمألكة: الرسالة، قال ليبد:

وغلام أرسلته أمه ... بألوك فبذلنا ما سأل

وقال أرباب المعاني: خاطب الله الملائكة لا للمشورة ولكن لاستخراج ما فيهم من رؤية الحركات والعبادة والتسبيح والتقديس، ثم ردهم إلى قيمتهم، فقال ﷻ: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿جَاعِلٌ﴾ هنا بمعنى: خالق،

(١) الإمام القرطبي: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، انظر: شذرات الذهب ٥ / ٢٤٢، تذكرة الحفاظ للذهبي ٤ / ١٤١١، طبقات المفسرين ٣٩، شذرات الذهب ٥ / ٢٤٦، الأعلام للزركلي ١٣ / ٢٨٤، التذكار في أفضل الأذكار للقرطبي، تذكرة الحفاظ ٤ / ١١١٤، الأعلام للزركلي ٢ / ٢٣٢.

(٢) الآية: رقم ٢١ من سورة البقرة.

ذكره الطبري عن أبي روق، ويقضي بذلك تعديها إلى مفعول واحد، وقد تقدم.

— ﴿وَالْأَرْضِ﴾، قيل إنها مكة، روى ابن سابط عن النبي ﷺ قال: (دحيت الأرض من مكة) ولذلك سميت أم القرى.

— ﴿وَحَلِيفَةً﴾، يكون بمعنى: فاعل، أي يخلف من كان قبله من الملائكة في الأرض، أو من كان قبله من غير الملائكة على ما روي، ويجوز أن يكون: ﴿وَحَلِيفَةً﴾، بمعنى مفعول أي خلف، كما يقال: ذبيحة بمعنى مفعولة.

وقال ﷺ: وقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، قد علمنا قطعا أن الملائكة لا تعلم إلا ما أعلمت ولا تسبق بالقول، وذلك عام في جميع الملائكة، لأن قوله تعالى: ﴿لَا يَسْقُوتُ فِيهَا بَالِقُوتٍ﴾، خرج على جهة المدح لهم، فكيف قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، فقيل: المعنى: أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن في بني آدم من يفسد، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكن عموما الحكم على

الجميع بالمعصية، فبين الرب تعالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطييباً لقلوبهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ وحق ذلك بأن علم آدم الأسماء، وكشف لهم عن مكنون علمه.

وقيل: إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة، إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه أو من عصيان الله من يستخلفه في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعا: الاستخلاف والعصيان.

وقال قتادة: كان الله أعلمهم أنه إذا جعل في الأرض خلقا أفسدوا وسفكوا الدماء، فسألوا حين قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أهو الذي أعلمهم أم غيره.

قوله تعالى: ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، (في موضع نصب على المفعول بتجعل، والمفعول الثاني يقوم مقامه فيها، ﴿يُفْسِدُ﴾: على اللفظ، ويجوز في غير القرآن يفسدون على المعنى.

وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾^(١) على اللفظ، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾^(٢) على المعنى، قوله تعالى: ﴿وَيَسْفِكُ﴾، عطف عليه، ويجوز فيه الوجهان. وروى أسيد عن الأعرج أنه قرأ: ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ بالنصب، يجعله جواب الاستفهام بالواو كما قال الحطية:

ألم أك جاركم وتكون بيني... وبينكم المودة والإخاء

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، أي: ننزهك عما لا يليق بصفاتك، والتسبيح في كلامهم: التنزيه من السوء على وجه التعظيم.

وروى طلحة بن عبيد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحانه الله فقال: (هو تنزيه الله ﷻ عن كل سوء)، وهو مشتق من السبح وهو الجري والذهاب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾^(٣)، فالمسبح جارٍ في تنزيه الله تعالى وتبرئته من السوء.

قوله تعالى: ﴿بِحَمْدِكَ﴾، أي: وبحمدك نخلط التسبيح بالحمد ونصله به، والحمد: الشناء، ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿بِحَمْدِكَ﴾، اعتراضاً بين الكلامين، كأنهم قالوا: ونحن نسبح ونقدس، ثم اعترضوا على جهة التسليم، أي وأنت المحمود في الهداية إلى ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نعظمك ونمجّدك ونظهر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحّدون، قاله مجاهد وأبو صالح وغيرهما.

وقال الضحاك وغيره: المعنى: نظهر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك، وقال قوم منهم قتادة: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، معناه نصلي، والتقديس: الصلاة، قال ابن عطية: وهذا ضعيف،

(١) الآية: رقم ٢٥ من سورة الأنعام.

(٢) الآية: رقم ٤٢ من سورة يونس.

(٣) الآية: رقم ٧ من سورة المزمل.

قلت: بل معناه صحيح، فإن الصلاة تشتمل على التعظيم والتقديس والتسبيح، وكان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: (سبح قدوس رب الملائكة والروح).

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿أَعْلَمُ﴾ فيه تأويلان، قيل: إنه فعل مستقبل، وقيل: إنه اسم بمعنى: فاعل، كما يقال: الله أكبر، بمعنى كبير، وكما قال:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل... على أيننا تعدو المنية أول

فعلى أنه فعل تكون: ﴿مَا﴾: في موضع نصب بأعلم، ويجوز إدغام الميم في الميم، وإن جعلته اسماً بمعنى: (عالم) تكون ﴿مَا﴾: في موضع خفض بالإضافة، قال ابن عطية: ولا يصح فيه الصرف بإجماع من النحاة، وإنما الخلاف في: (أفعل) إذا سمي به وكان نكرة، فسيبويه والخليل لا يصرفانه، والأخفش يصرفه.

قال المهدي: يجوز أن تقدر التنوين في: ﴿أَعْلَمُ﴾ إذا قدرته بمعنى: (عالم)، وتنصب ﴿مَا﴾ به، فيكون مثل حواج بيت الله، قال الجوهري: ونسوة حواج بيت الله، بالإضافة إذا كن قد حججن، وإن لم يكن حججن قلت:

حواج بيت الله، فتنصب البيت، لأنك تريد التنوين في حواج.

قوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، اختلف علماء التأويل في المراد بقوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فقال ابن عباس: كان إبليس لعنه الله قد أعجب ودخله الكبر لما جعله خازن السماء وشرّفه، فاعتقد أن ذلك لمزية له، فاستخف الكفر والمعصية في جانب آدم عليه السلام.

وقالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وهي لا تعلم أن في نفس إبليس خلاف ذلك، فقال الله تعالى لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقال قتادة: لما قالت الملائكة ﴿أَجْعَلُ فِيهَا﴾ وقد علم الله أن فيمن يستخلف في

الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة، فقال لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، قلت: ويحتمل أن يكون المعنى: إني أعلم ما لا تعلمون مما كان وما يكون وما هو كائن، فهو عام.

وقال ﷺ: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَدَبَّرُ أَنْيَّتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَنْيَّتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، أمره الله أن يعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه، تنبيها على فضله وعلو شأنه، فكان أفضل منهم بأن قدمه عليهم وأسجدهم له وجعلهم تلامذته وأمرهم بأن يتعلموا منه.

فحصلت له رتبة الجلال والعظمة، بأن جعله مسجودا له، مختصا بالعلم.

الثانية: في هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله، وفي الحديث: (وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم)^(١)، أي: تخضع وتتواضع وإنما تفعل ذلك لأهل العلم خاصة من بين سائر عيال الله، لأن الله تعالى ألزمها ذلك في آدم عليه السلام فتأدبت بذلك الأدب، فكلما ظهر لها علم في بشر خضعت له وتواضعت وتذللت إعظاما للعلم وأهله، ورضا منهم بالطلب له والشغل به، هذا في الطلاب منهم فكيف بالأحبار فيهم والربانيين منهم! جعلنا الله منهم وفيهم، إنه ذو فضل عظيم.

الثالثة: اختلف العلماء من هذا الباب، أيما أفضل الملائكة أو بنو آدم على قولين: فذهب قومٌ: إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة.

وذهب آخرون: إلى أن الملائكة الأعلى أفضل، واحتج من فضل الملائكة بأنهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٣٦) لَا يَسْخَرُونَهُ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ يَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾، وأنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ

(١) الحديث: رواه الإمامان أبو داود والترمذي.

(٢) الآية: رقم ٢٧ من سورة الأنبياء.

اللَّهُ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ^(١)، وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾^(٣)، وفي البخاري: يقول الله ﷻ: (من ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منهم)^(٤)، وهذا نص احتج به من فضل بني آدم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾^(٥)، بالهمز، من برأ الله الخلق، وقوله ﷻ: (وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضي لطالب العلم)، وبما جاء في أحاديث من أن الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة، ولا يباهي إلا بالفضل، والله أعلم.

وقال بعض العلماء: ولا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهم، لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسوله أو إجماع الأمة، وليس ها هنا شيء من ذلك، خلافاً للقدرية والقاضي أبي بكر رحمه الله حيث قالوا: الملائكة أفضل.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، دليل على أن أحداً لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله كالأنبياء أو من أعلمه من أعلمه الله تعالى، فالمنجمون والكهان وغيرهم كذبة.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾، أي قولكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، حكاية مكّي والماوردي، وقال الزهراوي: ما أبدوه هو بدارهم بالسجود لآدم، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، قال ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبیر: المراد ما كتبه إبليس في نفسه من الكبر والمعصية، وقال ابن عطية: وجاء ﴿تَكْتُمُونَ﴾ للجماعة، والكاتب واحد في هذا القول على تجوز العرب واتساعها، كما يقال لقوم قد جنى سفيه منهم: (أنتم فعلتم كذا)، أي:

(١) الآية: رقم ٦ من سورة التحريم.

(٢) الآية: رقم ١٧٢ من سورة النساء.

(٣) الآية: رقم ٥٠ من سورة الأنعام.

(٤) الحديث: رواه الإمامان البخاري ومسلم وغيرهما رحمهم الله.

(٥) الآية: رقم ٧ من سورة البينة.

منكم فاعله، وهذا مع قصد تعنيف، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١)، وإنما ناداه منهم عيينة، وقيل الأقرع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقالت طائفة: الإبداء والمكتوم ذلك على معنى العموم في معرفة أسرارهم وظواهرهم أجمع. واعلم أن هذه الآيات تدل على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله على العبادة، وأنه شرط في الخلافة بل العمدية فيها، وأن التعليم يصح إسناده إلى الله تعالى، وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه لاختصاصه بمن يحترف به، وأن اللغات توقيفية، فإن الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو عموم، وتعليمها ظاهر في إلقائها على المتعلم مبيناً له معانيها، وذلك يستدعي سابقة وضع، والأصل ينفي أن يكون ذلك الوضع ممن كان قبل آدم فيكون من الله سبحانه وتعالى، وأن مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم وإلا لتكرر قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، وأن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة، والحكماء منعوا ذلك في الطبقة العليا منهم، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾^(٢)، وأن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه أعلم منهم، والأعلم أفضل لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣)، وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها.

وقال الإمام القرطبي رحمه الله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: واذكر، وقال: ﴿قُلْنَا﴾ ولم يقل: (قلت)، لأن الجبار العظيم يخبر عن نفسه بفعل الجماعة تفخيماً وإشادة بذكره، والملائكة: جمع ملك.

وقال رحمه الله: قوله تعالى: ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، وفيه مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾، قرأ الجماعة: ﴿فَازْلَهُمَا﴾، بغير ألف، من الزلة وهي الخطيئة، أي استزلها وأوقعها فيها، وقرأ حمزة: (فأزالهما)، بألف، من التنحية،

(١) الآية: رقم ٤ من سورة الحجرات.

(٢) الآية: رقم ١٦٤ من سورة الصافات.

(٣) الآية: رقم ٩ من سورة الزمر.

أي نحاهما.

يقال: أزلته فزال، قال ابن كيسان: فأزالهما من الزوال، أي صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية، قلت: وعلى هذا تكون القراءتان بمعنى واحد، إلا أن قراءة الجماعة أمكن في المعنى.

يقال منه: أزلته فزل، ودل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَسْأَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿فَوَسَّوْا لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، والوسوسة: إنها هي إدخالها في الزلل بالمعصية، وليس للشيطان قدرة على زوال أحد من مكان إلى مكان إنما قدرته على إدخاله في الزلل، فيكون ذلك سببا إلى زواله من مكان إلى مكان يذنبه، وقد قيل: إن معنى أزلها من زل عن المكان إذا تنحى، فيكون في المعنى كقراءة حمزة من الزوال.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، إذا جعل أزال من زال عن المكان فقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾: تأكيد وبيان للزوال، إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر من الجنة، وليس كذلك، وإنما كان إخراجهما من الجنة إلى الأرض، لأنها خلقتا منها، وليكون آدم خليفة في الأرض.

ولم يقصد إبليس لعنه الله إخراجها منها، وإنما قصد إسقاطه من مرتبته، وإبعاده كما أبعد هو، فلم يبلغ مقصده ولا أدرك مراده، بل ازداد سخنة عين وغيظ نفس وخيبة ظن، قال الله جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ لَجَبْنَاهُ رِبُّهُ، فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾^(٢)، فصار عليه السلام خليفة الله في أرضه بعد أن كان جارا له في داره، فكم بين الخليفة والجار!، ونسب ذلك إلى إبليس، لأنه كان بسببه وإغوائه.

الثالثة: يذكر أن الحية كانت خادما لآدم عليه السلام في الجنة فخانتته بأن مكنت عدو الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك، فلما أهبطوا تأكدت العداوة وجعل رزقها التراب،

(١) الآية: رقم ١٥٥ من سورة آل عمران.

(٢) الآية: رقم ١٢٢ من سورة طه.

وقيل لها: أنت عدو بني آدم وهم أعداؤك وحيث لقيك منهم أحد شذخ رأسك.
 روى ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: (خمس يقتلهن المحرم)^(١) فذكر الحية فيهن.
 وروى أن إبليس قال لها: أدخليني الجنة وأنت في ذمتي، فكان ابن عباس يقول:
 أخفروا ذمة إبليس).

وروت ساكنة بنت الجعد عن سراء بنت نبهان الغنوية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اقتلوا الحيات صغيرها وكبيرها وأسودها وأبيضها فإن من قتلها كانت له فداء من النار ومن قتلته كان شهيدا)^(٢)، قال علماؤنا: وإنما كانت له فداء من النار لمشاركتها إبليس وإعانتته على ضرر آدم وولده، فلذلك كان من قتل حية فكأنما قتل كافرا، وقد قال رسول الله ﷺ: (لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبدا)^(٣).

الرابعة: لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقبل توبته، وإنما أهبطه إما تأديبا وإما تغليظا للمحنة، والصحيح في إهباطه وسكنائه في الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك وهي نشر نسله فيها ليكلفهم ويمتحنهم ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروي إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة، والله أن يفعل ما يشاء، وقد قال سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وهذه منقبة عظيمة وفضيلة كريمة شريفة، مع أنه خلق من الأرض، وإنما قلنا إنها أهبطه بعد أن تاب عليه لقوله ثانية: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾.

(١) الحديث: رواه البخاري برقم ٣٣١٥ باب (١٦) إذا وقع الذباب في شراب أحدكم... ورواه مسلم في الحج (١٩٨) باب (٩) ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل ...
 (٢) الحديث: رواه البخاري برقم ٣٢٩٧ باب (١٤) من حديث عبدالله ابن عمر، ورواه مسلم ورواه مسلم في الحج (١٩٨) باب (٩) ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل ...
 (٣) الحديث: أخرجه مسلم وغيره.

٢١_ وقال البيضاوي رحمه الله ^(١) في تفسيره (أنوار التنزيل): قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، تعداد لنعم تعم الناس كلهم، فإن خلق آدم وإكرامه وتفضيله على ملائكته بأن أمرهم بالسجود له، إنعام يعم ذريته.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: ظرف وضع لزمان نسبة ماضية وقع فيه أخرى، كما وضع (إذا) لزمان نسبة مستقبلية يقع فيه أخرى، ولذلك يجب إضافتهما إلى الجمل كحيث في المكان، وبنيتا تشبيهاً لهما بالموصولات، واستعملتا للتعليل والمجازاة، ومحلهما النصب أبداً بالظرفية فإنهما من الظروف الغير المتصرفة لما ذكرناه، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كَرَّمْنَا نُوحًا إِذْ أَنْذَرْنَاهُ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ مِنَ الْغَمْرِ مَوْجٌ مِّنْ دُونِهِ﴾ ^(٢) ونحوه، فعلى تأويل: اذكر الحادث إذ كان كذا، فحذف الحادث وأقيم الظرف مقامه، وعامله في الآية: قالوا، أو أذكر على التأويل المذكور لأنه جاء معمولاً له صريحاً في القرآن كثيراً، أو مضمّر دل عليه مضمون الآية المتقدمة، مثل وبدأ خلقكم إذ قال، وعلى هذا فالجملة معطوفة على خلق لكم داخلية في حكم الصلة، وعن معمر أنه: مزيد.

والمقول لهم: الملائكة كلهم لعموم اللفظ وعدم المخصص، وقيل ملائكة الأرض، وقيل إبليس ومن كان معه في محاربة الجن، فإنه تعالى أسكنهم في الأرض أولاً فأفسدوا فيها، فبعث إليهم إبليس في جند من الملائكة فدمرهم وفرقهم في الجزائر والجبال.

وقوله تعالى: ﴿جَاعِلٌ﴾: من جعل الذي له مفعولان وهما في الأرض خَلِيفَةً أعمل فيهما، لأنه بمعنى: المستقبل ومعتمد على مسند إليه، ويجوز أن يكون بمعنى خالق.

والخليفة: من يخلف غيره وينوب منابه، والهاء فيه للمبالغة، والمراد به آدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي استخلفهم الله في عمارة

(١) الإمام البيضاوي: هو ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، انظر: لبداية والنهاية (٣٠٩: ١٣)، الوافي بالوفيات (٤٤٧: ٥)، نزهة الجليس (٨٧: ٢)، طبقات الشافعية للسبكي (٥٩: ٥).

(٢) الآية: رقم ٢١ من سورة الأحقاف.

الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم، ولا حاجة به تعالى إلى من ينوبه، بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه، وتلقي أمره بغير وسط، ولذلك لم يستنبح ملكاً كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾^(١)، ألا ترى أن الأنبياء لما فاقت قوتهم، واشتعلت قريحتهم بحيث يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، أرسل إليهم الملائكة ومن كان منهم أعلى رتبة كلمه بلا واسطة، كما كلم موسى ﷺ في الميقات، ومحمداً ﷺ ليلة المعراج، ونظير ذلك في الطبيعة أن العظم لما عجز عن قبول الغذاء من اللحم لما بينهما من التباعد، جعل الباري تعالى بحكمته بينهما الغضروف المناسب لهما ليأخذ من هذا ويعطي ذلك.

أو خليفة من سكن الأرض قبله، أو هو وذريته لأنهم يخلفون من قبلهم، أو يخلف بعضهم بعضاً.

وفائدة قوله تعالى هذا للملائكة، تعليم المشاورة، وتعظيم شأن المجمعول، بأن بشر ﷺ بوجود سكان ملكوته، ولقبه بالخليفة قبل خلقه، وإظهار فضله الراجح على ما فيه من المفساد بسؤالهم، وجوابه وبيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره، فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير إلى غير ذلك.

وقال ﷺ: قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، تعجب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها، أو يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، واستكشاف عما خفي عليهم من الحكمة التي بهرت تلك المفساد والغتها، واستخبار عما يرشدهم ويزيح شبهتهم كسؤال المتعلم معلمه عما يختلج في صدره، وليس باعتراض على الله تعالى جلّت قدرته، ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾^(٢) لَا يَسْقُونَهُ. بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ

(١) الآية: رقم ٩ من سورة الأنعام.

يَعْمَلُونَ ﴿١﴾، وإنما عرفوا ذلك: بإخبار من الله تعالى، أو تلقى من اللوح، أو استنباط عما ركز في عقولهم أن العصمة من خواصهم، أو قياس لأحد الثقلين على الآخر. قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ﴾، حال مقررة لجهة الإشكال كقولك: أتحسن إلى أعدائك وأنا الصديق المحتاج القديم، والمعنى: أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك، والمقصود

منه، الاستفسار عما رجعهم ومع ما هو متوقع منهم، على الملائكة المعصومين في الاستخلاف، لا العجب والتفاخر، وكأنهم علموا أن المجعول خليفة ذو ثلاث قوى عليها مدار أمره: شهوية وغضبية تؤديان به إلى الفساد وسفك الدماء، وعقلية تدعوه إلى المعرفة والطاعة، ونظروا إليها مفردة وقالوا: ما الحكمة في استخلافه، وهو باعتبار تينك القوتين لا تقتضي الحكمة إيجاده فضلاً عن استخلافه، وأما باعتبار القوة العقلية فنحن نقيم ما يتوقع منها سليماً عن معارضة تلك المفاصد، وغفلوا عن فضيلة كل واحدة من القوتين إذا صارت مهذبة مطواعة للعقل، متمرنة على الخير كالعفة والشجاعة ومجاهدة الهوى والإنصاف، ولم يعلموا أن التركيب يفيد ما يقصر عنه الأحاد، كالإحاطة بالجزئيات واستنباط الصناعات واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل الذي هو المقصود من الاستخلاف، وإليه أشار تعالى إجمالاً بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، والتسبيح: تبعيد الله تعالى عن السوء وكذلك التقديس: من سَبَّح في الأرض والماء، وقُدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد، ويقال قُدس إذا طهر لأن مطهر الشيء مبعد له عن الأقدار.

وَبِحَمْدِكَ في موضع الحال، أي: متلبسين بحمدك على ما ألهمتنا معرفتك ووفقتنا لتسبيحك، تداركوا به ما أوهم إسناده التسبيح إلى أنفسهم، ونقدس لك، أي: نظهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك، كأنهم قابلوا الفساد المفسر بالشرك عند قوم بالتسبيح،

وسفك الدماء الذي هو أعظم الأفعال الذميمة بتطهير النفوس عن الآثام وقيل: نقدسك واللام مزيدة.

وقال البيضاوي: اعلم أن هذه الآيات تدل على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله على العبادة، وأنه شرط في الخلافة، بل العمدة فيها، وأن التعليم يصح إطلاقه عليه تعالى، وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه لاختصاصه بمن يحترف به، وأن اللغات توقيفية، علمها الله بالوحي، وأن آدم ﷺ أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه أعلم منهم، والأعلم أفضل لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)، وأن الله يعلم الأشياء قبل حدوثها. هـ. باختصار.

وقال ﷺ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، لما أنبأهم بأسائهم وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم بالسجود له، اعترافاً بفضله، وأداء لحقه واعتذاراً عما قالوا فيه، وقيل: أمرهم به قبل أن يسوي خلقه لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٢)، امتحاناً لهم وإظهاراً لفضله، والعاطف عطف الظرف على الظرف السابق إن نصبته بمضمر، وإلا عطفه بما يقدر عاملاً فيه على الجملة المتقدمة، بل القصة بأسرها على القصة الأخرى، وهي نعمة رابعة عدها عليهم.

والسجود في الشرع: وضع الجبهة على قصد العبادة، والمأمور به إما المعنى الشرعي فالمسجود له بالحقيقة هو الله تعالى، وجعل آدم قبله لسجودهم تفخيماً لشأنه، أو سبباً لوجوبه فكأنه تعالى لما خلقه بحيث يكون نموذجاً للمبدعات كلها بل الموجودات بأسرها، ونسخة لما في العالم الروحاني والجسماني وذريعة للملائكة إلى استيفاء ما قدر لهم من الكمالات، ووصلة إلى ظهور ما تباينوا فيه من المراتب والدرجات، أمرهم بالسجود تذلاً لما رأوا فيه من عظيم قدرته وباهر آياته، وشكراً لما أنعم عليهم بواسطته، فاللام فيه

(١) الآية: رقم ٩ من سورة الزمر.

(٢) الآية: رقم ٢٩ من سورة الحجر.

كاللام في قول حسان رضي الله تعالى عنه:

أَلَيْسَ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى لِقَبْلَتِكُمْ... وَأَعْرَفَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ

وأما المعنى اللغوي للسجود: وهو التواضع لأدم تحية وتعظيماً له، كسجود إخوة يوسف له، أو التذلل والانقياد بالسعي في تحصيل ما ينوط به معاشهم ويتم به كمالهم.

ومن فوائد الآية: استقباح الاستكبار وأنه قد يفضي بصاحبه إلى الكفر، والحث على الاتسار لأمره وترك الخوض في سره، وأن الأمر للوجوب، وأن الذي علم الله تعالى من حاله أنه يتوفى على الكفر هو الكافر على الحقيقة، إذ العبرة بالخواتم وإن كان بحكم الحال مؤمناً وهو الموافاة المنسوبة إلى شيخنا أبي الحسن الأشعري رحمته الله تعالى.

وقال رحمته الله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا، أُصْدِرَ زَلَّتْهُمَا عَنْ الشَّجَرَةِ وَحَمَلَهُمَا عَلَى الزَّلَّةِ بِسَبَبِهَا، وَنَظِيرُ (عَنْ) هَذِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ﴾ ^(١)، أَوْ أَزَلَّهُمَا عَنِ الْجَنَّةِ بِمَعْنَى أَذْهَبَهُمَا، وَيَعْضُدُهُ قِرَاءَةُ حَمْزَةِ (فَأَزَلَّهُمَا) وَهُمَا مُتَقَارِبَانِ فِي الْمَعْنَى، غَيْرَ أَنْ أَزَلَ يَقْتَضِي عَثْرَةً مَعَ الزَّوَالِ، وَاخْتَلَفَ فِي أَنَّهُ تَمَثَّلَ لَهَا فَقَاوَلَهُمَا بِذَلِكَ، أَوْ أَلْقَاهُ إِلَيْهِمَا عَلَى طَرِيقِ الْوَسُوسَةِ، وَأَنَّهُ كَيْفَ تَوْصِلُ إِلَى إِزَالَتِهَا بَعْدَ مَا قِيلَ لَهُ: ﴿فَأَخْرَجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ ^(٢)، فَقِيلَ: إِنَّهُ مَنَعَ مِنَ الدَّخُولِ عَلَى جِهَةِ التَّكْرَمَةِ كَمَا كَانَ يَدْخُلُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ، وَلَمْ يَمْنَعْ أَنْ يَدْخُلَ لِلْوَسُوسَةِ ابْتِلَاءَ لَادَمَ وَحَوَاءَ، وَقِيلَ: قَامَ عِنْدَ الْبَابِ فَنَادَاهُمَا، وَقِيلَ: تَمَثَّلَ بِصُورَةِ دَابَّةٍ فَدَخَلَ وَلَمْ تَعْرِفْهُ الْخَزَنَةُ، وَقِيلَ: دَخَلَ فِي فَمِ الْحَيَةِ حَتَّى دَخَلَتْ بِهِ، وَقِيلَ: أَرْسَلَ بَعْضُ أَتْبَاعِهِ فَأَزَلَّهُمَا، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) الآية: رقم ٨٢ من سورة الكهف.

(٢) الآية: رقم ٣٤ من سورة الحجر.

٢٢_ وقال أثير الدين الأندلسي ^(١) في تفسيره (البحر المحيط): قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، و﴿إِذْ﴾: اسم ثنائي الوضع مبني لشبهه بالحرف وضعاً أو افتقاراً، وهو ظرف زمان للماضي، وما بعده جملة اسمية أو فعلية، وإذا كانت فعلية: قبح تقديم الاسم على الفعل وإضافته إلى المصدرية بالمضارع، وعمل المضارع فيه مما يجعل المضارع ماضياً، وهو ملازم للظرفية إلا أن يضاف إليه زمان، ولا يكون مفعولاً به، ولا حرفاً للتعليل أو المفاجأة، ولا ظرف مكان، ولا زائدة، خلافاً لزاعمي ذلك، ولها أحكام غير هذا ذكرت في النحو.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾: لم يرد في سبب نزول هذه الآيات شيء، ومناسبتها لما قبلها أنه لما امتن عليهم بخلق ما في الأرض لهم، وكان قبله إخراجهم من العدم إلى الوجود، أتبع ذلك ببدء خلقهم، وامتن عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه وجعله خليفة وإسكانه دار كرامته، وإسجاد الملائكة تعظيماً لشأنه وتنبئها على مكانه واختصاصه بالعلم الذي به كمال الذات وتمام الصفات، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، وشرف الفرع بشرف الأصل.

واختلف المعربون في ﴿إِذْ﴾: فذهب أبو عبيدة وابن قتيبة إلى زيادتها، وذهب بعضهم: إلى أنها بمعنى: قد، والتقدير: (وقد قال ربك)، وهذا ليس بشيء، وذهب بعضهم: إلى أنه منصوب نصب المفعول به بـ (اذكر)، أي: واذكر: إذ قال ربك، وهذا ليس بشيء، لأن فيه إخراجها عن بابها، وهو أنه لا يتصرف فيها بغير الظرفية، أو بإضافة ظرف زمان إليها، وأجاز ذلك الزمخشري وابن عطية وناس قبلهما وبعدهما، وذهب بعضهم إلى أنها ظرف. واختلفوا، فقال بعضهم: هي في موضع رفع، والتقدير: ابتداء خلقكم، وقال بعضهم:

(١) ابن الأثير: هو أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، انظر: الدرر الكامنة ٤/ ٣٠٢ - ٣١٠، وهدية العارفين ٢/ ١٥٢ - ١٥٣، وبغية الوعاة ١٢١ - ١٢٣، وفوات الوفيات ٢/ ٢٨٢، ونكت الهميان ٢٨٠.

هي في موضع نصب، والتقدير: وابتداء خلقكم، إذ قال ربك.

وناسب هذا التقدير لما تقدم قوله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(١)، وكلا هذين القولين لا تحرير فيه، لأن ابتداء خلقنا لم يكن وقت قول الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، لأن الفعل العامل في الظرف لا بد أن يقع فيه، أما أن يسبقه أو يتأخر عنه، فلا، لأنه لا يكون له ظرفا.

وذهب بعضهم إلى أن: ﴿إِذْ﴾: منصوب يقال بعدها، وليس بشيء، لأن إذ مضافة إلى الجملة بعدها والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، وذهب بعضهم: إلى أن نصبها ب (أحياكم)، تقديره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾^(٢)، إذ قال ربك، وهذا ليس بشيء لأنه حذف بغير دليل، وفيه أن الإحياء ليس واقعا في وقت قول الله للملائكة، وحذف الموصول وصلته، وإبقاء معمول الصلة، وذهب بعضهم: إلى أنه معمول لـ (خلقكم) من قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾^(٣)، إذ قال ربك، فتكون الواو زائدة، ويكون قد فصل بين العامل والمعمول بهذه الجمل التي كادت أن تكون سورا من القرآن، لاستبداد كل آية منها بما سبقت له، وعدم تعلقها بما قبلها التعلق الإعرابي.

فهذه ثمانية أقوال ينبغي أن ينزه كتاب الله عنها، والذي تقتضيه العربية نصبه بقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾، أي: وقت قول الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ﴾، كما تقول في الكلام: إذ جئني أكرمتك، أي وقت مجيئك أكرمتك، وإذ قلت لي كذا قلت لك كذا.

فانظر إلى حسن هذا الوجه السهل الواضح، وكيف لم يوفق أكثر الناس إلى القول به، وارتبكوا في دهياء وخطوطا عشواء.

(١) الآية: رقم ٢٩ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ٦٦ من سورة الحج.

(٣) الآية: رقم ٢١ من سورة البقرة.

وإسناد القول إلى الرب في غاية من المناسبة والبيان، لأنه لما ذكر أنه خلق لهم ما في الأرض، كان في ذلك صلاح لأحوالهم ومعايشهم، فناسب ذكر الرب وإضافته إلى رسول الله ﷺ تنبيه على شرفه واختصاصه بخطابه، وهز لاستماع ما يذكر بعد ذلك من غريب افتتاح هذا الجنس الإنساني، وابتداء أمره ومآله، وهذا تنويع في الخطاب، وخروج من الخطاب العام إلى الخطاب الخاص، وفي ذلك أيضا إشارة لطيفة إلى أن المقبل عليه بالخطاب له الحظ الأعظم والقسم الأوفر من الجملة المخبر بها، إذ هو في الحقيقة أعظم خلفائه، ألا ترى إلى عموم رسالته ودعائه وجعل أفضل أنبيائه أمّ بهم ليلة إسرائه، وجعل آدم ﷺ فمن دونه يوم القيامة تحت لوائه، فهو المقدم في أرضه وسنائه وفي داري تكليفه وجزائه.

واللام في للملائكة: للتبليغ، وهو أحد المعاني التي جاءت لها اللام، فظاهر لفظ الملائكة العموم، وقال بذلك قوم، وقال قوم: هو عام المراد به الخصوص، وهم سكان الأرض من الملائكة بعد الجان.

وقيل: هم المحاربون مع إبليس.

وقال ﷺ: ﴿قَالَ يَتَدَأْمُ أَنْبِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، نادى آدم ﷺ باسمه العلم، وهي عادة الله مع أنبيائه، قال تعالى: ﴿يَنْفُخُ فِيهِمْ مِنْ رُوحِ قُدْرَتِهِ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿يَنْفُخُ فِيهِمْ مِنْ رُوحِ قُدْرَتِهِ﴾^(٢)، وقال ﷺ: ﴿يَتَابَرِهِيْمُ﴾^(٣)، وقال جل وعلا: ﴿يَمْوِسْ إِنْ أَنَا اللَّهُ﴾^(٤)، وقال جل ثناؤه: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾^(٥)، ونادى محمدا نبينا ﷺ وعلى سائر الأنبياء بالوصف الشريف من الإرسال والإنباء

(١) الآية: رقم ٤٨ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٤٦ من سورة هود.

(٣) الآيتان: رقم ١٠٤-١٠٥ من سورة الصافات.

(٤) الآية: رقم ٣٠ من سورة القصص.

(٥) الآية: رقم ١١٠ من سورة المائدة.

فقال تعالى ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ﴾^(١)، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾^(٢).

فانظر تفاوت ما بين هذا النداء وذاك النداء، والضمير في: ﴿أُنَبِّئُهُمْ﴾ عائد إلى الملائكة، وفي: ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ عائد على المعروضين على الخلاف السابق، قال القشيري: من آثار العناية بآدم عليه السلام لما قال للملائكة:

﴿أُنَبِّئُونِي﴾، داخلهم من هيبة الخطاب ما أخذهم عنهم، لا سيما حين طالبهم بإنبائهم إياه ما لم تحط بهم علومهم، ولما كان حديث آدم رده في الإنباء إليهم فقال: ﴿أُنَبِّئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، ومخاطبة آدم للملائكة لم توجب الاستغراق في الهيبة، فلما أخبرهم آدم عليه السلام بأسماء ما تقاصرت عنه علومهم، ظهرت فضيلته عليهم فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ عَلِمْتُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يعني ما تقاصرت عنه علوم الخلق وأعلم ما تدون من الطاعات وتكتمون من اعتقاد الخيرية على آدم.

وقال الإمام ابن الأثير رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، السجود: التذلل والخضوع، وقال ابن السكيت: هو الميل، وقال بعضهم: سجد وضع جبهته بالأرض، وأسجد: ميل رأسه

وانحنى، والإباء: الامتناع، قال الشاعر:

وأما أن تقولوا قد أبينا ... فشر مواطن الحسب الإباء

والفعل منه: أبى يأبى، ولما جاء مضارعه على يفعل بفتح العين وليس بقياس أخرى، كأنه مضارع فعل بكسر العين، فقالوا فيه: يئبي بكسر حرف المضارعة، وقد سُمع فيه أبي بكسر العين فيكون يأبى على هذه اللغة قياساً، ووافق من قال أبى بفتح العين على هذه اللغة.

(١) الآية: رقم ٤١ من سورة المائدة.

(٢) الآية: رقم ٦٤ من سورة الأنفال.

وقد زعم أبو القاسم السعدي أن: أبي يأتي بفتح العين لا خلاف فيه، وليس بصحيح، فقد حكى أبي بكسر العين صاحب المحكم، وقد جاء يفعل في أربعة عشر فعلا وماضيها فعل، وليست عينه ولا لامه حرف حلق.

الاستكبار والتكبر: وهو مما جاء فيه استفعل بمعنى تفعل، وهو أحد المعاني الاثني عشر التي جاءت لها استفعل.

قوله: ﴿أَسْجُدُوا﴾: أمر، وتقتضي هذه الصيغة طلب إيقاع الفعل في الزمان المطلق استقباله، ولا تدل بالوضع على الفور، وهذا مذهب الشافعي والقاضي أبي بكر بن الطيب، واختاره الغزالي والرازي خلافا للمالكية من أهل بغداد، وأبي حنيفة ومتبعيه.

وأما العطف بالفاء فيدل على تعقيب القول بالفعل من غير مهلة، فتكون الملائكة قد فهموا الفور من شيء آخر غير موضوع اللفظ، فلذلك بادروا بالفعل ولم يتأخروا.

والسجود المأمور به والمفعول إيماء وخضوع، قاله الجمهور، أو وضع الجبهة على الأرض مع التذلل، أو إقرارهم له بالفضل واعترافهم له بالمزية، وهذا يرجع إلى معنى السجود اللغوي، قال: فإن من أقر لك بالفضل فقد خضع لك.

قوله: ﴿لَادَمَ﴾، من قال بالسجود الشرعي قال: كان السجود تكملة وتحية له، وهو قول الجمهور: علي وابن مسعود وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كسجود أبوي يوسف عليهم السلام، لا سجود عبادة، أو لله تعالى، ونصبه الله قبلة لسجودهم كالكعبة، فيكون المعنى إلى آدم، قاله الشعبي، أو لله تعالى، فسجد وسجدوا مؤتمنين به، وشرّفه بأن جعله إماما يقتدون به، والمعنى في: ﴿لَادَمَ﴾، أي: مع آدم.

وقال قوم: إنما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم قبل أن يخلقه، فالسجود امتثال لأمر الله، والسجود له، قاله مقاتل، والقرآن يرد هذا القول، وقال قوم: كان سجود الملائكة مرتين.

قيل: والإجماع يرد هذا القول، والظاهر أن السجود هو بالجهة لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، وقيل: لا دليل في ذلك، لأن الجائي على ركبتيه واقع، وأن السجود كان لآدم على سبيل التكرمة، وقال بعضهم: السجود لله بوضع الجبهة، وللبشر بالانحناء، انتهى.

ويجوز أن يكون السجود في ذلك الوقت للبشر غير محرم، وقد نقل أن السجود كان في شريعة من قبلنا هو التحية، ونسخ ذلك في الإسلام، وقيل: كان السجود لغير الله جائزا إلى زمن يعقوب، ثم نسخ، وقال الأكثرون: لم ينسخ إلى عصر رسول الله ﷺ.

قال ابن عطاء: لما استعظموا تسييحهم وتقديسهم أمرهم بالسجود لغيره ليريه بذلك استغنائه عنهم وعن عبادتهم.

﴿فَسَجَدُوا﴾، ثم: محذوف تقديره: فسجدوا له، أي لآدم.

دل عليه قوله: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، واللام في ﴿لِآدَمَ﴾، للتبيين، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾: هو مستثنى من الضمير في فسجدوا، وهو استثناء من موجب في نحو هذه المسألة فيترجح: النصب، وهو استثناء متصل عند الجمهور: ابن مسعود وابن عباس وابن المسيب وقتادة وابن جريج، واختاره الشيخ أبو الحسن والطبري، فعلى هذا يكون ملكا ثم أبلس وغضب عليه ولعنه فصار شيطانا، وروي في ذلك آثار عن ابن عباس وقتادة وابن جبير، وقد اختلف في اسمه فقيل: عزازيل، وقيل:

الحرث، وقيل: هو استثناء منقطع، وأنه أبو الجن، كما أن آدم أبو البشر، ولم يكن قط ملكا، قاله ابن زيد والحسن، وروي عن ابن عباس، وروي عن ابن مسعود وشهر بن حوشب: أنه من الجن الذين كانوا في الأرض وقتلتهم الملائكة، فسبوه صغيرا وتعبد مع الملائكة وخوطف معهم، واستدل على أنه ليس من الملائكة بقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ

أَلْمَلَكِكَةِ رُسُلًا ﴿١﴾، فعمّ، فلا يجوز على الملائكة الكفر ولا الفسق، كما لا يجوز على رسله من البشر، ويقول: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ﴾، وبأن له نسلا، بخلاف الملائكة، والظاهر أنه استثناء متصل لتوجه الأمر على الملائكة، فلو لم يكن منهم لما توجه الأمر عليه، فلم يقع عليه ذم لتركه فعل ما لم يؤمر به، وأما: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِكَةِ رُسُلًا﴾، و﴿يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾، فهو عام مخصوص، إذ عصمتهم ليست لذاتهم، إنما هي بجعل الله لهم ذلك، وأما إبليس فسلبه الله تعالى الصفات الملكية وألبسه ثياب الصفات الشيطانية، وأما قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ﴾، فقال قتادة: هم صنف من الملائكة يقال لهم الجنة.

وقال ابن جبير: سبط من الملائكة خلقوا من نار، وإبليس منهم، أو أطلق عليه من الجن لأنه لا يرى، كما سمي الملائكة جنة، أو لأنه سمي باسم ما غلب عليه، أو بما كان من فعله، أو لأن الملائكة تسمى جنا.

قال الأعشى في ذكر سليمان على نبينا وعليه السلام:

وسخر من جن الملائك تسعة... قياما لديه يعملون بلا أجر

﴿أَبَى﴾: امتنع وأنف من السجود لآدم، ﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾: تكبر وتعظم في نفسه وقدم الإباء على الاستكبار، وإن كان الاستكبار هو الأول، لأنه من أفعال القلوب وهو التعظيم، وينشأ عنه الإباء من السجود اعتبارا بما ظهر عنه أولا، وهو الامتناع من السجود، ولأن المأمور به هو السجود، فلما استثنى إبليس كان محكوما عليه بأنه ترك السجود، أو بأنه مسكوت عنه غير محكوم عليه، والمقصود: الإخبار عنه بأنه خالف حاله حال الملائكة، فناسب أن يبدأ أولا بتأكيد ما حكم به عليه في الاستثناء، أو بإنشاء الإخبار عنه بالمخالفة، والذي يؤدي هذا المعنى هو الإباء من السجود.

٢٣_ وقال السمين الحلبي ^(١) في تفسيره (الدر المصون): قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾، و﴿إِذْ﴾: ظرف زمان ماضٍ، يخلص المضارع للمضي وبني لشبهه بالحرف في الوضع والافتقار، وتليه الجمل مطلقاً، فإذا كانت الجملة فعلية قبح تقديم الاسم وتأخير الفعل نحو: إذ زيد قام، ولا يتصرف إلا بإضافة الزمن إليه نحو: يومئذ وحينئذ، ولا يكون مفعولاً به، وإن قال به أكثر العرب، فإنهم يقدرون: اذكر وقت كذا، ولا ظرف مكان ولا زائداً ولا حرفاً للتعليل ولا للمفاجأة خلافاً لزمعي ذلك، وقد تحذف الجملة المضاف هو إليها للعلم ويعوض منها تنوين كقولهِ تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِينِذٍ تُنْظَرُونَ﴾ ^(٢)، وليس كسرتة والحالة هذه كسرة إعراب ولا تنوينه تنوين صرف خلافاً للأخفش، بل الكسر لالتقاء الساكنين والتنوين للعوض بدليل وجود الكسر ولا إضافة قال الشاعر:

نَهَيْتُكَ عَنْ طِلَابِكَ أَمْ عَمْرٍو ... بِعَاقِبَةٍ وَأَنْتَ إِذْ صَحِيحٌ

قوله ﷻ: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾: جملة فعلية في محل خفض بإضافة الظرف إليها.

واعلم أن: ﴿إِذْ﴾: فيه تسعة أوجه، أولها: وأحسنها أنه منصوبٌ ب﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾، أي: قالوا ذلك القول وقت قول الله تعالى لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وهذا أسهل الأوجه.

الثاني: أنه منصوبٌ بـ (اذكُرْ) مقدراً، وقد تقدم أنه لا يتصرف فلا يقع مفعولاً الثالث: أنه منصوبٌ بـ (خَلَقَكُمْ) المتقدم في قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، والواو زائدة،

(١) السمين الحلبي: هو أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، انظر: كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦): ص: ٢٧٤، نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار، لحامد حسين اللكهنوي ج ٨: ص: ٥٧، غاية النهاية، لمحمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري، الجزء الأول: ص ١٥٧، نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار، لحامد حسين اللكهنوي ج ٨: ص: ٥٧.
(٢) الآية: رقم ٨٤ من سورة الواقعة.

وهذا ليس بشيء لطول الفصل.

الرابع: أنه منصوبٌ بـ ﴿قَالَ﴾ بعده، وهو فاسدٌ لأن المضاف إليه لا يعمل في المضاف.

الخامس: أنه زائدٌ ويُعزى هذا القول لأبي عبيد.

السادس: أنه بمعنى: قد.

السابع: أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: ابتداء خلقكم وقت قول ربك.

الثامن: أنه منصوبٌ بفعلٍ لائق، تقديره: ابتداء خلقكم وقت قوله ذلك، وهذان ضعيفان لأن وقت ابتداء الخلق ليس وقت القول، وأيضاً فإنه لا يتصرف.

التاسع: أنه منصوبٌ بـ ﴿أَخْيَاكُمْ﴾ مقدراً، وهذا مردودٌ باختلاف الوقتين أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿الْمَلَكُوتُ﴾، متعلقٌ بـ ﴿قَالَ﴾، واللامُ للتبليغ.

وملائكةُ جمع ملك.

قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، هذه الجملة هي: معمول القول، فهي في محل نصب به، وكُسرت (إن) هنا لوقوعها بعد القول المجرد من معنى الظن محكيةً به، فإن كان بمعنى الظن جرى فيها وجهان: الفتح والكسر، وأنشدوا:

إذا قلتُ أني آيبُ أهلَ بلدةٍ... نَزَعْتُ بها عنه الوليَّةَ بالهجر

وكان ينبغي أن يُفتح ليسَ إلا نظراً لمعنى الظن، لكن قد يقال: جاز الكسر مراعاةً لصورة القول.

و(إنَّ) على ثلاثة أقسام: قسم يجب فيه كسرُها، وقسم يجب فيه فتحُها وقسم يجوز فيه وجهان، وليس هذا موضع تقريره، بل يأتي في غضون السور، ولكن الضابط الكلي في ذلك أن كل موضع سد مسدها المصدر وجب فيه فتحُها نحو: بلغني أنك قائم، وكل

موضع لم يسد مسدها وجب فيه كسرها كوقوعها بعد القول ومبتدأه وصلة وحالا، وكل موضع جاز أن يسد مسدها جاز الوجهان كوقوعها بعد فاء الجزاء، وإذا الفجائية وهذه أشد العبارات في هذا الضابط.

و﴿جَاعِلٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه بمعنى: خالق، فيكون ﴿خَلِيفَةً﴾، مفعولاً به. وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، فيه حيثنذ قولان: أحدهما: وهو الواضح أنه متعلقٌ بجاعلٍ، الثاني: أنه متعلقٌ بمحذوفٍ لأنه حالٌ من النكرة بعده.

القول الثاني: أنه بمعنى مُصَيِّرٍ، ولم يذكر الزخشي غيره، فيكون خليفة هو: (المفعول الأول)، و﴿فِي الْأَرْضِ﴾، هو: المفعول الثاني قُدِّم عليه، ويتعلقٌ بمحذوفٍ على ما تقرر.

وقوله تعالى: ﴿خَلِيفَةً﴾، يجوز أن: يكون بمعنى فاعل أي: يَخْلُفُكُمْ أو يَخْلُفَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْجَنِّ، وهذا أصحُّ لدخولِ تاءِ التأنيثِ عليه وقيل: بمعنى مفعول أي: يَخْلُفُ كُلُّ جِيلٍ مَنْ تَقَدَّمَهُ، وليس دخولُ التاءِ حيثنذٍ قياساً.

و﴿خَلِيفَةً﴾، منصوبٌ بـ﴿جَاعِلٌ﴾ كما تقدم، لأنه اسم فاعل، واسم الفاعل يعمل عمل فعله مطلقاً إن كان فيه الألف واللام، وبشرط الحال أو الاستقبال والاعتماد إذا لم يكونا فيه، ويجوز إضافته لمعموله تخفيفاً ما لم يفصل بينهما كهذه الآية.

وقال ﷺ: قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، قد تقدّم أن: ﴿قَالُوا﴾ عامل في: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ وأنه المختار، والهمزة في: ﴿أَتَجْعَلُ﴾ للاستفهام على بابها، وقال الزخشي: للتعجب، وقيل: للتقرير، والدماء: جمع دم، ولا يكونُ اسْمُ معرَّبٍ على حرفين، فلا بدَّ له من ثالث محذوفٍ هو لامه، ويجوزُ أن تكونَ واواً وأن تكونَ ياءً، لقولهم في الثنية: دَمَوَانِ ودَمِيَانِ، قال الشاعر:

فَلَوْ أَنَا عَلَى حَجَرٍ ذُبَحْنَا... جَرَى الدَّمِيَانِ بِالْخَبْرِ اليقين

يَسْفِكُ: بكسر الفاء، وُقرئ بضُمَّها، وُقرئ أيضاً بضُمَّ حرفِ المضارعةِ من أَسْفَكَ وُقرئ أيضاً مشدّداً للتكثير، والسَّفْكُ: هو الصَّبُّ، ولا يُستعمل إلا في الدم، وقال ابن فارس، والجوهري: يُستعمل أيضاً في الدمع، وقال المهدوي ولا يُستعمل السَّفْكُ إلا في الدِّمِّ، وقد يُستعمل في نثرِ الكلام، يقال: سَفَكَ الكلامَ، أي: نثره.

وأصلُ الدِّماء: الدِّماو أو الدِّماي، فقلب حرفُ العلةِ همزةً لوقوعه طَرَفاً بعد ألفٍ زائدةٍ نحو: كساء ورداء.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ سُبْحٌ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، الواو: للحال، و﴿وَنَحْنُ سُبْحٌ﴾: جملةٌ من مبتدأ وخبر، في محلِّ النصب على الحال، و﴿بِحَمْدِكَ﴾: متعلقٌ بمحذوفٍ، لأنه حالٌ أيضاً، والباءُ فيه للمصاحبة أي: نُسَبِّح ملتبسين بحمدك، نحو: جاء زيد بثيابه، فهما حالان متداخلتان، أي حالٌ في حال.

وقيل: الباءُ للسببية، فتعلّق بالتسبيح، قال ابن عطية: ويُحتمل أن يكونَ قولهم: بحمدِكَ: اعتراضاً بين الكلامين، كأنهم قالوا: ونحن نسبِّح ونقدِّس، ثم اعترضوا على جهةِ التسليم، أي: وأنتَ المحمودُ في الهدايةِ إلى ذلك، قلتُ: كأنه يحاول أن تكونَ الباءُ للسببية، ولكن يكونُ ما تعلّقَتْ به الباءُ فعلاً محذوفاً لا ثِقاً بالمعنى تقديره: حَصَلَ لنا التسبيحُ والتقدُّسُ بسببِ حمدك.

والحمدُ هنا: مصدرٌ مضافٌ لمفعوله، وفاعله محذوف تقديره: بحمدنا إياك.

وزعم بعضهم: أن الفاعلَ مضمَرٌ فيه، وهو غَلَطٌ؛ لأنَّ المصدرَ اسمَ جامدٍ لا يُضمَرُ فيه، على أنه قد حُكِيَ خلافٌ في المصدرِ الواقعِ موقعَ الفعلِ نحو: ضرباً زيداً، هل يَتَحَمَّلُ ضميراً أم لا؟ وقد تقدّم.

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ﴾، عطف على: ﴿سُبْحٌ﴾، فهو خبر أيضاً عن: ﴿وَنَحْنُ﴾، ومفعوله: محذوفٌ، أي: نقدِّسُ أنفسنا وأفعالنا لك.

والتسبيح: التنزيه والبراءة، وأصله من السبح وهو البعد، ومنه السابح في الماء، فمعنى (سبحان الله) أي: تنزيهاً له وبراءة عما لا يليق بجلاله، أي: تنزيهاً، وهو مختص بالباري تعالى.

والتقديس: التطهير، ومنه الأرض المقدسة، وبيت المقدس، وروح القدس، أي: المطهر لهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أصل إني: إنني فاجتمع ثلاثة أمثال، فحذفنا أحدها، وهل هو نون الوقاية أو النون الوسطى؟ قولان: الصحيح الثاني، والجملة في محل نصب بالقول، و﴿أَعْلَمُ﴾: يجوز فيه أن يكون فعلاً مضارعاً وهو الظاهر، و﴿مَا﴾: مفعول به، وهي: إمّا نكرة موصوفة أو موصولة، وعلى كل تقدير: فالعائد محذوف لاستكمال الشروط، أي: تعلمونه، و﴿مَا﴾: يجوز فيها أن تكون في محل جرٍّ بالإضافة، أو نصب بـ ﴿أَعْلَمُ﴾، وقيل: ﴿أَعْلَمُ﴾: على بابها من كونها للتفضيل، والمفضل عليه محذوف، أي: أعلم منكم، و﴿مَا﴾: منصوبة بفعل محذوف دلّ عليه أفعّل، أي: علمت ما لا تعلمون، ولا جائز أن يُنصب بـ (أفعّل التفضيل) لأنه أضعف من الصفة التي هي أضعف من اسم الفاعل الذي هو أضعف من الفعل في العمل.

وقال ﷻ: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ﴾، العامل في: ﴿إِذْ﴾ محذوف دل عليه قوله: ﴿فَسَجَدُوا﴾، تقديره: أطاعوا وانقادوا فسجدوا، لأن السجود ناشئ عن الانقياد.

وقيل: العامل: (اذكر)، مقدرة، وقيل: ﴿إِذْ﴾ زائدة، وقد تقدم ضعف هذين القولين، و﴿أَسْجُدُوا﴾: في محل نصب بالقول، واللام في: ﴿لَادَمَ﴾، الظاهر أنها متعلقة بـ ﴿أَسْجُدُوا﴾، ومعناها: التعليل، أي: لأجله، وقيل: بمعنى: إلى، أي: إلى جهته لأنه جعل قبله لهم، والسجود لله، وقيل: بمعنى: مع، لأنه كان إمامهم كذا نقل، وقيل: اللام للبيان فتعلق بمحذوف ولا حاجة إلى ذلك.

﴿فَسَجَدُوا﴾، الفاء للتعقيب، والتقدير: فسجدوا له، فحذف الجار للعلم به.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء، و﴿إِبْلِيسَ﴾، نصب على الاستثناء، وهل نصبه بـ ﴿إِلَّا﴾ وحدها، أو بالفعل وحده، أو به بوساطة ﴿إِلَّا﴾، أو بفعل محذوف، أو بـ (أن)؟ أقوال، وهل هو استثناء متصل أو منقطع؟ خلاف مشهور، والأصح أنه متصل.

وأما قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، فلا يرد هذا لأن الملائكة قد يسمون جناً لاجتنانهم، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا﴾^(١)، يعني: الملائكة.

وقال ﷺ: قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾، المفعول هنا واجب التقديم لأنه ضمير متصل، والفاعل ظاهر، وكل ما كان كذا فهذا حكمه، و﴿عَنْهَا﴾، متعلق بالفعل قبله، ومعنى: (عن) هنا السببية إن أعدنا الضمير على (الشجرة)، أي: أوقعها في الزلة بسبب الشجرة، ويجوز أن: تكون على بابها من المجاوزة إن عاد الضمير على (الجنة)، وهو الأظهر، لتقدم ذكرها، قوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، الفاء هنا واضحة السببية.

قوله: ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، متعلق بـ (أخرج)، و(ما)، يجوز أن تكون موصولة اسمية وأن تكون نكرة موصوفة، أي: من المكان أو النعيم الذي كانا فيه، أو من مكان أو نعيم كانا فيه، فالجملة من: كان واسمها وخبرها لا محل لها على الأول ومحلها الجر على الثاني، و(من): لا ابتداء الغاية.

وقوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾: جملة أمرية في محل نصب بالفعل قبلها، وقرئ: ﴿أَهْبِطُوا﴾: بضم الباء وهو كثير في غير المتعدي، وأما الماضي فهبط بالفتح فقط، وجاء في مضارعه اللغتان، والمصدر: الهبوط بالضم، وهو النزول، وقيل: الانتقال مطلقاً، وقال المفضل: الهبوط: الخروج من البلد، وهو أيضاً الدخول فيها فهو من الأضداد، والضمير في: ﴿أَهْبِطُوا﴾، الظاهر

(١) الآية: رقم ١٥٨ من سورة الصافات.

أنه لجماعة، فقيل: لآدم وحواء والجنة وإبليس، وقيل: لهما وللوسوسة، وفيه بُعد، وقيل: لبني آدم وبني إبليس، وهذا وإن نقل عن مجاهد والحسن لا ينبغي أن يقال، لأنه لم يولد لهما في الجنة بالاتفاق، وقال الزمخشري: إنه يعود لآدم وحواء، والمراد هما وذريتهما، لأنها لما كانا أصل الإنس ومنتشعهم جعلنا كأنهما الإنس كلهم.

وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، هذه جملة: من مبتدأ وخبر، وفيها قولان، أحدهما: أنها في محل نصب على الحال، أي: اهبطوا متعادين، والثاني: أنها: لا محل لها، لأنها استئناف إخبار بالعداوة.

واللام في: ﴿لِبَعْضٍ﴾، متعلقة ب: ﴿عَدُوٌّ﴾، ومقوية له، ويجوز أن تكون في الأصل صفة: لـ ﴿عَدُوٌّ﴾، فلما قدم عليه انتصب حالا، فتتعلق اللام حينئذ بمحذوف، وهذه الجملة الحالية لا حاجة إلى ادعاء حذف واو الحال منها، لأن الربط حصل بالضمير، وإن كان الأكثر في الجملة الاسمية الواقعة حالا أن تقترب بالواو.

قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، هذه الجملة: يجوز فيها الوجهان المتقدمان في الجملة قبلها من الحالية والاستئناف، كأنه قيل: اهبطوا متعادين ومستحقين الاستقرار، ﴿وَلَكُمْ﴾ خبر مقدم، ومتعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار، وتعلقه به على وجهين: أحدهما: أنه حال، والثاني: أنه غير حال بل كسائر الظروف، ويجوز أن يكون: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، هو الخبر، و﴿وَلَكُمْ﴾: متعلق بما تعلق به هو من الاستقرار، لكن على أنه غير حال، لئلا يلزم تقديم الحال على عاملها المعنوي، على أن بعض النحويين أجاز ذلك إذا كانت الحال نفسها ظرفاً أو حرف جر كهذه الآية، فيكون في ﴿وَلَكُمْ﴾ أيضاً الوجهان، قال بعضهم: ولا يجوز أن يكون: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، متعلقاً بمستقر سواء جعل مكاناً أو مصدراً، أما كونه مكاناً فلا أن أساء الأمكنة لا تعمل، وأما كونه مصدراً فإن المصدر الموصول لا يجوز تقديم معموله عليه، ولقائل أن يقول: هو متعلق به على أنه مصدر، لكنه غير مؤول بحرف مصدري بل بمنزلة المصدر.

قوله: ﴿إِلَّا حِينَ﴾، الظاهر أنه متعلق بمتاع، وأن المسألة من باب الإعمال لأن كل واحد من قوله: ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ﴾، يطلب قوله: ﴿إِلَّا حِينَ﴾، من جهة المعنى.

٢٤_ وقال ابن كثير رحمه الله ^(١) في تفسيره: (تفسير القرآن العظيم): قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم، بتنويه بذكرهم في الملاء الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: أي: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، واقصص على قومك ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾، أي: قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، وقرئ في الشاذ: (إني جاعل في الأرض خليفة)، حكاه الزمخشري وغيره ونقلها القرطبي عن زيد بن علي، وليس المراد هاهنا بالخليفة آدم عليه السلام، فقط، كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبي إلى ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل، وفي ذلك نظر، بل الخلاف في ذلك كثير، حكاه فخر الدين الرازي في تفسيره وغيره، والظاهر أنه لم يرد آدم عليه السلام عينا إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، فإنهم إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم ويرد عنهم المحارم والمآثم، قاله القرطبي، أو أنهم قاسوهم على من سبق، كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم،

(١) ابن كثير: هو أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، انظر: ذكره الحفاظ للذهبي ٤/ ١٥٠٨، وذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ٥٧_٥٩، المعجم المختص للذهبي ٧٤_٧٥، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٢٣٨.

كما قد يتوهمه بعض المفسرين وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك، ف﴿وَنَحْنُ سُيِّحٌ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نصلي لك كما سيأتي، أي: ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاختصار علينا؟

فقال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم الصديقون والشهداء، والصالحون والعباد، والزهاد والأولياء، والأبرار والمقربون، والعلماء العاملين والخاشعون، والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله، صلوات الله وسلامه عليهم، وقيل: معنى قوله جواباً لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أن لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها، وقيل: إنه جواب لقولهم: ﴿وَنَحْنُ سُيِّحٌ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به، وقيل: بل تضمن قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ سُيِّحٌ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال إني أعلم ما لا تعلمون طلباً منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم، فقال الله تعالى لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم.

فصل في ماهية الملائكة:

اختلفوا في ماهية الملائكة، وحقيقتهم، والضابط فيه أن يقال: إن الملائكة ذوات قائمة بنفسها، وهي إما متحيّزة، أو ليست بمتحيّزة، فإن كانت متحيّزة فها هنا أقوال: أحدها: أنها أجسام لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة مسكنها السماوات، وهذا قول أكثر المسلمين.

الثاني: قول طوائف من عبدة الأوثان: أن الملائكة هي هذه الكواكب الموصوفة بالإسعاد، والإنحاسن فالمُسعِدَات منها ملائكة الرَّحمة، والمنحسات منها ملائكة العذاب.

الثالث: قول معظم المجوس، والثنوية: وهو أن هذا العالم مركّب من أصلين أزليين، وهما النور والظلمة، وهما في الحقيقة جوهران شفافان مختاران قادران، متضادا النفس والصورة، مختلفا الفعل والتدبير، فجوهر النور فاضل خير، نقيّ طيّب الريح، كريم النفس يسر ولا يضر، وينفع ولا يمنع، ويحيي ولا يبلي، وجوهر الظلمة على ضد ذلك.

القول الثاني: وهو أنها ذوات قائمة بأنفسها، وليست بمتحيّزة، ولا بأجسام.

فها هنا قولان:

الأول: قول طوائف من النصارى، وهو أن الملائكة في الحقيقة هي الأنفس الناطقة المفارقة لأبدانها على نعت الصفاء والخيرية، وذلك لأن هذه النفوس المفارقة إن كانت صافية خالصة فهي الملائكة، وإن كانت خبيثة كدرة فهي الشياطين.

والثاني: قول الفلاسفة وهي أنها جواهر قائمة بأنفسها وليست بمتحيّزة ألبتة، وأنها بالماهية مخالفة لأنواع النفوس الناطقة البشرية، وأنها أكمل قوة منها، وأكثر علماً منها، وأنها للنفوس البشرية جارية جرى الشمس بالنسبة إلى الأضواء، ثم إن هذه الجواهر على قسمين: منها ما هي بالنسبة إلى أجرام الأفلاك والكواكب كنفسنا الناطقة بالنسبة إلى

أبداننا، ومنها ما هي لا هي عَلَى شَيْءٍ من تدبير الأفلاك، بل هي مستغرقة في معرفة الله ومحبه ومشتغلة بطاعته، وهذا القسم هُم الملائكة المُقَرَّبُونَ، ونسبتهم إلى الملائكة الَّذِينَ يدبرون السَّماوات، كنسبة أولئك المدبرين إلى نفوسنا النَّاطقة، فهذان القسمان قد اتفقت الفلاسفة على إثباتهما، ومنهم من أثبت أنواعاً أُخَرَ من الملائكة، وهي الملائكة الأرضية المدبِّرة لأحوال هذا العالم السفلي، ثم إن المدبرات لهذا العالم إن كانت خيرة فهم الملائكة، وإن كانت شريرة فهم الشياطين.

فصل في شرح كثرتهم:

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَتَطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعَ قَدَمٍ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ رَاكِعٌ)^(١).

فصل فيمن قيل له من الملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾.

اختلفوا في الملائكة الَّذِينَ قال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ هل هم كل الملائكة، أو بعضهم؟ فروى الضَّحَّاك عن ابن عباس أنه سبحانه: إنما قال هذا القول للملائكة الَّذِينَ كانوا مُحَارِبِينَ مع إبليس، لأن الله تعالى لما أسكن الجنَّ الأرض، فأفسدوا فيها، وسفكوا الدِّماء، وقتل بعضهم بعضاً، فبعث الله إبليس في جُنْدٍ من الملائكة، فقتلهم إبليس بعسكره حتى أخرجوهم من الأرض؛ وأَلْحَقُوهُمْ بِجَزَائِرِ الْبَحْرِ، وشعوب الجبال، وَسَكَنُوا الْأَرْضَ، وخَفَّفَ الله عنهم العبادة، وأعطى إبليس ملك الأرض، وملك سماء الدنيا، وخزانة الجنة، فكان يعبد الله تارة في الأرض، وتارة في السماء، وتارة في السَّما، وتارة في الجنة، فأخذ العجب وقال في نفسه: ما أعطاني الله هذا المُلْكَ إِلَّا لَأَنِي أكرم الملائكة عليه فقال تعالى لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وقال: أكثر الصحابة والتابعين إنه قال ذلك لجماعة الملائكة من غير تخصيص، لأن لفظ الملائكة يفيد العموم، فإن قيل: ما الفائدة

(١) الحديث: أخرجه الترمذي، باب في قول النبي ﷺ: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، (٤/ ٥٥٦)، رقم: (٢٣١٢)، وصححه الألباني في السلسلة، رقم: (١٧٢٢).

في أن الله قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، مع أنه منزّه عن الحاجة إلى المشورة؟، فالجواب من وجهين:

الأول: أنه تعالى علم أنهم إذا اطلعوا على ذلك السر أوردوا عليه ذلك السؤال، فكانت المصلحة تقتضي إحاطتهم بذلك الجواب، فعرفهم هذه الواقعة لكي يوردوا ذلك السؤال، ويسمعوا ذلك الجواب.

والثاني: أنه تعالى علم عباده المشورة.

فصل في بيان علام الجواب في الآية:

اختلف علماء التأويل في هذا الجواب وهو قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فقيل: إنه جواب لتعجبهم، كأنه قال لهم: لا تتعجبوا من أن فيهم من يفسد، ويقتل، فإني أعلم مع هذا أن فيهم صالحين، ومتقين، وأنتم لا تعلمون، وقيل: إنه جواب لغمهم كأنه قال لهم: لا تغتموا بسبب وجود المفسدين، فإني أعلم أيضاً أن فيهم جمعاً من المتقين، ومن لو أقسم علي لأبره، وقيل: إنه طلب الحكمة كأنه قال لهم: إن مصلحتكم أن تعرفوا وجه الحكمة فيه على الإجمال دون التفصيل، بل ربما كان ذلك التفصيل مفسدة لكم.

اعلم أن الملائكة لما سألوا عن وجه الحكمة، فأجابهم على سبيل الإجمال بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أراد الله تعالى أن يزيدهم بياناً، وأن يفصل لهم ذاك المجمال، فبين تعالى لهم من فضل آدم عليه الصلاة والسلام ما لم يكن معلوماً لهم، وذلك بأن علم آدم الأسماء.

وقال الإمام ابن كثير رحمته الله: هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه به من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفصل على ذاك، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة، حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم الله تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون، ولهذا ذكر تعالى هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم عليه السلام بما فضل به عليهم في العلم، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ

الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا ﴿١﴾، وقال السدي، عمن حدثه، عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا﴾، قال: عرض عليه أسماء ولده إنسانا إنسانا، والدواب، فقيل: هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس، وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا﴾، قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة، وسما، وأرض، وسهل، وبحر، وجمل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها.

٢٥_ وقال ابن عرفة رحمته الله ^(١) في تفسيره: (تفسير الإمام ابن عرفة): قوله وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴿١﴾: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٢﴾، هذه لنا فيها وجه مناسبة لما قبلها، وهو أنه لما قدم الامتنان عليهم بخلقهم وجعل الأرض لهم فراشا عقبه ببيان السبب فيهم وفي خلق أولهم وهو: آدم عليه السلام.

وذكر أبو حيان في إعراب ﴿إِذْ﴾ ثمانية أقوال: رابعها أنه: ظرف في موضع خبر المبتدأ تقديره: ابتداء خلقكم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾.

ورده ابن عرفة بأن: زمن الابتداء ليس هو زمن هذه المقالة بل بعدها قال: فيكون الصواب أن تقديره سبب ابتداء خلقكم.

قال: والأصح أن العامل فيها: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ﴾، قال ابن عرفة: يرد عليه أن قولهم ذلك إنما كان جوابا عن قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فليس مقارنا له بل هو بعده بلا شك إلا أن يقال: إن ما قارب الشيء له حكمه، وهذا مع قطع النظر عن الكلام القديم الأزلي لأنه يستحيل عليه الزمان ويستحيل نسبة التقدم والتأخر إليه.

(١) ابن عرفة: هو محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله (المتوفى: ٨٠٣هـ)، انظر: المعيار المغرب (٣٣/١)، مواهب الجليل (١٦/١)، توشيح الديباج (ص: ٢٣٩)، نيل الابتهاج (١٢٨/٢)، كفاية المحتاج (١٠٠/٢)، شجرة النور (ص: ٢٢٧)، العمر (ص: ٧٦٢)، هدية العارفين (١٧٧/٢).

قوله تعالى: ﴿خَلِيفَةً﴾، قال الحسن: سماه خليفة لأن كل قرن وجيل يخلفه الجيل الذي قبله والأول مخلوف وما بعده خالف، وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معناه خليفة في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري، يعنى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن قام مقامه من ذريته.

قال ابن عرفة: إنما يتناول هذا الأنبياء فقط لأنهم هم الذين يتلقون الذكر مع الملائكة وغيرهم لا يرى الملائكة بوجه.

وقال رحمه الله: قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، فسر ابن عطية بوجوه: قال ابن عرفة: أظهرها أن: الملائكة طلبوا أن يكون الخليفة منهم، فأثنوا على أنفسهم وذموا غيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، قيل لابن عرفة: أخذ بعضهم من هذه الآية أنه يجوز للإنسان أن يتحدث بما هو يفعل من أفعال الخير والطاعة، كما قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾^(١)، فقال ابن عرفة: ليس في هذه الآية دليل لأن الله تعالى عالم بكل شيء، فما أخبروه إلا بما هو عالم به، أو تقول إنما معنى الآية أتجعل فيها من يفسد فيها ونحن إذ ذاك ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ﴾، ولا يمنعنا إفساده من ذلك، لأن الملائكة معصومون، فيكون استفهاما عن بقاء تسبيحهم معه، واختلفوا في كيفية عصمة الملائكة فقيل: إنهم لا يستطيعون فعل الشر بوجه، وهو قول من فضّلهم على جميع بني آدم، وقيل: إنهم متمكنون من فعل الشر، وعصموا منه وهو الصحيح.

قيل لابن عرفة: الجواب ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، غير مطابق للسؤال لهذا التفسير، فقال: هم سألوا عن جزأين وهما: هل يكون الخليفة مفسدا؟ وهل يكونون إذ ذاك هم يسبحون؟ فأجيبوا عن الجزء الأول فقط.

وقال ابن عرفة رحمه الله: فيه دليل على أفضلية العلم، وأنه أشرف الأشياء، لأن الله تعالى

(١) الآية: رقم ٥٥ من سورة يوسف.

جعل السبب في استحقاقه للخلافة كونه عالما مع وجود أن الملائكة شُرفوا بالقوة العملية وهي التسبيح والتقديس، ولكن القوة العملية لا تنفع إلا (بالعلم) وآدم عليه السلام أعلم منهم، وقال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾^(١)، فهو يتناول المخلوقات كلها إذ لا ينبغي الكمال إلا لله فهو المختص بالعلوم، وليس فوقه شيء.

وجعل بعضهم عمومها مخصوصا، (خوف) التسلسل.

والصواب أنها باقية على عمومها، والفوقية أمر اعتباري، فإذا نسبت بعض الطلبة إلى بعض تجد أحدهم أعلم بالفقه، وآخر أعلم منه بالنحو، وآخر بأصول الدين، فيصدق أن فوق كل ذي علم عليم (بالإطلاق)

وقال ﷺ: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَكَادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، قال ابن عرفة: إذا قَدَّمَ النداء على الأمر فيكون المراد تنبيه المخاطب واستحضار ذهنه لما يلقي إليه، وإن قدم الأمر على النداء كان ذلك دليلا على تأكيد طلبه وأنه هو (الاسم) (المقصود) كما ورد في الحديث الصحيح في غزوة بدر لما برز من صف المشركين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وطلبوا أن يكون المباشر (لهم) بالقتال مثلهم من بني عمهم فقال النبي ﷺ: (قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة بن الحارث)^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾، فإن قلت: هلا قيل: فأنبأهم بأسمائهم، فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾، قلت: الجواب ما قال بعضهم: من أن حكمته الإشعار بترتيب المجازات على الفعل، فيؤخذ منه جواز الثناء على الإنسان بما فيه من المحاسن، لكن في غيبته لثلا يقع في نفسه كبر وعجب، وإن كان الإنسان هنا سالما من ذلك.

قال الطيبي: ويؤخذ من الآية أن علم اللغة والحكمة أفضل من علم العبادة فضلا عن

(١) الآية: رقم ٧٦ من سورة يوسف.

(٢) الحديث: رواه الإمام أبو داود في سننه في كتاب الجهاد برقم ٢٦٦٥.

علم الشريعة/ لأن آدم عليه السلام فضل على الملائكة لاختصاصه بعلم الأسماء وهذا راجع إلى حفظ اللغة وهم لم يحتجوا إلا بكمال التسييح والتقديس.

فقال ابن عرفة: إنما يؤخذ منه أن علم اللغة له فضل وشرف لا أنه أفضل من العبادة. وقال ابن عطية: قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، نبوءة لآدم عليه السلام إذ أمره الله أن ينبئ الملائكة بما ليس عندهم من علم الله تعالى.

وكذا قال ابن الخطيب: إنه احتج بها من قال: إن آدم عليه السلام رسول، ورُدَّ هذا بوجوه: الأول: قال الفخر الرازي: الأنبياء معصومون وهو قد أهبط بعد ذلك من الجنة لأكله من الشجرة فلا يصح كونه رسولا.

الثاني: قال ابن عرفة: الرسول مأمور بتبليغ التكليف لأمته، والملائكة ليسوا مكلفين بإجماع، وأيضا فالتبليغ إنما هو مع الغيبة والله تعالى خاطب الملائكة خطاب مشافهة فلا فائدة في الإرسال إليهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، قال ابن عرفة: كان الشيخ ابن عبد السلام رحمه الله تعالى يقول في هذه الآية الكريمة: إنه لم يتقدم في الآية التي قبلها أنه قال لهم هذا لأن المتقدم إنما هو: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿فَعَلِمُونَ﴾، قال الشيخ ابن عبد السلام: ينبغي عندي أن يوقف عند قوله ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾، أي: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾، ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثم يبتدىء: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قلت: والظاهر عندي أن الوقف عند قوله: ﴿غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، لأن ﴿غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، لا يعلمونه هم فكأنه قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ويبتدىء: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، لأن هذا لا يتسلط عليه القول إذ لم يقله لهم.

وقال الإمام ابن عرفة رحمه الله: قوله تعالى: ﴿فَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾، معطوف: على قلنا، والفاء للتعقيب، أي: (يعقب) إن قلنا له ذلك تلقى فهي إشارة إلى سرعة إلهام الله تعالى له المبادرة بالتوبة.

قال ابن عطية: تلقاها إما بإقباله عليها أو إلهامه إليها.

قال ابن عرفة: والإلهام إما: حضور ذلك بباله من غير تكلف نظر، أو: علمه بها بعد تكلف النظر، قال:

والنفعل يقتضي إمّا: تكلف الفعل بمشقة، وإما: للتناهي إلى أعلى درجاته وهو هنا يحتمل الأمرين وتقدم المجرور للتشريف، وقرأ ابن كثير: آدم عليه السلام بالنصب (وَكَلِمَاتٍ) بالرفع.

قال ابن عرفة: قراءة الجماعة بالرفع ظاهرة لأنه هو فاعل التلقي، (فكلفه) التلقي والقصد إليه و (إمعان) النظر (فيه ظاهر)، وأمّا قراءة ابن كثير: فتقتضي أن آدم عليه السلام أتاه التلقي هجماً من غير نظر، فيمكن (فهمه) على أنه أتته أوائل درجات النظر بالبديهة لأن المعقولات فرع المحسوسات، فأول درجات النظر مدرك معلوم بالبديهة لا يفتقر إلى تقدم شيء قبله (لثلاً) يلزم عليه التسلسل، وتنكير ﴿كَلِمَتَيْنِ﴾، للتشريف والتعظيم كما قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيْلٍ عَشْرٍ وقال: نكرت لأنها معينات معلومات فرد عليه بمنافاة التنكير للتعين، وأجيب بأنها لشرفها وعظمتها صارت معلومات في الذهن فلم تحتج إلى تعريف وكذلك هنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَأْبُ الرَّحِيمُ﴾، تنبيه على أن توبته (لا تخص آدم) بل توبته ورحمته عامة.

٢٦_ وقال الإمام النيسابوري رحمه الله ^(١) في تفسيره: (غرائب القرآن ورغائب الفرقان):

القراءات في الآية:

قوله تعالى: ﴿خَلِيفَةً﴾، وأشباهاها بالإمالة عند الوقف: قرأ ذلك أبو عمرو وحمزة وعلي والأعشى والبرجمي إلا أن يكون قبلها من الحروف الموانع السبع وهي: الصاد والضاد والطاء والظاء والغين والحاء والقاف نحو: خاصة، وفريضة، وحطة، وغلظة، وصبغة، وصاخة، وشقة.

وأما العين والحاء والراء فعلى الاختلاف عند أهل المدينة، فأشدهم إمالة حمزة وعلي، فأما أبو عمرو والأعشى والبرجمي فإنهم يميلون بين الفتح والكسر وإلى الفتح أقرب إني أعلمُ بفتح الياء: ابن كثير وأبو جعفر ونافع وأبو عمرو.

الوقوف في الآية:

قوله تعالى: ﴿خَلِيفَةً﴾، بناء على أن عامل ﴿إِذْ﴾ محذوف أي اذكر، ومن جعل ﴿قَالُوا﴾: عامل ﴿إِذْ﴾ وصل.

قوله تعالى: ﴿الْدِّمَاءُ﴾، لأن انتهاء الاستفهام على قوله تعالى: ﴿وَيَسْفِكَ الدِّمَاءَ﴾. يقتضي الفصل، واحتمال الواو لمعنى الحال في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ يقتضي الوصل ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ﴿مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾.

التفسير في الآية:

هذا ابتداء الإخبار عن كيفية خلق آدم عليه السلام وعن كيفية تعظيمه إياه، فينخرط في سلك ما تقدمه من النعم، فإن النعمة على الآباء نعمة على الأبناء، و﴿إِذْ﴾ هاهنا: مجرد لمعنى

(١) الإمام النيسابوري: هو نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى: ٨٥٠هـ)، انظر: لأعلام (٢/٢١٦)، بغية الوعاة (١/٥٢٥/رقم ١٠٨٨)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/١٠٦٢) و(٢/١١٩٦)، معجم المؤلفين (٣/٢٩١)، معجم المطبوعات العربية والمعرية (٢/١٥٢٧).

الظرفية أي أذكر وقت قول ربك كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ﴾^(١)، أي: وقت إنذاره على أنه بدل من أخا عاد لأن الذكر في ذلك الوقت ممتنع، والخطاب للنبي ﷺ أو لكل واحد من بني آدم، ويجوز أن ينتصب بـ ﴿قَالُوا﴾ فيكون للمجازاة.

وقوله تعالى: ﴿جَاعِلٌ﴾: من جعل الذي له مفعولان، معناه مصير في الأرض خليفة، وإنما لم يقل إني خالق كما قال سبحانه: ﴿إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾^(٢)، لأنه باعتبار الخلافة من عالم الأمر لا من عالم الخلق.

والظاهر أن ﴿الْأَرْضِ﴾ يراد بها ما بين الخافقين، وقد يروى عن النبي ﷺ أن ﴿الْأَرْضِ﴾ هاهنا: هي أرض مكة التي دحيت الأرض من تحتها.

ـ و(الخليفة): من يخلف غيره ويقوم مقامه، والخليفة: اسم يصلح للواحد والجمع والمذكر والمؤنث، وجمعه خلائف مثل: كريمة وكرائم، وجاء خلفاء لأنهم جمعوه على إسقاط الهاء مثل: ظريف وظرفاء، والمراد به: آدم ﷺ إما لأنه صار خليفة لأولئك الجن الذين تقدموه، ويروى ذلك عن ابن عباس، وإما لأنه يخلف الله في الحكم بين خلقه كقوله تعالى: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾^(٣)، وهو المروي عن ابن مسعود والسدي.

وعن الحسن أن المراد بالخليفة: أبناء آدم لأنه يخلف بعضهم بعضا ويؤيده قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٤).

والفائدة في إخبار الملائكة بذلك، إما تعليم العباد المشاورة في أمورهم، وإن كان هو بحكمته البالغة غنيا عن ذلك، وإما ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيوا.

(١) الآية: رقم ٢١ من سورة الأحقاف.

(٢) الآية: رقم ٧١ من سورة ص.

(٣) الآية: رقم ٢٦ من سورة ص.

(٤) الآية: رقم ٣٩ من سورة فاطر.

واعلم أن الجمهور من علماء الدين على أن الملائكة كلهم معصومون عن جميع الذنوب لقوله تعالى:

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١)، فلا شيء من المأمورات بل ومن المنهيات، لأن المنهي مأمور بتركه، إلا ويدخل فيه بدليل صحة الاستثناء وأيضا لقوله ﷻ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾^(٢) لَا يَسْخَرُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ^(٣)، وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ أَثِيلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾^(٤)، إلى غير ذلك من الآيات.

وطعن فيهم بعض الحشوية (؟) بأنهم قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ﴾، والاعتراض على الله من أعظم الذنوب، وأيضا:

نسبوا بني آدم إلى القتل والفساد وهذا غيبة وهي من أعظم الكبائر، وأيضا: مدحوا أنفسهم بقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، وهو عجب، وأيضا قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، اعتذار والعذر دليل الذنب.

وأيضا قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، دل على أنهم كانوا كاذبين فيما قالوه، وأيضا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ أَنْعَلُمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يدل على أنهم كانوا مرتابين في أنه تعالى عالم بكل المعلومات، وأيضا: علمهم بالإفساد وسفك الدماء إما: بالوحي وهو بعيد وإلا لم يكن لإعادة الكلام فائدة،

وإما: بالاستنباط والظن وهو منهي، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(٥)، وأيضا: قصة هاروت وماروت وأن إبليس كان من الملائكة المقربين ثم عصى الله وكفر. والجواب: عن اعتراضهم على الله أن غرضهم من ذلك السؤال لم يكن هو الإنكار

(١) الآية: رقم ٥٠ من سورة النحل.

(٢) الآيتان: رقم ٢٦_٢٧ من سورة الأنبياء.

(٣) الآية: رقم ٢٠ من سورة الأنبياء.

(٤) الآية: رقم ٣٦ من سورة الإسراء.

ولا تنبيه الله على شيء لا يعلمه فإن هذا الاعتقاد كفر، وإنما المقصود من ذلك أمور منها: أن الإنسان إذا كان قاطعا بحكمة غيره ثم رآه يفعل فعلا لا يهتدي ذلك الإنسان إلى وجه الحكمة فيه، استفهم عن ذلك متعجبا.

فكانهم قالوا: إعطاء هذه النعم العظام من يفسد ويسفك لا تفعله إلا لوجه دقيق وسر غامض فما أبلغ حكمتك، ومنها أن إبداء الإشكال طلبا للجواب غير محذور، فكأنه قيل: إلهنا أنت الحكيم الذي لا يفعل السفه البتة، وتمكين السفه من السفه قبيح من الحكيم، فكيف يمكن الجمع بين الأمرين؟ وهذا جواب المعتزلة، واستدلوا به على أن الملائكة لم يجوزوا صدور القبيح من الله تعالى فكانوا على مذهب أهل العدل فقالوا: ومما يؤكد ذلك أنهم أضافوا الفساد وسفك الدماء إلى المخلوقين لا إلى الخالق، وأيضا قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾.

— والتسبيح: تنزيه ذاته عن صفة الأجسام، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، والتقديس: تنزيه أفعاله عن صفة الذم ونعت السفه، ومنها أن الخيرات في هذا العالم غالبية على شرورها، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير، فالملائكة نظروا إلى الشرور فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: من الخيرات الكثيرة التي لا يتركها الحكيم لأجل الشر القليل وهذا جواب الحكيم، ومنها: أن سؤالهم: كان على وجه المبالغة في إعظام الله تعالى، فإن العبد المخلص لشدة حبه لمولاه يكره أن يكون له عبد يعصيه.

وقال ﷺ: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، لما خصص الله تعالى أبانا آدم ﷺ بالخلافة ثم علمه من العلوم ما ظهر بذلك مزيته على جميع الملائكة، اقتضت حكمته البالغة أن جعله مسجودا لهم وهذا مقتضى النسق هاهنا ظاهر إلا أن قوله تعالى في موضع آخر: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، يقتضي أن: يكون الأمر بالسجود قبل تسوية خلقه، وأنه كما صار حيا صار مسجودا لهم، وتعليم الأسماء ومناظرته مع الملائكة في ذلك حصل بعد سجودهم، والله أعلم بذلك، ثم إن المسلمين أجمعوا على أن

ذلك السجود لم يكن للعبادة لأنه تعالى لا يأمر بالكفر والعبادة لغيره كفر، فزعم بعض منهم: أن السجود كان لله تعالى، وآدم كالقبرة، وهو ضعيف لأن المقصود من هذه القصة شرح تعظيم آدم، وجعله مجرد القبرة لا يفيد كونه أعظم حالا من الساجد.

وقال ﷺ: أن قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ﴾، مسألة منهم أن يجعل الأرض أو بعضها لهم إن كان ذلك صلاحا نحو قول موسى عليه السلام: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾^(١)، أي: لا تهلك، فقال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من صلاحكم وصلاح هؤلاء، فيبين أن الاختيار لهم السماء ول هؤلاء الأرض، ليرضى كل فريق بما أختار الله له، ومنها: أن هذا الاستفهام: خارج مخرج الإيجاب كقول جرير: أستم خير من ركب المطايا؟

أي: أنتم كذلك وإلا لم يكن مدحا، فكأنهم قالوا: إنك تفعل ذلك ونحن مع هذا نسبح بحمدك لأننا نعلم في الجملة أنك لا تفعل إلا الصواب والحكمة فقال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فأنتم علمتم ظاهرهم وهو الفساد والقتل، وأنا أعلم ظاهرهم وما في باطنهم من الأسرار الخفية التي تقتضي إيجادهم، وفيه أن استحقاق تلك الخلافة ليس بكثرة الطاعة ولكنه بسابق العناية، وأنه تعالى غني عن طاعة المطيعين كما أنه لا تضره معصية المذنبين.

والجواب عن الغيبة أن: من أراد إيراد السؤال وجب أن يتعرض لمحل الإشكال، فلذلك ذكروا الفساد والسفك لا للغيبة، وعن العجب أن: مدح النفس غير ممنوع منه مطلقا، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(٢)، فكأنهم قالوا: ما سألناك للقدح في حكمتك يا رب فإننا نعترف لك بالإلهية والحكمة، بل لطلب وجه الحكمة، وعن الاعتذار إنه: لم يكن للذنب بل لأن ترك السؤال كان أولى.

(١) الآية: رقم ١٥٥ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ١١ من سورة الضحى.

وقال الثعالبي رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم الغيب، ولا تسبق القول، وذلك عام في جميع الملائكة، لأن قوله تعالى: (لا يسبقونه بالقول)، خرج على جهة المدح لهم، قال القاضي ابن الطيب: فهذه قرينة العموم، فلا يصح مع هذين الشرطين إلا أن يكون عندهم من إفساد الخليفة نبأ ومقدمة، والعقيدة أن الملائكة معصومون، فلا يقع منهم ما يوجب نقصاناً من رتبته، وشريف منزلتهم صلوات الله وسلامه على جميعهم.

٢٧_ وقال الإمام الثعالبي رحمه الله ^(١) في تفسيره: (الجواهر الحسان): قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿إِذْ﴾: ليست بزائدة عند الجمهور، وإنما هي معلقة بفعل مقدر، تقديره: واذكر إذ قال، وإضافة (رب) إلى محمد ﷺ، ومخاطبته بالكاف، تشريف منه سبحانه لنبيه، وإظهار اختصاصه به، و (الملائكة): واحداً ملك، والهاء في (ملائكة) لتأنيث الجموع غير حقيقي، وقيل: هي للمبالغة كعلامة ونسابة، والأول أبين.

وقال رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَكَاذِبُ أَتَيْنَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ﴾، ﴿أَتَيْنَهُمْ﴾: معناه: أخبرهم، والضمير في: ﴿أَتَيْنَهُمْ﴾ عائد على الملائكة بإجماع، والضمير في (أسمائهم) مختلف فيه حسب الاختلاف في الأسماء التي علمها آدم ﷺ، قال بعض العلماء: إن في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾ نبوءة لآدم ﷺ إذ أمره الله سبحانه أن ينبئ الملائكة بما ليس عندهم من علم الله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، معناه: ما غاب عنكم لأن الله تعالى لا يغيب عنه شيء، الكل معلوم له.

(١) الإمام الثعالبي: هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ)، انظر: شجرة النور الزكية (٢٤٤)، ونيل الابتهاج (٤٨٧).

واختلف في قوله تعالى: ﴿مَائِدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، فقالت طائفة: ذلك على معنى العموم في معرفة أسرارهم وظواهرهم وبواطنهم أجمع.

وقال عليه السلام: قوله تعالى: ﴿فَلَقَّحْءَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾، المعنى: فقال الكلمات، فتاب الله عليه عند ذلك، واختلف المتأولون في الكلمات، وقد طولوا بذكرها، ولم يخبرنا الله بها إلا مبهمه.

٢٨_ في تناسب وجاء في تفسير البقاعي عليه السلام ^(١) (نظم الدرر الآيات والسور): قوله عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿وَإِذْ﴾ فإن الواو: حرف يجمع ما بعده مع شيء قبله إفصاحاً في اللفظ أو إفهاماً في المعنى، وإنما يقع ذلك لمن يعلو خطابه ولا يرتاب في إبلاغه.

و﴿إِذْ﴾: اسم مبهم لما مضى من الأمر والوقت، ﴿قَالَ﴾: من القول وهو إبداء صور الكلم نظماً بمنزلة اتلاف الصور المحسوسة جمعاً، فالقول مشهود القلب بواسطة الأذن، كما أن المحسوس مشهود القلب بواسطة العين وغيره، ﴿رَبُّكَ﴾، أي: المحسن إليك برحمة العباد بك الذي خباك في إظهار خلق آدم، ﴿لِلْمَلَكَةِ﴾ قال: وفيه أي هذا الخطاب مع ذلك استخلاص لبواطن أهل الفطنة من أن تعلق بواطنهم بأحد من دونه حين أبدى لهم انفراده بإظهارهم خلقاً دون ملائكته الأكرمين، حتى لا تعلق قلوبهم بغيره من أهل الاصطفاء فكيف بمن يكون في محل البعد والإقصاء! توطئة لقيح ما يقع من بعضهم من اتباع خطوات الشيطان؛ وذلك لأن في كل آية معنى تتنظم به بما قبلها ومعنى تنهياً به للانتظام بما بعدها؛ وبذلك كان انتظام الآي داخلًا في معنى الإعجاز الذي لا يأتي الخلق بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

(١) الإمام البقاعي: هو إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، انظر: انظر: كتاب: برهان الدين البقاعي ومنهجه في تفسيره: (دلالة البرهان القويم على تناسب أي القرآن العظيم) للدكتور: عبد الله عبد الرحمن الخطيب فقد أورد ترجمة الإمام البقاعي بتوسع.

﴿إِنِّي﴾، إن: حرف يفهم توكيداً من ذات نفس المؤكد وعلمه، والياء: اسم عليّ يخص المضيف إلى نفسه الذي يضيف الأشياء إليه، ﴿جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ﴾، ولما كانت خلافة آدم عليه السلام كاملة في جميع الأرض بنفسه وبذريته وحد لذلك مع أنه يصح أن يراد به الجنس فقال سبحانه: ﴿خَلِيفَةً﴾، الخليفة: ذات قائم بما يقوم به المستخلف على حسب رتبة ذلك الخليفة منه، فهو خليفة الله في كونه مُلكه وملكوته، وهم أيضاً بعضهم خلفاء بعض، فهو خليفة بالمعنيين.

وجعل سبحانه هذا التذكير في سياق داع إلى عبادته وقائد إلى محبته حيث متّ إلى هذا النوع الآدمي بنعمه عليهم وإحسانه إليهم قبل إيجادهم، فذكر لهم ما حاجّ به ملائكته عنهم، وما شرف به أباهم آدم من العلم وأمر الملائكة المقرّين بالسجود له، ثم ما وقع لإبليس معه وهما عبدان من عبيده فتاب عليه ولم يتب على إبليس مع سبقه له بالعبادة بل أوجب طرده وأبد بعده، فقال تعالى: حكاية عن الملائكة جواباً لسؤال من كأنه قال ما قالوا حين أخبرهم سبحانه بذلك: ﴿قَالُوا﴾، طالين الإيقان على الحكمة في إيجاد من يقع منه شر.

وقال الإمام البقاعي رحمه الله: ﴿أَتَجَعَلُ فِيهَا﴾، أي: في الأرض، ﴿مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا﴾، أي: بأنواع المعاصي بالقوة الشهوانية، ﴿وَيَسْفِكُ﴾، من: السفك، قال الحرالي: وهو سكب بسطوة، ﴿الْدِّمَاءَ﴾، أي: بغير حقها بالقوة الغضبية، لعدم عصمتهم، وخلقهم جوفاً لا يتماكون، وأصحاب شهوات عليها يتهاكون؛ وكأنهم لما رأوا صورة آدم تفرسوا فيها ذلك لو سألوا عن منافع أعضائه وما أودع فيها من القوى والمعاني أخبرهم تعالى بما تفرسوا منه ذلك والدم، قال الحرالي: رزق البدن الأقرب إليه المحوطة فيه، ﴿وَنَحْنُ﴾، أي: والحال إنا نحن، وهذا الضمير كما قال الحرالي: اسم القائل المستتبع لمن هو في طوع أمره لا يخالفه، ﴿نُسِيحُ﴾، أي: نوقع التسييح أي التنزيه لك والإبعاد عما لا يليق بك ملتبسين في التسييح ﴿بِمَحْمَدِكَ﴾، والحاصل إنا نبرئك عن صفات النقص حال إثباتنا لك صفات الكمال، وحذف المفعول للتعميم؛ وقال الحرالي: التسييح:

تنزيه الحق تعالى عن بادية نقص في خلق أو رتبة، وحمد الله: استواء أمره علواً وسفلاً ومحو الذم عنه والنقص منه، وذلك تسبيح أيضاً في علو أمر الله، فما سبج بالحمد إلا أهل الحمد من آدم ومحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّم، فغاية المسبح الحمد، والحمد: تسبيح لمن غايته وراء ذلك الاستواء، ﴿وَنُقَدِّسُ﴾، أي: نطهر كل شيء نقدر عليه من نفوسنا وغيرها، ﴿لَكَ﴾، أي: لا لغيرك لعصمتنا بك، أو المعنى: نوقع التقديس أي: التطهير ﴿لَكَ﴾، بمعنى: أنك في الغاية من الطهارة والعلو في صفة.

قال الحرالي: القدس: طهارة دائمة لا يلحقها نجس ظاهر ولا رجس باطن، و(اللام) تعلقة للشيء لأجله كان ما أضيف به، ولما تضمن تفرسهم هذا نسبتهم أنفسهم إلى العلم المثمر للإحسان، ونسبة الخليفة إلى الجهل المنتج للإساءة أعلمنا سبحانه لشكره أنه حاج ملائكته عنا، فبين لهم أن الأمر على خلاف ما ظنوا بقوله استئنافاً: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ﴾، أي: من ذلك وغيره ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقال الحرالي: وأعلم تعالى بما أجرى عليه خلقه من القضاء بما ظهر، والحكم على الآتي بما مضى، حيث أنبأ عن ملائكته بأنهم قضوا على الخليفة في الأرض بحال من تقدمهم في الأرض من الجبلية الأولين من الجن الذين أبقي منهم عزازيل وغيرهم ليتحقق أن أمر الله جديد وأنه كل يوم هو في شأن لا يقضي على آتي وقت بحكم ما فيه ولا بما مضى قبله. والأظهر ما ذكرته أنهم إنما قالوا ذلك تفرساً بحكم ما ظهر لهم من صورته ونحو ذلك من إعلامهم بأنه يجمع فيه بين الشهوة والعقل، ومن المعلوم أن الشهوة حاملة على الفساد؛ وعلم سبحانه ما خفي عنه من أنه يوفق من أراد منهم للعمل بمقتضى العقل مع قيام منازع الشهوة والهوى، فيأتي غاية الكمال التي هي فوق درجة العامل بمقتضى العقل من غير منازع له فيظهر تمام القدرة والله أعلم.

وقال الإمام البقاعي رحمته الله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، أي: على عظمتنا ﴿إِلَهُكُمْ﴾، أي: الذين

أكرمناهم بقربنا ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، عبدنا اعترافاً بفضلته لتفضيلنا له.

قال الحرالي: فجعله باباً إليه وكعبة يجلّونه بجلاله تعالى ومحراباً وقبلة، يكون سجودهم له سجوداً لله تجاه آدم كسجود آدم تجاه الكعبة، وظهر بذلك سوء إباء إبليس عن السجود حين خالفهم في طينة الكيان، لأن الملائكة خلقت من نور والنور طوع لا يحوزه أين ولا يختصه جهة، ولأن الجان خلقت من نار وهي مما يحوزه أين وتختصه جهة لا يرجع عنها إلا بقهر وقسر، فلم ينزل عن رتبة قيامه في جبلته لمخلوق الطين حيث لم يشعر بإحاطة خلق آدم كما تلقته الملائكة.

فبادروا الامتثال ﴿فَسَجُدُوا﴾، أي: كلهم له كما امرهم الله تعالى، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، قال الحرالي: من الإبلّاس وهو انقطاع سبب الرجاء الذي يكون عنه اليأس من حيث قطع ذلك السبب.

فكانه قيل: ما فعل؟ فقيل: ﴿أَبَى﴾، من الإباء وهو امتناع عما حقه الإجابة فيه، قاله الحرالي، ﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾ عن السجود له، من الاستكبار وهو استجلاب الكبر، والكبر بطر الحق وغمض الناس وغمطهم، وموجب ذلك استحقار الغير من وجهه، واستكمال النفس من ذلك الوجه، قاله الحرالي.

وقال الإمام البقاعي رحمه الله: ولما تسبب عن جزاء آدم عليه السلام بالإهباط الذي هو كفارة له أنه أُلهم الدعاء بما رحم به، عبر عن ذلك بقوله: ﴿فَتَلَقَّى﴾، أي: فهبطوا فتلقى آدم عليه السلام بعد الهبوط، والتلقي ما يتقبله القلب باطناً وحيّاً، أو كالوحي أبطن من التلقن الذي يتلقنه لفظاً وعلماً ظاهراً أو كالظاهر قاله الحرالي.

قوله: ﴿مِنْ رَّبِّهِ﴾، أي: المحسن إليه في كل حال ﴿كَلِمَتٍ﴾، أي: ترضيه سبحانه بما أفهمه التعبير بالتلقي، وهي جمع كلمة؛ وهي دعاء دعا به ربه أو ثناء أثنى به عليه؛ وتطلق الكلمة أيضاً: على إمضاء أمر الله من غير تسبيب حكمة ولا ترتيب حكم قاله الحرالي.

ثم قال: في عطف الفاء في هذه الآية إشعار بما استند إليه التلقي من تنبيه قلب آدم عليه السلام وتوفيقه مما أثبت له إمساك حقيقته عند ربه، ويعاضد معناه رفع الكلمات وتلقيها آدم في إحدى القراءتين، فكأنه تلقى الكلمات بما في باطنه فتلقته الكلمات بما أقبل بها عليه فكان مستحقاً لها، فكانت متلقية له بما جمعت القراءتان من المعنى، وقوله: ﴿فَنَابَ﴾، من: التوب وهو: رجوع بظاهر باطنه الإنابة، وهو: رجوع بعلم باطنه الأوبة، وهو: رجوع بتقوى قلب، وقوله: ﴿عَلَيْهِ﴾، لذكره إياه بالكلمات مخلصاً في نيته، ثم علل بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ﴾ أي: خاصة ﴿الْوَابِ﴾، أي: البليغ التوبة المكرر لها، ولما كان قد جعل على نفسه المقدس أن يتفضل على المحسن قال: ﴿الرَّحِيمِ﴾، أي: لمن أحسن الرجوع إليه وأهله لقربه.

قال الحرالي: وكان إقراره بلفظه أدباً وإذعاناً لقيام حجة الله على عباده بما أنبأ عنه من قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾، وهذه توبة قلب وعمل لا ينقض مخصوص حال القلب منها ناقض، وهي: التوبة النصوح التي تبرئ من الذنب بتحقيق توحيد القلب، وتوجب تكفير الخطايا الظاهرة التي لا أصل لها في القلب من حجاب دعوى في الأفعال وشرك في أمر الله، فبمقتضى ما في باطنه ظهر فيه اسمه ﴿الرَّحِيمِ﴾، الذي هو من الرحمة وهو اختصاص فضله بالمؤمن، وبمقتضى ما ظهر عليه من الضراعة والإقرار ظهر فيه مقتضى اسمه ﴿الْوَابِ﴾، فجمعت توبته الأمرين.

٢٩_ وقال الإمام الإيجي رحمه الله (١) في تفسيره المسمى (جامع البيان في تفسير القرآن): قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿وَإِذْ﴾، أي: واذكر إذ ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾ : مطلق الملائكة أو ملائكة الأرضين وهو تعداد نعمة ثلاثة عامة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، يعني: آدم هو خليفة الله في أرضه ينفذ قضاء الله وأحكامه

(١) الإمام الإيجي: هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإيجي الشافعي (المتوفى: ٩٠٥هـ)، انظر: الضوء اللامع ٨: ٢ - ٣٢ والكواكب السائرة ١: ٥٣ وشذرات الذهب ٨: ١٥ وخطط مبارك ١٢: ١٥ والنور السافر ١٦ وابن إياس ٢: ٣٢١.

أو المراد من الخليفة: البدل، أي: من الجن والملائكة فإنهما كانا سكان الأرض حينئذ، أو المراد: قوم يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن.

وقال ﷺ: ﴿قَالُوا أَلَنَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، كما فعله الجن، وهو تعجب واستكشاف عما خفي عليهم من الحكمة، ﴿وَنَحْنُ سُيُحُ﴾، نبعذك عن السوء، ﴿يُحْمَدُكَ﴾، متلبسين به، ﴿وَنُقَدِّسُ﴾، نطهر نفوسنا عن المعاصي، ﴿لَكَ﴾، لأجلك أو نقدرسك عما أضاف إليك الكفرة فاللام زائدة، ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من المصلحة أو بأن أجعل فيهم الأنبياء والصديقين والشهداء أو أعلم أن فيكم من يعصيني وهو إبليس.

٣٠- وقال الإمام السيوطي ^(١) في تفسيره: (الدر المنثور): قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال: مَا كَانَ فِي الْقُرْآنِ ﴿وَإِذْ﴾، فقد كَانَ، وأخرج ابن جرير عن الضَّحَّاك قال: كل شيءٍ فِي الْقُرْآنِ (جُعِلَ) فَهُوَ: خُلِقَ.

وأخرج وكيع وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن عسَّاکر عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْرَجَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عَبَّاسٍ قَالَ: لَقَدْ أَخْرَجَ اللَّهُ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قَالُوا أَلَنَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، وقد كَانَ فِيهَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ بِأَلْفِي عَامِ الْجِنِّ بَنُو

(١) الإمام السيوطي: هو عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، انظر: انظر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم _ القاهرة الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م، مصطفى الشكعة: جلال الدين السيوطي مطبعة الحلبي ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م.

الجان ففسدوا في الأرض وسفكوا الدماء فلما أفسدوا في الأرض بعث عليهم جنوداً من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور فلما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ ﴿كَمَا فَعَلَ أُولَئِكَ الْجَانُ فَقَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: لما خلق الله النار ذعرت منها الملائكة ذعراً شديداً وقالوا: ربنا لم خلقت هذه قال: لمن عصاني من خلقي ولم يكن لله خلق يومئذ إلا الملائكة قالوا: يا رب ويأتي دهر نعصيك فيه قال: لا إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً وأجعل فيها خليفة يسفكون الدماء ويفسدون في الأرض قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، فاجعلنا نحن فيها، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ﴾ قال: إن الله قال للملائكة: إِنِّي خَالِقُ بَشَرٍ وَإِنَّهُمْ مَتَحَاسِدُونَ فَيَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَذَلِكَ قَالُوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ﴾، قال: وكان إبليس أميراً على ملائكة السماء الدنيا فاستكبر وهم بالمعصية وطغى فعلم الله ذلك منه فذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وَإِنْ فِي نَفْسِ إِبْلِيسَ بُغْيًا.

وقال الإمام السيوطي رحمه الله: وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، قال: قد علمت الملائكة وعلم الله أنه لا شيء أكره عند الله من سفك الدماء والفساد في الأرض.

فعن ابن عباس قال: إِيَّاكُمْ والرأي فإن الله تعالى رد الرأي على الملائكة وذلك أن الله تعالى قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فَقَالَتِ الْمَلَأِكَةُ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، فقال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

(١) الحديث: أخرجه ابن المنذر وابن بطه في أماليه.

وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَذَرِيَّتَهُ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبَّنَا إِنَّ الْأَرْضَ لَمْ تَسْعَهُمْ، قَالَ: إِنِّي جَاعِلٌ مَوْتًا، قَالُوا: إِذَا لَا يَهْنَأُ لَهُمُ الْعَيْشُ قَالَ: إِنِّي جَاعِلٌ أَمَلًا^(١)).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قُبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَالْخَيْثُ وَالطَّيْبُ)^(٢).

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: (خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطَوَّلَهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَاسْمَعْ مَا يَمِينُكَ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذَرِيَّتِكَ فَذَهَبَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَكُلٌ مِنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ طَوَّلَهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا فَلَمْ تَزَلِ الْخَلْقُ تَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ)^(٣).

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَأَحْمَدُ وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: (يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جَرْدًا مُرْدًا بِيضًا جَعَادًا مُكْحَلِينَ ابْنَاءَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَهُمْ عَلَى خَلْقِ آدَمَ طَوَّلَهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ سَبْعَةِ أَذْرَعٍ)^(٤).

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: (خَيْرَ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِيهِ خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَفِيهِ أَدْخَلَ الْجَنَّةَ وَفِيهِ أَهْبَطَ مِنْهَا وَفِيهِ مَاتَ وَفِيهِ تَبَّ عَلَيْهِ وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ)^(٥).

(١) الحديث: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وأحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في الأمل.

(٢) الحديث: أخرجه ابن سعد في طبقاته وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وصححه والحاكم وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الأشياء والصفات ورواه ابن خزيمة في سننه في كتاب التوحيد من قوله: (باب ذكر صفة خلق الله آدم)

(٣) الحديث: صحيح رواه البخاري برقم (٦٢٢٧) ومسلم برقم (٢٨٤١).

(٤) الحديث: رواه البخاري (٣٣٣٠)، ومسلم (١٤٧٠)، وهذا حديث صحيح، لا مطعن فيه؛ تلقاه أهل العلم بالقبول، وأوردوه في مصنفاتهم، من غير نكير بينهم.

(٥) الحديث: أخرجه الترمذي (٢٥٣٩) أوله بنحوه في أثناء حديث، وأحمد (٧٩٣٣) باختلاف ...، وأخرجه البزار

وقال الإمام السيوطي رحمه الله: قَوْلُهُ تَعَالَى: وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيَّ وَالْحَاكِمِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ:

(لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْزَ اللَّحْمُ وَلَوْلَا حَوَاءٌ لَمْ تَخْنُ أُنْثَى زَوْجَهَا) ^(١).

وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ وَالْخَطِيبُ فِي التَّارِيخِ وَالِدَيْلَمِي فِي مُسْنَدِ الْفَرْدُوسِ وَابْنُ عَسَاكِرٍ بِسَنَدٍ وَاهٍ عَنْ ابْنِ عَمْرِو مَرْفُوعًا: (فَضَلْتُ عَلَى آدَمَ بِخَصْلَتَيْنِ كَانَ شَيْطَانِي كَافِرًا فَأَعَانَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَ وَكَانَ أَزْوَاجِي عَوْنًا لِي وَكَانَ شَيْطَانُ آدَمَ كَافِرًا وَزَوْجَتُهُ عَوْنًا لَهُ عَلَى خَطِيئَتِهِ) ^(٢).

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالْأَجْرِيُّ فِي الشَّرِيعَةِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: (تَحَاجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَحَجَّ آدَمَ مُوسَى فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَغْوَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ كُلَّ شَيْءٍ وَاصْطَفَاهُ بِرِسَالَتِهِ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَتَلَوْنِي عَلَى أَمْرِ قَدَرٍ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ) ^(٣).

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾، فَلَمَّا اهْبَطَ قَالَ: (رَبِّ هَذَا الْعَبْدُ الَّذِي جَعَلْتَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ عِدَاوَةً إِنْ لَمْ تَغْنِيْ عَلَيْهِ لَا أَقْوَى عَلَيْهِ قَالَ: لَا يُؤَلِّدُكَ وَلَدٌ إِلَّا وَكَلْتُ بِهِ مَلَكًا قَالَ: رَبِّ زِدْنِي قَالَ: أَجَازِي السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَبِالْحَسَنَةِ عَشْرَةَ أَمْثَالِهَا إِلَى مَا أَزِيدُ قَالَ: رَبِّ زِدْنِي قَالَ: بَابُ التَّوْبَةِ لَهُ مَفْتُوحٌ مَا دَامَ الرُّوحُ فِي الْجَسَدِ قَالَ إِبْلِيسُ: يَا رَبِّ هَذَا الْعَبْدُ الَّذِي أَكْرَمْتَهُ إِنْ لَمْ تَغْنِيْ عَلَيْهِ لَا أَقْوَى عَلَيْهِ قَالَ: لَا يُؤَلِّدُكَ وَلَدٌ إِلَّا وَلَدٌ لَكَ وَلَدٌ قَالَ: يَا رَبِّ

(٢٠٣٤) بنحوه، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء) ((٢٧٣/٢)).

(١) الحديث: ورد في فتح الباري شرح صحيح البخاري «كتاب القدر» باب تحاج آدم وموسى عند الله ج ١١ ص ٥١٤.

(٢) الحديث: رواه الإمام أحمد في مسنده، ورواه الطبراني في الأوسط من وجه آخر عن حماد، وقال ابن حجر في تقريب التهذيب: ضعيف.

(٣) الحديث: رواه مسلم برقم (٨٥٤).

زِدْنِي قَالَ: تَجْرِي مِنْهُ مَجْرَى الدَّمِّ وَتَتَخَذُ فِي صُدُورِهِمْ مَبُوتَاتًا قَالَ: رَبِّ زِدْنِي، قَالَ: ﴿وَأَجَلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِلَافِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾^(١).

٣١_ وقال الإمام الخطيب رحمه الله^(٢) في تفسيره: (السراج المنير): قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿وَإِذْ﴾، اذكر يا محمد ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾، وقيل: ﴿إِذْ﴾: زائدة، أي: قال ربك.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وجاعل من جعل الذي له مفعولان وهما: ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أعمل فيهما لأنه بمعنى: الاستقبال ومعتمد على مسند إليه ويجوز أن يكون بمعنى: خالق فيتعدى لمفعول واحد وهو خليفة والخليفة من يخلف غيره وينوب عنه، أي: جاعله بدلاً منكم ورافعكم إليّ فكرهوا ذلك لأنهم كانوا أهون الملائكة عبادة، والهاء فيه للمبالغة والمراد به لآدم عليه السلام لأنه كان خليفة الله في أرضه وكذا كل نبي استخلفه الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم لا الحاجة به تعالى إلى من ينوبه بل لقصور المستخلف عليه عن قبول قبضه وتلقي أمره بغير وسط ولذلك لم يستنبئ ملكاً، وقيل: إنه خليفة من سكن الأرض قبله، وقيل: المراد آدم وذريته لأنهم يخلفون من قبلهم أو يخلف بعضهم بعضاً وإفراد اللفظ إمّا للاستغناء بذكره عن ذكر بنيه أو على تأويل من يخلف، وفائدة قوله هذا للملائكة: تعليم المشاورة وتعظيم شأن المَجْعُول بأن بشر تعالى بوجود سكان ملكوته ولقبه بالخليفة قبل خلقه وإظهار فضله الراجح على ما فيه من المفاصد بسؤالهم وجوابه وبيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير إلى غير ذلك.

(١) الآية: رقم ٦٤ من سورة الإسراء.

(٢) الإمام الخطيب: هو شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ)، انظر: الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ١٢٧-١٢٨، شذرات الذهب ج ١٠ ص ٥٦١-٥٦٢، الكواكب السائرة ج ٣ ص ٧٢-٧٣.

وقال ﷺ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، أي: يريقها بالقتل كما فعل بنو الجان، تعجبوا من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد وقصدهم استكشاف ما خفي عليهم من الحكمة التي بهرت تلك المفاصد والغتها، وليس باعتراض على الله تعالى ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (١) لا يَسْقُونَهُ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢)، وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالى أو تلقى من اللوح أو استنباط عما ركز في عقولهم أن العصمة من خواصهم، أو قياس لأحد الثقلين على الآخر وإلا فهم ما كانوا يعلمون الغيب، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ متلبسين ﴿بِحَمْدِكَ﴾، أي: نقول سبحان الله وبحمده، وهذه صلاة ما عدا الآدميين وعليها يرزقون، قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْنُنَ إِلَّا اللَّهُ يَنْفَعُ مَنِ ارْتَضَىٰ﴾ (٣) أي: يقول: سبحان الله وبحمده، روي عن أبي ذر: (أن رسول الله ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: ما اصطفى الله ملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده) (٤)، وقيل معناه: ونحن نصلي بأمرك، قال ابن عباس: كل ما في القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: ننزهك عما لا يليق بك، فاللام: صلة، والجملة: حال مقررة لجهة الإشكال كقولك: أتحسن إلى أعدائك وأنا الصديق المحتاج، والمعنى: أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك، والمقصود منه الاستفسار عما رجحهم مع ما هو متوقع منهم على الملائكة المعصومين في الاستخلاف لا العجب والتفاخر، وقيل: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نطهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك، كأنهم قابلوا الفساد المفسر بالشرك عند قوم بالتسييح وسفك الدماء الذي هو أعظم الأفعال الذميمة بتطهير النفس عن الآثام، فقال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من المصلحة في استخلاف

(١) الآيتان: رقم ٢٦-٢٧ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية: رقم ٤٤ من سورة الإسراء.

(٣) الحديث: ورد في شرح النووي على مسلم؛ (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار)، باب: فضل سبحان الله وبحمده.

آدم وأن ذريته فيهم المطيع والعاصي فيظهر العدل بينهم، وقيل: إني أعلم أن فيكم من يعصيني وهو إبليس وجنوده، وقيل: إني أعلم أنهم مذنبون وأنا أغفر لهم.

وقال ﷺ: ﴿و﴾، اذكر ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِلْآدَمَ﴾، لما أنبأهم بالأسماء وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم بالسجود له، اعترافاً بفضله وأداء لحقه واعتذاراً عما قالوا فيه أو أمرهم به قبل أن يسوي خلقه لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، امتحاناً لهم وإظهاراً لفضله، وقضية الأول تأخير الأمر به عن تسوية خلقه بدليل تأخيره عن أنبائهم وتعليمهم المستلزمين لتسوية خلقه، وعلى الثاني اقتصر بعض المفسرين وهو الظاهر، وأجيب عن دليل الأول: بأن (الواو) في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، لا تقتضي الترتيب والسجود في الأصل تدلل مع تطامن وفي الشرع وضع الجبهة على قصد العبادة، والمأمور به إما المعنى الشرعي فالمسجود له في الحقيقة هو الله تعالى وجعل آدم قبلة سجودهم تفخيماً لشأنه أو سبباً لوجوبه كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة والصلاة لله، والاستكبار: طلب ذلك بالتشبع وهو التزين بأكبر مما عنده يتكبر بذلك ويتزين بالباطل، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: في علم الله أو صار منهم باستقبحه أمر الله تعالى إياه بالسجود لآدم اعتقاداً بأنه أفضل منه، والأفضل لا يحسن أن يؤمر بالتخضع للمفضول والتوسل به كما أشعر به قوله تعالى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، جواباً لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيِّ اسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾^(١).

٣٢_ وقال الإمام أبو السعود ﷺ^(٢) في تفسيره (إرشاد العقل السليم): قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾: بيان

(١) الآية: رقم ٧٥ من سورة ص.

(٢) الإمام أبو السعود: هو أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، انظر: تراجم الأعيان (١/ ٢٤٤).

لأمر آخر من جنس الأمور المتقدمة المؤكدة للإنكار والاستبعاد، فإن خلق آدم ﷺ وما خصّه به من الكرامات السنية المحكية من أجل النعم الداعية لذريته إلى الشكر والإيمان، الناهية عن الكفر والعصيان، وتقرير لمضمون ما قبله من قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(١) وتوضيح لكيفية التصرف والانتفاع بها فيها، وتلوين الخطاب بتوجيهه إلى النبي خاصة للإيذان بأن فحوى الكلام ليس مما يهتدى إليه بأدلة العقل كالأمر المشاهدة التي نبه عليها الكفرة بطريق الخطاب بل إنما طريقه الوحي الخاص به ﷺ وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من الإنباء عن تشريفه ﷺ ما لا يخفى، ﴿وَإِذْ﴾: ظرف موضوع لزمان نسبة ماضية وقع فيه نسبة أخرى مثلها كما أن: (إذا) موضوع لزمان نسبة مستقبلية يقع فيه أخرى مثلها ولذلك يجب إضافتهما إلى الجمل وانتصابه بمضمّر صرح بمثله في قوله ﷻ: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكُتِرْكُمْ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾^(٣)، وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة في إيجاب ذكرها، لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني، ولأن الوقت مشتمل عليها فإذا استحضرت كانت حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عياناً، وقيل ليس انتصابه على المفعولية بل على تأويل اذكر الحادث فيه بحذف الظروف وإقامة الظرف مقامه، وأياما كان فهو معطوف على مضمّر آخر ينسحب عليه الكلام، كأنه قيل له ﷻ: غب ما أوحى إليه ما خوطب به الكفرة من الوحي الناطق بتفاصيل الأمور السابقة الزاجرة عن الكفر به تعالى، ذكرهم بذلك واذكر لهم هذه النعمة ليتنبهوا بذلك لبطلان ما هم فيه وينتهوا عنه، وأما ما قيل من أن المقدّر هو: اشكر النعمة في خلق السموات والأرض أو تدبّر ذلك، فغير سديد ضرورة

(١) الآية: رقم ٢٩ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ٨٦ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ٧٤ من سورة الأعراف.

أن مقتضى المقام تذكير المخلين بمواجب الشكر وتنبههم على ما يقتضيه، وأين ذاك من مقامه الجليل ﷺ، وقيل انتصابه بقوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ ويأباه أنه يقتضي أن يكون هو المقصود بالذات دون سائر القصة وقيل بما سبق من قوله تعالى: ﴿وَيَبْئِرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(١)، ولا يخفى بعده، وقيل بمضمّر دلّ عليه مضمون الآية المتقدمة مثل: وبدأ خلقكم. قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، في حيز النصب على أنه مقول قال، وصيغة الفاعل بمعنى المستقبل ولذلك عملت عمله وفيها ما ليس في صيغة المضارع من الدلالة على أنه فاعل ذلك لا محالة، وهي: من الجعل بمعنى: التصيير المتعدي إلى مفعولين فقول: أولهما: خليفة، وثانيهما: الطرف المتقدم على ما هو مقتضى، فإن مفعولي التصيير في الحقيقة اسم صار وخبره أولهما: الأول، وثانيهما: الثاني، وهما: مبتدأ وخبر.

وقال أبو السعود رحمه الله: ﴿قَالُوا﴾: استئناف وقع جواباً عما ينساق إليه الأذهان كأنه قيل: فماذا قالت الملائكة حينئذ، فقيل قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، وهو أيضاً من الجعل المتعدي إلى اثنين فقول فيها ما قيل في الأول والظاهر أن الأول: كلمة ﴿مَن﴾، والثاني: محذوف ثقة بما ذكر في الكلام السابق كما حذف الأول ثمة تعويلاً على ما ذكر هنا قال قائلهم:

لا تَحْلُنَا عَلَى عَزَائِكَ إِنَّا... طالما قد وشى بنا الأعداء

بحذف المفعول الثاني، أي: لا تَحْلُنَا جازعين على عزائك والمعنى: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فيها خليفة والطرف الأول: متعلق بـ (تجعل)، وتقديمه لما مر مراراً، والثاني: بـ (يُفْسِدُ)، وفائدته تأكيد الاستبعاد لما أن في استخلاف المفسد في محل إفساده من البعد ما ليس في استخلافه في غيره.

(١) الآية: رقم ٢٥ من سورة البقرة.

﴿قَالَ﴾: استئناف كما سبق، ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ليس المراد بيان أنه تعالى يعلم ما لا يعلمونه من الأشياء كائناً ما كان، فإن ذلك مما لا شبهة لهم فيه حتى يفتقروا إلى التنبيه عليه لاسيما بطريق التوكيد بل بيان أن فيه عليه الصلاة والسلام معاني مستدعية لاستخلافه إذ هو الذي خفي عليهم وبنوا عليه ما بنوا من التعجب والاستبعاد فما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن تلك المعاني والمعنى: إني أعلم ما لا تعلمونه من دواعي الخلافة فيه وإنما لم يقتصر على بيان تحققها فيه عليه السلام بأن قيل مثلاً إن فيه ما يقتضيه من غير تعرض لإحاطته تعالى به وغفلتهم عنه تفخيماً لشأنه وإيداناً بابتداء أمره تعالى على العلم الرصين والحكمة المتقنة وصدور قولهم عن الغفلة وقيل معناه: إني أعلم من المصالح في استخلافه ما هو خفي عليكم وأن هذا إرشادٌ للملائكة إلى العلم بأن أفعاله تعالى كلها حسنة وحكمة وإن خفي عليهم وجه الحسن والحكمة وأنت خيرٌ بأنه مُشعرٌ بكونهم غير عالمين بذلك من قبل ويكون تعجبهم مبنياً على ترددهم في اشتغال هذا الفعل لحكمة ما وذلك مما لا يليق بشأنهم فإنهم عالمون بأن ذلك متضمنٌ لحكمة ما ولكنهم مترددون في أنها ماذا هل هو أمرٌ راجعٌ إلى محض حكم الله تعالى، أو إلى فضيلة من جهة المستخلف فين سبحانه وتعالى لهم أولاً على وجه الإجمال والإبهام أن فيه فضائل غائبة عنهم ليستشرفوا إليها ثم أبرز لهم طرفاً منها ليعاينوه جهرَةً ويظهر لهم بديع صنعه وحكمته وينزاح شبهتهم بالكلية.

وقال الإمام أبو السعود رحمته الله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، شروعٌ في تفصيل ما جرى بعد الجواب الإجمالي تحقيقاً لمضمونه وتفسيراً لإبهامه، وهو عطفٌ على قال، والابتداء بحكاية التعليم يدل بظاهره على أن ما مرَّ من المقابلة المحكية إنما جرت بعد خلقه عليه السلام بمحض منه، وهو الأنسب بوقوف الملائكة

على أحواله عليه السلام بأن قيل: إثر نفخ الروح فيه إني جاعلٌ إياه خليفةً، فقيل: ما قيل كما أشير إليه وإيراده عليه السلام باسمه العَلَمِيّ لزيادة تعيين المراد بالخليفة ولأن ذكره بعنوان الخلافة

لا يلائم مقام تمهيد مباديها، ﴿فَقَالَ أَنِثُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ تبيكتاً لهم وإظهاراً لعجزهم عن إقامة ما علّقوا به رجاءهم من أمر الخلافة فإن التصرف والتدبير وإقامة المعدلة بغير وقوف على مراتب الاستعدادات ومقادير الحقوق مما لا يكاد يمكن، والإنباء: إخبار فيه إعلام ولذلك يجري مجرى كل منهما والمراد ههنا ما خلا عنه وإثاره على الإخبار للإيذان برفعة شأن الأسماء وعظم خطرهما فإن النبأ إنما يطلق على الخبر الخطير والأمر العظيم، ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي: في زعمكم أنكم أحقّاء بالخلافة ممن استخلفته كما ينبئ عنه مقالكم والتصديق كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق إليه باعتبار ما يلزمه من الإخبار فإن أدنى مراتب الاستحقاق هو الوقوف على أسماء ما في الأرض، وأما ما قيل: من أن المعنى في زعمكم أي استخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء فليس مما يقتضيه المقام وإن أولّ بأن يقال في زعمكم أي استخلف من غالب أمره الإفساد وسفك الدماء من غير أن يكون له مزية من جهة أخرى إذ لا تعلق له بأمرهم بالإنباء وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه.

وقال الإمام أبو السعود رحمته الله: قوله: ﴿قَالَ﴾: استئناف كما سلف، وقوله: ﴿يَقَادُمُ أَنِثْتُمْ﴾، أي: أعلمهم وقوله: ﴿بِأَسْمَاءِهِمْ﴾، التي عجزوا عن علمها واعترفوا بتقاصر همهم عن بلوغ مرتبتها، ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ﴾، الفاء: فصيحة عاطفة للجملة الشرطية على محذوف يقتضيه المقام وينسحب عليه الكلام للإيذان بتقرره وغناه عن الذكر وللإشعار بتحقيقه في أسرع ما يكون كما في قوله عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ﴾^(١)، بعد قوله سبحانه: ﴿أَنَا أَنِثُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾^(٢)، وإظهار الأسماء في موقع الإضمار لإظهار كمال العناية بشأنها والإيذان بأنه عليه السلام أنبأهم بها على وجه التفصيل دون الإجمال والمعنى، فأنبأهم بأسمائهم مفصلة وبين لهم أحوال كل منهم

(١) الآية: رقم ٤٠ من سورة النمل.

(٢) الآية: رقم ٤٠ من سورة النمل.

وخواصّه وأحكامه المتعلقة بالمعاش والمعاد فعلموا ذلك لما رأوا أنه ﷺ لم يتلثم في شيء من التفاصيل التي ذكرها مع مساعدة ما بين الأسماء والمسميات من المناسبات والمشاكلات وغير ذلك من القرائن الموجبة لصدق مقالاته ﷺ فلما أنبأهم بذلك، ﴿قَالَ﴾ ﷺ تقريراً لما مر من الجواب الإجمالي واستحضاراً له: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، لكن لا لتقرير نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًا حَسَنًا﴾^(١)، ونظائره بل لتقرير ما يفيد من تحقق دواعي الخلافة في آدم ﷺ لظهور مضداه وإيراد ما لا يعلمون بعنوان الغيب مضافاً إلى السموات والأرض للمبالغة في بيان كمال شمول علمه المحيط وغاية سعته مع الإيذان بأن ما ظهر من عجزهم وعلم آدم ﷺ من الأمور المتعلقة بأهل السموات وأهل الأرض وهذا دليل واضح على أن المراد بما لا تعلمون فيما سبق ما أشير إليه هناك كأنه قيل: ألم أقول لكم إني أعلم فيه من دواعي الخلافة ما لا تعلمونه فيه، هو هذا الذي عاينتموه، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، عطف على جملة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾، لا على: ﴿أَعْلَمُ﴾، اذ هو غير داخل تحت القول، وما في الموضعين موصولة حذف عائدها، أي: أعلم ما تبدونه وما تكتُمونه وتغيير الأسلوب للإيذان باستمرار كتمهم، قيل: المراد بما يبدون قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ﴾، وبما يكتُمون استبطانهم أنهم أحقاء بالخلافة وأنه تعالى لا يخلق خلقاً أفضل منهم.

رُوي أنه تعالى لما خلق آدم ﷺ رأت الملائكة فطرته العجيبة وقالوا ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أكرم عليه منه، وقيل: هو ما أسره إبليس في نفسه من الكبر وترك السجود فإسناد الكتمان حينئذ إلى الجميع من قبيل قولهم: بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد من بينهم، قالوا: في الآية الكريمة دلالة على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله على العبادة، وأن ذلك هو المناط للخلافة، وأن التعليم يصح إطلاقه على الله تعالى، وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه لاختصاصه عادة بمن يحترف به، وأن اللغات توقيفية إذ الأسماء

(١) الآية: رقم ٨٦ من سورة طه.

تدل على الألفاظ بخصوص أو بعموم، وتعليمها ظاهر في إلقيائها على المتعلم، مبيناً له معانيها وذلك يستدعي سابقة وضع، وما هو إلا من الله تعالى وأن مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم، والإلزام التكرار، وأن علوم الملائكة وكما لا تتم تقبل الزيادة، والحكماء منعوا ذلك في الطبقة العليا منهم وحملوا على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾^(١)، وأن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه عليه السلام أعلم منهم وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها.

وقال الإمام أبو السعود رحمه الله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾: عطف على الظرف الأول منصوب بما نصبه من المضمر، أو بناصب مستقل معطوف على ناصبه، عطف القصة على القصة، أي: واذكر وقت قولنا لهم، قوله: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، كما قرئ بكسر الدال في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إتباعاً لكسر اللام وهي لغة ضعيفة، ﴿فَسَجَدُوا﴾: عطف على ﴿قُلْنَا﴾، والفاء: لإفادة مسارعتهم إلى الامتثال وعدم تلغيمهم في ذلك.

قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، استثناء متصل، لما أنه كان جنياً مفرداً مغموراً بألوف من الملائكة متصفاً بصفاتهم فغلبوا عليه في فسجدوا ثم استثنى استثناءً واحداً منهم، أو: لأن من الملائكة جنساً يتوالدون يقال لهم الجن كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو منهم، أو: لأن الجن أيضاً كانوا مأمورين بالسجود له لكن استغني بذكر الملائكة عن ذكرهم، أو: منقطع وهو اسم أعجمي ولذلك لم ينصرف ومن جعله مشتقاً من الإبلas وهو إلباس قال: إنه مشبهٌ بالعجمة حيث لم يُسم به أحد فكان كالاسم الأعجمي واعلم أن الذي تقتضيه هذه الآية الكريمة والتي في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ إلا إِبْلِيسَ^(٢)، والتي في سورة بني إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾^(٣)، أن سجود الملائكة إنما ترتب على الأمر التنجيزي

(١) الآية: رقم ١٦٤ من سورة الصافات.

(٢) الآية: رقم ١١ من سورة الأعراف.

(٣) الآيات: رقم ٦١، ٥٠، ١١٦ من سور الإسراء، الكهف، طه.

الوارد بعد خلقه وتسويته ونفخ الروح فيه ألبته كما يلوح به حكاية امتثالهم بعبارة السجود دون الوقوع الذي به ورد الأمر التعليقي، ولكن ما في سورة الحجر من قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَاحٍ مِّن حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿١﴾، وما في سورة ص من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٢﴾، يستدعيان بظاهرهما ترتبه على ما فيهما من الأمر التعليقي من غير أن يتوسّط بينهما شيء غير ما تُفصح عنه الفاء الفصيحة من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه ﷻ، وقد روي عن وهب أنه كان السجود كما نفخ فيه الروح بلا تأخير وتأويل الآيات السابقة يحمل ما فيها من الأمر على حكاية الأمر التعليقي بعد تحقق المعلق به إجمالاً فإنه حيثئذ يكون في حكم التنجيز، يأباه ما في سورة الأعراف من كلمة ﴿ثُمَّ﴾ المنادية بتأخر ورود الأمر عن التصوير المتأخر عن الخلق المتأخر عن الأمر التعليقي، والاعتذار بحمل التراخي على الرتبة، أو: التراخي في الإخبار أو: بأن الأمر التعليقي قبل تحقق المعلق به لما كان في عدم إيجاب المأمور به بمنزلة العدم جعل كأنه إنما حدث بعد تحققه، فحكي على صورة التنجيز.

قوله: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾، استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء وأنه لم يكن للتردد أو للتأمل، والإباء: الامتناع بالاختيار والتكبر، أن يرى نفسه أكبر من غيره، والاستكبار: طلب ذلك بالتشيع أي: امتنع عما أمر به واستكبر من أن يعظمه أو يتخذه وصلة في عبادة ربه، وتقديّم الإباء على الاستكبار مع كونه مسبباً عنه لظهوره ووضوح أثره، واقتصر في سورة ص: على ذكر الاستكبار اكتفاءً به، وفي سورة الحجر: على ذكر الإباء حيث قيل: ﴿أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

(١) الآيات: رقم ٢٨-٣٠ من سورة الحجر.

(٢) الآيات: رقم ٧١-٧٣ من سورة الحجر.

وقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: في علم الله تعالى إذ كان أصله من كفره الجن فلذلك ارتكب ما ارتكبه على ما أفصح عنه قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(١)، فالجملة اعتراضية مقررة لما سبق من الإباء والاستكبار، أو: صار منهم باستقبح أمره تعالى إياه بالسجود لآدم عليه السلام زعماً منه أنه أفضل منه، والأفضل لا يُحسن أن يؤمر بالخضوع للمفضول كما يفصح عنه قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، حين قيل له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ يَدَيَّ اسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾^(٢)، لا بترك الواجب وحده، فالجملة معطوفة على ما قبلها وإيثار (الواو) على (الفاء) للدلالة على أن محض الإباء والاستكبار كفر لا أنها سببان له كما تفيد الفاء.

٣٣_ وقال الإمام ابن عجيبة رحمته الله في تفسيره (البحر المديد): قوله عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، لما أراد الله تعالى عمارة الأرض، بعد أن عمر السموات بالملائكة، أخبر الملائكة بما هو صانع من ذلك تنوياً بآدم وتشريفاً لذريته، وتعليماً لعباده أمر المشاورة، فقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، يخلفني في أرضي وتنفيذ أحكامي، فقالوا على وجه الاستفهام، أو من الإدلال، إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ، بعد أن رأوا الجن قد أفسدوا وسفكوا الدماء.

وقال رحمته الله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، وشأن الخليفة الإصلاح، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، أي: نسبح ملتبسين بحمدك، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نظهر أنفسنا لأجلك، أو ننزهك عما لا يليق بجلال قدسك، فنحن أحق بالخلافة منهم.

(١) الآية: رقم ٥٠ من سورة الكهف.

(٢) الآية: رقم ٧٥ من سورة ص.

(٣) الإمام ابن عجيبة: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ)، انظر: الأعلام، تأليف: الزركلي، ج ١، ص ١٤٥، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والشيخات والمسلسلات، تأليف: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، ج ٢، ص ٨٥٤.

لما أراد الحق تعالى أن يستخلف هذا الروح في هذه البشرية لتدبرها وتصرفها فيما أريد منها، قالت الملائكة بلسان حالها: كيف تجعل فيها من يفسد فيها بالميل إلى الحظوظ والشهوات، ويسفك الدماء بالغضب والحميات، ونحن نسبحك وننزهك عما لا يليق بك؟ رأت الملائكة ما يصدر من بعض الأرواح من الميل إلى الحضيض الأسفل، ولم تر ما يصدر من بعضها من التصفية والترقية، فقال لهم الحق تبارك تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فإن منها من تعرج إلى عرش الحضرة، وتعبدي بالفكرة والنظرة، وتستولي على الوجود بأسره، وتنكشف لها عند ذلك أسرار الذات وأنوار الصفات وأسماء المسميات.

وقال الإمام ابن عجيبة رحمته الله: ثم وَجَّهَ الحق تعالى استحقاقه للخلافة وهو تشريفه بالعلم، فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، أي: مسميات الأسماء بأن ألقى في روعه ما تحتاج إليه ذريته من اللغات والحروف، وخواص الأشياء ومنافعها، ثم عرض تلك المسميات على الملائكة، إظهاراً لعجزهم، وتشريعاً لآدم بالعلم، فقال: ﴿فَقَالَ أَنِثُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي: أخبروني بأسماء هؤلاء المسميات إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ في ادعائكم استحقاق الخلافة.

وقال رحمته الله: يقول الحق جلّ جلاله: واذكر إِذْ ﴿قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، لما تبينت فضيلة آدم أمرهم بالسجود، فقال لهم: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، سجدوا انحناء، فَسَجَدُوا كلهم، لأنهم شهدوا الجمع ولم يشهدوا الفرق، فرأوا آدم قِبْلَةً، أو نوراً من أنوار عظمتها، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، أي: امتنع حيث نظر الفرق بحكمة الواحد القهار، فاستكبر وكان من جملة الكافرين، وكفره باعتراضه على الله وتسفيه حكمه، لا بامتناعه إذ مجرد المعصية لا تكفر، والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا كمل تصفية الروح، وظهر شرفها، خضع لها كل شيء، وتواضع لها كل شيء، وانقاد لأمرها مَنْ سبقت له العناية، وهبت عليه ريح الهداية، لأنها صارت آدم الأكبر، إلا من أبليسته المشيئة، وطردته القدرة، فاستكبر عن تحكيم جنسه على نفسه، وكان من الكافرين

لوجود الخصوصية، فجزاؤه حرمان شهود طلعة الربوبية، وهبوطه إلى حضيض العمومية.

٣٤_ وقال الإمام المظهري رحمته الله ^(١) في تفسيره: قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، والمراد بالخليفة آدم عليه السلام فإنه خليفة الله في أرضه لإقامة أحكامه وتنفيذ قضاياه وهداية عباداه وجذبهم الى الله واعطائهم مراتب قربه تعالى وذلك لا لاحتياج من الله تعالى الى الخليفة بل لقصور المستخلف عليهم عن قبول فيضه وتلقى امره بغير وسط، وكذلك كل نبي بعده خليفة الله، قالوا تعجبا واستخبارا عن مرشد أمرهم لا اعتراضا وحسدا فانهم عباد مكرمون.

وقال رحمته الله: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، وهم ذرية آدم، وانما عرفوا ذلك بأخبار من الله تعالى، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، حال مقرر لجهة الاشكال والمعنى أتستخلف العصاة ونحن معصومون احقاء بالخلافة، والتسبيح: تبعيد الله عن السوء من سبج في الأرض والماء، أي: بُعد، و﴿بِحَمْدِكَ﴾، في موضع الحال، أي: متلبسين بحمدك على ما وفقنا لتسبيحك، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، والتقديس: ايضا بمعنى التسبيح ويقال: قدس إذا طهر، أي: بعد عن الاقذار، واللام: زائدة، أي: نقديسك، او المعنى: نقديس أي: نطهر أنفسنا عن الذنوب لأجلك، كأنهم قابلوا الفساد المفسر بالشرك بالتسبيح وسفك الدماء بالتقديس.

٣٥_ وقال الإمام محمد صديق خان رحمته الله ^(٢) في تفسيره: (فتح البيان في مقاصد القرآن):

(١) الإمام المظهري: هو القاضي مولوي محمد ثناء الله الهندي الفاني فني النقشبندی الحنفي العثماني المظهري، انظر: المكتبة الشاملة، موقع مشروع دين الإسلام، وانظر كذلك تفسير المظهري.

(٢) الإمام محمد صديق خان: هو أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (المتوفى: ١٣٠٧ هـ)، انظر: انظر: جلاء العينين للألوسي ص ٦٢، والنفع المسكي لأحمد أبي الخير العطار

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾، أي واذكر: يا محمد إذ قال، وكل ما ورد في القرآن من هذا النحو فهذا سبيله، وقيل: ﴿إِذْ﴾: زائدة والأول أوجه.

(للملائكة) جمع ملك بوزن فعل قاله ابن كيسان، وقيل جمع ملاك بوزن مفعل، قاله أبو عبيده، وأراد بالملائكة الذين كانوا في الأرض، واللام في للملائكة: للتبليغ وهو أحد المعاني التي جاءت لها اللام.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أي: خالق بدلاً منكم ورافعكم إلي، و﴿جَاعِلٌ﴾ هنا: من جعل المتعدي إلى مفعولين، وذكر المطرزي أنه بمعنى: الخالق، وذلك يقتضي أنه متعد إلى مفعول واحد، وصيغة اسم الفاعل بمعنى: المستقبل، و﴿الْأَرْضِ﴾ هنا: هي هذه الغبراء، ولا يختص ذلك بمكان دون مكان، وقيل إنها مكة كما ورد في مرسل ضعيف، وقال ابن كثير أنه مدرج، وال﴿خَلِيفَةً﴾، هنا: معناه الخالف لمن كان قبله من الملائكة، ويجوز أن يكون بمعنى المخلف أي يخلفه غيره، وقيل هو: آدم عليه السلام كما دل عليه السياق، وقيل هو: كل من له خلافة في الأرض، ويقوي الأول قوله تعالى: ﴿خَلِيفَةً﴾، دون الخلائف واستغنى بذكر آدم عن ذكر من بعده، والصحيح أنه إنما سمي: ﴿خَلِيفَةً﴾، لأنه خليفة الله في أرضه لإقامة حدوده وتنفيذ قضاياه، قيل: خاطب الله الملائكة بهذا الخطاب لا للمشورة ولكن لاستخراج ما عندهم، وقيل: وفيه إرشاد عباده إلى المشاورة، وأن الحكمة تقتضي اتخاذ ما يغلب خيره وإن كان فيه نوع شر، وأنه لا رأي مع وجود النص، وهو أصل في المسائل التعبدية.

قال بعض المفسرين: أن في الكلام حذفاً والتقدير: إني جاعل في الأرض خليفة يفعل كذا وكذا ففكرهوا ذلك.

وقال محمد صديق خان رحمه الله: ﴿قَالُوا﴾، أي: استكشافاً عما خفي عليهم من الحكمة الباهرة، وليس باعتراض على الله ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك، وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله أو تلقى من اللوح المحفوظ أو مقياس لأحد الثقلين على الآخر ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، بالمعاصي بمقتضى القوة الشهوانية، والفساد ضد الصلاح ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، بغير حق بمقتضى القوة الغضبية كما فعل الجن، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾، أي: نقول سبحان الله وبحمده وهي صلاة الخلق وعليها يرزقون، ﴿بِحَمْدِكَ﴾، أي: حامدين لك أو متلبسين بحمدك فإنه لولا إنعامك علينا بالتوفيق لم نتمكن من ذلك، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وأصل التقديس التطهير، أي: ونطهرك عن النقائص وعن كل ما لا يليق بك من سوء ومما نسبه إليك الملحدون، وافتراه الجاحدون.

ولما كان سؤالهم واقعاً على صفة تستلزم إثبات شيء من العلم لأنفسهم أجاب الله سبحانه عليهم فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وفي هذا الإجمال ما يغني عن التفصيل، لأن من علم ما لا يعلم الخاطب له كان حقيقاً بأن يسلم له ما يصدر عنه، وعلى من لا يعرف أن يعترف لمن يعلم بأن أفعاله صادرة على ما يوجبه العلم وتقتضيه المصلحة الراجحة والحكمة البالغة، ولم يذكر متعلق قوله: ﴿تَعْلَمُونَ﴾، ليفيد التعميم، ويذهب السامع عند ذلك كل مذهب ويعترف بالعجز ويقر بالقصور.

٣٦_ وقال الإمام القاسمي رحمه الله ^(١) في تفسيره: (محاسن التأويل): قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً، قرنا بعد

(١) الإمام القاسمي: هو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الخلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، انظر: انظر: محاسن التأويل للقاسمي ج ١ ص ٧ الأعلام لخير الدين الزركلي ج ٢ ص ١٣٥ معجم المؤلفين من صدر الإسلام حتي العصر الحاضر لعادل نويض ط ١ (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

قرن، ويجوز أن يراد: خليفة منكم، لأنهم كانوا سكان الأرض، فخلفهم فيها آدم وذريته، وأن يراد: خليفة مني، لأن آدم عليه السلام كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي خليفة في الأرض، والغرض من إخبار الملائكة بذلك، هو أن يسألوا ذلك السؤال، ويجابوا بما أجبوا به، فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم، صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم، أو الحكمة: تعليم العباد المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة أو تعظيم شأن المجعول، وإظهار فضله، بأن بشر بوجود سكان ملكوته، ونوّه بذكره في الملأ الأعلى قبل إيجاده، ولقبه بالخليفة.

وقال ﷻ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، هذا: تعجب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها، واستعلام عن الحكمة في ذلك، أي: كيف تستخلف هؤلاء، مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك، فنحن نسبح بحمدك، ونقدس لك أي: ولا يصدر عنا شيء من ذلك وهلاً وقع الاقتصار علينا؟ فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: إن لي حكمة في خلق الخليفة لا تعلمونها.

تنبيهات في وجوه فوائد من الآية:

الأول: دلت الآية على أن الله تعالى في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه، وما يخفى عليهم من أسرارهِ في خلقه، لا سيما عند الحيرة.

والسؤال: يكون بالمقال، ويكون بالحال، والتوجه إلى الله تعالى في إفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التي جرت سته تعالى بأن يفيض منها كالبحث العلمي، والاستدلال العقلي، والإلهام الإلهي.

الثاني: إذا كان من أسرار الله تعالى، وحكمه، ما يخفى على الملائكة، فنحن أولى بأن

يخفى علينا، فلا مطمع للإنسان في معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها، لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلا ...!

الثالث: إن الله تعالى هدى الملائكة في حيرتهم، وأجابهم عن سؤالهم بإقامة الدليل بعد الإرشاد إلى الخضوع والتسليم، وذلك أنه: بعد أن أخبرهم بأنه يعلم ما لا يعلمون علم آدم الأسماء، ثم عرضهم على الملائكة.

الرابع: تسلية النبي ﷺ، عن تكذيب الناس، ومحاجتهم في النبوة بغير برهان، على إنكار ما أنكروا، وبطلان ما جحدوا، فإذا كان الملائكة الأعلیٰ قد مثلوا على أنهم يختصمون، ويطلبون البيان والبرهان، فيما لا يعلمون، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين، وبالأنبیاء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين، أي: فعليك يا محمد أن تصبر على هؤلاء المكذبين، وترشد المسترشدين، وتأتي أهل الدعوة بسلطان مبين، وهذا الوجه هو الذي يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها.

وقال ﷺ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، لما أنبأهم بأسماء، وعلمهم ما لا يعلموا، أمرهم بالسجود له، على وجه التحية والتكرمة تعظيما له، واعترافا بفضله، واعتذارا عما قالوا فيه.

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم عليه السلام، ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أي: امتنع عن السجود، ﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾، أي: تكبر وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، فالسين للمبالغة، ﴿وَكَانَ﴾ في سابق علم الله أو صار ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

وفي هذه الآية عدة تنبيهات:

الأول: للناس في هذا السجود أقوال: أحدها: أنه تكريم لآدم، وطاعة لله، ولم يكن عبادة لآدم، وقيل: السجود لله، وآدم قبله، أو السجود لآدم تحية، أو السجود لآدم عبادة بأمر الله، وفرضه عليهم.

ذكر ابن الأنباري عن الفراء وجماعة من الأئمة: أن سجود الملائكة لآدم، كان تحية، ولم يكن عبادة، وكان سجود تعظيم وتسليم وتحية، لا سجود صلاة وعبادة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قال أهل العلم: السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه، وعلى هذا إجماع كل من يسمع قوله، فإن الله تعالى قال: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، ولم يقل: (إلى آدم)، وكل حرف له معنى، وفرق بين (سجدت له) وبين (سجدت إليه)، قال تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢)، أجمع المسلمون على أن السجود للأحجار والأشجار والدواب محرّم، وأما الكعبة، فيقال: كان النبي ﷺ يصلي إلى بيت المقدس، ثم صلى إلى الكعبة، ولا يقال صلى لبيت المقدس، ولا للكعبة.

والصواب أن الخضوع بالقلوب، والاعتراف بالعبودية، لا يصلي على الإطلاق إلا الله سبحانه. وأما السجود: فشرعية من الشرائع يتبع الأمر، فلو أمرنا سبحانه أن نسجد لأحد من خلقه، لسجدنا طاعة واتباعاً لأمره، فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة وقربة يتقربون بها إليه، وهو لآدم تشریف وتعظيم وتكريم، وسجود إخوة يوسف عليهم السلام له تحية وسلام، ولم يأت أن آدم سجد للملائكة، بل لم يؤمر بالسجود إلا لله رب العالمين.

٣٧_ وقال الإمام المراغي رحمته الله في تفسيره: قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أي: واذكر لقومك مقال ربك للملائكة: إني جاعل آدم خليفة عن نوع آخر كان في الأرض، وانقرض بعد أن أفسد في الأرض وسفك الدماء وسيحل

(١) الآية: رقم ٣٧ من سورة فصلت.

(٢) الآية: رقم ١٥ من سورة الرعد.

(٣) الإمام المراغي: هو أحمد بن مصطفى المراغي مفسر مصري، من العلماء، من مركز المراغة، محافظة سوهاج، انظر: كتاب الأعلام - خير الدين الزركلي.

هو محله، يرشد إلى ذلك قوله تعالى بعد ذكر إهلاك القرون: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(١)، ومن ثم استنبط الملائكة سؤالهم بالقياس عليه، وعلى هذا فليس آدم أوّل أصناف العقلاء من الحيوان في الأرض.

ويرى جمع من المفسرين أن المراد بالخلافة: الخلافة عن الله في تنفيذ أوامره بين الناس، ومن ثم اشتهر (الإنسان خليفة الله في الأرض) ويشهد له قوله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾^(٢).

وهذا الاستخلاف يشمل استخلاف بعض أفراد الإنسان على بعض، بأن يوحى بشرائعه على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه، واستخلاف هذا النوع على غيره من المخلوقات بما يميزه به من قوة العقل، وإن كنا لا نعرف سرها ولا ندرك كنهها، وهو بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود العلم، يتصرف في الكون تصرفاً لا حدّ له، فهو يبتدع ويفتنّ في المعدن والنبات، وفي البرّ والبحر والهواء، ويغيّر شكل الأرض فيجعل الماحل خصباً، والحزن سهلاً، ويولّد بالتلقيح أزواجا من النبات لم تكن، ويتصرّف في أنواع الحيوان كما شاء بضروب التوليد، ويسخر كل ذلك لخدمته، ولا أدلّ على حكمة الله من جعل الإنسان الذي اختص بهذه المواهب خليفة في الأرض يظهر عجائب صنعه وأسرار خليقته.

وقال ﷺ: قوله ﷻ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، أي: أتعجل من يقتل النفوس المحرمة بغير حق خليفة في الأرض؟

قوله ﷻ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: أتستخلف من هذه صفته ونحن المعصومون.

(١) الآية: رقم ١٤ من سورة يونس.

(٢) الآية: رقم ٥٠ من سورة ص.

قوله ﷺ: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: قال لهم ربهم: إني أعلم من المصلحة في استخلافه ما هو خفي عليكم، وفي هذا إرشاد للملائكة أن يعلموا أن أفعاله تعالى كلها بالغة غاية الحكمة والكمال وإن عُمى ذلك عليهم.

وقال الإمام المراغي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿فَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾، أي: إن الله تعالى ألهمه كلمات فعمل بها فأنا بإلهيه، ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾، التوب: الرجوع، فإذا وصف به العبد كان رجوعاً عن المعصية إلى الطاعة، وإذا وصف به البارئ تعالى أريد به الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة.

ولا تكون التوبة مقبولة من العبد إلا بالندم على ما كان، وبترك الذنب الآن وبالعزم على ألا يعود إليه في مستأنف الزمان، وبرّد مظالم العباد، وإرضاء الخصم بإيصال حقه إليه والاعتذار له باللسان.

والخلاصة: إنه تعالى قبل توبته وعاد إليه بفضله ورحمته.

قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، ﴿الْوَّابُ﴾: هو الذي يقبل التوبة عن عباده كثيراً، فمهما اقترف العبد من الذنوب وندم على ما فرط منه وتاب تاب الله عليه، و﴿الرَّحِيمُ﴾: هو الذي يحفّ عباده برحمته إذا هم أساءوا ورجعوا إليه تائبين وقد جمع بين الوصفين ﴿الْوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: للإشارة إلى عِدَّةِ الله تعالى للعبد التائب بالإحسان إليه مع العفو عنه والمغفرة له.

وها هنا مسائل ثلاث أطال المفسرون الكلام فيها، ونحن نوجز القول فيها:

(أ) ما أوردوه في هبوط آدم وحواء من الجنة ووصف ذلك، وقد نقلوا أكثره من الإسرائيليات التي لا يصح شيء منها عند النقدة من أهل العلم ورجال الدين.

(ب) خلق حواء من ضلع آدم أخذاً بظاهر قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورَ رِجْلُكَمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾^(١)، وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّةٍ

(١) الآية: رقم ١ من سورة النساء.

وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴿١﴾، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قوله ﷺ: (واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن خلقن من ضلع أعوج) ﴿٢﴾.

(ح) عصيان آدم ثم توبته، مع أن الأنبياء معصومون من ارتكاب الذنوب، ولنا في الجواب عن هذه المسألة ثلاث طرق:

(١) أن المخالفة التي صدرت منه كانت قبل النبوة، والعصمة إنما تكون عن مخالفة الأوامر بعدها.

(٢) أن الذي وقع منه كان نسيانا، فسمى عصيانا تعظيما لأمره، والنسيان والسهو لا ينافيان العصمة.

(٣) أن ذلك من المتشابه كسائر ما جاء في القصة، مما لا يمكن حمله على ظاهره، ويجب تفويض أمره إلى الله تعالى كما هو رأى سلف الأمة، أو هو من باب التمثيل كما هو رأى الخلف.

٣٨_ وقال الإمام السعدي رحمه الله في تفسيره: (تيسير الكريم الرحمن): قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، هذا شروع في ذكر فضل آدم عليه السلام أبي البشر أن الله حين أراد خلقه أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض.

وقال الشيخ / السعدي رحمه الله: فقالت الملائكة عليهم السلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، وهذا تخصيص بعد تعميم، لبيان شدة مفسدة القتل،

(١) الآية: رقم ١٨٩ من سورة الأعراف.

(٢) الحديث: أخرجه البخاري برقم: (٥١٨٥ - ٥١٨٦)، ومسلم برقم (٤٧، ١٤٦٨).

(٣) الإمام السعدي: هو الشيخ العلامة أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي، من بني تميم، انظر: روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين للشيخ محمد بن عثمان القاضي (١/ ٢١٩)، علماء نجد خلال ثمان قرون للشيخ عبد الله البسام (٣/ ٢١٨)، مشاهير علماء نجد وغيرهم للشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ (ص ٢٥٦)، الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، رسالة ماجستير إعداد د/ عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد (من ص ١٣ إلى ٦١).

وهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المجعول في الأرض سيحدث منه ذلك، فزهاوا الباري عن ذلك، وعظموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة فقالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، أي: ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، يحتمل أن معناها: ونقدسك، فتكون اللام: مفيدة للتخصيص والإخلاص، ويحتمل أن يكون: ونقدس لك أنفسنا، أي: نظهرها بالأخلاق الجميلة، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه، ونظهرها من الأخلاق الرذيلة.

قال الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ من هذا الخليفة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة، أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر فلو لم يكن في ذلك، إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته للخلق، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة، كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز بني آدم من الخير والشر بالامتحان، ولتبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه، واتصف به، فهذه حكم عظيمة، يكفي بعضها في ذلك.

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى، أن يبين لهم من فضل آدم، ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه.

٣٩_ وقال الإمام ابن عاشور رحمته (١) في تفسيره (التحرير والتنوير): قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ

(١) الإمام ابن عاشور: هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد، انظر: كتاب (محمد الطاهر ابن عاشور، علامة الفقه وأصوله والتفسير وعُلمومه)، تأليف: إياد خالد الطباع، وهو الكتاب رقم (٢٦) في سلسلة: (علماء ومفكرون معاصرون، لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم) التي

قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿١﴾، عطفت الواو قصة خلق أول البشر على قصة خلق السماوات والأرض انتقالاً بهم في الاستدلال على أن الله واحد وعلى بطلان شركهم وتخلصاً من ذكر خلق السماوات والأرض إلى خلق النوع الذي هو سلطان الأرض والمتصرف في أحوالها، ليجمع بين تعدد الأدلة وبين مختلف حوادث تكوين العوالم وأصلها ليعلم المسلمون ما علمه أهل الكتاب من العلم الذي كانوا يباهون به العرب وهو ما في سفر التكوين من التوراة.

واعلم أن موقع الدليل بخلق آدم على الوجدانية هو أن خلق أصل النوع أمر مدرك بالضرورة لأن كل إنسان إذا لفت ذهنه إلى وجوده علم أنه وجود مسبق بوجود أصل له بما يشاهد من نشأة الأبناء عن الآباء فيوقن أن لهذا النوع أصلاً أول ينتهي إليه نشوؤه، وإذا كانت العبرة بخلق ما في الأرض جميعاً أدجت فيها منة وهي قوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾، المقتضية أن خلق ما في الأرض لأجلهم تبيأت أنفسهم لسماع قصة إيجاد منشأ الناس الذين خلقت الأرض لأجلهم، ليحاط بما في ذلك من دلائل القدرة مع عظيم المنة وهي منة الخلق التي نشأت عنها فضائل جمّة ومنة التفضيل ومنة خلافة الله في الأرض، فكان خلق أصلنا هو أبداع واضحة مع حسن التخلص إلى ذكر خبره العجيب، فإيراد واو العطف هنا لأجل إظهار استقلال هذه القصة في حد ذاتها في عظم شأنها.

و﴿إِذْ﴾: من أسماء الزمان المبهمة تدل على زمان نسبة ماضية وقعت فيه نسبة أخرى ماضية قارنتها، ف﴿إِذْ﴾: تحتاج إلى جملتين جملة أصلية وهي الدالة على المظروف وتلك هي التي تكون مع جميع الظروف، وجملة تبين الظرف ما هو، لأن ﴿إِذْ﴾: لما كانت مبهمة احتاجت لما يبين زمانها عن بقية الأزمنة، فلذلك لزمت إضافتها إلى الجمل أبداً، والأكثر في الكلام أن تكون ﴿إِذْ﴾: في محل ظرف لزمان الفعل فتكون في محل نصب على المفعول فيه، وقد تخرج ﴿إِذْ﴾: عن النصب على الظرفية إلى المفعولية كأسماء الزمان المتصرفة على

ما ذهب إليه صاحب «الكشاف» وهو مختار ابن هشام خلافا لظاهر كلام الجمهور، فهي تصوير ظرفا مبهما متصرفا، وقد يضاف إليها اسم زمان نحو يومئذ وساعتئذ فتجر بإضافة صورية ليكون ذكرها وسيلة إلى حذف الجملة المضافة هي إليها، وذلك أن ﴿إِذْ﴾: ملازمة للإضافة فإذا حذفت جملتها علم السامع أن هنالك حذفاً، فإذا أرادوا أن يحذفوا جملة مع اسم زمان غير ﴿إِذْ﴾: خافوا أن لا يهتدي السامع لشيء محذوف حتى يتطلب دليله فجعلوا إذ قرينة على إضافة وحذفوا الجملة لينبها السامع فيتطلب دليل المحذوف، وهي في هذه الآية يجوز أن تكون ظرفا وكذلك أعربها الجمهور وجعلوها متعلقة بقوله: ﴿قَالُوا﴾، وهو يفضي إلى أن يكون المقصود من القصة قول الملائكة وذلك بعيد لأن المقصود من العبرة هو خطاب الله لهم وهو مبدأ العبرة وما تضمنته من تشريف آدم وتعليمه بعد الامتنان بإيجاد أصل نوع الناس الذي هو مناط العبرة من قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾، ولأنه لا يتأتى في نظيرها وهو قوله الآتي: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾، إذ وجود فاء التعقيب يمنع من جعل الظرف متعلقا بمدخولها، ولأن الأظهر أن قوله: ﴿قَالُوا﴾، حكاية للمراجعة والمحاورة على طريقة أمثاله كما سنحققه.

فالذي ينساق إليه أسلوب النظم فيه أن يكون العطف على جملة: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، أي: خلق لكم ما في الأرض وقال للملائكة إني خالق أصل الإنسان لما قدمناه من أن ذكر خلق ما في الأرض وكونه لأجلنا يهين السامع لترقب ذكر شأننا بعد ذكر شأن ما خلق لأجلنا من سماء وأرض، وتكون ﴿إِذْ﴾: على هذا مزيدة للتأكيد قاله أبو عبيدة معمر بن المنشى.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

وقول الله هذا موجه إلى الملائكة على وجه الإخبار ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني على وجه يزيل ما علم الله أنه في نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس، وليكون كالأستشارة لهم تكريما لهم فيكون تعليقا في قالب تكريم مثل إلقاء المعلم فائدة للتلميذ

في صورة سؤال وجواب وليس الاستشارة في الأمور، ولتنبيه الملائكة على ما دق وخفي من حكمة خلق آدم كذا ذكر المفسرون.

وأسندت حكاية هذا القول إلى الله سبحانه بعنوان الرب لأنه قول منبئ عن تدبير عظيم في جعل الخليفة في الأرض، ففي ذلك الجعل نعمة تدبير مشوب بلطف وصلاح وذلك من معاني الربوبية كما تقدم في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، ولما كانت هذه النعمة شاملة لجميع النوع أضيف وصف الرب إلى ضمير أشرف أفراد النوع وهو النبي محمد ﷺ مع تكريمه بشرف حضور المخاطبة.

وقال ﷺ: قوله ﷻ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، هذا جواب الملائكة عن قول الله لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فالتقدير: (فقالوا) على وزن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، وفصل الجواب ولم يعطف بالفاء أو الواو جريا به على طريقة متبعة في القرآن في حكاية المحاورات وهي طريقة عربية قال زهير:

قليل لهم ألا اركبوا ألاتا ... قالوا جميعا كلهم آلافا

أي فاركبوا ولم يقل: (فقالوا).

وقال رؤبة بن العجاج:

قالت بنات العم يا سلمى وإن ... كان فقيرا معدما قالت وإن

وإنما حذفوا العاطف في أمثاله كراهية تكرير العاطف بتكرير أفعال القول، فإن المحاورة تقتضي الإعادة في الغالب، فطردوا الباب فحذفوا العاطف في الجميع وهو كثير في التنزيل وربما عطفوا ذلك بالفاء لنكتة تقتضي مخالفة الاستعمال، وإن كان العطف بالفاء هو الظاهر والأصل، وهذا مما لم أسبق إلى كشفه من أساليب الاستعمال العربي.

(١) الآية: رقم ١ من سورة الفاتحة.

وبما عطف بالفاء قوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٣٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴿١﴾، وقد يعطف بالواو أيضا كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ﴿٢﴾، وذلك إذا لم يكن المقصود حكاية التحاور بل قصد الإخبار عن أقوال جرت أو كانت الأقوال المحكية مما جرى في أوقات متفرقة أو أمكنة متفرقة، وليس قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ﴾: جوابا لـ ﴿إِذْ﴾ عاملا فيها لما قدمناه آنفا، وتكرير ضمير ﴿الْأَرْضِ﴾: للاهتمام بها والتذكير بشأن عمرائها وحفظ نظامها ليكون ذلك أدخل في التعجب من استخلاف آدم عليه السلام وفي صرف إرادة الله تعالى عن ذلك إن كان في الاستشارة اثتار، وقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، دليل على أنهم علموا أن مراد الله تعالى من خلق الأرض هو صلاحها وانتظام أمرها، وإلا لما كان للاستفهام المشوب بالتعجب موقع، وهم علموا مراد الله تعالى ذلك من تلقينهم عنه سبحانه أو من مقتضى حقيقة الخلافة أو من قرائن أحوال الاعتناء بخلق الأرض وما عليها على نظم تقتضي إرادة بقائها إلى أمد، وقد دلت آيات كثيرة على أن إصلاح العالم مقصد للشارع، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٣﴾ وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ ﴿٤﴾.

ولا يرد هنا أن هذا القول غيبية وهم منزهون عنها لأن ذلك العالم ليس عالم تكليف ولأنه لا غيبية في مشورة ونحوها كالخطبة والتجريح لتوقف المصلحة على ذكر ما في المستشار في شأنه من النقائص، ورجحان تلك المصلحة على مفسدة ذكر أحد بما يكره، ولأن الموصوف بذلك غير معين إذ الحكم على النوع، فانتفى جميع ما يترتب على الغيبة

(١) الآيتان رقم ٢٣-٢٤ من سورة المؤمنون.

(٢) الآيتان رقم ٣٢-٣٣ من سورة المؤمنون.

(٣) الآيتان رقم ٢٢-٢٣ من سورة محمد.

(٤) الآية رقم ٢٠٥ من سورة البقرة.

من المفسد في واقعة الحال فلذلك لم يحجم عنها الملائكة.

قوله ﷻ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، الواو: متعينة للحالية إذ لا موقع للعطف هنا وإن كان ما بعد الواو من مقولهم ومحكي عنهم لكن الواو من المحكي وليست من الحكاية، لأن قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون الغرض منه تفويض الأمر إلى الله تعالى واتهام علمهم فيما أشاروا به كما يفعل المستشار مع من يعلم أنه أسد منه رأيا وأرجح عقلا فيشير ثم يفوض كما قال أهل مشورة بلقيس إذ قالت: ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (٣٣) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ (١)، أي: الرأي أن نحاربه ونصده عما يريد من قوله: ﴿وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٢)، ثم قالوا: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (٣)، وكما يفعل التلميذ مع الأستاذ في بحثه معه ثم يصرح بأنه مبلغ علمه، وأن القول الفصل للأستاذ، أو هو إعلان بالتنزيه للخالق عن أن يخفى عليه ما بدا لهم من مانع استخلاف آدم، وبراءة من شائبة الاعتراض، والله تعالى وإن كان يعلم براءتهم من ذلك إلا أن كلامهم جرى على طريقة التعبير عما في الضمير من غير قصد إعلام الغير، أو لأن في نفس هذا التصريح تبركا وعبادة، أو إعلان لأهل الملأ الأعلى بذلك.

الاحتمال الثاني: أن يكون الغرض من قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ التعريض بأنهم أولى بالاستخلاف لأن الجملة الإسمية دلت على الدوام وجملة: ﴿مَنْ يُفْسِدْ فِيهَا﴾، دلت على توقع الفساد والسفك، فكان المراد أن استخلافه يقع منه صلاح وفساد، والذين لا يصدر منهم عصيان مراد الله هم أولى بالاستخلاف ممن يتوقع منه الفساد، فتكون حالا مقرررة لدلول جملة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ﴾ تكملة للاستغراب، وعاملها هو تجعل،

(١) الآية رقم ٣٣ من سورة النمل.

(٢) الآية رقم ٣١ من سورة النمل.

(٣) الآية رقم ٣٣ من سورة النمل.

والعامل في الحال هو: الاستفهام لأنه مما تضمن معنى الفعل لا سيما إذا كان المقصود منه التعجب أيضا إذ تقدير أتجعل فيها إلخ نتعجب من جعله خليفة.

وقال ﷺ: وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَادُمْ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، لما دخل هذا القول في جملة المحاورة جردت الجملة من الفاء أيضا كما تقدم في نظائره، لأنه وإن كان إقبالا بالخطاب على غير المخاطبين بالأقوال التي قبله فهو بمثابة خطاب لهم، لأن المقصود من خطاب آدم بذلك أن يظهر عقبه فضله عليهم في العلم من هاته الناحية، فكان الخطاب بمنزلة أن يكون مسوقا إليهم لقوله عقب ذلك: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وابتداء خطاب آدم بندائه مع أنه غير بعيد عن سماع الأمر الإلهي للتنويه بشأن آدم وإظهار اسمه في الملأ الأعلى، حتى ينال بذلك حسن السمعة مع ما فيه من التكریم عند الأمر، لأن شأن الأمر والمخاطب (بالكسر) إذا تلطف مع المخاطب (بالفتح)، أن يذكر اسمه ولا يقتصر على ضمير الخطاب حتى لا يساوي بخطابه كل خطاب، ومنه ما جاء في حديث الشفاعة بعد ذكر سجود النبي ﷺ وحمده الله بمحامد يلهمه إياها فيقول: (يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع)^(١).

وقال ﷺ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، عطف على جملة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، عطف القصة على القصة، وإعادة ﴿إِذْ﴾ بعد حرف العطف المغني عن إعادة ظرفه، تنبيه على أن الجملة مقصودة بذاتها، لأنها متميزة بهذه القصة العجيبة فجاءت على أسلوب يؤذن بالاستقلال والاهتمام، ولأجل هذه المراعاة لم يأت بهذه القصة معطوفة بفاء التفریع فيقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، وإن كان مضمونها في الواقع متفرعا على مضمون التي قبلها فإن أمرهم بالسجود لآدم ما كان إلا لأجل ظهور مزيتهم عليهم، إذ علم ما لم يعلموه وذلك ما اقتضاه ترتيب ذكر هذه القصص

(١) الحديث: في صحيح البخاري ومسلم عن صفية رضي الله عنها.

بعضها بعد بعض، ابتداء من خلق السماوات والأرض وما طرأ بعده من أطوار أصول العامرين الأرض وما بينها وبين السماء، فإن الأصل في الكلام أن يكون ترتيب نظمه جاريا على ترتيب حصول مدلولاته في الخارج ما لم تنصب قرينة على مخالفة ذلك.

ولا يريك قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَاطِلِ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾، لأن تلك حكى القصة بإجمال فطوت أنباءها طيا جاء تبينه في ما تكرر منها في آيات أخرى وأوضحها أية البقرة لاقتضاء الآية السابقة أن فضيلة آدم عليه السلام لم تظهر للملائكة إلا بعد تعليمه الأسماء وعرضها عليهم وعجزهم عن الإنباء بها وأنهم كانوا قبل ذلك مترقين بيان ما يكشف ظنهم بآدم عليه السلام أن يكون مفسدا في الأرض بعد أن لازموا جانب التوقف لما قال الله لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فكان إنباء آدم عليه السلام بالأسماء عند عجزهم عن الإنباء بها بيانا لكشف شبهتهم فاستحقوا أن يأتوا بها فيه معذرة عن عدم علمهم بحقه.

وقد أريد من هذه القصة إظهار مزية نوع الإنسان وأن الله تعالى يخص أجناس مخلوقاته وأنواعها بما اقتضته حكمته من الخصائص والمزايا لئلا يخلو شيء منها عن فائدة من وجوده في هذا العالم وإظهار فضيلة المعرفة، وبيان أن العالم حقيق بتعظيم من حوله إياه وإظهار ما للنفوس الشريرة الشيطانية من الخبث والفساد، وبيان أن الاعتراف بالحق من خصال الفضائل الملائكية، وأن الفساد والحسد والكبر من مذام ذوي العقول.

والقول في إعراب ﴿إِذْ﴾: كالقول الذي تقدم في تفسير قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وإظهار لفظ الملائكة ولفظ آدم هنا دون الإتيان بضميرهما كما في قوله: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُم﴾، لتكون القصة المعطوفة معنونة بمثل عنوان القصة المعطوف عليها إشارة إلى جدارة المعطوفة بأن تكون قصة مقصورة غير مندمجة في القصة التي قبلها.

وغير أسلوب إسناد القول إلى الله فأتي به مسندا إلى ضمير العظمة وإذ قلنا وأتى به في الآية السابقة مسندا إلى رب النبي، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾، للتفنن ولأن القول هنا: تضمن أمرا بفعل فيه غضاضة على المأمورين فناسبه إظهار عظمة الأمر، وأما القول السابق بمجرد إعلام من الله تعالى بمراده ليظهر رأيهم، ولقصد اقتران الاستشارة بمبدأ تكوين الذات الأولى من نوع الإنسان المحتاج إلى التشاور، فناسبه الإسناد إلى الموصوف بالربوبية المؤذنة بتدبير شأن الربوبين، وأضيف إلى ضمير أشرف الربوبين وهو النبي ﷺ كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

٤٠_ وقال الإمام أبو زهرة رحمته الله ^(١) في تفسيره (زهرة التفاسير): قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

وقبل أن نتعرف القصة الحقيقية التي صورها القرآن لخلق الإنسان نذكر عوالم ثلاثة للعقلاء جاء ذكر بعضها في بيان علاقة الإنسان في خلقه وتكوينه بها.

وهذه العوالم الثلاثة هي:

الأول من هذه العوالم: هو عالم الملائكة: وهم خلق الله تعالى، قيل إنه سبحانه خلقهم من نور، وهم أرواح طاهرة مطهرة لا يعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يتصور منهم معصية ولا يكون منهم إلا الطاعة، ركب الله تعالى كونهم على أنه لا تتصور منهم معصية، فليست شهوات ولا أهواء، وهي بواعث العصيان.

والثاني من هذه العوالم: هو عالم الجن: وعبارات القرآن تدل على أنهم خلقوا من نار،

(١) الإمام أبو زهرة: هو محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، انظر: تعريف بالإمام الجليل محمد أبو زهرة، عن: زهرة التفاسير، لأبي زهرة، دار الفكر العربي، الأعلام، للزركلي: ج ٦ ص ٢٥ أبو زهرة عالم يعرف قدره، أحمد تمام، ملقني أهل الحديث بالشبكة العنكبوتية.

وقد ذكر ذلك إبليس الذي هو من الجن، فقال في غروره مفضلا نفسه على آدم: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾^(١)، وإبليس كان من الجن، ولكنه جن فاسق، فقد ذكر عنه ربه أنه: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(٢).

والجن يظهر أن فيهم أهواء وشهوات، ولذلك كان منهم العاصون، ومنهم العادلون المقسطون، وأنهم مكلفون، وأنهم سمعوا القرآن، وسمعوا من قبل توراة موسى، وقد قال تعالى فيهم: ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَىٰ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾^(٣)، إلى قوله تعالى: ﴿لَتَنفِخَنَّهُمْ فِيهِ وَهُمْ يُنصِتُونَ عَنِ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾^(٤).

والجن كما ذكر القرآن عالم غير عالم الملائكة، وغير عالم الإنسان، وتأويل القول فيهم أنهم من عالم الإنسان، وأنهم قبيلة منهم تأويل بغير دليل، يخالف ظاهر القرآن، وليس لقائله من سند إلا أن يكون تحريفا للقول عن مواضعه.

والثالث من هذه العوالم: هو عالم الإنسان: وقد خلق من سلالة من طين، والعالمان الخفيان، وهما عالم الملائكة وعالم الجن، تدل الآيات الكريئات على أنهما خلقا قبل العالم الثالث، وهو الإنسان، بدليل أن الملائكة ذكر الله تعالى لهم أنه جاعل الإنسان خليفة، وأنهم عجبوا أن يكون خليفة في الأرض من يفسد فيها

ويهلك الحرث، وبدليل أن إبليس الذي كان من الجن عصى ربه، فلم يسجد، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، والإنسان خلق فيه العقل المدرك الذي يرفعه إلى درجة الملائكة، وخلقت فيه الشهوة والهوى اللذان يجعلانه مفسدا فيها ويهلك الحرث والنسل، وذلك وجه استغرابهم، ولنذكر القصة الكاملة الحقيقية التي يصور الله تعالى

(١) الآية: رقم ١٢ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٥٠ من سورة الكهف.

(٣) الآية: رقم ١ من سورة الجن.

(٤) الآية: رقم ١٧ من سورة الجن.

فيها خلق هذا العالم الثالث، وهو الإنسان.

أعلم الله تعالى الملائكة وهم جمع ملك بأنه سيجعل في الأرض من يسكن ظاهرها، ويحكم فيها، وينسل فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أي: يكون ساكنها فيها بالخلافة عمن كانوا فيها، ولم يذكر سبحانه وتعالى: من كانوا فيها أهم كانوا من الملائكة أم كانوا من الجن، أم كانوا خلقا آخر، ولقد ترك الله سبحانه وتعالى ذكر من خلفهم، فلنسكت عما ترك، ولا نرجم بالغيب، حتى لا نطلب ما ليس لنا به علم.

وقد يقال إن: ﴿خَلِيفَةً﴾، معناها: الخلافة عن الله تعالى في الأرض، بمعنى أن الله تعالى بما أعطاه من قوة العقل والتفكير والتدبير، والسيطرة على نفسه، وعلى ما في الوجود، وما في الأرض، التي خلفه الله تعالى عليها ليكون خليفة خلافة نسبية عن الله تعالى، والله تعالى غالب على كل أمره، وأموره.

وقال ﷺ: ولذلك قالوا الربهم مستغربين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، لأنه ركبت فيه الشهوة وإذا غلبت أفسدت، وإن الشهوات إذا تحكمت كانت الأثرة، وكان التنازع، ومع التنازع سفك الدماء، ولذا قالوا: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، وقد كانوا مع اعتقادهم في الإنسان ذلك الاعتقاد أشاروا إلى أنهم أولى منه بالخلافة في الأرض من غير أن يعترضوا على الله تعالى في حكمه، بل أبدوا استغرابهم من أن الله تعالى يتركهم إلى المفسد السافك للدماء، وهم المسبحون بحمد الله المقدسون له، فقالوا مقابلين بين حالهم وحال الإنسان: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، أي: نحن نذكرك مديمين بحمدك على ما أنعمت، لأن ذاته العلية تستحق الحمد في ذاته، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نعظمك وننزهك لك أنت، أي: لأجل ذاتك العلية.

يبين الله تعالى لهم، أن الله يعلم ذلك، فيعلم أحوالهم وأنهم في تسييح دائم، وتقديس ملازم، ولكن في الإنسان ما يجعله جديرا بالخلافة في الأرض ليلوه فيما آتاه الله تعالى من

خيرها، فهو يعلمه ويعلمهم، ويعلم الجدير منهم بأن يجعله في الأرض، ولذلك قال تعالى ردا لاستغرابهم بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أعلم الجدير بما أعطي وغير الجدير.

وقد بين الله تعالى ما أودعه نفس الإنسان من العلم بالأشياء أو الاستعداد للعلم بها، أو أودع نفسه الاستعداد بعلمه بالأشياء كلها مما لا يعلمون هم.

وقال ﷺ: ﴿فَازِلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، ففي هذا النص الذي تدل عليه هذه الآيات الكرييات يبين سبحانه كيف كان الإغواء، وأنه جاء من جهة الترغيب في الاستعلاء والبقاء، فأوهمهما أن النهي كان لكيلا يكونا من الملائكة، مع أن آدم سجدت له الملائكة، ولكنها غفلا عن هذا، وأوهمهما أنها يكونان خالدين في الجنة إن أكلا.

وكانت النتيجة من الأكل أن بدت لهما سوءاتهما بعد الأكل من الشجرة، وادعى بعضهم أن هذا يدل على أنها شجرة الشهوة، ولكن لا دليل، فيبقى أمر الشجرة غير معلوم.

والأمر الذي ترتب على الأكل في آية البقرة وآية الأعراف هو الخروج من الجنة، والهبوط إلى الأرض، أي النزول من مكان أعلى منها، ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، أي: أمر التكوين كان لآدم وزوجه وإبليس، وقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، أي: أن إبليس عدو لكم فاحذروه، وإنه وذريته ينفثون في نفوس الناس الشر، فتكون العداوة الدائمة المستمرة، والتنازع والحروب.

قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: الأرض التي خلقها، وخلق لكم ما فيها جميعا ستكون مستقرا، أي: موضع قرار دائم، لا أن تكون مسكنا تتركونه، ويكون فيها متاعكم إلى حين، أي: إلى وقت أن تموتوا ثم تحيوا فيكون البعث والنشور، وهكذا كان الشيطان بعداوته طريق الخروج من جنة الله تعالى إلى أرضه.

وإن آدم عليه السلام أحس بأنه عصي ربه، وأنه ظلم نفسه، فألهمها الله تعالى أن يقرأ بالمعصية، وأن يطلبها منه سبحانه وتعالى غفران هذا العصيان، ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا

وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١﴾، هذه هي الكلمات التي تلقاها من ربهما.

٤١_ وقال الشيخ الجزائري رحمه الله (٢) في تفسيره (أيسر التفاسير): قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، واذكر أيها الرسول للناس حين قال ربك للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قوماً يخلف بعضهم بعضاً لعمارتها.

قالت: يا ربِّنا علِّمنا وأرشدنا ما الحكمة في خلق هؤلاء، مع أنَّ من شأنهم الإفساد في الأرض واراقة الدماء ظلماً وعدواناً ونحن طوع أمرك، ننزّهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك، ونمجّدك بكل صفات الكمال والجلال؟ قال الله لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من المصلحة الراجحة في خلقهم.

٤٢_ وقال الإمام حجازي محمد محمود رحمه الله (٣) في (التفسير الواضح): قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

المفردات:

﴿لِلْمَلَكِكَةِ﴾، الملائكة: خلق الله أعلم بهم، وقيل: هم أجسام نورانية لا يأكلون ولا يشربون، دأبهم الطاعة ليلاً ونهاراً، ﴿خَلِيفَةً﴾، الخليفة: من يخلفك ويقوم مقامك.
وقال حجازي محمد محمود: ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾: يريقها، ﴿تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، أي: ننزهك عن كل نقص متلبسين بحمدك والثناء عليك.

(١) الآية: رقم ٢٣ من سورة الأعراف.

(٢) الإمام الجزائري: هو جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، انظر: طريق الإسلام _ أبو بكر جابر الجزائري طريق السلف _ ترجمة الشيخ أبو بكر الجزائري.

(٣) حجازي: هو الحجازي، محمد محمود يوسف حجازي محمد هندي ولقبه المعروف به محمد الزكي، أحد شيوخ الأزهر ومدرسيه في التفسير وعلوم القرآن، انظر: تراجم شيوخ الأزهر في العصر الحديث.

﴿وَنَقَدْ سَأَلْنَاكَ﴾: نعظمك، القصة لون من ألوان الأدب العالي، وهي في القرآن الكريم لمعان سامية، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾^(١)، وهذه القصة فيها مدى تكريم الله لآدم وبنيه باختياره خليفة، وتعليمه ما لا تعلمه الملائكة، أفيلقُ منهم أن يقفوا من الله ورسله موقف الكفر والعناد؟ ومن هنا ندرك سر المناسبة بين الآيات، ولا تنس ما فيها من التسلية للنبي ﷺ حيث يرى موقف الملائكة الأطهار من الله سبحانه وتعالى.

المعنى: واذكري يا محمد لقومك قصة خلق أبيهم آدم حيث قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، يقوم بعمارتها وسكناها، ويقوم بعضهم بالزعامة والتوجيه وتنفيذ الأحكام حتى يعمر الكون، فقالت الملائكة: يا رب هذا الخليفة وبنوه تصدر أفعالهم عن إرادتهم واختيارهم، وهم لا يعلمون المصلحة الحقيقية لأن علمهم محدود، وقد خلقوا من طين فالمادة جزء منهم، ومن كان كذلك فهو إلى الخطأ أقرب فهو يفسد في الأرض، وأنت يا رب تريد عمارتها فيا رب! كيف تجعل فيها من يفسد فيها؟ (استفهام من لون التعليم لا الاعتراض)، ونحن أولى لأن أعمالنا تسبيحك وتقديسك، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٢)، فأجابهم المولى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، إني أعلم كيف تصلح الأرض وكيف تعمر ومن أصلح لعمارتها؟.

فهذا خلق فيه دواعي الخير والشر، فبالخير والشر تصلح الدنيا وتعمر، وبهذا تظهر حكمة إرسال الرسل.

وقال نجم الدين أبو الربيع الإشارات الإلهية في التفسيرات الأصولية: هو عام فيهم لم يخص، ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، يحتمل أنه: لتعريف الحقيقة، أو هو مجرد جمع لا للعموم، ويحتمل أنه: عام خصّ بالواقع بأن بني آدم لم يسفكوا كل دم، ثم إن الناس اختلفوا في

(١) الآية: رقم ١١١ من سورة يوسف.

(٢) الآية: رقم ٦ من سورة التحريم.

عصمة الملائكة؛ فأثبتها الجمهور ونفاها المعتزلة، متمسكين من هذه القصة بوجوه:

أحدها: قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾، وهو: استفهام إنكار، واعتراض على الله ﷻ وهو سوء أدب.

الثاني: قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ سُبْحٌ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهو: غيبة لبني آدم، وقذف لهم رجما بالغيب.

الثالث: قولهم: ﴿وَنَحْنُ سُبْحٌ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وهو: عجب منهم بأعمالهم، ومن منهم على الله ﷻ بها، وكل هذه أفعال تنافي العصمة.

الرابع: أن إبليس وهاروت وماروت من رؤسائهم وقد علم ما كان منهم مما ينافي العصمة فمن دونهم من الملائكة أولى.

الخامس: أن البشر أفضل من الملائكة عند كثير من الناس، ثم إنهم غير معصومين، فالملائكة الذين هم مفضولون أولى، واحتج الجمهور بوجوه:

أحدها: أن الملائكة رسل الله، لقوله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحٍ مَتَنَّى وَتِلْكَ رِبْعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

وقوله جل وعلا: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٢)، ورسَل الله ﷻ معصومون لقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾^(٣)، الثاني: قوله ﷻ في وصفهم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُم نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ

(١) الآية رقم ١ من سورة فاطر.

(٢) الآية رقم ٧٥ من سورة الحج.

(٣) الآية رقم ١٢٤ من سورة الأنعام.

وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ^(١)، وهو: معنى العصمة.

الثالث: أن المنافي للعصمة هو المعاصي، وهي: إنما تصدر عن الشهوة والغضب، وهم مجردون عنهما؛ فكانوا معصومين عنها، قالوا: وهذه الوجوه قواطع في عصمتهم، وما ذكره المعتزلة في نفيها ما بين ممنوع أو ظاهر لا يعارض القاطع.

٤٣- وقال الإمام الزحيلي رحمه الله في تفسيره (التفسير المنير): قوله عَلَيْكَ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

الإعراب في الآية:

﴿وَإِذْ﴾: ظرف زمان ماضٍ، منصوب بإضمار فعل مقدر تقديره: اذكر، ويجوز أن يتنصب بـ ﴿قَالُوا﴾.

وهو: مبني لتضمنه معنى الحرف، لأن كل ظرف لا بد فيه من تقدير حرف، وهو: (في)، أو: لأنه يشبه الحرف في أنه لا يفيد مع كلمة واحدة، وهو: مبني على السكون، لأنه الأصل في البناء، وإذ للماضي، وإذا للمستقبل، وقد توضع إحداها موضع الأخرى، ﴿جَاعِلٌ﴾: من جعل الذي له مفعولان، دخل على المبتدأ والخبر، وهما قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فكانا: مفعوليه، ﴿أَتَجَعَلُ﴾: تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، ﴿وَنَحْنُ﴾: للحال، ﴿بِحَمْدِكَ﴾، الباء هنا: تسمى باء الحال، والمعنى: نسبحك حامدين لك، ومتلبسين بحمدك، لأنه لولا إنعامك علينا بالتوفيق واللفظ، لم تتمكن من عبادتك.

(١) الآية: رقم ٦ من سورة التحريم.

(٢) الزحيلي: هو وهبة بن مصطفى الزحيلي الدمشقي (١٩٣٢ - ٨ أغسطس ٢٠١٥)، أحد أبرز علماء أهل السنة والجماعة من سوريا في العصر الحديث، عضو المجامع الفقهية بصفة خير في مكة وجدة والهند وأمريكا والسودان. ورئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه بجامعة دمشق، كلية الشريعة.

البلاغة في الآية:

﴿رَبُّكَ﴾: إضافته إلى الرسول ﷺ للتشريف والتكريم لمقامه للملائكة تقديم الجار والمجرور على المقول للاهتمام.

٤٤_ وقال الأستاذ سيد قطب رحمه الله^(١) في تفسيره: (في ظلال القرآن): قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

قال عليه رحمة الله: يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدي بها، تنسيقاً للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه، وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب.

ويحسب أناس أن هنالك تكراراً في القصص القرآني، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتى، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق، وأنه حينما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه، ينفي حقيقة التكرار.

ويزيغ أناس فيزعمون أن هنالك خلقاً للحوادث أو تصرفاً فيها، يقصده به إلى مجرد الفن، بمعنى: التزييق الذي لا يتقيد بواقع، ولكن الحق الذي يلمسه كل من ينظر في هذا القرآن، وهو مستقيم الفطرة، مفتوح البصيرة، هو أن المناسبة الموضوعية هي التي تحدد

(١) الأستاذ سيد قطب: بن إبراهيم حسين الشاذلي (٩ أكتوبر ١٩٠٦ م - ٢٩ أغسطس ١٩٦٦ م) كاتب وأديب ومنظر إسلامي مصري، انظر: الشهيد سيد قطب: (١٣٢٤ - ١٣٨٦ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٦٦ م)، إخوان أون لاين نسخة محفوظة ٠١ يونيو ٢٠٠٨.

القدر الذي يعرض من القصة في كل موضع، كما تحدد طريقة العرض وخصائص الأداء. والقرآن كتاب دعوة، ودستور نظام، ومنهج حياة، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ، وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار، بالقدر وبالطريقة التي تناسب الجو والسياق، وتحقق الجمال الفني الصادق، الذي لا يعتمد على الخلق والتزويق، ولكن يعتمد على إبداع العرض، وقوة الحق، وجمال الأداء.

وقصص الأنبياء في القرآن يمثل موكب الإيمان في طريقه الممتد الواصل الطويل، ويعرض قصة الدعوة إلى الله واستجابة البشرية لها جيلاً بعد جيل؛ كما يعرض طبيعة الإيمان في نفوس هذه النخبة المختارة من البشر، وطبيعة تصورهم للعلاقة بينهم وبين ربهم الذي خصهم بهذا الفضل العظيم.

وتتبع هذا الموكب الكريم في طريقه اللاحب يفيض على القلب رضى ونوراً وشفافية؛ ويشعره بنفاسة هذا العنصر العزيز (عنصر الإيمان) وأصالته في الوجود، كذلك يكشف عن حقيقة التصور الإيماني ويميزه في الحس من سائر التصورات الدخيلة، ومن ثم كان القصص شطراً كبيراً من كتاب الدعوة الكريم.

فلننظر الآن في قصة آدم عليه السلام كما جاءت هنا في ضوء هذه الإيضاحات.

إن السياق فيما سبق يستعرض موكب الحياة، بل موكب الوجود كله، ثم يتحدث عن الأرض في معرض آلاء الله على الناس، فيقرر أن الله خلق كل ما فيها لهم، فهنا في هذا الجو تجيء قصة استخلاف آدم في الأرض، ومنحه مقاليدها، على عهد من الله وشرط، وإعطائه المعرفة التي يعالج بها هذه الخلافة، كما أنها تمهد للحديث عن استخلاف بني إسرائيل في الأرض بعهد من الله؛ ثم عزلهم عن هذه الخلافة وتسليم مقاليدها للأمة المسلمة الوافية بعهد الله كما سيجيء فتتسق القصة مع الجو الذي تساق فيه كل الاتساق.

فلنعش لحظات مع قصة البشرية الأولى وما وراءها من إحياءات أصيلة:

ها نحن أولاء بعين البصيرة في ومضات الاستشراف في ساحة الملاء الأعلى؛ وها نحن أولاء نسمع ونرى قصة البشرية الأولى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

وإذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود، زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحويل والتبديل؛ وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله بإذن الله في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه.

وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة، والاستعدادات المذخورة كفاء ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات؛ ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية.

وإذن فهنالك وحدة أو تناسق بين النواميس التي تحكم الأرض وتحكم الكون كله، والنواتميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته، كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك؛ وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة!

وإذن فهي منزلة عظيمة، منزلة هذا الإنسان، في نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة، وهو التكريم الذي شاء له خالقه الكريم.

هذا كله بعض إيجاء التعبير العلوي الجليل: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، حين نتملاه اليوم بالحس اليقظ والبصيرة المفتوحة، ورؤية ما تم في الأرض على يد هذا الكائن المستخلف في هذا الملك العريض!

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ويوحى قول الملائكة هذا بأنه كان لديهم من شواهد الحال، أو من تجارب سابقة في الأرض، أو من إلهام البصيرة، ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق، أو من

مقتضيات حياته على الأرض؛ وما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون أنه سيفسد في الأرض، وأنه سيسفك الدماء، ثم هم بفطرة الملائكة البريئة التي لا تتصور إلا الخير المطلق، وإلا السلام الشامل يرون التسييح بحمد الله والتقديس له، هو وحده الغاية المطلقة للوجود، وهو وحده العلة الأولى للخلق، وهو متحقق بوجودهم هم، يسبحون بحمد الله ويقدمون له، ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته.

لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا، في بناء هذه الأرض وعمايتها، وفي تنمية الحياة وتنويعها، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها على يد خليفة الله في أرضه، هذا الذي قد يفسد أحياناً، وقد يسفك الدماء أحياناً، ليتم من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر خير أكبر وأشمل، خير النمو الدائم، والرقى الدائم، خير الحركة الهادمة البانية، خير المحاولة التي لا تكف، والتطلع الذي لا يقف، والتغيير والتطوير في هذا الملك الكبير.

عندئذ جاءهم القرار من العليم بكل شيء، والخير بمصائر الأمور: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٤٥- وقال الإمام الألويسي رحمته الله ^(١) في تفسيره (روح المعاني): قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، لما امتن سبحانه على من تقدم بما تقدم أتبع ذلك بنعمة عامة، وكرامة تامة، والإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، والولد سر أبيه، وإذ ظرف زمان للماضي مبني لشبهه بالحرف وضعاً وافتقاراً، ويكون ما بعدها جملة فعلية أو اسمية، ويستفاد الزمان منها بأن يكون ثاني جزأها فعلاً، أو يكون مضمونها

(١) الإمام الألويسي: هو شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني فقيه ومفسر ومحدث، انظر: الدر المنثور ص ٣٨ ألب الألباب ج ٢ ص ٣١٨ أحمد شكري وآراءه اللغوية ص ٢٨، أعلام العراق ص ٨٥، ٣٤١ أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث لأحمد تيمور باشا ص ٣١١.

مشهوراً بالوقوع في الزمان المعين، وإذا دخلت على المضارع قلبته إلى الماضي، وهي ملازمة للظرفية، إلا أن يضاف إليها زمان، وفي وقوعها مفعولاً به، أو حرف تعليل أو مفاجأة، أو ظرف مكان، أو زائدة، خلاف، وفي البحر إنها لا تقع، وإذا استفيد شيء من ذلك فمن المقام، واختلف العربون فيها هنا، فقليل: زائدة، وبمعنى: قد، وفي موضع رفع، أي: ابتداء خلقكم إذ، وفي موضع نصب بمقدر، أي: ابتداء خلقكم، أو أحياءكم، إذ، ويعتبر وقتاً ممتداً لا حين القول، ويقال: بعدها، ومعمول ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾ المتقدم، (والواو): زائدة، والفصل بما يكاد أن يكون سورة، ومتعلق ب(اذكر)، ويكفي في صحة الظرفية ظرفية المفعول ك(رمى) الصيد في الحرم.

٤٦_ وقال الشيخ ابن باز رحمه الله (١): قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، الآية الكريمة تدل على أن الله جل وعلا جعل هذا الإنسان وهو آدم عليه السلام خليفة في الأرض عمن كان فيها من أهل الفساد وعدم الاستقامة، وقول الملائكة يدل على أنه كان هناك قوم يفسدون في الأرض فبنت ما قالت على ما جرى في الأرض، أو لأسباب أخرى اطلعت عليها فقالت ما قالت، فأخبرهم الله بأنه يعلم ما لا تعلمه الملائكة، وأن هذا الخليفة يحكم في الأرض بشرع الله ودين الله، وينشر الدعوة إلى توحيده والإخلاص له والإيمان به، وهكذا ذريته بعده يكون فيهم الأنبياء، ويكون فيهم الرسل والأخيار والعلماء الصالحون والعباد المخلصون إلى غير ذلك مما حصل في الأرض من

(١) الشيخ ابن باز: هو عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله آل باز، انظر: ابن باز بين القرطاس والقلم، نجيب بن محمد الخطيب، نادي القصيم الأدبي، بريدة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، الممتاز في مناقب الشيخ ابن باز، عائض بن عبد الله القرني، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، علامة الأمة ابن باز: دراسة في المنهج والعمل، سليمان بن عبد الله الطريم، دار الصميعي، الرياض، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، منهج الإمام عبد العزيز بن باز في الدعوة إلى الله، د. محمد بن خالد البдах، مركز ابن باز العلمي العالمي، دار الفضيلة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

العبادة لله وحده وتحكيم شريعته، والأمر بما أمر به، والنهي عما نهى عنه، هكذا جرى من الأنبياء والرسل والعلماء الصالحين والعباد المخلصين إلى غير ذلك، وظهر أمر الله في ذلك، وعلمت الملائكة بعد ذلك هذا الخير العظيم.

ويقال: إن الذي قبل آدم إنهم طوائف من الناس ومن الخليقة يقال لهم: الجن والخن، وبكل حال فهو خليفة لمن مضى قبله وصار قبله في أرض الله ممن يعلمهم الله، وليس لدينا أدلة قاطعة في بيان من كان هناك قبل آدم وصفاتهم وأعمالهم، ليس هناك ما يبين هذا الأمر، لكن جعله خليفة يدل على أن هناك من قبله في الأرض فهو يخلفهم في إظهار الحق وبيان شريعة الله التي شرع له، وبيان ما يرضي الله ويقرب لديه، وينهى عن الفساد فيها، وهكذا من جاء بعده من ذريته قاموا بهذا الأمر العظيم من الأنبياء والصالحاء

والأخيار دعوا إلى الحق، ووضحوا الحق، وأرشدوا إلى دين الله، وعملوا الأرض بطاعة الله وتوحيده والحكم بشريعته، وأنكروا على من خالف ذلك.

٤٧_ وجاء في تفسير ابن عثيمين^(١): قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾: قال العربون: ﴿وَإِذْ﴾: مفعول لفعل محذوف؛ والتقدير: اذكر إذ قال؛ والخطاب في قوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾: للنبي ﷺ؛ ولما كان الخطاب له صارت الربوبية هنا من أقسام الربوبية الخاصة..

قوله تعالى: ﴿لِلْمَلٰٓئِكَةِ﴾: اللام: للتعدية، أي: تعدية القول للمقول له؛ و(الملائكة):

(١) الشيخ ابن عثيمين: هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن العثيمين الوهبي التميمي، انظر الموقع الرسمي لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين، لمحات من حياة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين، متعب بن عبد الرحمن القبيسي، رئاسة الحرس الوطني، مدرسة عمار بن ياسر الابتدائية، الاحساء، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص ٦-٧.

جمع (مَلَك)، وأصله (مَأْلَك)؛ لأنه مشتق من الألوكة، وهي: الرسالة؛ لكن صار فيها إعلال بالنقل، أي: نقل حرف مكان حرف آخر؛ مثل أشياء أصلها: (شيئاء)؛ و(الملائكة): عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، وجعل لهم وظائف، وأعمالاً مختلفة؛ فمنهم الموكل بالوحي كجبريل عليه السلام؛ وبالقطر، والنبات كميكائيل عليه السلام؛ وبالنفخ في الصور كإسرافيل عليه السلام؛ وبأرواح بني آدم كملك الموت، إلى غير ذلك من الوظائف، والأعمال..

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، خليفة يخلف الله؛ أو يخلف من سبقه؛ أو يخلف بعضهم بعضاً يتناسلون، على أقوال:

أما القول الأول: فيحتمل أن الله: أراد من هذه الخليفة؛ آدم، وبنيه أن يجعل منهم الخلفاء يخلفون الله تعالى في عبادته بإبلاغ شريعته، والدعوة إليها، والحكم بين عبادته؛ لا عن جهل بالله سبحانه وتعالى؛ وحاشاه من ذلك، ولا عن عجز؛ ولكنه يمنّ على من يشاء من عبادته، كما قال تعالى: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾، فهو خليفة يخلف الله عزّ وجلّ في الحكم بين عبادته..

والقول الثاني: أنهم يخلفون من سبقهم؛ لأن الأرض كانت معمورة قبل آدم عليه السلام؛ وعلى هذا الاحتمال تكون ﴿خَلِيفَةً﴾، هنا بمعنى: الفاعل؛ وعلى الأول بمعنى المفعول..
والقول الثالث: أنه يخلف بعضهم بعضاً؛ بمعنى: أنهم يتناسلون: هذا يموت، وهذا يحيى؛ وعلى هذا التفسير تكون: ﴿خَلِيفَةً﴾، صالحة لاسم الفاعل، واسم المفعول..

كل هذا محتمل؛ وكل هذا واقع.

وقال عليه السلام: لكن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، يرجح أنهم خليفة لمن سبقهم، وأنه كان على الأرض مخلوقات قبل ذلك تسفك الدماء، وتفسد فيها، فسألت الملائكة ربها عزّ وجلّ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، كما فعل من قبلهم، واستفهام الملائكة للاستطلاع والاستعلام، وليس للاعتراض؛ قال

تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: وستتغير الحال؛ ولا تكون كالتي سبقت.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ أي نُنْزِّهه؛ والذي يُنْزِّهه الله عنه شيئان؛ أولاً: النقص؛ والثاني: النقص في كماله؛ وزد ثالثاً إن شئت: مماثلة المخلوقين؛ كل هذا يُنْزِّهه الله عنه؛ فالنقص: مطلقاً؛ يعني أن كل صفة نقص لا يمكن أن يوصف الله بها أبداً، لا وصفاً دائماً، ولا خبراً؛ والنقص في كماله: فلا يمكن أن يكون في كماله نقص؛ قدرته: لا يمكن أن يعثرها عجز؛ قوته: لا يمكن أن يعثرها ضعف؛ علمه: لا يمكن أن يعثره نسيان...

وهلم جراً؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُثُوبٍ﴾^(١)، أي: تعب، وإعياء؛ فهو عز وجل كامل الصفات لا يمكن أن يعثر كماله نقص؛ ومماثلة المخلوقين: هذه إن شئنا أفردناها بالذكر؛ لأن الله تعالى أفرداها بالذكر، فقال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَقْرَأُ لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾^(٤)، وإن شئنا جعلناها داخلة في القسم الأول، النقص، لأن تمثيل الخالق بالمخلوق يعني النقص؛ بل المفاضلة بين الكامل والناقص تجعل الكامل ناقصاً، كما قال القائل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فلو قلت: فلان عنده سيف أمضى من العصا تبين أن السيف هذا رديء، وليس بشيء؛ فربما نفرد هذا القسم الثالث، وربما ندخله في القسم الأول.

وعلى كل حال التسبيح ينبغي لنا عندما نقول: (سبحان الله)، أو: (أصبح الله)، أو ما أشبه ذلك أن نستحضر هذه المعاني..

(١) الآية رقم ٣٨ من سورة ق.

(٢) الآية رقم ١١ من سورة الشورى.

(٣) الآية رقم ٢٧ من سورة الروم.

(٤) الآية رقم ٧٤ من سورة النحل.

قوله تعالى: ﴿وَبِحَمْدِكَ﴾، قال العلماء: الباء هنا: للمصاحبة، أي تسييحاً مصحوباً بالحمد مقروناً به؛ فتكون الجملة متضمنة لتتزيه الله عن النقص، وإثبات الكمال لله بالحمد؛ لأن الحمد: وصف المحمود بالكمال محبة، وتعظيماً؛ فإن وصفت مرة أخرى بكمال فسَمَّه ثناءً؛ والدليل على هذا ما جاء في الحديث الصحيح أن الله تعالى قال: (قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ؛ فَإِذَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال تعالى: حمدي عبدي؛ وإذا قال: [الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ]، قال تعالى: أثني عليّ عبدي^(١)، لأن نفي النقص يكون قبل إثبات الكمال من أجل أن يَرِدَ الكمال على محل خالٍ من النقص..

قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ﴾: التقديس معناه: التطهير؛ وهو أمر زائد على التزيه؛ لأن التزيه: تبرئة، وتخلية؛ والتطهير: أمر زائد؛ ولهذا نقول في دعاء الاستفتاح: (اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب؛ اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس؛ اللهم اغسلني بالماء، والثلج، والبرد)^(٢)، فالأول: طلبُ المباحدة؛ والثاني: طلب التنقية، يعني: التخلية بعد المباحدة؛ والثالث: طلب الغسل بعد التنقية حتى يزول الأثر بالكلية؛ فيجمع الإنسان بين تزيه الله عز وجل عن كل عيب ونقص، وتطهيره، أنه لا أثر إطلاقاً لما يمكن أن يعلق بالذهن من نقص..

قوله تعالى: ﴿لَكَ﴾، اللام: هنا للاختصاص؛ فتفيد الإخلاص؛ وهي أيضاً: للاستحقاق، لأن الله جلّ وعلا أهل لأن يقُدّس، أجابهم الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: من أمر هذه الخليفة التي سيكون منها النبيون، والصدّيقون، والشهداء، والصالحون.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الجهاد والسير)، برقم: ٢٦٤٤، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان)، برقم: ٤٣.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩ كتاب الآذان باب ٨٤ رفع اليدين إذا كبر وإذا ركع وإذا رفع حديث ٧٤٤ وأخرجه مسلم ص ١٧٧ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب ٢٧ باب يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة حديث ١٣٥٤ (١٤٧) ٥٩٨ واللفظ لمسلم.

أقوال المفسرين فيه آيات القصة

فيه سورة الأعراف

١_ وقال الإمام الطبري رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِلْآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ^(١)، قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: تأويل ذلك: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾، في ظهر آدم، أيها الناس، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، في أرحام النساء.

خلقاً مخلوقاً ومثلاً ومثلاً في صورة آدم.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، قوله: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾، يعني: آدم عليه السلام، وأما: ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، فذريته.

وعن الربيع رحمه الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾، يعني: آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، يعني: في الأرحام.

وعن الضحاك رحمه الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، قال: ذريته.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾، في أصلاب آبائكم، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، في بطون أمهاتكم.

فعن عكرمة رحمه الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، قال: خلقناكم في أصلاب الرجال،

(١) الآية رقم ١١ من سورة الأعراف.

وصورناكم في أرحام النساء، وذكر ذلك عن عكرمة وعن سفيان عن الأعمش.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ﴿خَلَقْتَكُمْ﴾، يعني: آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ﴾، يعني: في ظهره.

فعن مجاهد رضي الله عنه، في قول الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ﴾، قال: آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ﴾، قال: في ظهر آدم عليه السلام، وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ﴾، في بطون أمهاتكم، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ﴾، فيها.

وعن معمر، عن ذكره قال: ﴿خَلَقْتَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ﴾، قال: خلق الله الإنسان في الرحم، ثم صورّه، فشق سمعه وبصره وأصابعه.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: تأويله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ﴾، ولقد خلقنا آدم، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ﴾، بتصويرنا آدم عليه السلام، كما قد بينا فيما مضى من خطاب العرب الرجل بالأفعال تضيفها إليه، والمعنى في ذلك سلفه^(١)، وكما قال جل ثناؤه لمن بين أظهر المؤمنين من اليهود على عهد رسول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢).

وما أشبه ذلك من الخطاب الموجه إلى الحي الموجود، والمراد به السلف المعدوم، فكذاك ذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ﴾، معناه: ولقد خلقنا أباكم آدم ثم صورناه.

وإنما قلنا هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب، لأن الذي يتلو ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، ومعلوم أن الله تبارك وتعالى قد أمر الملائكة بالسجود

(١) انظر هذا من خطاب العرب فيما سلف ٢: ٣٨، ٣٩ ثم ص: ١٦٤، ١٦٥، ومواضع أخرى بعد ذلك في فهرس مباحث العربية والنحو وغيرها.

(٢) الآية رقم ٦٣ من سورة البقرة.

لآدم، قبل أن يصوّر ذريته في بطون أمهاتهم، بل قبل أن يخلق أمهاتهم.

و﴿ثُمَّ﴾: في كلام العرب لا تأتي إلا بإيدان انقطاع ما بعدها عما قبلها، وذلك كقول القائل: (قمت ثم قعدت)، ولا يكون (العود) إذ: عطف به بـ﴿ثُمَّ﴾ على قوله: (قمت) إلا بعد القيام، وكذلك ذلك في جميع الكلام.

ولو كان العطف في ذلك بالواو، جاز أن يكون الذي بعدها قد كان قبل الذي قبلها، وذلك كقول القائل: (قمت وقعدت)، فجاز أن يكون: (العود) في هذا الكلام قد كان قبل (القيام)، لأن الواو تدخل في الكلام إذا كانت عطفًا، لتوجب للذي بعدها من المعنى ما وجب للذي قبلها، من غير دلالة منها بنفسها على أن ذلك كان في وقت واحد أو وقتين مختلفين، أو إن كانا في وقتين، أيهما المتقدم وأيها المتأخر.

فلما وصفنا قلنا إن قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، لا يصح تأويله إلا على ما ذكرنا.

وأما قوله للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لِلْآدَمِ﴾، فإنه يقول جل ثناؤه: فلما صوّرنا آدم عليه السلام وجعلناه خلقًا سويًّا، ونفخنا فيه من روحنا، قلنا للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لِلْآدَمِ﴾، ابتلاء منا واختبارًا لهم بالأمر، ليعلم الطائع منهم من العاصي، ﴿فَسَجَدُوا﴾، يقول: فسجد الملائكة، إلا إبليس فإنه لم يكن من الساجدين لآدم، حين أمره الله مع مَنْ أَمَرَ من سائر الملائكة غيره بالسجود.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾^(١).

قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قيله لإبليس، إذ عصاه فلم يسجد لآدم إذ أمره بالسجود له، يقول: قال الله لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾، أي شيء منعك ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾، أن تدع السجود لآدم عليه السلام ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، أن تسجد، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، يقول: قال

(١) الآية رقم ١٢ من سورة الأعراف.

إبليس: أنا خير من آدم، ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

فإن قال قائل: أخبرنا عن إبليس، ألحقته الملامة على السجود، أم على ترك السجود؟ فإن تكن ألحقته الملامة على ترك السجود، فكيف قيل له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟ وإن كان النكير على السجود، فذلك خلاف ما جاء به التنزيل في سائر القرآن، وخلاف ما يعرفه المسلمون!

قيل: إن الملامة لم تلحق إبليس إلا على معصيته ربه بتركه السجود لآدم إذ أمره بالسجود له.

غير أن في تأويل قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، بين أهل المعرفة بكلام العرب اختلافًا، أبدأ بذكر ما قالوا، ثم أذكر الذي هو أولى ذلك بالصواب.

فقال بعض نحويي البصرة: معنى ذلك: ما منعك أن تسجد، و(لا) ها هنا: زائدة، كما قال الشاعر:

أَبَى جُودُهُ لَا الْبُخْلَ، وَاسْتَعْجَلَتْ بِهِ... نَعَمْ، مِنْ فَتَى لَا يَمْنَعُ الْجُوعَ قَاتِلَهُ^(١)

وقال: فسرته العرب: (أبى جوده البخل)، وجعلوا (لا): زائدة حشواً ها هنا، وصلوا بها الكلام.

وقال بعض نحويي الكوفة نحو القول: الذي ذكرناه عن البصريين في معناه وتأويله، غير أنه زعم أن العلة في دخول (لا) في قوله: ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾، أن في أول الكلام جحداً، يعني بذلك قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، فإن العرب ربما أعادوا في الكلام الذي فيه جحد، الجحد، كالأستيثاق والتوكيد له.

وقال آخر منهم: ليست (لا)، بحشو في هذا الموضع ولا صلة، ولكن (المنع) ها هنا

(١) انظر: اللسان (نعم)، أمالي ابن الشجري ٢: ٢٢٨، ٢٣١، شرح شواهد المغنى ٢١٧.

بمعنى: (القول)، وإنما تأويل الكلام: (مَنْ قال لك لا تسجد إذ أمرتك بالسجود) ولكن دخل في الكلام (أن)، إذ كان (المنع) بمعنى: (القول)، لا في لفظه، كما يُفعل ذلك في سائر الكلام الذي يضارع القول، وهو له في اللفظ مخالف، كقولهم: (ناديت أن لا تقم)، و(حلفت أن لا تجلس)، وما أشبه ذلك من الكلام.

وقال: خفض (البخل) من روى: (أبى جوده لا البخل)، بمعنى: كلمة البخل، لأن: (لا) هي كلمة البخل، فكأنه قال: كلمة البخل.

وقال بعضهم: معنى: (المنع)، الحول بين المرء وما يريده، قال: والممنوع مضطرب به إلى خلاف ما منع منه، كالممنوع من القيام وهو يريده، فهو مضطرب من الفعل إلى ما كان خلافًا للقيام، إذ كان المختار للفعل هو الذي له السبيل إليه وإلى خلافه، فيؤثر أحدهما على الآخر فيفعله.

قال: فلما كانت صفة (المنع) ذلك، فخطب إبليس بالمنع فقليل له: ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ﴾، كان معناه كأنه قيل له: أي شيء اضطرك إلى أن لا تسجد؟

قال أبو جعفر: والصواب عندي من القول في ذلك أن يقال: إن في الكلام محذوفًا قد كفى دليل الظاهر منه، وهو أن معناه: ما منعك من السجود فأحوجك أن لا تسجد، فترك ذكر (أحوجك)، استغناء بمعرفة السامعين قوله: ﴿إِلَّا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، أن ذلك معنى الكلام، من ذكره.

ثم عمل قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾، في (أن) ما كان عاملاً فيه قبل (أحوجك) لو ظهر، إذ كان قد ناب عنه.

وإنما قلنا: إن هذا القول أولى بالصواب، لما قد مضى من دلالتنا قبل على أنه غير جائز أن يكون في كتاب الله شيء لا معنى له، وأن لكل كلمة معنىً صحيحاً، فتيين بذلك فساد قول من قال: (لا) في الكلام حشو لا معنى لها.

وأما قول من قال: معنى: (المنع) ههنا: (القول)، فلذلك دخلت (لا) مع (أن)، فإن: (المنع) وإن كان قد يكون قولاً وفعلاً فليس المعروف في الناس استعمال (المنع)، في الأمر بترك الشيء، لأن المأمور بترك الفعل إذا كان قادراً على فعله وتركه ففعله، لا يقال: (فعله)، وهو ممنوع من فعله، إلا على استكراه للكلام.

وأما قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، فإنه خبرٌ من الله جل ثناؤه عن جواب إبليس إياه إذ سأله: ما الذي منعه من السجود لآدم، فأحوجه إلى أن لا يسجد له، واضطره إلى خلافه أمره به، وتركه طاعته أن المانع كان له من السجود، والداعي له إلى خلافه أمر ربه في ذلك: أنه أشد منه أيذاً، وأقوى منه قوة، وأفضل منه فضلاً لفضل الجنس الذي منه خلق، وهو النار، على الذي خلق منه آدم، وهو الطين، فجعل عدو الله وجه الحق، وأخطأ سبيل الصواب، إذ كان معلوماً أن من جوهر النار الخفة والطيش والاضطراب والارتفاع علواً، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حمل الخبيث بعد الشقاء الذي سبق له من الله في الكتاب السابق، على الاستكبار عن السجود لآدم عليه السلام، والاستخفاف بأمر ربه، فأورثه العطب والهلاك، وكان معلوماً أن من جوهر الطين الرزانة والأنانة والحلم والحياء والتثبت، وذلك الذي هو في جوهره من ذلك، كان الداعي لآدم عليه السلام بعد السعادة التي كانت سبقت له من ربه في الكتاب السابق، إلى التوبة من خطيئته، ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة.

ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان: (أول مَنْ قاسَ إبليس)، يعنيان بذلك: القياسَ الخطأ، وهو هذا الذي ذكرنا من خطأ قوله، وبُعدِهِ من إصابة الحق، في الفضل الذي خص الله به آدم على سائر خلقه: من خلقه إياه بيده، ونفخه فيه من روحه، وإسجاده له الملائكة، وتعليمه أسماء كل شيء، مع سائر ما خصه به من كرامته، فضرب عن ذلك كله الجاهلُ صفحاً، وقصد إلى الاحتجاج بأنه خلق من نار وخلق آدم من طين!! وهو في ذلك أيضاً له غير كفاء، لو لم يكن لآدم من الله جل ذكره تكربة شيء غيره، فكيف

والذي خصّ به من كرامته يكثر تعداده، ويملّ إحصاؤه.

فعن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عبّدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس. وعن الحسن قوله: ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، قال: قاس إبليس وهو أول من قاس.

وعن ابن عباس قال: لما خلق الله آدم قال للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة، دون الملائكة الذين في السموات: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر، لما كان حدّث نفسه، من كبره واغتراره، فقال: (لا أسجد له، وأنا خير منه، وأكبر سنًا، وأقوى خلقًا، خلقتني من نار وخلقته من طين)، يقول: إنّ النار أقوى من الطين.

قال أبو جعفر: وهذا الذي قاله عدوّ الله ليس لما سأله عنه بجواب، وذلك أن الله تعالى ذكره قال له: ما منعك من السجود؟ فلم يجب بأن الذي منعه من السجود أنه خلّق من نار وخلق آدم من طين، ولكنه ابتدأ خبرًا عن نفسه، فيه دليل على موضع الجواب فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾^(١).

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: قال الله لإبليس عند ذلك: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ﴾، يقول تعالى ذكره: فقال الله له: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾، يعني: من الجنة، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾، يقول: فليس لك أن تستكبر في الجنة عن طاعتي وأمري.

فإن قال قائل: هل لأحد أن يتكبر في الجنة؟ قيل: إن معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهب، وإنما معنى ذلك: فاهبط من الجنة، فإنه لا يسكن الجنة متكبر عن أمر الله، فأما غيرها، فإنه قد يسكنها المستكبر عن أمر الله، والمستكين لطاعته.

(١) الآية رقم ١٣ من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿فَأَخْرَجَ إِنْكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾، يقول: فأخرج من الجنة، إنك من الذين قد نالهم من الله الصغار والذل والمهانة.

فعن السدي: ﴿فَأَخْرَجَ إِنْكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾، و(الصغار)، هو الذل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤) قَالَ إِنْكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١﴾.

قال أبو جعفر: وهذه أيضًا جهلة أخرى من جهلاته الخبيثة، سأل ربه ما قد علم أنه لا سبيل لأحد من خلق الله إليه، وذلك أنه سأل النَّظْرَةَ إلى قيام الساعة، وذلك هو يوم يبعث فيه الخلق.

ولو أعطي ما سأل من النَّظْرَةِ، كان قد أعطي الخلود وبقاء لا فناء معه، وذلك أنه لا موت بعد البعث، فقال جل ثناؤه له: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٢﴾، وذلك إلى اليوم الذي قد كتب الله عليه فيه الهلاك والموت والفناء، لأنه لا شيء يبقى فلا يفنى، غير ربنا الحي الذي لا يموت.

فإن قال قائل: فإن الله قد قال له إذ سألته الإنظار إلى يوم يبعثون: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾، في هذا الموضع، فقد أجابه إلى ما سأل؟

قيل له: ليس الأمر كذلك، وإنما كان مجيبًا له إلى ما سأل لو كان قال له: إنك من المنظرين إلى الوقت الذي سألت، أو: إلى يوم البعث، أو: إلى يوم يبعثون، أو ما أشبه ذلك، مما يدل على إجابته إلى ما سأل من النظرة، وأما قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾، فلا دليل فيه لولا الآية الأخرى التي قد بين فيها مدة إنظاره إياه إليها، وذلك قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣﴾، كم المدة التي انظره إليها، لأنه إذا انظره يومًا واحدًا أو أقل منه أو أكثر، فقد دخل في عداد المنظرين، وتمَّ فيه وعد الله الصادق، ولكنه قد بين

(١) الآيتان: رقم ١٤_١٥ من سورة الأعراف.

(٢) الآيتان: رقم ٣٧_٣٨ من سورة الحجر.

قدر مدة ذلك بالذي ذكرناه، فعلم بذلك الوقت الذي انظر إليه.

فعن السدي: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾، فلم ينظره إلى يوم البعث، ولكن انظره إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم ينفخ في الصور النفخة الأولى، فصعق مَنْ في السموات وَمَنْ في الأرض، فمات. قال أبو جعفر: فتأويل الكلام: قال إبليس لربه: ﴿أَنْظِرْنِي﴾، أي: أخرني وأجلني، وأنسى في أجلي، ولا تمنني ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، يقول: إلى يوم يبعث الخلق، فقال تعالى ذكره: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾، إلى يوم ينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله.

فإن قال قائل: فهل مُنْظِرٌ إلى ذلك اليوم سوى إبليس، فيقال له: (إنك منهم)؟ قيل: نعم، مَنْ لم يقبض الله روحه من خلقه إلى ذلك اليوم، ممن تقوم عليه الساعة، فهم من المنظرين بأجلهم إليه، ولذلك قيل لإبليس: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾، بمعنى: إنك ممن لا يميتة الله إلا ذلك اليوم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيمَا آغَايَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١).

قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: قال إبليس لربه: ﴿فِيمَا آغَايَيْتَنِي﴾، يقول: فيما أضللتني، فعن ابن عباس قوله: ﴿فِيمَا آغَايَيْتَنِي﴾، يقول: أضللتني.

وكان بعضهم يتأول قوله: ﴿فِيمَا آغَايَيْتَنِي﴾، بما أهلكتنني، من قولهم: (غَوَى الْفَصِيلُ يَغْوِي غَوًى)، وذلك إذا فقد اللبن فمات، من قول الشاعر: مُعْطَفَةُ الْأَثْنَاءِ لَيْسَ فَصِيلُهَا... بِرَازِئِهَا دَرًّا وَلَا مَيِّتَ غَوًى وَأَصْلُ الْإِغْوَاءِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: تَزِينُ الرَّجُلَ الرَّجُلَ لِلرَّجُلِ الشَّيْءَ حَتَّى يَحْسِنَهُ عِنْدَهُ، غَارًّا لَهُ.

(١) الآية: رقم ١٦ من سورة الأعراف.

وقد حكي عن بعض قبائل طيىء، أنها تقول: (أصبح فلان غاويًا)، أي: أصبح مريضًا. وكان بعضهم يتأول ذلك أنه بمعنى القسم، كأن معناه عنده: فبإغوائك إياي، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ كما يقال: (بالله لأفعلن كذا).

وكان بعضهم يتأول ذلك بمعنى المجازاة، كأن معناه عنده: فلأنك أغويتني، أو: فبأنك أغويتني، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

قال أبو جعفر: وفي هذا بيان واضح على فساد ما يقول القدرية، من أن كل من كفر أو آمن فبتفويض الله أسباب ذلك إليه، وأن السبب الذي به يصل المؤمن إلى الإيمان، هو السبب الذي به يصل الكافر إلى الكفر، وذلك أن ذلك لو كان كما قالوا: لكان الخبيث قد قال بقوله: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، (فبما أصلحتني)، إذ كان سبب (الإغواء) هو: سبب (الإصلاح)، وكان في إخباره عن الإغواء إخبارًا عن الإصلاح، ولكن لما كان سببهما مختلفين، وكان السبب الذي به غوى وهلك من عند الله، أضاف ذلك إليه، فقال: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾.

وأما قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فإنه يقول: لأجلسن لبني آدم ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، يعني: طريقك القويم، وذلك دين الله الحق، وهو الإسلام وشرائعه، وإنما معنى الكلام: لأصدن بني آدم عن عبادتك وطاعتك، ولأغوينهم كما أغويتني، ولأضلنهم كما أضللتني.

وذلك كما روي عن سبرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي ﷺ يقول: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطريقة، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول^(١) فعصاه وهاجر، قعد له بطريق الجهاد، وهو جهْدُ النفس والمال،

(١) الطول: (بكسر الطاء وفتح الواو): وهو الحبل الطويل، يشد أحد طرفيه في وتد أو في غيره، والآخر في يد الفرس، فيدور فيه ويرعى، ولا يذهب لوجهه، ويعني بذلك: أن الهجرة تجسسه عن التصرف والضرب في الأرض، والعودة إلى أرضه وسبائه، والهجرة أمرها شديد كما تعلم

فقال: (أتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد)^(١).

وعن عون بن عبد الله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قال: طريق مكة.

والذي قاله عون، وإن كان من صراط الله المستقيم، فليس هو الصراط كله، وإنما أخبر عدو الله أنه يقعد لهم صراط الله المستقيم، ولم يخص منه شيئاً دون شيء، فالذي روي في ذلك عن رسول الله ﷺ، أشبه بظاهر التنزيل، وأولى بالتأويل، لأن الخبيث لا يألو عباد الله الصدد عن كل ما كان لهم قربة إلى الله.

فعن مجاهد: ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قال: الحق.

وعن مجاهد كذلك: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قال: سبيل الحق، فلاضلنهم إلا قليلاً.

قال أبو جعفر: واختلف أهل العربية في ذلك.

فقال بعض نحويي البصرة: معناه: لأقعدن لهم على صراطك المستقيم، كما يقال: (توجه مكة)، أي إلى مكة، وكما قال الشاعر:

كَأَنِّي إِذْ أَسْعَى لِأُظْفَرَ طَائِرًا ... مَعَ النَّجْمِ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

بمعنى: لأظفر بطائر، فألقى (الباء)، وكما قال: ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾^(٢)، بمعنى: أعجلتم عن أمر ربكم.

وقال بعض نحويي الكوفة، المعنى، والله أعلم: لأقعدن لهم على طريقهم، وفي

(١) الأثر: رقم ١٤٣٦٤، هذا خبر رواه الأئمة، ذكره أبو جعفر بغير إسناد.

(و) (سيرة بن أبي الفاكهة)، صحابي نزل الكوفة. مترجم في التهذيب، وأسد الغابة ٢: ٢٦٠، والإصابة، في اسمه والكبير للبخاري ٢/ ٢ / ١٨٨، وابن أبي حاتم ١/ ٢ / ٢٩٥، والأثر رواه أحمد في مسنده مطولاً ٣: ٤٨٣، والنسائي ٦: ٢١، ٢٢، والبخاري في التاريخ ٢/ ٢ / ١٨٨، ١٨٩، وابن الأثير في أسد الغابة ٢: ٢٦٠، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة في ترجمته.

(٢) الآية: رقم ١٥٠ من سورة الأعراف.

طريقهم، قال: وإلقاء الصفة من هذا جائز، كما تقول: (قعدت لك وجه الطريق) و(على وجه الطريق)، لأن الطريق صفة في المعنى، فاحتمل ما يحتمله (اليوم)، و(الليلة)، و(العام)، إذا قيل: (آتيك غداً)، و"آتيك في غد).

قال أبو جعفر: وهذا القول هو أولى القولين في ذلك عندي بالصواب، لأن: (القعود) مقتضى مكاناً يقعد فيه، فكما يقال: (قعدت في مكانك)، يقال: (قعدت على صراطك)، و(في صراطك)، كما قال الشاعر:

لَدُنْ بِهِزِ الْكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ ... فِيهِ، كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّغْلَبُ

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾^(١).

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معنى قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، من قبل الآخرة، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، من قبل الدنيا، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾، من قبل الحق، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾، من قبل الباطل.

فعن ابن عباس قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، يقول: أشككهم في آخرتهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، أرغبهم في دنياهم، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾، أشبه عليهم أمر دينهم، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾، أشهي لهم المعاصي.

وقد روي عن ابن عباس بهذا الإسناد في تأويل ذلك خلاف هذا التأويل، فعن ابن عباس قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، يعني من الدنيا، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، من الآخرة، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾، من قبل حسناتهم، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾، من قبل سيئاتهم.

وعن سفيان، عن منصور، عن الحكم: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ

(١) الآية: رقم ١٧ من سورة الأعراف.

وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴿١﴾، قَالَ: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، مِنْ دُنْيَاهُمْ، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، مِنْ آخِرَتِهِمْ، ﴿وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ﴾، مِنْ حَسَنَاتِهِمْ، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾، مِنْ قَبْلِ سَيِّئَاتِهِمْ.

وقال آخرون: معنى ذلك: من حيث يبصرون ومن حيث لا يبصرون.

فعن مجاهد قول الله: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ﴾، قال: حيث يبصرون، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾، حيث لا يبصرون.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: معناه: ثم لا تبتليهم من جميع وجوه الحق والباطل، فأصدّهم عن الحق، وأحسّن لهم الباطل، وذلك أن ذلك عَقِيبُ قوله: ﴿لَا تَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فاخبر أنه يقعد لبني آدم على الطريق الذي أمرهم الله أن يسلكوه، وهو ما وصفنا من دين الله دين الحق، فيأتيهم في ذلك من كل وجوهه، من الوجه الذي أمرهم الله به، فيصدّهم عنه، وذلك: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ﴾، ومن الوجه الذي نهاهم الله عنه، فيزيّن لهم ويدعوهم إليه، وذلك: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾، وقيل: ولم يقل: (من فوقهم)، لأن رحمة الله تنزل على عباده من فوقهم.

فعن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ لَآتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾، ولم يقل: (من فوقهم)، لأن الرحمة تنزل من فوقهم.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾، فإنه يقول: ولا تجد، ربّ، أكثر بني آدم شاكرين لك نعمتك التي أنعمت عليهم، كتركمتك أباهم آدم بما أكرمته به، من إسجاده له ملائكتك، وتفضيلك إياه عليّ (شكرهم إياه)، طاعتهم له بالإقرار بتوحيده، وأتباع أمره ونهيه.

وكان ابن عباس يقول في ذلك: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾، يقول: موحدّين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ يَعْصِكَ مِنْهُمْ لَآ مَلَأْنَا جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١).

(١) الآية: رقم ١٨ من سورة الأعراف.

قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن إحلاله بالخبيث عدو الله ما أحل به من نعمته ولعنته، وطرده إياه عن جنته، إذ عصاه وخالف أمره، وراجعته من الجواب بما لم يكن له مراجعته به، يقول: قال الله له عند ذلك: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا﴾، أي من الجنة، ﴿مَذْمُومًا مَذْخُورًا﴾، يقول: مَعِيًّا.

والذام: العيب، يقال منه: (ذَامَهُ يَذَامُهُ ذَامًا فَهُوَ مَذْذُومٌ)، ويتركون الهمز فيقولون: (ذِمَّتْهُ أَذِيْمُهُ ذِيْمًا وَذَامًا)، و(الذام) و(الذيم)، أبلغ في العيب من: (الذم)، وقد أنشد بعضهم هذا البيت:

صَحْبُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غَشَاوَةٌ... فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَعْتُ نَفْسِي أَذِيْمَهَا

وأكثر الرواة على إنشاده: (ألومها).

وأما المدحور: فهو الْمُقْصَى، يقال: (دَحَرَهُ يَدْحَرُهُ دَحْرًا وَدُحُورًا)، إذا أقصاه وأخرجه، ومنه قولهم: (ادْحَرْ عَنْكَ الشَّيْطَانُ)^(١).

فعن قتادة قوله: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْخُورًا﴾، يقول: اخرج منها لعينًا منفيًا.

وعن ابن عباس: ﴿مَذْمُومًا﴾، أي: ممقوتًا.

وعن السدي قوله: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْخُورًا﴾، أما: ﴿مَذْمُومًا﴾، فممنفيًا، وأما: ﴿مَذْخُورًا﴾، فمطروداً.

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَمَلَكَ مِنْهُمْ لَأْمَلَانَّ جَهَنَّمُ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا قسم من الله جل ثناؤه أقسم أن مَنْ اتبع من بني آدم عدو الله إبليس وأطاعه وَصَدَّقَ ظَنَّهُ عَلَيْهِ، أن يملأ من جميعهم، يعني: من كفره بني آدم تُبَاعِ إبليس، ومن إبليس وذريته، جهنم.

فرحم الله امرأ كَذَبَ ظَنَ عدو الله في نفسه، وَخَيَّبَ فِيهَا أَمَلَهُ وَأَمْنِيَّتَهُ، ولم يمكن من

(١) انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ٢١٢.

طمعَ فيها عدوّه، واستغشّه ولم يستنصحه، فإن الله تعالى ذكره إنما نَبّه بهذه الآيات عباده على قَدَمِ عداوة عدوّه وعدوهم إبليس لهم، وسالف ما سلف من حسده لأبيهم، وبغيه عليه وعليهم، وعرفهم مواقع نعمه عليهم قديماً في أنفسهم ووالدهم ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب، فينجزوا عن طاعة عدوه وعدوهم إلى طاعته ويُنبِئوا إليها.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَكَادُمُ اشْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

قال أبو جعفر: يقول الله تعالى ذكره: وقال الله لأدم: ﴿وَيَتَكَادُمُ اشْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، فأسكن جل ثناؤه آدم وزوجته الجنة عد أن أهبط منها إبليس وأخرجه منها، وأباح لهما أن يأكلا من ثمارها من أي مكان شاءا منها، ونهاهما أن يقربا ثمر شجرة بعينها.

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، يقول: فتكونا ممن خالف أمر ربّه، وفعل ما ليس له فعله.

قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَيْكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾^(٢).

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا﴾، فوسوس إليهما، وتلك: (الوسوسة) كانت قوله لهما: ﴿نَهَيْكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾، وإقسامه لهما على ذلك.

وقيل: (وسوس لهما)، والمعنى: ما ذكرت، كما قيل: (غرضت إليه)، بمعنى: اشتقت إليه، وإنما تعني: غرضت من هؤلاء إليه، فكذلك معنى ذلك.

فوسوس من نفسه إليهما الشيطان بالكذب من القيل، ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ

(١) الآية: رقم ١٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٢٠ من سورة الأعراف.

سَوَاءَ تَهُمَا ﴿١﴾، كما قال رؤبة:

وَسَوْسَ يَدْعُو مُخْلِصًا رَبَّ الْفَلَقِ

ومعنى الكلام: فجذب إبليس إلى آدم حواء، وألقى إليهما: ما نهاكما ربكما عن أكل ثمر هذه الشجرة، إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، ليبيد لهما ما واره الله عنهما من عوراتهما فغطاه بستره الذي ستره عليهما.

فعن ابن منبه، في قوله: ﴿فَبَدَّتْ لهُمَا سَوَاءَ تَهُمَا﴾^(١)، قال: كان عليهما نور، لا ترى سوءاتهما.

قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: وقال الشيطان لآدم وزوجته حواء: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة أن تأكلا ثمرها، إلا لئلا تكونا ملكين.

وأسقطت (لا) من الكلام، لدلالة ما ظهر عليها، كما أسقطت من قوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾^(٢)، والمعنى: يبين الله لكم أن لا تضلوا.

وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يزعم أن معنى الكلام: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تكونا ملكين، كما يقال: (إياك أن تفعل) كراهية أن تفعل.

قوله: ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾، في الجنة، الماكثين فيها أبداً، فلا تموتا.

والقراءة على فتح (اللام)، بمعنى: ملكين من الملائكة.

وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: (إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلِكَيْنِ)، بكسر (اللام)، وكذلك عن يحيى بن أبي كثير.

وكأن ابن عباس ويحيى وجَّها تأويل الكلام إلى أن الشيطان قال لهما: ما نهاكما ربكما

(١) الآية: رقم ١٢١ من سورة طه.

(٢) الآية: رقم ١٧٦ من سورة النساء.

عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين من الملوك، وأنها تأولا في ذلك قول الله في موضع آخر: ﴿قَالَ يَتَدَامُ هَلْ أَذْكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾^(١).

قال أبو جعفر: والقراءة التي لا أستجيز القراءة في ذلك غيرها، القراءة التي عليها قراءة الأمصار وهي، فتح (اللام) من: (مَلَكَيْنِ)، بمعنى: ملكين، من الملائكة، لما قد تقدم من بياننا في أن كل ما كان مستفيضاً في قراءة الإسلام من القراءة، فهو الصواب الذي لا يجوزُ خلافه.

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ﴾^(٢).

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾، وحلف لهما، كما قال في موضع آخر: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾^(٣)، بمعنى: تحالفوا بالله، وكما قال الشاعر:

وَقَاسَمَهَا بِاللَّهِ جَهْدًا لَأَنْتُمْ... أَلَدُّ مِنَ السَّلْوَى إِذَا مَا نَشُورُهَا

بمعنى: وحالفها بالله، وكما قال أعشى بني ثعلبة:

رَضِيعِي لِبَانٍ، ثَدْيِي أُمُّ تَقَاسَمَا... بِأَسْحَمِ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ.

بمعنى: تحالفا.

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ﴾ أي: لمن ينصح لكما في مشورته لكما، وأمره إياكما بأكل ثمر الشجرة التي نهيتما عن أكل ثمرها، وفي خبري إياكما بما أخبركما به، من أنكما إن أكلتماه كتتما ملكين أو كتتما من الخالدين، فعن قتادة قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ﴾، فحلف لهما بالله حتى خدعهما، وقد يُخدع المؤمن بالله، فقال: إِنِّي خُلِقْتُ قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرشدكما.

(١) الآية: رقم ١٢٠ من سورة طه.

(٢) الآية: رقم ٢١ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ٤٩ من سورة النمل.

وكان بعض أهل العلم يقول: (من خادعنا بالله خُدِعْنَا).

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّيْنَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَيْنَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(١).

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿فَدَلَّيْنَاهُمَا بِغُرُورٍ﴾، فخدعهما بغرور.

يقال منه: (ما زال فلان يدلي فلاناً بغرور)، بمعنى: ما زال يخدعه بغرور، ويكلمه بزخرف من القول باطل.

قوله: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾، يقول: فلما ذاق آدم وحواء ثمر الشجرة، يقول: طعماه، ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا﴾، يقول: انكشفت لهما سوءاتهما، لأن الله أعراهما من الكسوة التي كان كساهما قبل الذنب والخطيئة، فسلبهما ذلك بالخطيئة التي أخطأ والمعصية التي ركبها، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، يقول: أقبلا وجعلا يشدان عليهما من ورق الجنة، ليواريا سوءاتهما، فعن ابن عباس: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، قال: جعلنا يأخذان من ورق الجنة، فيجعلان على سوءاتهما.

وعن الحسن، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: (كان آدم كأنه نخلة سَحُوق، كثير شعر الرأس، فلما وقع بالخطيئة بدت له عورته، وكان لا يراها، فانطلق فاراً، فتعرضت له شجرة فحبسته بشعره، فقال لها: أرسليني! فقالت: لست بمرسلتك! فناده ربه: يا آدم، أمني تفر؟ قال: لا ولكنني استحييتك)^(٢).

وعن مجاهد رحمه الله في قول الله: ﴿يَخْصِفَانِ﴾، قال: يرقعان، كهيئة الثوب.

وعن قتادة رحمه الله قوله: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا﴾، وكانا قبل ذلك لا يريانها.

(١) الآية: رقم ٢٢ من سورة الأعراف.

(٢) الحديث: أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث والشور عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَلَفِيفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، قال: ورق التين.

وعن وهب بن منبه يقول: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾^(١)، قال: كان لباس آدم وحواء عليهما السلام نوراً على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا، فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سوءاتها.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ونادى آدم وحواء ربهما: ألم أنهما عن أكل ثمرة الشجرة التي أكلتما ثمرها، وأعلمكما أن إبليس لكما عدو مبين، يقول: قد أبان عداوته لكما، بترك السجود لآدم حسداً وبغياً، فعن محمد بن قيس قوله: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، لم أكلتها وقد نهيتك عنها؟ قال: يا رب، أطعمتني حواء! فقال لحواء: لم أطعمتها؟ قالت: أمرتني الحية! فقال للحية: لم أمرتها؟ قالت: أمرني إبليس! قال: ملعون مدحور! أما أنت يا حواء فكما دميت الشجرة تدمين كل شهر، وأما أنت يا حية، فأقطع قوائمك فتمشين على وجهك، وسيشدخ رأسك من لقيك، ﴿أَهْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢).

قال أبو جعفر: وهذا خبرٌ من الله جل ثناؤه عن آدم وحواء فيما أجاباه به، واعترافهما على أنفسهما بالذنب، ومسألتهما إياه المغفرة منه والرحمة، خلاف جواب اللعين إبليس إياه. ومعنى قوله: ﴿فَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾، قال: آدم وحواء لربهما: يا ربنا، فعلنا بأنفسنا من الإساءة إليها بمعصيتك وخلاف أمرك، وبطاعتنا عدونا وعدوك، فيما لم يكن لنا أن نطيعه فيه، من أكل الشجرة التي نهيتنا عن أكلها، ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾، يقول: وإن أنت

(١) الآية: رقم ٢٧ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٢٣ من سورة الأعراف.

لم تستر علينا ذنبنا فتغطيه علينا، وتترك فضيحتنا به بعقوبتك إيانا عليه، ﴿وَرَحِمْنَا﴾، بتعطفك علينا، وتركك أخذنا به، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، يعني: لنكونن من الهالكين. فعن قتادة قال: قال آدم عليه السلام: يا رب، أرايت إن تبت واستغفرتك؟ قال: إذا أدخلك الجنة. وأما إبليس: فلم يسأله التوبة، وسأل النظرة، فأعطى كل واحد منهما ما سأل. وعن الضحاك في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّنُتَغْفِرَ لَنَا﴾، قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(١). قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن فعله بإبليس وذريته، وآدم وولده، والحية. يقول تعالى ذكره لآدم وحواء وإبليس والحية: ﴿أَهْبِطُوا﴾، من السماء إلى الأرض، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، فعن السدي: ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، قال: فلعن الحية، وقطع قوائمها، وتركها تمشي على بطنها، وجعل رزقها من التراب، وأهبطوا إلى الأرض: آدم، وحواء، وإبليس، والحية.

وقوله: (ولكم في الأرض مستقر)، يقول: ﴿وَلَكُمْ﴾، يا آدم وحواء، وإبليس والحية، في الأرض قراراً تستقرونه، وفراشاً تمتهدونه، فعن أبي العالية في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، قال: هو قوله: ﴿الَّذِي جَعَلْ لَّكُمْ فِي الْأَرْضِ فِرَاشًا﴾^(٢)، وروي عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْنَقَرٌّ﴾، قال: القبور.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر آدم وحواء وإبليس والحية، إذ أهبطوا إلى الأرض: أنهم عدو بعضهم لبعض، وأن لهم فيها

(١) الآية: رقم ٢٤ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٢٢ من سورة البقرة.

مستقرًا يستقرون فيه، ولم يخصصها بأن لهم فيها مستقرًا في حال حياتهم دون حال موتهم، بل عمَّ الخبر عنها بأن لهم فيها مستقرًا، فذلك على عمومها، كما عمَّ خبرُ الله، ولهم فيها مستقر في حياتهم على ظهرها، وبعد وفاتهم في بطنها، كما قال جل ثناؤه: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ (٢٥) ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ (١).

وأما قوله: ﴿وَمَتَّعَ الْإِنْسَانَ﴾، فإنه يقول جل ثناؤه: (ولكم فيها متاع)، تستمتعون به إلى انقطاع الدنيا، وذلك هو الحين الذي ذكره، فعن ابن عباس: ﴿وَمَتَّعَ الْإِنْسَانَ﴾، قال: إلى يوم القيامة وإلى انقطاع الدنيا.

و(الحين) نفسه: الوقت، غير أنه مجهول القدر، يدل على ذلك قول الشاعر:

وَمَا مَرَّ أَحْكَ بَعْدَ الْحِلْمِ وَالِدَيْنِ ... وَقَدْ عَلَاكَ مَشِيبٌ حِينَ لَا حِينَ

أي: وقت لا وقت.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (٢).

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال الله للذين أهبطهم من سماواته إلى أرضه: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾، يقول: في الأرض تحيون، يقول: تكونون فيها أيام حياتكم، ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾، يقول: في الأرض تكون وفاتكم، ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾، يقول: ومن الأرض يخرجكم ربكم ويحشركم إليه لبعث القيامة أحياء.

٢- وقال الإمام السمعاني رحمته الله: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْتَكُمْ ثُمَّ قَلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ ثُمَّ

(١) الآيتان: رقم ٢٥-٢٦ من سورة المرسلات.

(٢) الآية: رقم ٢٥ من سورة الأعراف.

صَوَّرْنَكُمْ ﴿١﴾، قال ابن عباس: خلقناكم في صلب آدم، ثم صورناكم في أرحام الأمهات، وقال مجاهد: خلقناكم في ظهر آدم، ثم صورناكم يوم الميثاق، حين أخرجهم كالذر، وقيل: هذا في حق آدم عليه السلام، يعني: خلقنا أصلكم آدم، ثم صورناه؛ فذكر بلفظ الجمع، والمراد به الواحد، وقال الأخفش وهو أحد قولي قطرب: إن ثم بمعنى الواو، أي: وصورناكم.

قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، فإن قال قائل: الأمر بسجود الملائكة كان قبل خلق بني آدم، فما معنى قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾، عقيب ذكر الخلق والتصوير؟ والجواب: أما على قول مجاهد، وقول من صرفه إلى آدم، يستقيم الكلام. وأما على قول ابن عباس، يرد هذا الإشكال، والجواب عنه من وجوه: أحدها: أن المراد به: ثم أخبركم أنا قلنا للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، وقيل: فيه تقديم وتأخير، وتقديره: ولقد خلقناكم، ثم قلنا للملائكة: اسجدوا، ثم صورناكم.

٣- وقال الإمام الرازي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى رغب الأمم في قبول دعوة الأنبياء عليهم السلام بالتخويف أولاً، ثم بالترغيب ثانياً على ما بيناه، والترغيب إنما كان لأجل التنبيه على كثرة نعم الله تعالى على الخلق فبدأ في شرح تلك النعم بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾^(١)، ثم أتبعه بذكر أنه خلق أبانا آدم وجعله مسجوداً للملائكة، والإنعام على الأب يجري مجرى الإنعام على الابن فهذا هو وجه النظم في هذه

(١) الآية: رقم ١٠ من سورة الأعراف.

الآيات، ونظيره أنه تعالى قال في أول سورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَنًا فَأَحْيَاكُمْ﴾^(١)، فمنع تعالى من المعصية بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾، وعلل ذلك المنع: بكثرة نعمه على الخلق وهو أنهم في الأرض مسجودا للملائكة، والمقصود من الكل تقرير أن مع هذه النعم العظيمة لا يليق بهم التمرد والجدود، فكذا في هذه السورة ذكر تعالى عين هذا المعنى بغير هذا الترتيب فهذا بيان وجه النظم على أحسن الوجوه.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى ذكر قصة آدم عليه السلام مع قصة إبليس في القرآن في سبعة مواضع:

أولها: في سورة البقرة، وثانيها: في هذه السورة، وثالثها: في سورة الحجر، ورابعها: في سورة بني إسرائيل وخامسها: في سورة الكهف وسادسها: في سورة طه وسابعها: في سورة ص.

إذا عرفت هذا فنقول: في هذه الآية سؤال وهو أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، يفيد أن المخاطب بهذا الخطاب نحن، ثم قال بعده: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾: تفيد التراخي فظاهر الآية يقتضي أن أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام وقع بعد خلقنا وتصويرنا ومعلوم أنه ليس

الأمر كذلك، فلهذا السبب اختلف الناس في تفسير هذه الآية على أقوال: القول الأول: إن قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾، أي: خلقنا أباكم آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، أي: صورنا آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، وهو قول الحسن ويوسف النحوي وهو المختار، وذلك لأن أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام تأخر عن خلق آدم وتصويره ولم يتأخر عن خلقنا وتصويرنا أقصى ما في الباب أن يقال: كيف يحسن جعل خلقنا وتصويرنا كناية عن خلق آدم عليه السلام وتصويره؟ فنقول: إن آدم عليه السلام أصل البشر فوجب

(١) الآية: رقم ٢٨ من سورة البقرة.

أن تحسن هذه الكناية، نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾^(١)، أي: ميثاق أسلافكم من بني إسرائيل في زمان موسى عليه السلام، ويقال: (قتلت بنو أسد فلانا)، وإنما قتله أحدهم، قال عليه الصلاة والسلام: (ثم أنتم يا خزاعة قد قتلتم هذا القتيل)، وإنما قتله أحدهم، وقال تعالى مخاطبا لليهود في زمان النبي محمد ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾^(٣)، والمراد من جميع هذه الخطابات أسلافهم فكذا هاهنا.

القول الثاني: أن يكون المراد من قوله: ﴿خَلَقْتَكُمْ﴾: آدم، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ﴾، أي: صورنا ذرية آدم عليه السلام في ظهره ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك ﴿قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، وهذا قول مجاهد فذكر أنه تعالى خلق آدم أولا ثم أخرج أولاده من ظهره في صورة الذر ثم بعد ذلك أمر الملائكة بالسجود لآدم.

القول الثالث: ﴿خَلَقْتَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ﴾، ثم إنا نخبركم أنا ﴿قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، فهذا العطف يفيد ترتيب خبر على خبر ولا يفيد ترتيب المخبر على المخبر.

المسألة الثالثة: ذكرنا في سورة البقرة أن هذه السجدة فيها ثلاثة أقوال: أحدها: إن المراد منها مجرد التعظيم لا نفس السجدة.

وثانيها: إن المراد هو السجدة إلا أن المسجود له هو الله تعالى فآدم كان كالقيلة.

وثالثها: إن المسجود له هو آدم عليه السلام وأيضا ذكرنا أن الناس اختلفوا في أن الملائكة الذين أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم هل هم ملائكة السموات والعرش أو المراد ملائكة الأرض ففيه خلاف وهذه المباحث قد سبق ذكرها في سورة البقرة.

(١) الآية: رقم ٦٣ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ١٤١ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ٧٢ من سورة البقرة.

المسألة الرابعة: ظاهر الآية يدل على أنه تعالى استثنى إبليس من الملائكة فوجب كونه منهم وقد استقصينا أيضا هذه المسألة في سورة البقرة وكان الحسن يقول: إبليس لم يكن من الملائكة لأنه خلق من نار والملائكة من نور والملائكة لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ولا يعصون وليس كذلك إبليس فقد عصى واستكبر والملائكة ليسوا من الجن وإبليس من الجن والملائكة رسل الله وإبليس ليس كذلك وإبليس أول خليفة الجن وأبوهم كما أن آدم عليه السلام أول خليفة الإنس وأبوهم، قال الحسن: ولما كان إبليس مأمورا مع الملائكة استثناه الله تعالى، وكان اسم إبليس شيئا آخر، فلما عصى الله تعالى سماه بذلك وكان مؤمنا عابدا في السماء حتى عصى ربه فأهبط إلى الأرض.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتُهُ مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود فإن ذلك الأمر قد تناول إبليس، وظاهر هذا يدل على أن إبليس كان من الملائكة، إلا أن الدلائل التي ذكرناها تدل على أن الأمر ليس كذلك وأما الاستثناء فقد أجبنا عنه في سورة البقرة.

المسألة الثانية: ظاهر الآية يقتضي أنه تعالى، طلب من إبليس ما منعه من ترك السجود، وليس الأمر كذلك فإن المقصود طلب ما منعه من السجود، ولهذا الإشكال حصل في الآية قولان:

القول الأول: وهو المشهور أن كلمة (لا) صلة زائدة، والتقدير: ما منعك أن تسجد؟ وله نظائر في القرآن كقوله: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(١)، معناه: أقسم، وقوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلُكُنْهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(٢)، أي: يرجعون، وقوله: ﴿لَا يَلْعَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾^(٣)، أي:

(١) الآية: رقم ١ من سورة القيامة.

(٢) الآية: رقم ٩٥ من سورة الأنبياء.

(٣) الآية: رقم ٣٩ من سورة الحديد.

ليعلم أهل الكتاب وهذا قول الكسائي، والفراء، والزجاج، والأكثرين.

والقول الثاني: إن كلمة (لا) هاهنا مفيدة وليست لغوا وهذا هو الصحيح، لأن الحكم بأن كلمة من كتاب الله لغو لا فائدة فيها مشكل صعب، وعلى هذا القول ففي تأويل الآية وجهان: الأول: أن يكون التقدير: أي شيء منعك عن ترك السجود؟ ويكون هذا الاستفهام على سبيل الإنكار، ومعناه: أنه ما منعك عن ترك السجود؟ كقول القائل لمن ضربه ظلما: ما الذي منعك من ضربي، أدينك، أم عقلك، أم حياؤك؟! والمعنى: أنه لم يوجد أحد هذه الأمور، وما امتنعت من ضربي.

الثاني: قال القاضي: ذكر الله المنع وأراد الداعي، فكأنه قال: ما دعاك الله إلى أن لا تسجد؟ لأن مخالفة أمر الله تعالى حالة عظيمة يتعجب منها ويسأل عن الداعي إليها.

المسألة الثالثة: احتج العلماء بهذه الآية على أن صيغة الأمر تفيد الوجوب، فقالوا: إنه تعالى ذم إبليس بهذه الآية على ترك ما أمر به ولو لم يفد الأمر الوجوب لما كان مجرد ترك المأمور به موجبا للذم فإن قالوا: هب أن هذه الآية تدل على أن ذلك الأمر كان يفيد الوجوب، فلعل تلك الصيغة في ذلك الأمر كانت تفيد الوجوب فلم قلتم إن جميع الصيغ يجب أن تكون كذلك؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَتَسْجُدًا إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، يفيد تعليل ذلك الذم بمجرد ترك الأمر، لأن قوله: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، مذكور في معرض التعليل، والمذكور في قوله: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ هو الأمر من حيث إنه أمر لا كونه أمرا مخصوصا في صورة مخصوصة، وإذا كان كذلك، وجب أن يكون ترك الأمر من حيث إنه أمر موجبا للذم، وذلك يفيد أن كل أمر فإنه يقتضي الوجوب وهو المطلوب.

المسألة الرابعة: احتج من زعم أن الأمر يفيد الفور بهذه الآية قال: إنه تعالى ذم إبليس على ترك السجود في الحال ولو كان الأمر لا يفيد الفور لما استوجب هذا الذم بترك السجود في الحال.

المسألة الخامسة: اعلم أن قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ﴾، طلب الداعي الذي دعاه إلى ترك السجود فحكى تعالى عن إبليس ذكر ذلك الداعي وهو أنه قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، ومعناه: إن إبليس قال إنها لم أسجد لآدم لأني خير منه ومن كان خيرا من غيره فإنه لا يجوز أمر ذلك الأكمل بالسجود لذلك الأدون!، ثم بين المقدمة الأولى وهو قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، بأن قال: ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، والنار أفضل من الطين والمخلوق من الأفضل أفضل فوجب كون إبليس خيرا من آدم.

المسألة السادسة: احتج من قال إنه لا يجوز تخصيص عموم النص بالقياس بأنه لو كان تخصيص عموم النص بالقياس جائزا لما استوجب إبليس هذا الذم الشديد والتوبيخ العظيم ولما حصل ذلك، دل على أن تخصيص عموم النص بالقياس لا يجوز، وبيان الملازمة أن قوله تعالى للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، خطاب عام يتناول جميع الملائكة، ثم إن إبليس أخرج نفسه من هذا العموم بالقياس، وهو أنه مخلوق من النار، والنار أشرف من الطين ومن كان أصله أشرف فهو أشرف فيلزم كون إبليس أشرف من آدم ^{عليه السلام}، ومن كان أشرف من غيره فإنه لا يجوز أن يؤمر بخدمة الأدون الأدنى، والدليل عليه أن هذا الحكم ثابت في جميع النظائر ولا معنى للقياس إلا ذلك، فثبت أن إبليس ما عمل في هذه الواقعة شيئا إلا أنه خصص عموم قوله تعالى للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، بهذا القياس فلو كان تخصيص النص بالقياس جائزا لوجب أن لا يستحق إبليس الذم على هذا العمل وحيث استحق الذم الشديد عليه علمنا أن تخصيص النص بالقياس لا يجوز وأيضا ففي الآية دلالة على صحة هذه المسألة من وجه آخر، وذلك لأن إبليس ذكر هذا القياس قال تعالى: ﴿فَأَهَيَّئْ لِي سَبِيلًا فَأُصَلِّ بِمَا كُنْتُ أَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، فوصف تعالى إبليس بكونه متكبرا بعد أن حكى عنه ذلك القياس الذي يوجب تخصيص النص وهذا يقتضي أن من حاول تخصيص عموم النص بالقياس تكبر على الله، ولما دلت هذه الآية على أن تخصيص عموم النص بالقياس تكبر على الله، ودلت هذه الآية على أن التكبر على الله

يوجب العقاب الشديد والإخراج من زمرة الأولياء والإدخال في زمرة الملعونين، ثبت أن تخصيص النص بالقياس لا يجوز وهذا هو المراد مما نقله الواحدي في (البسيط) عن ابن عباس أنه قال: (كانت الطاعة أولى إبليس من القياس فعصى ربه وقاس وأول من قاس إبليس فكفر بقياسه فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس).

فإن قيل: القياس الذي يبطل النص بالكلية باطل، أما القياس: الذي يخصص النص في بعض الصور فلم قلت إنه باطل؟ وتقريره أنه لو قبح أمر من كان مخلوقاً من النار بالسجود لمن كان مخلوقاً من الأرض لكان قبح أمر من كان مخلوقاً من النور المحض بالسجود لمن كان مخلوقاً من الأرض أولى وأقوى، لأن النور أشرف من النار وهذا القياس يقتضي أن يقبح أمر أحد من الملائكة بالسجود لآدم، فهذا القياس يقتضي رفع مدلول النص بالكلية وأنه باطل.

وأما القياس: الذي يقتضي تخصيص مدلول النص العام لم قلت: إنه باطل؟ فهذا سؤال حسن أوردته على هذه الطريقة وما رأيت أحداً ذكر هذا السؤال ويمكن أن يجاب عنه فيقال: إن كونه أشرف من غيره يقتضي قبح أمر من لا يرضى أن يلجأ إلى خدمة الأدنى الأدون، أما لو رضى ذلك الشريف بتلك الخدمة لم يقبح، لأنه لا اعتراض عليه في أنه يسقط حق نفسه، أما الملائكة فقد رضوا بذلك فلا بأس به، وأما إبليس فإنه لم يرض بإسقاط هذا الحق فوجب أن يقبح أمره بذلك السجود، فهذا قياس مناسب وأنه يوجب تخصيص النص ولا يوجب رفعه بالكلية ولا إبطاله، فلو كان تخصيص النص بالقياس جائزاً لما استوجب الذم العظيم، فلما استوجب استحقاق هذا الذم العظيم في حقه؛ علمنا أن ذلك إنما كان لأجل أن تخصيص النص بالقياس غير جائز والله أعلم.

المسألة السابعة: قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ﴾، لا شك أن قائل هذا القول هو الله لأن قوله: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، لا يليق إلا بالله سبحانه.

وأما قوله: خلقتني من نار فلا شك أن قائل هذا القول هو إبليس.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

وأما قوله: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾، فلا شك أن قائل هذا القول هو الله تعالى ومثل هذه المناظرة بين الله سبحانه وبين إبليس مذكور في سورة: (ص) على سبيل الاستقصاء إذا ثبت هذا فنقول: إنه لم يتفق لأحد من أكابر الأنبياء عليهم السلام مكاملة مع الله مثل ما اتفق لإبليس وقد عظم الله تشریف موسى ﷺ بأن كلمه حيث قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾^(١)، وقال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٢)، فإن كانت هذه المكاملة تفيد الشرف العظيم فكيف حصلت على أعظم الوجوه لإبليس؟ وإن لم توجب الشرف العظيم فكيف ذكره الله تعالى في معرض التشریف الكامل لموسى ﷺ؟.

والجواب: أن بعض العلماء قال: إنه تعالى قال لإبليس على لسان من يؤدي إليه من الملائكة ما منعك من السجود؟ ولم يسلم أنه تعالى تكلم مع إبليس بلا واسطة.

قالوا: لأنه ثبت أن غير الأنبياء لا يخاطبهم الله تعالى إلا بواسطة ومنهم من قال: إنه تعالى تكلم مع إبليس بلا واسطة ولكن على وجه الإهانة بدليل أنه تعالى قال له: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، وتكلم مع موسى ﷺ ومع سائر الأنبياء عليهم السلام على سبيل الإكرام ألا ترى أنه تعالى قال لموسى ﷺ: ﴿وَأَنَا اخْرُجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾^(٣)، وقال له: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾^(٤)، وهذا نهاية الإكرام.

المسألة الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾، قال ابن عباس: يريد من الجنة وكانوا في جنة عدن وفيها خلق آدم ﷺ.

(١) الآية: رقم ١٤٣ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ١٦٤ من سورة النساء.

(٣) الآية: رقم ١٣ من سورة طه.

(٤) الآية: رقم ٤١ من سورة طه.

وقال بعض المعتزلة: إنه إنما أمر بالهبوط من السماء وقد استقصينا الكلام في هذه المسألة في سورة البقرة.

قوله: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي: في السماء، قال ابن عباس: يريد ان اهل السموات ملائكة متواضعون خاشعون، ﴿فَلَنُخْرِجَنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِ﴾، والصغار: الذلة.

قال الزجاج: إن إبليس طلب التكبر فابتلاه الله تعالى بالذلة والصغار تنبيهها على صحة ما قاله النبي ﷺ: (من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله) (١).

وقال بعضهم: لما أظهر الاستكبار البس الصغار، والله اعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥) قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، يدل على أنه طلب الإنظار من الله تعالى إلى وقت البعث وهو وقت النفخة الثانية حين يقوم الناس لرب العالمين، ومقصوده أنه لا يذوق الموت فلم يعطه الله تعالى ذلك، بل قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾، ثم هاهنا قولان:

القول الأول: أنه تعالى انظره إلى النفخة الأولى لأنه تعالى قال في آية أخرى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ، والمراد منه اليوم الذي يموت فيه الأحياء كلهم، وقال آخرون: لم يوقت الله له أجلا بل قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾، وقوله في الاخرى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾، والمراد منه: الوقت المعلوم في علم الله تعالى، قالوا: والدليل على صحة هذا القول أن إبليس كان مكلفا والمكلف لا يجوز أن يعلم أن الله تعالى أخر أجله إلى الوقت الفلاني لأن ذلك المكلف يعلم أنه متى تاب قبلت توبته فإذا علم أن وقت موته هو الوقت الفلاني أقدم على المعصية بقلب فارغ فإذا قرب وقت أجله

(١) الحديث: رواه أبو سعيد الخدري، نقله العراقي في تخريج الإحياء وحكم عنه بأنه: إسناده حسن.

تاب عن تلك المعاصي فثبت أن تعريف وقت الموت بعينه يجري مجرى الإغراء بالقبيح وذلك غير جائز على الله تعالى، وأجاب الأولون: بأن تعريف الله ﷻ كونه من المنظرين إلى يوم القيامة لا يقتضي إغراءه بالقبيح لأنه تعالى كان يعلم منه أنه يموت على أقبح أنواع الكفر والفسق سواء أعلمه بوقت موته أو لم يعلمه بذلك، فلم يكن ذلك الإعلام موجبا إغراءه بالقبيح، ومثاله أنه تعالى عرّف أنبياءه أنهم يموتون على الطهارة والعصمة ولم يكن ذلك موجبا إغراءهم بالقبيح، لأجل أنه تعالى علم منهم، سواء عرفهم تلك الحالة أو لم يعرفهم هذه الحالة أنهم يموتون على الطهارة والعصمة، فلما كان لا يتفاوت حالهم بسبب هذا التعريف لا جرم ما كان ذلك التعريف إغراء بالقبيح فكذا هاهنا والله أعلم.

المسألة الثانية: قول إبليس: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، يدل على أنه أضاف إغواءه إلى الله تعالى، وقوله في آية أخرى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يدل على أنه أضاف إغواء العباد إلى نفسه.

فالأول: يدل على كونه على مذهب الجبر.

والثاني: يدل على كونه على مذهب القدر، وهذا يدل على أنه كان متحيرا في هذه المسألة، أو يقال: إنه كان يعتقد أن الإغواء لا يحصل إلا بالمغوي فجعل نفسه مغويا لغيره من الغاوين، ثم زعم أن المغوي له هو الله تعالى قطعاً للتسلسل واختلف الناس في تفسيره هذه الكلمة، أما أصحابنا فقالوا: الإغواء إيقاع الغي في القلب والغي هو: الاعتقاد الباطل وذلك يدل على أنه كان يعتقد أن الحق والباطل إنما يقع في القلب من الله تعالى.

أما المعتزلة فلهم هاهنا مقامان:

أحدهما: أن يفسروا الغي بما ذكرناه.

والثاني: أن يذكروا في تفسيره وجهاً آخر.

أما الوجه الأول: فلهم فيه أعدار:

الأول: إن قالوا هذا قول إبليس فهب أن إبليس اعتقد أن خالق الغي والجهل والكفر هو الله تعالى إلا أن قوله ليس بحجة.

الثاني: قالوا: إن الله تعالى لما أمر بالسجود لآدم فعند ذلك ظهر غيه وكفره فجاز أن يضيف ذلك الغي إلى الله تعالى بهذا المعنى وقد يقول القائل: لا تحملني على ضربك أي لا تفعل ما أضر بك عنده.

الثالث: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾، والمعنى: إنك بما لعنتني بسبب آدم فأنا لأجل هذه العداوة ألقى الوسوس في قلوبهم.

الرابع: ﴿رَبِّ بِمَا آغْوَيْتَنِي﴾، أي: خيبتني من جنتك عقوبة على عملي لأقعدن لهم. وأما الوجه الثاني: في تفسير الإغواء: (الإهلاك) ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾^(١)، أي: هلاكاً وويلاً ومنه أيضاً قولهم: (غوى الفصيل يغوي غوى) إذا أكثر من اللبن حتى يفسد جوفه ويشارف الهلاك والعطب، وفسروا قوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾^(٢)، إن كان الله يريد أن يهلككم بعنادكم الحق فهذه جملة الوجوه المذكورة.

المسألة الثالثة: الباء في قوله: ﴿فِيمَا آغْوَيْتَنِي﴾، فيه وجوه: الأول: أنه باء القسم، أي: بإغوائك إياي، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي: بقدرتك علي ونفاذ سلطانك في لأقعدن لهم على الطريق المستقيم الذي يسلكونه إلى الجنة، بأن أزين لهم الباطل وما يكسبهم المآثم ولما كانت: (الباء) باء القسم، كانت: (اللام) جواب القسم و(ما): بتأويل المصدر و(اغويتني) صلتها.

والثاني: أن قوله: ﴿فِيمَا آغْوَيْتَنِي﴾، أي: فبسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم، والمراد: أنك لما اغويتني فأنا أيضاً أسعى في إغوائهم.

(١) الآية: رقم ٥٩ من سورة مريم.

(٢) الآية: رقم ٣٤ من سورة هود.

الثالث: قال بعضهم: (ما) في قوله: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، للاستفهام، كأنه قيل: بأي شيء أغويتني ثم ابتداء وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾، وفيه إشكال وهو أن إثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على (ما) الاستفهامية قليل.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، لا خلاف بين النحويين أن: (على) محذوف والتقدير: (لأقعدن لهم على صراطك المستقيم).

قال الزجاج: مثاله قولك: (ضرب زيد الظهر والبطن والمعنى على الظهر والبطن)، وإلقاء كلمة (على) جائز، لأن: الصراط ظرف في المعنى، فاحتمل ما يحتمله لليوم والليلة في قولك: (أتيك غدا وفي غد).

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فيه أبحاث:

البحث الأول: المراد منه أنه يواظب على الإفساد مواظبة لا يفتر عنها، ولهذا المعنى ذكر القعود لأن من أراد أن يبالغ في تكميل أمر من الأمور قعد حتى يصير فارغ البال، فيمكنه إتمام المقصود، ومواظبته على الإفساد هي مواظبة على الوسوسة حتى لا يفتر عنها.

والبحث الثاني: أن هذه الآية تدل على أنه كان عالما بالدين الحق والمنهج الصحيح، لأنه قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وصراط الله المستقيم هو دينه الحق.

البحث الثالث: الآية تدل على أن إبليس كان عالما بأن الذي هو عليه من المذهب والاعتقاد هو محض الغواية والضلال، لأنه لو لم يكن كذلك لما قال: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، وأيضا كان عالما بالدين الحق ولولا ذلك لما قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وإذا ثبت هذا فكيف يمكن: أن يرضى إبليس بذلك المذهب مع علمه بكونه ضلالا وغواية، وبكونه مضادا للدين الحق ومنافيا للصراط المستقيم، فإن المرء إنما يعتقد الفاسد إذا غلب على ظنه كونه حقا، فأما مع العلم بأنه باطل وضلال وغواية يستحيل أن يختاره ويرضى به ويعتقده.

واعلم أن من الناس من قال: إن كفر إبليس كفر عناد لا كفر جهل، لأنه متى علم أن مذهبه ضلال وغواية فقد علم أن ضده هو الحق، فكان إنكاره إنكاراً بمحض اللسان فكان ذلك كفر عناد.

ومنهم من قال: لا بل كفره كفر جهل وقوله: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، يريد به في زعم الخصم وفي اعتقاده، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتَيْنَهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾، في ذكر هذه الجهات الأربع قولان:

القول الأول: إن كل واحد منها مختص بنوع من الآفة في الدين، والقائلون بهذا القول ذكروا وجوها:

أحدها: ﴿ثُمَّ لَآتَيْنَهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، يعني: أشككهم في صحة البعث والقيامة، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، ألقي إليهم أن الدنيا قديمة أزلية.

وثانيها: ﴿ثُمَّ لَآتَيْنَهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، والمعنى: أفترهم عن الرغبة في سعادات الآخرة، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، يعني: أقوي رغبتهم في لذات الدنيا وطيباتها، وأحسنها في أعينهم، وعلى هذين الوجهين فالمراد من قوله: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: الآخرة لأنهم يردون عليها ويصلون إليها فهي بين أيديهم، وإذا كانت الآخرة بين أيديهم كانت الدنيا خلفهم لأنهم يخلفونها.

وثالثها: وهو قول الحاكم والسدي: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، يعني: الدنيا، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، يعني: الآخرة وإنما فسرنا بين أيديهم بالدنيا لأنها بين يدي الإنسان يسعى فيها ويشاهدها، وأما الآخرة فهي تأتي بعد ذلك.

ورابعها: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، في تكذيب الأنبياء والرسل الذين يكونون حاضرين، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، في تكذيب من تقدم من الأنبياء والرسل.

وأما قوله: ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾، ففيه وجوه:

أحدها: عن أيمانهم في الكفر والبدعة، وعن شمائلهم في انواع المعاصي.

وثانيها: عن أيمانهم في الصرف عن الحق، وعن شمائلهم في الترغيب في الباطل.

وثالثها: عن أيمانهم، يعني: افترهم عن الحسنات، والشمائل عن السيئات.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا لَّمَنْ يَتَّبِعْ مِنْهُمْ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

اعلم أن إبليس لما وعد بالإفساد الذي ذكره خاطبه الله تعالى بما يدل على الزجر والإهانة فقال: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا﴾، أي: من الجنة أو من السماء مذمومًا، قال الليث: ذأمت الرجل فهو مذموم، أي: محقور والذأم الاحتقار، وقوله: ﴿لَّمَنْ يَتَّبِعْ﴾، اللام فيه: لام القسم، وجوابه قوله: ﴿لَا مَلَأَنَّ﴾، قال صاحب الكشف روى عصمة عن عاصم: لمن تبعك، بكسر اللام، بمعنى: لمن تبعك منهم هذا الوعيد وهو قوله: ﴿لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقيل: إن لأملاًن: في محل الابتداء، ولمن تبعك: خبره، قال أبو بكر الأنباري الكناية في قوله: ﴿لَّمَنْ يَتَّبِعْ مِنْهُمْ﴾، عائد على ولد آدم لأنه حين قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ﴾، كان مخاطباً لولد آدم فرجعت الكناية إليهم، قال القاضي: دلت هذه الآية على أن التابع والمتبوع معنيان في أن جهنم تملأ منهما، ثم إن الكافر تبعه فكذلك الفاسق تبعه فيجب القطع بدخول الفاسق النار وجوابه أن المذكور في الآية أنه تعالى يملأ جهنم ممن تبعه وليس في الآية أن كل من تبعه فإنه يدخل جهنم فسقط هذا الاستدلال ونقول هذه الآية تدل على أن جميع أصحاب البدع والضلالات يدخلون جهنم لأن كلهم متابعون لإبليس والله اعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

اعلم أن هذه الآية مشتملة على مسائل:

أحدها: إن قوله: ﴿اسْكُنْ﴾، أمر تعبد، أو: أمر إباحة وإطلاق من، ﴿فَوْسَوْسَ لَهَا

الشَّيْطَانُ يُدْعِي لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءٍ بِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَا سَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِفُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَكَادَتْهُمَا رَبُّهُمَا أَنْ أَتَاهُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقْلَ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾، حيث إنه لا مشقة فيه فلا يتعلق به التكيف.

وثانيها: أن (زوج) آدم حواء ويجب أن نذكر أنه تعالى كيف خلق حواء.

وثالثها: إن تلك ﴿الْجَنَّةُ﴾ كانت جنة الخلد أو جنة من جنان السماء أو جنة من جنان الأرض.

ورابعها: إن قوله: ﴿فَكَلَّا﴾: أمر إباحة لا أمر تكليف.

وخامسها: إن قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾: نهي تنزيه أو نهي تحريم.

وسادسها: إن قوله: ﴿هَذِهِ الشَّجَرَةُ﴾، المراد: شجرة واحدة بالشخص أو النوع.

وسابعها: إن تلك الشجرة، أي شجرة كانت.

وثامنها: إن ذلك الذنب كان صغيرا أو كبيرا.

وتاسعها: أنه ما المراد من قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وهل يلزم من كونه ظالما بهذا

القربان الدخول تحت قوله تعالى: ﴿إِلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(١).

وعاشرها: إن هذه الواقعة وقعت قبل نبوة آدم عليه السلام أو بعدها، فهذه المسائل العشرة قد سبق تفصيلها وتقريرها في سورة البقرة فلا نعيدها، والذي بقي علينا من هذه الآية حرف واحد، وهو: انه تعالى قال في سورة البقرة: ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا﴾^(٢) بالواو، وقال هاهنا: ﴿فَكَلَّا﴾: بالفاء فما السبب فيه؟ وجوابه من وجهين: الأول: أن الواو: تفيد

(١) الآية: رقم ١٨ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٣٥ من سورة البقرة.

الجمع المطلق، وأن الفاء: تفيد الجمع على سبيل التعقيب، فالمفهوم من الفاء: نوع داخل تحت المفهوم من الواو، ولا منافاة بين النوع والجنس، ففي سورة البقرة ذكر الجنس، وفي سورة الأعراف ذكر النوع.

قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ﴿٢١﴾﴾ فدلَّهٖمَا بِمُرُورٍ فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطُفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

في قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾، يقال: وسوس إذا تكلم كلاما خفيا يكرره وبه سمي صوت الحلي وسواسا، وهو فعل غير متعد، كقولنا: (ولولت المرأة)، وقولنا: (وعوع الذئب)، (ورجل موسوس) بكسر الواو، ولا يقال: موسوس بالفتح، ولكن موسوس له وموسوس إليه وهو الذي يلقي إليه الوسوسة، ومعنى وسوس له فعل الوسوسة لأجله وسوس إليه ألقاها إليه، وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: كيف وسوس إليه وآدم كان في الجنة وإبليس أُخرج منها.

والجواب: قال الحسن: كان يوسوس من الأرض إلى السماء وإلى الجنة بالقوة الفوقية التي جعلها الله تعالى له، وقال أبو مسلم الأصفهاني: بل كان آدم وإبليس في الجنة لأن هذه الجنة فتلك القصة الركيكة مشهورة، وقال آخرون: إن آدم وحواء ربما قربا من باب الجنة، وكان إبليس واقفا من خارج الجنة على بابها فيقرب فيقرب أحدهما من الآخر وتحصل الوسوسة هناك.

السؤال الثاني: إن آدم عليه السلام كان يعرف ما بينه وبين إبليس من العداوة فكيف قبل قوله.

والجواب: لا يبعد أن يقال: إن إبليس لقي آدم مرارا كثيرة ورغبة في أكل الشجرة بطرق كثيرة فلأجل المواظبة والمداومة على هذا التمويه أثر كلامه في آدم عليه السلام.

السؤال الثالث: لم قال: ﴿فَوَسَّوْا لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، والجواب: معنى وسوس له، أي: فعل الوسوسة لأجله والله أعلم أما قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمَا﴾، ففي هذا اللام قولان: أحدهما: أنه: (لام العاقبة) كما في قوله: ﴿فَالنَّقْطَةُءَالِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾^(١)، وذلك لأن الشيطان لم يقصد بالوسوسة ظهور عورتها ولم يعلم أنها إن أكلا من الشجرة بدت عوراتها وإنما كان قصده ان يحملها على المعصية فقط.

الثاني: لا يبعد أيضا أن يقال إنه: (لام الغرض) ثم فيه وجهان: الوجه الأول: أن يجعل بدو العورة كناية عن سقوط الحرمة وزوال الجاه، والمعنى: أن غرضه من إلقاء تلك الوسوسة إلى آدم زوال حرمة وذهاب منصبه.

والوجه الثاني: لعله رأى في اللوح المحفوظ أو سمع من بعض الملائكة أنه إذا أكل من الشجرة بدت عورته وذلك يدل على نهاية الضرر وسقوط الحرمة، فكان يوسوس إليه لحصول هذا الغرض، وقوله: ﴿مَا وَدَّيْ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءٍ تَبَيَّنَا﴾، فيه مباحث:

المبحث الأول: ما ووري مأخوذ من المواراة، يقال: واريته، أي: سترته، قال تعالى: ﴿يُودِّي سَوَاءَ أَخِيهِ﴾^(٢)، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي لما أخبره بوفاة أبيه: (اذهب فواره)^(٣).

المبحث الثاني: السوأة: فرج الرجل والمرأة، وذلك لأن ظهوره يسوء الإنسان، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كأنهما قد ألبسا ثوبا يستر عورتها، فلما عصيا زال عنهما ذلك الثوب، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾.

المبحث الثالث: دلت هذه الآية على أن كشف العورة من المنكرات وأنه لم يزل مستهجننا

(١) الآية: رقم ٨ من سورة القصص.

(٢) الآية: رقم ٣١ من سورة المائدة.

(٣) الحديث: ورد في صحيح أبي داود، الصفحة أو الرقم: ٣٢١٤ خلاصة حكم المحدث: صحيح.

في الطباع، مستقبحا في العقول وقوله: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾، يمكن أن يكون هذا الكلام ذكره إبليس بحيث خاطب به آدم وحواء ويمكن أيضا أن يكون وسوسة أوقعها في قلوبهما، والأمران ومرويان، إلا أن الأغلب أنه كان ذلك على سبيل المخاطبة بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ومعنى الكلام أن: إبليس قال لهما في الوسوسة إلا أن تكون ملكين واراذه به أن تكونا بمنزلة الملائكة إن أكلتما منها، أو تكونا من الخالدين إن أكلتما، فرغبهما بأن أوهمهما أن من أكلها صار كذلك، وأنه تعالى إنما نهاهما عنها لكي لا يكونا بمنزلة الملائكة ولا يخلدا.

ثم قال تعالى: ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾، وذكر أبو منصور الأزهري لهذه الكلمة أصليين: أحدهما: أصل الرجل العطشان يدلي رجليه في البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء فوضعت التدللية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه فيقال: دلاه إذا أطمعه، الثاني: فدلاهما بغرور، أي: أجراهما إبليس على أكل الشجرة بغرور والأصل فيه دللها من الدل والدالة وهي الجرأة. إذا عرفت هذا فنقول: قال ابن عباس: ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾، أي غرهما باليمين، وكان آدم يظن أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه فكان عبيده يفعلون ذلك طلبا للعتق، فقيل له: إنهم يخدعونك فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾، وذلك يدل على أنها تناولا اليسير قصدا إلى معرفة طعمه، ولولا أنه تعالى ذكر في آية أخرى أنها أكلا منها، لكان ما في هذه الآية لا يدل على الأكل لأن الذائق قد يكون ذائقا من دون أكل.

ثم قال تعالى: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾، أي: ظهرت عوراتهما وزال النور عنهما وطفقا يخصفان، قال الزجاج: معنى طفق: أخذ في الفعل يخصفان، أي: يجعلان ورقة على ورقة ومنه قيل للذي يرقع النعل خصاف، وفيه دليل على أن كشف العورة قبيح من لدن آدم

الطيط، ألا ترى أنها كيف بادرا إلى الستر لما تقرر في عقلهما من قبح كشف العورة، ﴿وَقَادَنَهُمَا رَبُّهُمَا﴾، قال عطاء: بلغني: أن الله ناداهما: (أفرارا مني يا آدم، قال: بل حياء منك يا رب ما ظننت أن أحدا يقسم باسمك كاذبا، ثم ناداه ربه أما خلقتك بيدي أما نفخت فيك من روحي أما أسجدت لك ملائكتي أما أسكنتك في جنتي في جواربي!)^(١).

ثم قال: ﴿وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، قال ابن عباس: بين العداوة حيث أبى السجود وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا رِيَاءَ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

اعلم أن هذه الآية مفسرة في سورة البقرة وقد ذكرنا هناك أن هذه الآية تدل على صدور الذنب العظيم من آدم عليه السلام إلا أنا نقول: هذا الذنب إنما صدر عنه قبل النبوة وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَى حِينٍ﴾^(٢٤) قَالَ فِيهَا حَيَوْنَ وَفِيهَا تَمَوُّتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾، اعلم أن هذا الذي تقدم ذكره هو آدم وحواء وإبليس، وإذا كان كذلك فقوله: اهبطوا يجب أن يتناول هؤلاء الثلاثة، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني: العداوة ثابتة بين الجن والإنس لا تزول البتة، وقوله: ﴿فِيهَا حَيَوْنَ﴾، الكناية: عائدة إلى الأرض في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، والمراد: في الأرض تعيشون وفيها تموتون ومنها تخرجون إلى البعث والقيامة.

قرأ حمزة والكسائي: تخرجون بفتح التاء وضم الراء، وكذلك في الروم والزخرف والجنائية، وقرأ ابن عامر هاهنا وفي الزخرف بفتح التاء وفي الروم والجنائية بضم التاء والباقون جميع ذلك بضم التاء.

(١) الأثر: في تاريخ الطبري ج ١: ص ١١١.

٤_ وقال الإمام القرطبي رحمته الله: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، لما ذكر نعمه ذكر ابتداء خلقه، وقد تقدم معنى الخلق في غير موضع، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، أي: خلقناكم نطفاً ثم صورناكم، ثم إنا نخبركم أنا: ﴿قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، وعن ابن عباس والضحاك وغيرهما: المعنى: (خلقنا آدم ثم صورناكم في ظهره).

وقال الأخفش: ﴿ثُمَّ﴾، بمعنى: الواو.

وقيل: المعنى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾، يعني: آدم عليه السلام، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، ثم صورناكم، على التقديم والتأخير.

وقيل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾، يعني: آدم عليه السلام، ذكر بلفظ الجمع لأنه أبو البشر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، راجع إليه أيضاً، كما يقال: نحن قتلناكم، أي: قتلنا سيدكم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، وعلى هذا لا تقديم ولا تأخير، عن ابن عباس أيضاً.

وقيل: المعنى: ولقد خلقناكم، يريد آدم وحواء، فآدم من التراب وحواء من ضلع من أضلاعه، ثم وقع التصوير بعد ذلك، فالمعنى: ولقد خلقنا أبايكم ثم صورناهما، قاله الحسن.

وقيل: المعنى: خلقناكم في ظهر آدم ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق، هذا قول مجاهد، رواه عنه ابن جريج وابن أبي نجيح، قال النحاس: وهذا أحسن الأقوال.

يذهب مجاهد إلى أنه خلقهم في ظهر آدم، ثم صورهم حين أخذ عليهم الميثاق، ثم كان السجود بعد.

ويقوي هذا: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾^(١)، وفي الحديث: (أنه أخرجهم أمثال الذر فأخذ عليهم الميثاق)^(٢).

وقيل: ﴿ثُمَّ﴾ للإخبار، أي: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ﴾، يعني: في ظهر آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ﴾، أي: في الأرحام، قال النحاس: هذا صحيح عن ابن عباس، قلت: كل هذه الأقوال محتمل، والصحيح منها ما يعضده التنزيل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾^(٣)، يعني: آدم.

وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾^(٤)، ثم قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: جعلنا نسله وذريته، ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾^(٥)، فآدم خلق من طين ثم صور وأكوم بالسجود، وذريته صوروا في أرحام الأمهات بعد أن خلقوا فيها وفي أصلاب الآباء، وقد تقدم في أول سورة الأنعام أن كل إنسان مخلوق من نطفة وتربة، فتأمل.

وقال هنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ﴾، وقال في آخر الحشر: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾^(٦)، فذكر التصوير بعد البرء.

وقيل: معنى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ﴾، أي: خلقنا الأرواح أولاً ثم صورنا الأشباح آخرًا. قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِلَهِسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، استثناء من غير الجنس، وقيل: من الجنس.

وقد اختلف العلماء: هل كان من الملائكة أم لا.

(١) الآية: رقم ١٧٢ من سورة الأعراف.

(٢) الحديث: رواه الإمام أحمد في (مسنده) بإسناد صحيح إلى ابن عباس، ورواه أحمد في (مسنده) بإسناد صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ.

(٣) الآية: رقم ١٢ من سورة المؤمنون.

(٤) الآية: رقم ١ من سورة النساء.

(٥) الآية: رقم ١٣ من سورة المؤمنون.

(٦) الآية: رقم ٢٤ من سورة الحشر.

كما سبق بيانه في البقرة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، وفي الآية أربع مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿مَا مَنَّكَ﴾، ﴿مَا﴾: في موضع رفع بالابتداء، أي: أي شيء منعك، وهذا سؤال توبيخ، ﴿إِلَّا تَسْجُدُ﴾، في موضع نصب، أي: من أن تسجد، و(لا): زائدة، وفي سورة (ص) ﴿مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدُ﴾، وقال الشاعر:

أبى جوده لا البخل فاستعجلت به ... نعم من فتى لا يمنع الجود نائله

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، يدل علما يقوله الفقهاء من أن الأمر يقتضي الوجوب بمطلقه من غير قرينة، لأن الذم علق على ترك الأمر المطلق الذي هو قوله ﴿وَلَا تَسْجُدُوا لِلْمَلَائِكَةِ﴾: ﴿أَسْجُدُوا لِلْآدَمِ﴾، وهذا بين.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، أي، منعني من السجود فضلي عليه، فهذا من إبليس جواب على المعنى، كما تقول: لمن هذه الدار؟ فيقول المخاطب: مالكها زيد، فليس هذا عين الجواب، بل هو كلام يرجع إلى معنى الجواب.

وقوله: ﴿خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، فرأى أن النار أشرف من الطين، لعلوها وصعودها وخفتها، ولأنها جوهر مضيء.

قال ابن عباس والحسن وابن سيرين: أول من قاس إبليس فأخطأ القياس. فمن قاس الدين برأيه قرنه مع إبليس، قال ابن سيرين: وما عبت الشمس والقمر إلا بالمقاييس.

وقالت الحكماء: أخطأ عدو الله من حيث فضل النار على الطين، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق، فإن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة:

أحدها: أن من جوهر الطين الرزانة والسكون، والوقار والأناة، والحلم، والحياء، والصبر.

وذلك هو الداعي لآدم عليه السلام بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية.

وأن من جوهر النار الخفة والطيش والحدة والارتفاع والاضطراب، وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار، فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء.

الثاني: أن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مسك أذفر، ولم ينطق الخبر بأن في الجنة نارا وأن في النار ترابا.

الثالث: أن النار سبب العذاب، وهي عذاب الله لأعدائه، وليس التراب سببا للعذاب.

الرابع: أن الطين مستغن عن النار، والنار محتاجة إلى المكان ومكانها التراب.

قلت: ومحتمل قولاً خامساً وهو أن التراب مسجد وطهور، كما جاء في صحيح الحديث.

والنار: تخويف وعذاب، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾^(١).

وقال ابن عباس: كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس فعصى ربه، وهو أول من قاس برأيه، والقياس في مخالفة النص مردود.

المسألة الرابعة: واختلف الناس في القياس إلى قائل به، وراد له، فأما القائلون به فهم الصحابة والتابعون، وجهور من بعدهم، وأن التعبد به جائز عقلاً واقع شرعاً، وهو الصحيح.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

(١) الآية: رقم ١٦ من سورة الزمر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَأَهِطْ مِّنْهَا﴾، أي: من السماء، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، لأن أهلها الملائكة المتواضعون، ﴿فَأَخْرَجَ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، أي: من الأذلين، ودل هذا أن من عصى مولاه فهو ذليل.

وقال أبو روق والجبلي: ﴿فَأَهِطْ مِّنْهَا﴾، أي: من صورتك التي أنت فيها، لأنه افتخر بأنه من النار فشوهت صورته بالإظلام وزوال إشراقه.

وقيل: ﴿فَأَهِطْ مِّنْهَا﴾، أي: انتقل من الأرض إلى جزائر البحار، كما يقال: هبطنا أرض كذا أي انتقلنا إليها من مكان آخر، فكأنه أخرج من الأرض إلى جزائر البحار فسلطانه فيها، فلا يدخل الأرض إلا كهينة السارق، يخاف فيها حتى يخرج منها، والقول الأول أظهر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا يَنبَغِي لَهُمْ أَنْ يَدْرُسُوا مِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾، فيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿فِيمَا آغْوَيْتَنِي﴾، الإغواء إيقاع الغي في القلب، أي فبما أوقعت في قلبي من الغي والعناد والاستكبار، وهذا لأن كفر إبليس ليس كفر جهل، بل هو كفر عناد واستكبار.

قيل: معنى الكلام: القسم، أي: فبإغوائك إياي لأقعدن لهم على صراطك، أو في صراطك، فحذف، دليل على هذا القول قوله في (ص): ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كأن إبليس أعظم قدر إغواء الله إياه لما فيه من التسليط على العباد، فأقسم به إعظاما لقدره عنده.

وقيل: (الباء)، بمعنى: اللام، كأنه قال: فلا إغوائك إياي.

وقيل: هي بمعنى: مع، والمعنى: فمع إغوائك إياي، وقيل: هو استفهام، كأنه سأل بأي شيء أغواه؟ وكان ينبغي على هذا أن يكون: فبم أغويتني؟ وقيل: المعنى: فبما أهلكني بلعنك إياي.

المسألة الثانية: مذهب أهل السنة، أي: أن الله تعالى أضله وخلق فيه الكفر، ولذلك نسب الإغواء في هذا إلى الله تعالى وهو الحقيقة، فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له، صادر عن إرادته تعالى.

وخالف الإمامية والقدرية وغيرهما شيخهم إبليس الذي طاعوه في كل ما زينه لهم، ولم يطاعوه في هذه المسألة، ويقولون: أخطأ إبليس، وهو أهل للخطأ حيث نسب الغواية إلى ربه، تعالى الله عن ذلك.

فيقال لهم: وإبليس وإن كان أهلاً للخطأ فما تصنعون في نبي مكرم معصوم، وهو نوح عليه السلام حيث قال لقومه: ﴿وَلَا يَفْعَلُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١)، وقد روي أن طاووساً: جاءه رجل في المسجد الحرام، وكان متهماً بالقدر، وكان من الفقهاء الكبار، فجلس إليه فقال له طاووس: تقوم أو تقام؟ فقبل لطاووس: تقول هذا لرجل فقيه! فقال: إبليس أفقه منه، يقول إبليس: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، ويقول هذا: أنا أغوي نفسي.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي: بالصد عنه، وتزيين الباطل حتى يهلكوا كما هلك، أو يضلوا كما ضل، أو يخبيوا كما خيب، حسب ما تقدم من المعاني الثلاثة، ف﴿أَغْوَيْتَنِي﴾، والصراط المستقيم: هو الطريق الموصل إلى الجنة. و﴿صِرَاطَكَ﴾: منصوب على حذف (على)، أو: (في) من قوله: ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

ومن أحسن ما قيل في تأويل: ﴿ثُمَّ لَآتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾، أي: لأصدهم عن الحق، وأرغبهم في الدنيا، وأشككهم في الآخرة. وهذا غاية في الضلالة، كما قال: ﴿وَلَا ضَلَالَتَهُمْ﴾، حسب ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْخُورًا لَمَنْ يَعْكَ مِنْهُمْ لَآمِلًا جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

(١) الآية: رقم ٣٤ من سورة هود.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا ﴾ أي: من الجنة، ﴿ مَذَّةً وَمَا مَذْخُورًا ﴾، ﴿ مَذَّةً وَمَا ﴾ أي: مذموما. قوله: ﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، اللام: لام القسم، والجواب: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾. وقيل: ﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ ﴾، لام: تأكيد، ﴿ لَأَمْلَأَنَّ ﴾، لام: قسم، والدليل على هذا أنه يجوز في غير القراءة حذف اللام الأولى، ولا يجوز حذف الثانية، وفي الكلام معنى الشرط والمجازاة، أي: من تبعك عذبت.

ولو قلت: من تبعك أعذبه لم يجز، إلا أن تريد لأعذبه.

وقرأ عاصم من رواية أبي بكر بن عياش: (لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ) بكسر اللام، وأنكره بعض النحويين.

قال النحاس: وتقديره والله أعلم: من أجل من تبعك، كما يقال: (أكرمت فلانا لك)، وقد يكون المعنى: الدحر لمن تبعك، ومعنى: ﴿ وَمِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، أي: منكم ومن بني آدم، لأن ذكرهم قد جرى إذ قال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ ﴾، خاطب ولد آدم.

قوله تعالى: ﴿ وَيَتَادَمُّ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾.

قال تعالى لآدم عليه السلام بعد إخراج إبليس من موضعه من السماء: اسكن أنت وحواء الجنة، وقد تقدم في البقرة معنى الإسكان، فأغنى عن إعادته هنا، وقد تقدم معنى ولا تقربا هذه الشجرة هناك والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ فَوَسَّوْا لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَيْكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾.

قوله تعالى: (فوسوس لهما الشيطان) أي: إليهما، قيل: داخل الجنة بإدخال الحية إياه، وقيل: من خارج بالسلطنة، التي جعلت له. وقد مضى هذا في البقرة.

والوسوسة: الصوت الخفي، والوسوسة: حديث النفس، يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة ووسواسا (بكسر الواو).

والوسواس (بالفتح): اسم مثل الزلزال.

والوسواس: اسم الشيطان، قال الله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾.

قوله: ﴿لِيَبْدِئَ لَكُمَا﴾ أي: ليظهر لهما، واللام: لام العاقبة، وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ﴾، ﴿أَنْ﴾: في موضع نصب، بمعنى: إلا، كراهية أن فحذف المضاف، هذا قول البصريين.

والكوفيون يقولون: (لثلاثا تكونا)، وقيل: أي: (إلا ألا تكونا ملكين تعلمان الخير والشر)، وقيل: طمع آدم ﷺ في الخلود لأنه علم أن الملائكة لا يموتون إلى يوم القيامة.

قال النحاس: وبين الله ﷻ فضل الملائكة على جميع الخلق في غير موضع من القرآن فمنها هذا وهو ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ﴾، ومنه قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾^(١)، ومنه قوله: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(٢)، وقال الحسن: فضل الله الملائكة بالصور والأجنحة والكرامة، وقال غيره: فضلهم جل وعز بالطاعة وترك المعصية، فلهذا يقع التفضيل في كل شيء.

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمُهُمَا إِنْ كُنَّا لَيْنَ النَّاصِحِينَ﴾، ﴿وَقَاسَمُهُمَا﴾، أي: حلف لهما، يقال: أقسم إقساماً، أي حلف، قال الشاعر:

وقاسمها بالله جهدا لأنتم ... ألد من السلوى إذا ما نشورها

قوله: ﴿إِنْ كُنَّا لَيْنَ النَّاصِحِينَ﴾، ليس ﴿لَكُمَا﴾ داخلا في الصلة، والتقدير: إني ناصح لكما لمن الناصحين، ومعنى الكلام: اتبعاني أرشدكما، ذكره قتادة.

(١) الآية: رقم ٥٠ من سورة الأنعام.

(٢) الآية: رقم ١٧٢ من سورة النساء.

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ أَهبطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾، أوقعهما في الهلاك، قال ابن عباس: غرهما باليمين، وكان آدم عليه السلام يظن أنه لا يحلف أحد بالله كاذبا، فغررهما بوسوسته وقسمه لهما.

وقال قتادة: حلف بالله لهما حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله.

كان بعض العلماء يقول: من خادعنا بالله خدعنا، وفي الحديث عنه ﷺ: (المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم)^(١)، وأنشد نفطويه:

إن الكريم إذا تشاء خدعته ... وترى اللئيم مجربا لا يخدع

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

الضباط كلها للأرض، ولم يذكر الواو في: (قال)، ولو ذكرها لجاز أيضا.

وهو كقولك: قال زيد لعمر و كذا قال له كذا.

(١) الحديث: أخرجه الطبراني (١٩/٨٢) (١٦٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء) (٧/١٦٣)، وأخرجه أبو داود (٤٧٩٠)، والترمذي (١٩٦٤) واللفظ لهما، وأحمد (٩١٠٧)، من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

أقوال المفسرين في آيات القصة

في سورة الحجر

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن صَلَاصِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ۖ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٢٩ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝٣١ قَالَ يَتَّبِعِلِسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝٣٢ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلَاصِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣ قَالَ فَخُذْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ۝٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخَلَّصِينَ ۝٤٠﴾ (١).

١- قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره لنبه محمد ﷺ: اذكر يا محمد: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن صَلَاصِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ۖ﴾.

يقول: فإذا صورته فعدلت صورته، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، فصار بشرا حيا، ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، سجود تحية وتكرمة لا سجود عبادة.

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝٣١﴾ قَالَ يَتَّبِعِلِسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝٣٢.

يقول تعالى ذكره: فلما خلق الله ذلك البشر، ونفخ فيه الروح بعد أن سواه، سجد الملائكة كلهم جميعا، إلا إبليس، فإنه أبى أن يكون مع الساجدين في سجودهم لآدم حين سجدوا، فلم يسجد له معهم تكبرا وحسدا وبغيا، فقال الله تعالى ذكره: ﴿يَتَّبِعِلِسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝٣٢﴾.

أَلَا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾، يقول: ما منعك من أن تكون مع الساجدين، فإن في قول بعض نحويي الكوفة خفض، وفي قول بعض أهل البصرة نصب بفقد الخافض.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلَافٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٣٣) قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾.

يقول تعالى ذكره، (قال) إبليس: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلَافٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾، وهو من طين وأنا من نار، والنار تأكل الطين.

وقوله: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا﴾، يقول الله تعالى ذكره لإبليس: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾، والرجيم: المرجوم، صرف من مفعول إلى فاعيل وهو المشتوم، كذلك قال جماعة من أهل التأويل.

فعن ابن جريج، قوله: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾، قال: ملعون، والرجم في القرآن: الشتم.

وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾، يقول: وإن غضب الله عليك بإخراجه إياك من السموات وطرده عنها إلى يوم المجازاة، وذلك يوم القيامة، وقد بينا معنى اللعنة في غير موضع بما أغنى عن إعادته هاهنا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْني إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾.

يقول تعالى ذكره: قال إبليس: ربّ فإذ أخرجتني من السموات ولعنتني، فأخّرني إلى يوم تبعث خلقك من قبورهم فتحشرهم لموقف القيامة، قال الله له: فإنك ممن أُخّر هلاكه إلى يوم الوقت المعلوم لهلاك جميع خلقي، وذلك حين لا يبقى على الأرض من بني آدم ديار.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣١) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾، يقول تعالى ذكره: قال إبليس: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، يا غوائلك ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، وكان قوله: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾: خرّج مخرج القسم، كما يقال: بالله، أو: بعزة الله لأغوينهم.

وعنى بقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، لأحسننّ لهم معاصيك، ولأحبيبنها إليهم في الأرض، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يقول: ولأضلنهم عن سبيل الرشاد، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾، يقول: إلا من أخلصته بتوفيقك فهديته، فإن ذلك ممن لا سلطان لي عليه ولا طاقة لي به.

وقد قرئ: (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ)، فمن قرأ ذلك كذلك، فإنه يعني به: إلا من أخلص طاعتك، فإنه لا سبيل لي عليه.

٢- وقال الإمام الماتريدي رحمه الله: وقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾، أي: أتممته، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، وقال في آية أخرى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ (١).

وقوله ﷻ: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَجْدِينَ﴾، يحتمل أن يكون قوله: ﴿خَلَقْتُ بَشَرًا﴾، ما ذكر خبر أنه سيفعل، وأمر لهم بالسجود؛ فيكون الأمر بالسجود بعد ما خلقه إياه، فهذا يدل أنه قد يجوز تقدم الأمر عن وقت الفعل.

والله أعلم.

وقوله ﷻ: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٣٠) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾،

(١) الآية: رقم ٩١ من سورة الأنبياء.

ظاهر الأمر بالسجود؛ والاستثناء الذي ذكر يدل أن إبليس من الملائكة، لأن فيهم كان الأمر بالسجود، ومنهم وقع الثنيا، وقد ذكرنا اختلافهم وأقوايلهم فيما تقدم؛ مقدار ما حفظناه.

قال: والأصل بأن كل ما خرج مخرج الاستثناء، فيجب أن يسقط اسم ما أجمل نحو قول الرجل لآخر: لك علي عشرة إلا درهماً، يسقط الاستثناء ما أجمل من الاسم حتى صار تسعة، وكذلك إذا قال: ألف إلا خمسين، وإذا لم يسقط ذلك الاسم فلا بد أن يكون الكل فيه مضمراً، نحو قول الرجل: رأيت علماء بلدة كذا إلا فلاناً، يجب أن يضم فيه حرف الكل، حتى يقع على كل؛ نحو أن يقول: رأيت كل علماء بلدة كذا إلا فلاناً، فعلى ذلك تخصيص العموم.

وقال الحسن في قوله: ﴿مِنْ صَلَٰصِلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، قال: الصلصال: هو الطين الحر الذي يتصلصل من صلابته ويبوسته، والحمأ: الطين، والمسنون: قال: مسنون خلقته؛ فهو سنة للخلق بعده من ذريته؛ أن يخلقوا على خلقته، وكقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾^(١)، يقول: استلها من بين ظهراي الطين؛ لا من كل طين خلقه، وكذلك قال في تناسل ذريته؛ وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾، ليس من كل ما خلقه، ولكن استلها من بين ظهراي الماء.

وقوله ﷻ: ﴿قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّٰجِدِينَ﴾^(٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ، مِنْ صَلَٰصِلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ، وقال في موضع آخر: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾^(٣١)، وقال له: ﴿قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّٰجِدِينَ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ

(١) الآية: رقم ١٢ من سورة المؤمنون.

(٢) الآية: رقم ٣٤ من سورة البقرة.

أَمَرْتُكَ^(١)، وقال في موضع آخر: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي^(٢)﴾، وقال في موضع آخر: ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْنَاهُ مِنْ طِينٍ^(٣)﴾.

ذكر مثل هذا على اختلاف الألفاظ، ومعلوم أن هذه المخاطبات معه لم تكن معه مراراً؛ ولكن بمرة واحدة.

وقال أبو بكر الأصم: ذكر الله تعالى قصة إبليس، وقصة الأنبياء جميعاً في مواضع على اختلاف الألفاظ؛ لأنها كذلك كانت في كتبهم، فذكرها على ما في كتبهم؛ ليعلموا أن نبي الله إنما عرف ذلك بالله؛ ليدلهم على صدقه، وفيه دلالة أن اختلاف الألفاظ وتغييرها لا يوجب اختلاف الحكم بعد ألا يغير المعنى، فهذا يدل أن الخبر إذا أُدِّيَ معناه على اختلاف لفظه فإنه يجوز، وكذلك إذا قرأ بغير لسان الذي أنزل فإنه يجوز إذا أتى بمعناه، والله أعلم. وقوله ﷻ: ﴿قَالَ فَخَرِّجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ^(١)﴾.

قوله: ﴿فَخَرِّجْ مِنْهَا^(٢)﴾: قَالَ بَعْضُهُمْ: اخرج من السماء إلى الأرض، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اخرج من الأرض إلى جزائر البحر، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اخرج من الجنة، وأمثاله أو اخرج من صورة الملائكة إلى صورة الأبالسة، وجائز أن يقال: اخرج من كذا، أي: تحول من مكان كذا إلى مكان كذا على حقيقة الخروج، ولسنا ندرى كيف كان كذلك.

وقوله ﷻ: ﴿رَجِيمٌ^(٣)﴾، قيل: الرجيم: الملعون، وقيل: الرجيم: ما يرمي بالكواكب.

وقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ^(٤)﴾، اللعنة: هي الطرد في اللغة والخذلان، طرد عن رحمته إلى يوم الدين، حتى لا يهتدي إلى دين الله وهدايه، ثم يوم الدين له العذاب الدائم واللعنة القائمة.

(١) الآية: رقم ١٢ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٧٥ من سورة (ص).

(٣) الآية: رقم ١٢ من سورة الأعراف.

وقوله ﷻ: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ لعن اللعين، وطرد عن رحمته إلى يوم الدين؛ أي: لا تدركه الهداية؛ لأن الهداية في الدنيا إنما تدركه برحمته، والرحمة في الآخرة هي العفو عما لزمه ووجب عليه.

وقوله ﷻ: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾.

قال بعض أهل التأويل: إلى النفخة الأولى، وقيل: إلى النفخة الثانية، ونحوه.

لكننا لا نعلم ذلك، وكأنه تعالى انظره إلى الوقت المعلوم؛ ولم يبين له ذلك الوقت، ولم يطلعه عليه؛ حيث قال: ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفُتَيَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١)، أخبر أنه يرى ما لا يرون هم، وأنه يخاف الله، ولو كان بين له الوقت المعلوم لكان لا يخاف هلاكه قبل ذلك الوقت، فهذا يدل على ما ذكرنا، والله أعلم.

وقوله ﷻ: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، كأنه يقول: رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأزيدن لهم في الغواية بما أغويهم، وقد ذكرنا هذا وأمثاله فيما تقدم.

وقال الإمام الرازي رحمه الله: اعلم أنه تعالى لما ذكر حدوث الإنسان الأول واستدل بذكره على وجود الإله القادر المختار ذكر بعده واقعته وهو أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود له فأطاعوه إلا إبليس فإنه أبى وتمرد، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما تفسير كونه بشرا، فالمراد منه كونه جسما كثيفا مباشر ويلاقي والملائكة والجن لا يباشرون للطف أجسامهم عن أجسام البشر، والبشرة ظاهرة الجلد من كل حيوان وأما كونه صلصالا من حمأ مسنون فقد تقدم ذكره، وأما قوله: فإذا سويته ففيه قولان: الأول: فإذا سويت شكله بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية.

(١) الآية: رقم ٤٨ من سورة الأنفال.

والثاني: فإذا سويت أجزاء بدنه باعتدال الطبائع وتناسب الأمشاج، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(١).

وأما قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، ففيه مباحث:

الأول: أن النفخ إجراء الريح في تجاويف جسم آخر، وظاهر هذا اللفظ يشعر بأن الروح هي الريح، وإلا لما صح وصفها بالنفخ، إلا أن البحث الكامل في حقيقة الروح سيجيء في قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢)، وإنما أضاف الله سبحانه روح آدم ﷺ إلى نفسه تشريفا له وتكريما، وقوله: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فيه مباحث: أحدها: أن ذلك السجود كان لآدم ﷺ في الحقيقة أو كان آدم كالقبلة لذلك السجود، وهذا البحث قد تقدم ذكره في سورة البقرة.

وثانيها: أن المأمورين بالسجود لآدم ﷺ كل ملائكة السموات أو بعضهم أو ملائكة الأرض، من الناس من لا يجوز أن يقال: إن أكابر الملائكة كانوا مأمورين بالسجود لآدم ﷺ، والدليل عليه قوله تعالى في آخر سورة الأعراف في صفة الملائكة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾^(٣)، فقوله: وله يسجدون يفيد الحصر، وذلك يدل على أنهم لا يسجدون إلا لله تعالى وذلك ينافي كونهم ساجدين لآدم ﷺ أو لأحد غير الله تعالى أقصى ما في الباب أن يقال: إن قوله تعالى: (فقعوا له ساجدين)، يفيد العموم، إلا أن الخاص مقدم على العام.

وثالثها: أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى كما نفخ الروح في آدم ﷺ وجب على الملائكة أن يسجدوا له، لأن قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، مذكور بفاء التعقيب وذلك يمنع من التراخي، وقوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ

(١) الآية: رقم ٢ من سورة الإنسان.

(٢) الآية: رقم ٨٥ من سورة الإسراء.

(٣) الآية: رقم ٢٠٦ من سورة الأعراف.

﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، قال الخليل وسيبويه قوله: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، تأكيد بعد تأكيد، وسئل المبرد عن هذه الآية فقال: لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم، فلما قال: ﴿كُلُّهُمْ﴾ زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا، ثم بعد هذا بقي احتمال آخر وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد منهم في وقت آخر فلما قال: ﴿أَجْمَعُونَ﴾، ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة، ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال: وقول الخليل وسيبويه أجود، لأن أجمعين معرفة فلا يكون حالا، وقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، أجمعوا على أن إبليس كان مأمورا بالسجود لآدم، واختلفوا في أنه هل كان من الملائكة أم لا؟ وقد سبقت هذه المسألة بالاستقصاء في سورة البقرة، وقوله: ﴿أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، استئناف وتقديره أن قائلا قال: هلا سجد فقيلا: أبى ذلك واستكبر عنه.

أما قوله: ﴿قَالَ يَبْنَائِيلُيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، فاعلم أنهم أجمعوا على أن المراد من قوله: ﴿قَالَ يَبْنَائِيلُيسَ﴾، أي: قال الله تعالى له يا إبليس وهذا يقتضي أنه تعالى تكلم معه، فعند هذا قال بعض المتكلمين: إنه تعالى أوصل هذا الخطاب إلى إبليس على لسان بعض رسله، إلا أن هذا ضعيف، لأن إبليس قال في الجواب: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَاصِلٍ﴾، فقله: خلقتَه خطاب الحضور لا خطاب الغيبة، وظاهره يقتضي أن الله تعالى تكلم مع إبليس بغير واسطة وأن إبليس تكلم مع الله تعالى بغير واسطة، وكيف يعقل هذا مع أن مكالمة الله تعالى بغير واسطة من أعظم المناصب وأشرف المراتب، فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم، ولعل الجواب عنه: أن مكالمة الله تعالى إنما تكون منصبا عاليا إذا كان على سبيل الإكرام والإعظام، فأما إذا كان على سبيل الإهانة والإذلال فلا.

وقوله: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَاصِلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾، فيه بحثان:

البحث الأول: اللام في قوله: ﴿لَأَسْجُدْ﴾: لتأكيد النفي، ومعناه: لا يصح مني أن أسجد لبشر.

البحث الثاني: معنى هذا الكلام: أن كونه بشرا يشعر بكونه جسما كثيفا وهو كان روحانيا لطيفا، فالتفرقة حاصلة بينهما في الحال من هذا الوجه، كأنه يقول: البشر جسماني كثيف له بشرة، وأنا روحاني لطيف، والجسماني الكثيف أدون حالا من الروحاني اللطيف، والأدون كيف يكون مسجودا للأعلى، وأيضا أن آدم مخلوق من صلصال تولد من حمأ مسنون، فهذا الأصل في غاية الدناءة وأصل إبليس هو النار وهي أشرف العناصر، فكان أصل إبليس أشرف من أصل آدم فوجب أن يكون إبليس أشرف من آدم، والأشرف يقبح أن يؤمر بالسجود للأدون، فالكلام الأول: إشارة إلى الفرق الحاصل بسبب البشرية والروحانية، وهو فرق حاصل في الحال والكلام، الثاني: إشارة إلى الفرق الحاصل بحسب العنصر والأصل، فهذا مجموع شبهة إبليس، وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾، فهذا ليس جوابا عن تلك الشبهة على سبيل التصريح، ولكنه جواب عنها على سبيل التنبيه، وتقديره أن الذي قاله الله تعالى نص، والذي قاله إبليس قياس، ومن عارض النص بالقياس كان رجيبا ملعونا، وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال ابن عباس: يريد يوم الجزاء حيث يجازي العباد بأعمالهم، مثل قوله: ﴿مَتَلِّكْ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(١)، فإن قيل: كلمة: ﴿إِنَّ﴾ تفيد انتهاء الغاية فهذا يشعر بأن اللعن لا يحصل إلا إلى يوم القيامة، وعند قيام القيامة يزول اللعن، أجابوا عنه من وجوه: الأول: المراد منه التأيد، وذكر القيامة أبعد غاية يذكرها الناس في كلامهم، كقوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾^(٢)، في التأيد.

والثاني: أنك مذموم مدعو عليك باللعنة في السموات والأرض إلى يوم الدين، من غير أن يعذب فإذا جاء ذلك اليوم عذب عذابا ينسى اللعن معه، فيصير اللعن حيثئذ كالزائل بسبب أن شدة العذاب تذهل عنه.

(١) الآية: رقم ٤ من سورة الفاتحة.

(٢) الآية: رقم ١٠٧ من سورة هود.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾، متعلق بما تقدم والتقدير: إذا جعلتني رجيا ملعونا إلى يوم الدين ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾، فطلب الإبقاء من الله تعالى عند اليأس من الآخرة إلى وقت قيام القيامة، لأن قوله: ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، المراد منه يوم البعث والنشور وهو يوم القيامة، وقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ، اعلم أن إبليس استنظر إلى يوم البعث والقيامة، وغرضه منه أن لا يموت لأنه إذا كان لا يموت قبل يوم القيامة، وظاهره أن بعد قيام القيامة لا يموت أحد فحينئذ يلزم منه أن لا يموت البتة.

ثم إنه تعالى منعه عن هذا المطلوب وقال: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ، واختلفوا في المراد منه على وجوه:

أحدها: أن المراد من يوم الوقت المعلوم: وقت النفخة الأولى حين يموت كل الخلائق، وإنما سمي هذا الوقت بالوقت المعلوم لأن من المعلوم أن يموت كل الخلائق فيه، وقيل: إنها سماه الله تعالى بهذا الاسم، لأن العالم بذلك الوقت هو الله تعالى لا غير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ (١)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (٢).

وثانيها: أن المراد من يوم الوقت المعلوم هو الذي ذكره إبليس وهو قوله: ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وإنما سماه تعالى بيوم الوقت المعلوم؟ لأن إبليس لما عينه وأشار إليه بعينه صار ذلك كالمعلوم.

فإن قيل: لما أجابه الله تعالى إلى مطلوبه لزم أن لا يموت إلى وقت قيام الساعة وبعد قيام القيامة لا يموت أيضا، فيلزم أن يندفع عنه الموت بالكلية.

قلنا: يحمل قوله: ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، إلى ما يكون قريبا منه، والوقت الذي يموت فيه كل

(١) الآية: رقم ١٨٧ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٣٤ من سورة لقمان.

المكلفين قريب من يوم البعث، وعلى هذا الوجه فيرجع حاصل هذا الكلام إلى الوجه الأول. وثالثها: أن المراد بيوم الوقت المعلوم يوم لا يعلمه إلا الله تعالى، وليس المراد منه يوم القيامة. فإن قيل: إنه لا يجوز أن يعلم المكلف متى يموت، لأن فيه إغراء بالمعاصي، وذلك لا يجوز على الله تعالى.

أجيب عنه: بأن هذا الإلزام إنما يتوجه إذا كان وقت قيام القيامة معلوما للمكلف، فأما إذا علم أنه تعالى أمهله إلى وقت قيام القيامة، إلا أنه تعالى ما أعلمه الوقت الذي تقوم القيامة فيه فلم يلزم منه الإغراء بالمعاصي.

وأجيب عن هذا الجواب: بأنه وإن لم يعلم الوقت الذي فيه تقوم القيامة على التعيين إلا أنه علم في الجملة، أن من وقت خلقه آدم عليه السلام إلى وقت قيام القيامة مدة طويلة فكأنه قد علم أنه لا يموت في تلك المدة الطويلة.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ففيه بحثان:

البحث الأول: (الباء) في بما أغويتني للقسم وما مصدرية، وجواب القسم ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾، والمعنى: أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَعِزَّزَكَ لِأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، إلا أنه في ذلك الموضع أقسم بعزة الله، وهي من صفات الذات، وفي قوله: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، أقسم بإغواء الله وهو من صفات الأفعال.

والفقهاء قالوا: القسم بصفات الذات صحيح، أما بصفات الأفعال فقد اختلفوا فيه. ونقل الواحدي عن قوم آخرين أنهم قالوا: (الباء) هاهنا بمعنى، السبب، أي: بسبب كوني غاويا لأزينن كقول القائل: أقسم فلان بمعصيته ليدخلن النار، وبطاعته ليدخلن الجنة. البحث الثاني: اعلم أن أصحابنا قد احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى قد يريد خلق

الكفر في الكافر ويصده عن الدين ويغويه عن الحق من وجوه: الأول: أن إبليس استمهل وطلب البقاء إلى قيام القيامة مع أنه صرح بأنه إنما يطلب هذا الإمهال والإبقاء لإغواء بني آدم وإضلالهم وأنه تعالى أمهله وأجابه إلى هذا المطلوب، ولو كان تعالى يراعي مصالح المكلفين في الدين لما أمهله هذا الزمان الطويل، ولما مكنه من الإغواء والإضلال والوسوسة.

الثاني: أن أكابر الأنبياء والأولياء مجدون ومجتهدون في إرشاد الخلق إلى الدين الحق، وأن إبليس ورهطه وشيعته مجدون ومجتهدون في الضلال والإغواء، فلو كان مراد الله تعالى هو الإرشاد والهداية لكان من الواجب إبقاء المرشدين والمحققين وإهلاك المضلين والمغوين، وحيث فعل بالضد منه، علمنا أنه أراد بهم الخذلان والكفر.

الثالث: أنه تعالى لما أعلمه بأنه يموت على الكفر وأنه ملعون إلى يوم الدين كان ذلك إغراء له بالكفر والقيح، لأنه أيسر عن المغفرة والفوز بالجنة يجترئ حيثئذ على أنواع المعاصي والكفر.

الرابع: أنه لما سأل الله تعالى هذا العمر الطويل، مع أنه تعالى علم منه أنه لا يستفيد من هذا العمر الطويل إلا زيادة الكفر والمعصية، وبسبب تلك الزيادة يزداد استحقاقه لأنواع العذاب الشديد كان هذا الإمهال سببا لمزيد عذابه، وذلك يدل على أنه تعالى أراد به أن يزداد عذابه وعقابه.

الخامس: أنه صرح بأن الله أغواه فقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، وذلك تصريح بأن الله تعالى أغواه، لا يقال: هذا كلام إبليس وهو ليس بحجة، وأيضا فهو معارض بقول إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فأضاف الإغواء إلى نفسه، لأننا نقول.

أما الجواب عن الأول: فهو أنه لما ذكر هذا الكلام فإن الله تعالى ما أنكره عليه وذلك يدل على أنه كان صادقا فيما قال.

وأما الجواب عن الثاني: فهو أنه قال في هذه الآية: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْنَنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾، فالمراد هاهنا من قوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾، هو المراد من قوله في تلك الآية: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، إلا أنه بين في هذه الآية أنه إنما أمكنه أن يزين لهم الأباطيل لأجل أن الله تعالى أغواه قبل ذلك، وعلى هذا التقدير فقد زال التناقض ويتأكد هذا بما ذكره الله تعالى حكاية عن الشياطين في سورة القصص: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾^(١).

السؤال السادس: أنه قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْنَنِي﴾، وهذا اعتراف بأن الله تعالى أغواه فنقول: إما أن يقال: إنه كان قد عرف بأن الله تعالى أغواه، أو ما عرف ذلك، فإن كان قد عرف بأن الله تعالى أغواه امتنع كونه غاويا لأنه إنما يعرف أن الله تعالى أغواه إذا عرف أن الذي هو عليه جهل وباطل، ومن عرف ذلك امتنع بقاؤه على الجهل والضلالة، وأما إن قلنا: بأنه ما عرف أن الله أغواه فكيف أمكنه أن يقول: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْنَنِي﴾، فهذا مجموع السؤالات الواردة في هذه الآية.

أما الإشكال الأول: فللمعتزلة فيه طريقان:

الطريق الأول: وهو طريق الجبائي أنه تعالى إنما أمهل إبليس تلك المدة الطويلة، لأنه تعالى علم أنه لا يتفاوت أحوال الناس بسبب وسوسته، فبتقدير أن لا يوجد إبليس ولا وسوسته فإن ذلك الكافر، والعاصي كان يأتي بذلك الكفر والمعصية، فلما كان الأمر كذلك، لا جرم أمهله هذه المدة.

الطريق الثاني: وهو طريق أبي هاشم أنه لا يبعد أن يقال: إنه تعالى علم أن أقواما يقعون بسبب وسوسته في الكفر والمعصية، إلا أن وسوسته ما كانت موجبة لذلك الكفر والمعصية، بل الكافر والعاصي بسبب اختياره اختار ذلك الكفر وتلك المعصية، أقصى ما في الباب أن يقال: الاحتراز عن القبائح حال عدم الوسوسة أسهل منه حال وجودها،

(١) الآية: رقم ٦٣ من سورة القصص.

إلا أن على هذا التقدير تصوير وسوسته سببا لزيادة المشقة في أداء الطاعات، وذلك لا يمنع الحكيم من فعله، كما أن إنزال المشاق وإنزال المتشابهات صار سببا لمزيد الشبهات، ومع ذلك فلم يمتنع فعله فكذا هاهنا، وهذان الطريقتان هما بعينهما الجواب عن السؤال الثاني.

وأما السؤال الثالث: وهو أن إعلامه بأنه يموت على الكفر يحمله على الجرأة على المعاصي والإكثار منها، فجوابه أن هذا: إنما يلزم إذا كان علم إبليس بموته على الكفر يحمله على الزيادة في المعاصي أما إذا علم الله تعالى من حاله أن ذلك لا يوجب التفاوت البتة، فالسؤال زائل، وهذا بعينه هو الجواب عن السؤال الرابع.

وأما السؤال الخامس: وهو أن إبليس صرح بأن الله تعالى أغواه وأضله عن الدين، فقد أجابوا عنه بأنه ليس المراد ذلك بل فيه وجوه أخرى: أحدها: المراد بما خيبتني من رحمتك لا خيبتهم بالدعاء إلى معصيتك.

وثانيها: المراد كما أضللتني عن طريق الجنة أضلهم أنا أيضا عنه بالدعاء إلى المعصية.

وثالثها: أن يكون المراد بالإغواء الأول الخيبة، وبالثاني الإضلال.

ورابعها: أن المراد بإغواء الله تعالى إياه هو أنه أمره بالسجود لآدم فأفضى ذلك إلى غيه، يعني أنه حصل ذلك الغي عقيب باختيار إبليس، فأما أن يقال: إن ذلك الأمر صار موجبا لذاته لحصول ذلك الغي، فمعلوم أنه ليس الأمر كذلك، هذا جملة كلام القوم في هذا الباب وكله ضعيف، أما قوله: إنه لا يتفاوت الحال بسبب وسوسة إبليس فنقول: هذا باطل، ويدل عليه القرآن والبرهان، أما القرآن فقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾^(١)، فأضاف تلك الزلة إلى الشيطان، وقال: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(٢)، فأضاف الإخراج إليه، وذكر الله تعالى عن موسى عليه السلام قوله: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾^(٣).

(١) الآية: رقم ٣٦ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ١١٧ من سورة طه.

(٣) الآية: رقم ١٥ من سورة القصص.

وكل ذلك يدل على أن لعمل الشيطان في تلك الأفعال أثراً، وأما البرهان فلأن بداية العقول شاهدة بأنه ليس حال من ابتلي بمجالسة شخص يرغب أبداً في القبائح، وينفره عن الخيرات، مثل شخص كان حاله بالضد منه، والعلم بهذا التفاوت ضروري، وأما قوله: إن وجوده يصير سبباً لزيادة المشقة في الطاعة فنقول: تأثير زيادة المشقة إنما هو في كثرة الثواب على أحد التقديرين، وفي الإلقاء في العذاب الشديد على التقدير الثاني، وهو التقدير الأكثر الأغلب، وكل من يراعي المصالح، فإنه: رعاية هذا التقدير الثاني أولى عنده من رعاية التقدير الأول، لأن دفع الضرر العظيم أولى من السعي في طلب النفع الزائد الذي لا حاجة إلى حصوله أصلاً، ولما اندفع هذان الجوابان عن هذا السؤال قويت سائر الوجوه المذكورة، وأما قوله: المراد من قوله: ﴿رَبِّ يَمَّا أَغْوَيْنَنِي﴾، الخيبة عن الرحمة أو الإضلال عن طريق الجنة، فنقول: كل هذا بعيد، لأنه هو الذي خيب نفسه عن الرحمة، وهو الذي أضل نفسه عن طريق الجنة، لأنه لما أقدم على الكفر باختياره فقد خيب نفسه عن الرحمة، وأضل نفسه عن طريق الجنة فكيف يحسن إضافته إلى الله تعالى.

وأما قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، ففيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن إبليس استثنى المخلصين، لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم، ولا يقبلون منه، وذكرت في مجلس التذكير أن الذي حمل إبليس على ذكر الاستثناء أن لا يصير كاذباً في دعواه فلما احترز إبليس عن الكذب علمنا أن الكذب في غاية الخساسة.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو: المخلصين بكسر اللام في كل القرآن، والباقون بفتح اللام، ووجه القراءة الأولى: أنهم الذين أخلصوا دينهم وعبادتهم عن كل شائب يناقض الإيمان والتوحيد، ومن فتح اللام فمعناه: الذين أخلصهم الله بالهداية والإيمان، والتوفيق، والعصمة، وهذه القراءة تدل على أن الإخلاص والإيمان ليس إلا من الله تعالى.

المسألة الثالثة: الإخلاص جعل الشيء خالصا عن شائبة الغير، فنقول: كل من أتى بعمل فإما: أن يكون قد أتى به لله فقط، أو: لغير الله فقط، أو: لمجموع الأمرين، وعلى هذا التقدير الثالث: فإما: أن يكون طلب رضوان الله راجحا، أو: مرجوحا، أو: معادلا، والتقدير الرابع: أن يأتي به لا لغرض أصلا وهذا محال، لأن الفعل بدون الداعية محال.

أما الأول: فهو الإخلاص في حق الله تعالى، لأن الحامل له على ذلك الفعل طلب رضوان الله، وما جعل هذه الداعية مشوبة بداعية أخرى بل بقيت خالصة عن شوائب الغير، فهذا هو الإخلاص.

وأما الثاني: وهو الإخلاص في حق غير الله، فظاهر أن هذا لا يكون إخلاصا في حق الله تعالى.

وأما الثالث: وهو أن يشتمل على الجهتين إلا أن جانب الله يكون راجحا، فهذا يرجى أن يكون من المخلصين، لأن المثل يقابله المثل، فيبقى القدر الزائد خالصا عن الشوب.

وأما الرابع والخامس: فظاهر أنه ليس من المخلصين في حق الله تعالى، والحاصل أن القسم الأول:

إخلاص في حق الله تعالى قطعاً، والقسم الثاني: يرجى من فضل الله أن يجعله من قسم الإخلاص وأما سائر الأقسام فهو خارج عن الإخلاص قطعاً، والله أعلم.

٣- وقال الإمام البقاعي رحمته الله: ﴿وَلِذَٰكَ﴾، أي: واذكر قول ربك إذ، ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾، أي: المحسن إليك بتشريف أبيك آدم عليه السلام لتشريفك، ﴿لِلْمَلَكَةِ﴾، ولما كان مما يتوقف فيه، أكده فقال: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا﴾، أي: حيواناً غير مُلبَس بالبشرة بما جعله عليه من الطبيعة على الصورة الإنسانية، ﴿مِّن مَّلَاحِلٍ﴾، أي: طين شديد اليبس، ﴿مِّن حَمَلٍ﴾، أي: طين أسود متتن، ﴿مَسْنُونٍ﴾، أي: مصور بصورة الآدمي في تجويفه وأعضائه كأنه مصبوب

في قالب؛ قال الرماني: وأصله الاستمرار في جهة من قولهم: (على سنن واحد)، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾، أي: عدلته وأتممته وهيأته لنفخ الروح تهية قريبة من الفعل، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، أي: خلقت الحياة فيه كما تعلق النار بالفتيلة بالنفخ، وهو تمثيل، وأضاف الروح إليه تشریفاً، وهو ما يصير به الجسم حياً، وأشرف منه ما يصير به الروح عالماً، وأشرف منه ما يصير به العالم عاملاً خاشعاً، ﴿فَقَعُوا لَهُ﴾، أي: تعظيماً، حال كونكم ﴿سَاجِدِينَ﴾، أي: اسجدوا له سجود من كان في مبادرته به وسهولة انقياده كأنه وقع من غير اختياره، ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾، أي: بسبب هذا الأمر من غير توقف لما جاء الوقت الذي أمرتهم فيه لذلك البشر، وهو أبوكم آدم عليه السلام وأنتم في صلبه، ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

ولما أبلغ في تأكيد ما أفهمه الجمع، استثنى فقال: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، قيل: هو من قوم من الملائكة، وقيل: (بل لكونه كان واحداً بينهم منضافاً إليهم عاملاً بأعمالهم) كان معموراً فيهم، فكان كأنه منهم، فصح استثناءه لذلك، فكانه قيل: ما فعل؟، فقيل استعظماً لمخالفته: ﴿أَبَى أَنْ يَكُونَ﴾، أي: لشكاسة في جبلته، ﴿مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، أو إنه لم يقل: فأبى بالعطف، لأن الاستثناء منقطع، فإن إبليس من نار والملائكة من نور، وهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون بخلافه، فكانه قيل: فما فعل به الملك؟ فقيل: لم يعاجله بالعقوبة، بل أخره إلى أجله المحكوم به في الأزل كما أنه لم يعاجلكم لذلك، فكانه قيل: فما قال له؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ له ليقيم الحجة عليه عند الخلائق ظاهراً كما قدمت عليه الحجة في العلم باطناً: ﴿يَتَّبِعُكَ﴾، اختار هذا الاسم هنا، لأن الإبلاس معناه: اليأس من كل خير، والسكون والانكسار، والحزن والتحير، وانقطاع الحجة والندم، ﴿مَا لَكَ﴾، أي: شيء لك من الأعذار في: ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾، أي: بقلبك وقالبك ﴿مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، لمن أمرتك بالسجود له وأنت تعلم مما أنا عليه من العظمة والجلال ما لا يعلمه كثير من الخلق، ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ﴾، وأكد إظهاراً للإصرار والإضرار بالكبر فقال: ﴿لَا سَجْدَ لِبَشَرٍ﴾، أي: ظاهر

البدن، لا قدرة له على التشكل والتطور، ﴿خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَاسِلٍ﴾، أي: طين يابس لا منعة فيه، بل إذا نقر أجاب بالتصويت، ﴿مِنْ حَمَلٍ﴾، أي: طين متغير أسود كدر، ﴿مَسْنُونٍ﴾، أي: مصور بصورة الفخار متهيج للدلك، لا يرد يد لامس، وأنا خير منه لأنك خلقتني من نار نافعة بالإشراق، ممتعة بمن يريدها بالإحراق، فخصوعي له منافٍ لحالي وممتنع مني، والزامي به جور، فكأنه قيل: فماذا أجيب؟ فقيل: ﴿قَالَ فَأَخْرَجَ﴾، أي: تسبب عن كبرك أني أقول لك: اخرج ﴿مِنْهَا﴾، أي: من دار القدس، قيل: السماء، وقيل: الجنة، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيئٌ﴾، أي: مطرود، إذ الرجم لا يكون إلا لمن هو بعيد يراد الزيادة في إبعاده بل إهلاكه، وعلة الإخراج أنها دار لا يقيم بها متكبر عاصٍ بمخالفة أمري، فإن لي الحاكم النافذ والعظمة التامة المقتضية لوجوب الطاعة، لا ينبغي لمن أمرته بما مر أن يتخلف عن أمري فضلاً عن أن يضرب لي الأمثال، ويواجهني بالجدال، طاعناً فيمالي من الجلال والجمال؛ ثم أكد بعده بالإخبار باستمراره فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ﴾، أي: خاصة، ﴿اللَّعْنَةَ﴾، أي: الكاملة للقضاء بالمباشرة لأسباب البعد ﴿إِلَّا يَوْمَ الدِّينِ﴾، أي: إلى يوم انقطاع التكليف وطلوع صبح الجزاء بفناء الخلق أجمعين، وفوات الأمد التي تصح فيه التوبة التي سبب هي القرب، فذلك إيذان بدوام الطرد، وتوالي البعد والمقت، فلا يتمكن في هذا الأمد من عمل يكون سبباً للقرب من حضرة الأنس، وجناب القدس، ومن منع من التوبة عن الكفر في وقتها، يعلم قطعاً أنه لا يغفر له، فهو معذب أبداً.

ولما علم من هذا دوام لعنه، لأنه منع التقرب في دار العمل، وما بعد ذلك محل الجزاء لا العمل، وكان ذلك مفهوماً لإنظاره إلى ذلك الحد، وكان ظاهره أن لعنه معني به، كان كأنه قيل: فماذا قال حين سمع ذلك؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ ذاكراً صفة الإحسان والتسبب في سؤال الإنظار: ﴿رَبِّ﴾ فاعترف بالعبودية والإحسان إليه، ولم يحمله ذلك على التوبة للحكم بدوام لعنه فلا يطمع طامع في إيمان من ختم بكفره بالإجابة إلى ما يقترح، وأتى بفناء السبب لما فهم من الإملاء فقال: ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾، والإنظار: تأخير المحتاج للنظر في

أمره، ﴿إِلَى يَوْمٍ يُعْتَوْنَ﴾، فحمل يوم الدين على حقيقته، وأراد التصريح بالإنظار إليه ليأمن الموت، فكانه قيل: ماذا قيل له؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ له ربه: ﴿فَإِنَّكَ﴾ أي: بسبب ما تقدم من الحكم، ﴿مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾، وقطع عليه ما دبج به من المكر فقال: ﴿إِلَى﴾ ولما كان اليوم ما يتم فيه أمر ظاهر، وكانت الأيام الهائلة ثلاثة: زمان موت الأحياء الخارجين من دار الخلد، ثم بعث الأموات، ثم الفصل بينهم بإحلال كل فريق في داره، قال: ﴿يَوْمَ﴾، ولما كان الوقت أدل ألفاظ الزمان على الأجل، قال: ﴿الْوَقْتِ﴾، ولما كان قد دبج في سؤاله هذا تديبجاً أوهم تجاهله بتحتم الموت على كل مكلف، بين تعالى أنه مما لا يجهل فقال: ﴿الْمَعْلُومِ﴾، أي: الذي قدرت عليك الموت فيه، وهو النفخة الأولى وما يتبعها من موت كل مخلوق لم يكن في دار الخلد.

ولما أفهم ما تقدم كما قلنا الحكم بإغوائه، كان السامع كأنه قال: فماذا قال؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾، منسوباً نفسه بالمعبود العلي الذي لا يسأل عما يفعل، وكل أفعاله عدل وحكمة بعد أن رفع نفسه على العبد البشري: ﴿رَبِّ﴾، أي: أيها الموجد والمربي لي وعزتك، ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، أي: بسبب إغوائك لي من أجلهم، وللاهتمام بهذا السبب قدمه على جواب القسم الدال على المقسم به، وهو قوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أي: تزينا عظيمًا، المعاصي والمباحات الجارّة إليها الشاغلة عن الطاعة الصارفة عنها، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، أي: التي هي محل الغفلة وهم منها، والشيء إلى ما هو منه أميل، فهي هذا التقدير، والتزيين: جعل الشيء متقبلاً في النفس من جهة الطبع والعقل بحق أو بباطل، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾، أي: بالإضلال عن الطريق الحميدة، ﴿أَجْمَعِينَ﴾ انتقاماً لنفسي، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ﴾، أي: المشرفين بالإضافة إليك، فهم لذلك لا يميلون عنك إلى شيء سواك، فلذلك أبدل منهم ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾.

أقوال المفسرين في آيات القصة

في سورة الإسراء

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ ۖ إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ۖ ﴿٦٣﴾ وَاسْتَغْفِرُ مَنْ أَسْطَغَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْكَ وَرَجِلَكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۖ ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۖ ﴿٦٥﴾﴾.

١- قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره لنبى محمد ﷺ: واذكر يا محمد تمادي هؤلاء المشركين في غيهم وارتدادهم عتوا على ربهم بتخويفه إياهم بتحقيقهم قول عدوهم وعدو والدهم، حين أمره ربه بالسجود له فعصاه وأبى السجود له، حسدا واستكبارا: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ ۖ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكيف صدقوا ظنه فيهم، وخالفوا أمر ربهم وطاعته، واتبعوا أمر عدوهم وعدو والدهم.

ويعني بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾، واذكر إذ قلنا للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، فإنه استكبر وقال: ﴿أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، يقول: لمن خلقته من طين؛ فلما حذفت (من) تعلق به قوله: ﴿خَلَقْتَ﴾، فنصب، يفتخر عليه الجاهل بأنه خلق من نار، وخلق آدم من طين.

وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾، يقول تعالى ذكره: أرأيت هذا الذي كرمته

عليّ، فأمرتني بالسجود له، ويعني بذلك آدم عليه السلام، ﴿لَيْنَ آخَرَتَيْنِ﴾ أقسم عدوّ الله، فقال لربه: لئن أخرت إهلاكي إلى يوم القيامة، ﴿لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾، يقول: لأستولين عليهم، ولأستأصلنهم، ولأستميلنهم يقال منه: احتنك فلان ما عند فلان من مال أو علم أو غير ذلك.

فعن مجاهد، في قول الله تبارك وتعالى ﴿لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قال: لأحتوينهم. وعن ابن عباس، قوله: ﴿لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾، يقول: لأستولين. وعن ابن زيد، في قوله: ﴿لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قال: لأصلنهم، وهذه الألفاظ وإن اختلفت فإنها متقاربات المعنى، لأن الاستيلاء والاحتواء بمعنى واحد، وإذا استولى عليهم فقد أضلهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ مَوْفُورًا﴾، يقول تعالى ذكره قال الله لإبليس إذ قال له: ﴿لَيْنَ آخَرَتَيْنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾، اذهب فقد أخرتك، فمن تبعك منهم، يعني من ذرية آدم عليه السلام، فأطاعك، فإن جهنم جزاؤك وجزاؤهم، يقول: ثوابك على دعائك إياهم على معصيتي، وثوابهم على اتباعهم إياك وخلافهم أمري، ﴿جَزَاءُ مَنْ مَوْفُورًا﴾، يقول: ثوابا مكثورا مكملا.

فعن قتادة، قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ مَوْفُورًا﴾، عذاب جهنم جزاؤهم، ونقمة من الله من أعدائه فلا يعدل عنهم من عذابها شيء. وعن مجاهد: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ مَوْفُورًا﴾، قال: وافرا.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِزُ مَنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَأَسْتَفْزِزُ﴾، واستخفف واستجهل، من قولهم: استفز فلانا كذا وكذا فهو يستفزه، ﴿مَنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾.

اختلف أهل التأويل في الصوت الذي عناءه جلّ ثناؤه بقوله: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾، فقال بعضهم: عنى به: صوت الغناء واللعب.

فعن مجاهد، في قوله: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾، قال: باللهم والغناء. وقال آخرون: عنى به: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ﴾ بدعائك إياه إلى طاعتك ومعصية الله. وعن ابن عباس: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾، قال: صوته كلّ داع دعا إلى معصية الله.

وعن قتادة ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾، قال: بدعائك.

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: إن الله تبارك وتعالى قال لإبليس: واستفز من ذرية آدم من استطعت أن تستفزه بصوتك، ولم يخص من ذلك صوتا دون صوت، فكل صوت كان دعاء إليه وإلى عمله وطاعته، وخلافا للدعاء إلى طاعة الله، فهو داخل في معنى صوته الذي قال الله تبارك وتعالى اسمه له: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾. وقوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَبْرِكَ وَرَجِلْ﴾، يقول: وأجمع عليهم من ركبان جندك ومشاتهم من يجلب عليها بالدعاء إلى طاعتك، والصرف عن طاعتي، يقال منه: أجلب فلان على فلان إجلابا: إذا صاح عليه.

والجلبة: الصوت، وربما قيل: ما هذا الجلب، كما يقال: الغلب، والشفقة والشفق. فعن مجاهد، في قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَبْرِكَ وَرَجِلْ﴾، قال: كلّ راكب وماش في معاصي الله تعالى.

وعن قتادة: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَبْرِكَ وَرَجِلْ﴾، قال: إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس، وهم الذين يطيعونه.

وعن ابن عباس، قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَبْرِكَ وَرَجِلْ﴾، قال: خيله: كل راكب في

معصية الله؛ ورجله: كل راجل في معصية الله.

وأما قوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾، في الأموال والأولاد فإن أهل التأويل اختلفوا في المشاركة التي عنيت بقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾، فقال بعضهم: هو أمره إياهم بإتفاق أموالهم في غير طاعة الله واكتسابهموها من غير حلها.

فعن مجاهد: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾، التي أصابوها من غير حلها.

وعن مجاهد: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾، قال: ما أكل من مال بغير طاعة الله.

وعن الحسن، في قوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾، قال: قد والله شاركهم في أموالهم، وأعطاهم الله أموالا فأنفقوها في طاعة الشيطان في غير حق الله تبارك اسمه، وهو قول قتادة.

وعن معمر، قال: قال الحسن: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾، مرهم أن يكسبوها من خبيث، وينفقوها في حرام.

وقال آخرون: بل عني بذلك كل ما كان من تحريم المشركين ما كانوا يحرمون من الأنعام كالبحائر والسوائب ونحو ذلك.

فعن ابن عباس، قال: مشاركته في الأموال أن جعلوا البحيرة والسائبة والوصيلة لغير الله. وقال آخرون: بل عني به ما كان المشركون يذبحونه لأهتهم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك كل مال عصى الله فيه بإتفاق في حرام أو اكتساب من حرام، أو ذبح للآلهة، أو تسييب، أو بحر للشيطان، وغير ذلك مما كان معصيا به أو فيه، وذلك أن الله قال: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾، فكل ما أطيع الشيطان فيه من مال وعصى الله فيه، فقد شارك فاعل ذلك فيه إبليس، فلا وجه لخصوص بعض ذلك دون بعض.

وقوله: ﴿وَالْأَوَّلِيدِ﴾، اختلف أهل التأويل في صفة شركته بني آدم في أولادهم، فقال بعضهم: شركته إياهم فيهم بزناهم بأمهاتهم.

وعن ابن عباس، قوله: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوَّلِيدِ﴾، قال: أولاد الزنا.

وقال آخرون: عنى بذلك: وأدّهم أولادهم وقتلهموهم.

فعن ابن عباس: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوَّلِيدِ﴾، قال: ما قتلوا من أولادهم، وأتوا فيهم الحرام.

وقال آخرون: بل عنى بذلك: صبغهم إياهم في الكفر.

فعن الحسن: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوَّلِيدِ﴾، قال: قد والله شاركهم في أموالهم وأولادهم، فمجسوا وهودوا ونصروا وصبغوا غير صبغة الإسلام وجزئوا من أموالهم جزءا للشيطان.

وقال آخرون: بل عنى بذلك: تسميتهم أولادهم عبد الحرث وعبد شمس.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: كل ولد ولدته أنثى عصى الله بتسميته ما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو قتله ووأده، أو غير ذلك من الأمور التي يخصص بقوله: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوَّلِيدِ﴾، معنى: الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكل ما عصى الله فيه أو به، وأطيع به الشيطان أو فيه، فهو مشاركة من عصى الله فيه أو به إبليس فيه.

وقوله: ﴿وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، يقول تعالى ذكره لإبليس: وعد أتباعك من ذرية آدم، النصرة على من أرادهم بسوء، يقول الله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، لأنه لا يغني عنهم من عقاب الله إذا نزل بهم شيئا، فهم من عداته في باطل وخديعة، كما قال لهم عدو الله حين حصحص الحق: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ

إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

يقول تعالى ذكره لإبليس: إن عبادي الذين أطاعوني، فاتبعوا أمري وعصوا يا إبليس، ليس لك عليهم حجة، وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾، يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: وكفاك يا محمد ربك حفيظا، وقيما بأمرك، فانقد لأمره، وبلغ رسالاته هؤلاء المشركين، ولا تخف أحدا، فإنه قد توكل بحفظك ونصرتك.

٢- وقال الإمام الزجاج رحمه الله: قوله تعالى: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

المعنى: لِمَنْ خَلَقْتَهُ طِينًا، وطينا منصوب على جهتين:

إحداهما: التمييز، المعنى لمن خلقته من طين.

ويجوز أن يكون: ﴿طِينًا﴾: منصوب على الحال، والمعنى: أنك أنشأته في حال كونه من طين.

وقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾، جاءت: ﴿قَالَ﴾ ههنا بغير حرف عطف لأنه على معنى: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، وقوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾، في معنى: أخبرني؛ فالكاف لا موضع لها، لأنها ذكرت في الخطاب توكيدا، وموضع ﴿هَذَا﴾: نصبٌ بـ ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾، والجواب: محذوف، والمعنى: أخبرني عن هذا الذي كرمته عليّ لم كرمته عليّ وقد خلقتني من نارٍ وخلقته من طين،

(١) الآية: رقم ٢٢ من سورة إبراهيم.

فحذف هذا لأن في الكلام دليلاً عليه.

ومعنى: ﴿لَا حَتَمَ كَنْ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾، لاستأصلهم بالإغواء لهم، وقيل لأستولين عليهم.

والذي تقول العرب: قد احتنكت السنة أموالنا إذا استأصلتها.

قال الشاعر:

نَشْكُو إِلَيْكَ سَنَةً قَدْ أَجَحَفْتُ... جَهْدًا عَلَى جَهْدٍ بِنَا وَأَضْعَفْتُ

وَاحْتَنَكْتُ أُمُورَنَا وَجَلَّفْتُ

وقوله: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ وَكُفْرًا مَوْفُورًا﴾، قوله: ﴿جَزَاءُ مَوْفُورًا﴾، أي: موفر، يقال منه وَفَرْتُهُ أَفْرُهُ فَهُوَ مَوْفُورٌ.

٣- وقال الإمام الماتريدي رحمته الله: وقوله ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

قوله: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾، أي: لا أسجد؛ كقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَاصِلٍ﴾، فدل هذا أن قوله: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾، معناه، أي: لا أسجد.

ذكر في قصة إبليس ألفاظاً مختلفة:

فمرة قال: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ﴾، وفي موضع آخر: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾، ونحوه؛ فجائز أن يكون ذكر هذا على اختلاف الأحوال لا في حال واحدة.

هذا على ما ذكر في قصة آدم من اختلاف الأحوال: حيث قال مرة: ﴿مِنْ تَرَابٍ﴾، وقال

مرة: ﴿مِنْ طِينٍ﴾، ومرة: ﴿مِنْ صَلَصَلٍ﴾، ونحوه، وذلك إخبار عن أحوال تغيرت فيها. وجائز أن يكون: ذلك بغير هذا اللسان؛ فذكر هاهنا بالفاظ مختلفة؛ والزيادة والنقصان؛ لأن اختلاف الألفاظ لا يغير المعنى.

وقوله ﷻ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قد أقر إبليس لعنه الله بالفضيلة لأدم والإكرام له، إما: من جهة الطاعة له والنبوة التي أعطاها الله له، وإن ادعى لنفسه الفضيلة عليه من جهة الخلقة؛ بأنه ناري وهو طيني، حيث: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾: أقر بالفضل له عليه، والإكرام: إما: لطاعتهم له، أو لما: جعله رسولاً إلى خلقه.

وقوله ﷻ: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾، لا يحتمل أن يخاطب ربه ويقول: لئن أخرتني إلى كذا لأحتنكن؛ لأنه لما طلب التأخير والبقاء إلى يوم القيامة كان طالب نعمة منه ومنه؛ فيقول مقابل ما يطلب من النعمة: لئن أعطيتني ذلك لأعصينك؟! إنما يذكر مقابل طلب النعمة الطاعة له والشكر؛ على ما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾^(١)، إنما يقابل بطلب النعمة الطاعة له، وأما مقابلة المعصية فلا تعرف.

ثم يخرج قوله: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾، على وجهين: أحدهما: على التأكيد، يقول: أي إنك، وإن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته. أو على التمني منه الأمرين جميعاً: التأخير، واحتناك ذريته، وسؤاله إياهما. ثم اختلف في قوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾: فقال بعضهم: لأحتوينهم ولأحيطن بهم.

(١) الآية: رقم ٧٥ من سورة التوبة.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا ضِلْنَهُمْ؛ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى قَوْلُهُ: ﴿وَلَا ضِلْنَهُمْ وَلَا مِئْنَهُمْ﴾^(١).
وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَا حَتَنِكَ﴾: لَا سَتْرَ لَنَ، وَقِيلَ: لَا سَتُولِينَ، وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿لَا حَتَنِكَ﴾،
أَيُّ: لَا سَتَأْصِلْنَهُمْ، وَيُقَالُ: هُوَ مِنْ حَنَكَ الدَّابَّةَ، حَنَكَ دَابَّتَهُ: يَحْنُكُهَا، حَنَكًا، إِذَا شَدَّ فِي حَنَكِهَا
الْأَسْفَلَ حَبَلًا يَقُودُهَا بِهِ، وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: أَيُّ: لَا قُودَنَهُمْ كَيْفَ شِئْتُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾، كَأَنَّهُ سَأَلَ رَبَّهُ التَّأْخِيرَ، عَلَى
مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، كَأَنَّ اللَّعِينَ لَمَّا سَمِعَ قَوْلَهُ:
﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾، أَعْلَمَ، أَنَّهُ لَا تَنَالَهُ الرَّحْمَةُ فِي الْإِيمَانِ بِهِ؛ حَيْثُ ذَكَرَ
اللَّعْنَةَ عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَاللَّعِينَ هُوَ الْمَطْرُودُ عَنْ رَحْمَتِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ سَأَلَ رَبَّهُ النَّظْرَةَ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِيُغَوِّنَ عِبَادَهُ، وَعَلِمَ اللَّعِينَ أَنَّ طَاعَةَ خَلْقِهِ لَهُ لَا تَزِيدُ فِي مَلِكِهِ شَيْئًا،
وَعَصِيَانَهُمْ لَا يَنْقُصُ فِي مَلِكِهِ شَيْئًا، لِذَلِكَ قَالَ: ﴿لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾، ﴿وَلَا غَوِيَنَهُمْ﴾،
﴿وَلَا ضِلْنَهُمْ﴾، وَمَا ذَكَرَ.

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ جَزَاءُ مَوْفُورًا﴾، مَعَ إِحْسَانِي
إِلَيْهِمْ وَإِنْعَامِي عَلَيْهِمْ، ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ جَزَاءُ مَوْفُورًا﴾.

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَأَسْتَفْزِزُ مَنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجَلَكَ وَشَارِكُهُمْ فِي
الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، هَذَا يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عَلَى التَّمَكِينِ لَهُ ذَلِكَ وَالْإِقْدَارَ عَلَى مَا ذَكَرَ، أَيُّ: مَكْنُ لَهُ ذَلِكَ، وَأَقْدَرُ عَلَيْهِ؛
لِخُذْلَانِهِ إِيَّاهُ لَمَّا عَصَى رَبَّهُ وَتَرَكَ أَمْرَهُ؛ لَمَّا رَأَى أَمْرَهُ بِالسَّجُودِ لِأَدَمَ جَوْرًا مِنْهُ، حَيْثُ قَالَ لَهُ:
﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾، مَكْنُ لَهُ ذَلِكَ، لَتَسْمُ لَهُ اللَّعْنَةُ وَالْخُذْلَانُ.

وَالثَّانِي: قَالَ ذَلِكَ لَهُ عَلَى التَّوَعُّدِ وَالتَّهْدِيدِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ ذَكَرَ هَذَا عَلَى أَثَرِ وَعِيدٍ، وَهُوَ
قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ جَزَاءُ مَوْفُورًا﴾، فَيُخْرِجُ عَلَى إِثَرِ ذَلِكَ مُخْرِجَ

(١) الآية: رقم ١١٩ من سورة النساء.

الوعيد له ولمن تبعه وأجابه، كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١)، لهذا وإن كان ظاهره أمراً فهو وعيد؛ فعلى هذا قوله: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَقَتْ مِنْهُمْ﴾، فإن لك ولمن تبعك كذا، أو لما ذكرنا من التمكين له ذلك والإقذار على ذلك ليتم له اللعنة والخذلان.

والثاني: قال ذلك الذي لعنه، وإلا لا يجوز أن يكون الله يأمره بما ذكر أن يخرج الأمر بما ذكر مخرج سفه والأمر بالفحشاء، وقد أخبر أنه: لا يأمر بالفحشاء والمنكر، وإنما يأمر بالعدل؛ كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾^(٢)، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾^(٣)، فلو حمل هذا على الأمر لكان أمراً بالفحشاء والمنكر فدل أنه يخرج على أحد الوجهين اللذين ذكرناهما، أو على الاستبعاد والإياس عن أن يملك أو يقدر عليهم بما ذكر إلا من اختار منهم اتباعه، وهو ما ذكر: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(٤)، والله أعلم.

وقوله ﷻ: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾، قَالَ الْقُتَيْبِيُّ، أي: استخف، والرجل: الرجالة.

وقال أبو عَوَسَجَةَ: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾، أي: استخف، أي: دعاه فأجابه وأمره فأطاعه، وعلى هذا يخرج قوله: ﴿فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾^(٥)، أي: أمرهم فأطاعوه، أو دعاهم فأجابوه.

وقوله ﷻ: ﴿بَصَوْتِكَ﴾، يحتمل وجوهاً ثلاثة:

أحدها: على حقيقة الصوت، يكون له صوت يدعو الناس به، فيسمع ذلك الصوت النفس الخفية التي تكون في هذه النفس الظاهرة الكثيفة، ولا تسمعه النفس الظاهرة، على

(١) الآية: رقم ٤٠ من سورة فصلت.

(٢) الآية: رقم ١٥٣ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ٩٠ من سورة النحل.

(٤) الآية: رقم ٤٢ من سورة الحجر.

(٥) الآية: رقم ٥٤ من سورة الزخرف.

ما يخطر أشياء بالقلب من غير أن يعلم به الإنسان أنه من أين جاء؟ ومن أين هيجانه؟ وعلى ما يقذف ويوسوس أشياء في القلوب من غير أن يعلم ذلك ويطلع عليه؛ فعلى ذلك يجوز أن يكون له صوت يدعو الناس به، وإن كنا لا نسمعه، لكنه يسمع النفس الخفية بما يسمع النفس الظاهرة، وبها نبصر، أعني: بالنفس الخفية، ألا ترى أن النائم يرى أشياء ويكون في أقصى الدنيا، ونفسه الظاهرة ملقاة هاهنا؛ فذلك كله بالنفس الخفية.

والثاني: على التمثيل، ليس على تحقيق الصوت، لكن ذكر الصوت؛ لما بالصوت يوصل إلى إعلام بعضهم بعضًا، وبه يدعو بعضهم بعضًا عند البعد؛ فذكر الصوت له مكان الوسوسة التي يوسوس الناس أشياء من بعد، ويدعوهم به إلى معاصي الله تعالى وكذلك قال الحسن في قوله: ﴿فَوَسَّوْا إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾^(١)، من بعد من غير أن كان هنالك تقرب منه.

والثالث: على إضافة عمل كل عاص من نحو الغناء والمزامير وغيره، أو ما يضاف عمل كل طاغ وكل ضال إليه، أضيف ذلك إليه كما أضاف إليه موسى، حيث قال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَمَا أَنَسَيْنَاهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾^(٣)، ولم يكن ذلك عمل الشيطان حقيقة، ولكن قال ذلك وأضافه إليه؛ لما بأمره ودعائه يعمل ذلك.

وقال عامة أهل التأويل: ﴿بَصَوْتِكَ﴾، أي: بدعائك.

وقوله ﷻ: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ﴾، قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَجْلِبْ﴾، أي: اجمعهم، ويقال: وأجلبتهم، أي: أعتهم، أيضًا وهو قول أبي عؤسجة.

وقوله: ﴿بِحَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾، يخرج على الوجوه الثلاثة التي ذكرنا:

(١) الآية: رقم ١٢٠ من سورة طه.

(٢) الآية: رقم ١٥ من سورة القصص.

(٣) الآية: رقم ٦٣ من سورة الكهف.

أحدها: أن يكون له خيل ورجالة من جنسه وجوهره يجلبهم بهم، وإن كنا لا نراهم، كما قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرْتَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾^(١)، فجائز أن يكون له خيل ورجالة وجنود لا نراهم نحن، وهم يروننا.

والثاني: على ما ذكرنا: أنه على التمثيل، لكنه ذكر الخيل والرجل؛ لما بالخيل والمشي يصل بعض إلى بعض عند الحاجة إليه في البعد والقرب؛ فذكر ذلك له على ما ذكرنا في الصوت.

والثالث: أنه أضاف كل خيل راكب في معصية الله، أو كل ماش مشى في معصية الله إليه، على ما ذكرنا في الصوت: أنه أضاف كل صوت في معصية الله إليه، والله أعلم.

وفي قوله: ﴿لَنْ أَخْرَجَنَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾، دلالة نقض قول المعتزلة، لأن إبليس سأل ربه التأخير والإبقاء له إلى يوم القيامة، وقد علم أنه إذا أعطاه ذلك له يفي ما وعد، وأبقاه إلى ذلك الوقت، وهم لم يعرفوا ذلك، بل قالوا: إنه يحییء عبد فيقتله؛ فيمنعه عن وفاء ما وعد، والإبقاء إلى الوقت الذي وقت له؛ فهو أعرف بربه منهم، وكذلك قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْنِي﴾، وهم يقولون لم يغوه؛ فهو أعرف به منهم.

وقوله ﷻ: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾، قال بعض أهل التأويل: مشاركته في الأموال: هي أن يجعلوا له البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي؛ على ما كانوا يفعلونه.

وأما الأولاد: فإنهم هودوهم ونصروهم، ومجسؤهم، وهو قول قتادة.

وقال بعضهم: مشاركته في الأموال: هي أن يكتسبها من خبيث وحرام، وينفقونها في مثله وفيما لا يحل.

وأما الأولاد: ما ولدوا من الزنا.

(١) الآية: رقم ٢٧ من سورة الأعراف.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَمْوَالُ: مَا كَانُوا يَذْبَحُونَ لِأَهْلَتِهِمْ، وَيَجْعَلُونَ لَهَا مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ.
وَالْأَوْلَادُ: مَا وَلَدُوا مِنَ الزَّانَا.

وجائز أن يكون هذا صلة ما تقدم من قوله: ﴿وَأَسْتَفْزِزْ مَنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ...﴾، إلى آخر ما ذكر؛ حتى تشاركهم في الأموال والأولاد.

ثم معنى المشاركة له فيما ذكر، والله أعلم: هو أن هذه الأموال والأولاد لله تعالى - حقيقة؛ لما هو أنشأها وخلقها، فحقيقة الملك له بما ذكرنا، وظاهر الانتفاع لعبيده، إذ هذا كله لله بحق المحنة يمتحنهم وحق الانتفاع لهم، إذ لا يجوز أن يخلق الله شيئاً لمنفعة نفسه، ولكن يخلق لمنافع أنفسهم، ليمتحنهم بها.

وقد شرع الله لهم شرائع، وشرع لهم إبليس شرائع، وهو ما ذكر: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾^(١)، فإذا صرفوا ذلك إلى ما شرع لهم إبليس دون ما شرع الله فقد أشركوه فيها، وكل ما أطيع فيها مما سنَّ لهم إبليس وشرع لهم، فذلك شركته فيها، وذلك أن الأولاد في الشاهد إنما تطلب لأحد الوجوه الثلاثة:

إما للاستئناس بهم في حال الوحشة، وإما للاستنصار بهم والعون على أعدائهم، وإما للذكر بعد الوفاة.

وكذلك الأموال يطلب منها ما ذكرنا:

الانتفاع بها في حال الحياة، وإما للمعونة على الأعداء، أو الذكر بعد الموت؛ لخيرات يتركونها، فإذا صرفوها إلى ما أمرهم إبليس أشركوه فيها، ومشاركته إياهم في الأموال هي: أن يأمرهم ويدعوهم إلى اكتساب ما يحرم، والإنفاق فيما لا يحل وفي الأولاد، وكذلك يأمرهم بالمعصية، ويدعوهم إليه فيطيعونه ويحيبونه في ذلك، فذلك والله أعلم مشاركته.

(١) الآية: رقم ٢١ من سورة الشورى.

وقوله ﷻ: ﴿وَعَدَهُمْ﴾، قال عامة أهل التأويل: أي: وعدهم أن لا جنة، ولا نار، ولا بعث، لكن يعدهم بخلاف ما وعد الله، وخوفهم على ضد ما خوفهم الله: ما كان من الله لهم وعد رجاء؛ يكون منه وعد خوف، وما كان من الله وعد خوف؛ يكون منه وعد رجاء، وهو ما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدُكُمْ فَآخَلَفْتُمْ﴾^(١)، أخبر أن ما وعد هو قد أخلف، فذلك تأويل قوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، أي: كذبًا وباطلاً، لأنه يخرج كله على خلاف ما وعد.

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾، يحتمل قوله: ﴿سُلْطَانٌ﴾ وجوهاً ثلاثة:

أحدها: القدرة والقهر.

والثاني: في الحجة والبرهان.

والثالث: الولاية.

فأما القدرة والقهر: فليس له عليهم ذلك، لأنه لم يجعل له قدرة القهر عليهم شاءوا أو أبوا، وكذلك ليس له عليهم الحجة فيما يدعوهم إليه ويأمرهم به، كقوله يوم القيامة حيث يقول: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾^(٢)، وأما سلطان الولاية فإن له ذلك على من اختار اتباعه وتوليه؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُنَا عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾^(٣)، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾، المخلصين الذين أخلصوا إلي، ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، يحتمل قوله: ﴿سُلْطَانٌ﴾، أي: حجة، لأنهم إنما يتبعون أمر الله بحججه؛ فلا يتبعون الشيطان بأمانيه التي يمينهم، وشبهاته التي يشبه عليهم.

(١) الآية: رقم ٢٢ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية: رقم ٢٢ من سورة إبراهيم.

(٣) الآية: رقم ١٠٠ من سورة النحل.

أو أن يكون قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾، أي: سلطان القهر والغلبة، إنما له عليهم الدعاء والتزيين لا غير.

أو أن يكون قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾، من الحجة والملك على ما ذكرنا؛ إنما سلطانه عليهم سلطان الولاية على الذين يتولونه.

وقوله ﷻ: ﴿وَكُفَّ بَرِّيكَ وَكِيلًا﴾، يحتمل: ﴿وَكِيلًا﴾: عاصفا يعصمك عن تمويهاته وتسويلاته، وناصرًا ينصرك على مكائده، أو مفزعًا تفزع إليه، أو معتمدًا تعتمد عليه في جميع أمورك، والله أعلم.

٤- وقال الإمام الرازي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ﴾ (١٦) قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ (١٧) قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ وَكُمُ جَزَاءُ ۖ﴾، فيه مسائل:

المسألة الأولى: في كيفية النظم وجوه: الأول: اعلم أنه تعالى لما ذكر أن رسول الله ﷺ كان في محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه، بين أن حال الأنبياء مع أهل زمانهم كذلك، ألا ترى أن أول الأولياء هو آدم، ثم إنه كان في محنة شديدة من إبليس.

الثاني: أن القوم إنما نازعوا رسول الله ﷺ وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لأمرين الكبر والحسد، أما الكبر فلأن تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد، وأما الحسد فلأنهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة والدرجة العالية، فبين تعالى أن هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا إبليس على الخروج من الإيمان والدخول في الكفر، فهذه بلية قديمة ومحنة عظيمة للخلق.

والثالث: أنه تعالى لما وصفهم بقوله: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾^(١)، بين ما هو السبب لحصول هذا الطغيان وهو قول إبليس لأحتنكن ذريته إلا قليلا فلأجل هذا المقصود ذكر الله تعالى قصة إبليس وآدم، فهذا هو الكلام في كيفية النظم.

المسألة الثانية: اعلم أن هذه القصة قد ذكرها الله تعالى في سور سبعة، وهي: البقرة والأعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه و(ص)، والكلام المستقصى فيها قد تقدم في البقرة والأعراف والحجر فلا فائدة في الإعادة ولا بأس بتعديد بعض المسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن المأمورين بالسجود لآدم أهم جميع الملائكة أم ملائكة الأرض على التخصيص؟ فظاهر لفظ الملائكة يفيد العموم، إلا أن قوله تعالى في آخر سورة الأعراف في صفة ملائكة السماوات وله يسجدون، يوجب خروج ملائكة السموات من هذا العموم.

المسألة الثانية: أن المراد من هذه السجدة وضع الجبهة على الأرض أو التحية، وعلى التقدير الأول فآدم كان هو المسجود له، أو يقال: كان المسجود له هو الله تعالى، وآدم كان قبلة للسجود؟

المسألة الثالثة: أن إبليس هل هو من الملائكة أم لا؟ وإن لم يكن من الملائكة فأمر الملائكة بالسجود كيف يتناوله؟.

المسألة الرابعة: هل كان إبليس كافرا من أول الأمر أو يقال إنما كفر في ذلك الوقت؟.

المسألة الخامسة: الملائكة سجدوا لآدم من أول ما كملت حياته أو بعد ذلك.

المسألة السادسة: شبهة إبليس في الامتناع من السجود أهو قوله: أأسجد لمن خلقت طينا أو غيره.

(١) الآية: رقم ٦٠ من سورة الإسراء.

المسألة السابعة: دلت هذه الآيات على أن إبليس كان عارفاً بربه، إلا أنه وقع في الكفر بسبب الكبر والحسد، ومنهم من أنكر وقال ما عرف الله البتة.

المسألة الثامنة: ما سبب حكمة إمهال إبليس وتسليطه على الخلق بالسوسة؟

ولنرجع إلى التفسير فنقول: إنه تعالى حكى في هذه الآية عن إبليس نوعاً واحداً من العمل ونوعين من القول، أما العمل فهو أنه لم يسجد لآدم، وهو المراد من قوله: فسجدوا إلا إبليس وأما النوعان من القول:

فأولهما: قوله: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، وهذا استفهام بمعنى الإنكار، معناه: أن أصلي أشرف من أصله فوجب أن أكون أنا أشرف منه، والأشرف يقبح في العقول أمره بخدمة الأدنى.

والنوع الثاني: من كلامه: قوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾، قال الزجاج: قوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾، معناه: أخبرني، وقد استقصينا في تفسير هذه الكلمة في سورة الأنعام.

وقوله: ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾، فيه وجوه: الوجه الأول: معناه: أخبرني عن هذا الذي فضلته علي لم فضلته علي وأنا خير منه؟ ثم اختصر الكلام لكونه مفهوماً.

الوجه الثاني: يمكن أن يقال هذا مبتدأ محذوف منه حرف الاستفهام، والذي مع صلته خبر، تقديره: أخبرني أهذا الذي كرمته علي! وذلك على وجه الاستصغار والاستحقار، وإنما حذف حرف الاستفهام لأن حصوله في قوله أرايتك أغنى عن تكراره.

والوجه الثالث: أن يكون هذا مفعول أرايت لأن الكاف جاءت لمجرد الخطاب لا محل لها، كأنه قال علي وجه التعجب والإنكار أبصرت أو علمت هذا الذي كرمت علي، بمعنى: لو أبصرت أو علمته لكان يجب أن لا تكرمه علي، هذا هو حقيقة هذه الكلمة، ثم قال تعالى حكاية عنه: ﴿لَيْنَ آخَرَتَيْنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وفيه مباحث:

البحث الأول: قرأ ابن كثير: ﴿لَيْنَ أَخْرَتَيْنِ إِلَى يَوْمِ الْفَيْتَمَةِ﴾، بإثبات الياء في الوصل والوقف، وقرأ عاصم وابن عامر وحمة والكسائي بالحذف ونافع وأبو عمرو بإثباته في الوصل دون الوقف.

البحث الثاني: في الاحتناك قولان، أحدهما: أنه عبارة عن الأخذ بالكلية، يقال: احتنك فلان ما عند فلان من مال إذا استقصاه وأخذه بالكلية، واحتنك الجراد الزرع إذا أكله بالكلية.

والثاني: أنه من قول العرب حنك الدابة يحنكها، إذا جعل في حنكها الأسفل حبلا يقودها به، وقال أبو مسلم: الاحتناك افتعال من الحنك كأنهم يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه.

فعلى القول الأول: معنى الآية لأستأصلنهم بالإغواء.

وعلى القول الثاني: لأقودنهم إلى المعاصي كما تقاد الدابة بحبلها.

البحث الثالث: قوله: ﴿وَلَا قَلِيلًا﴾، هم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَئْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، فإن قيل: كيف ظن إبليس هذا الظن الصادق بذرية آدم؟ قلنا فيه وجوه: الأول: أنه سمع الملائكة يقولون: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، فعرف هذه الأحوال.

الثاني: أنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عزما، فقال الظاهر أن أولاده يكونون مثله في ضعف العزم.

الثالث: أنه عرف أنه مركب من قوة بهيمية شهوانية، وقوة سبعية غضبية، وقوة وهمية شيطانية، وقوة عقلية ملكية، وعرف أن القوى الثلاث أعني الشهوانية والغضبية والوهمية تكون هي المستولية في أول الخلقة، ثم إن القوة العقلية إنما تكمل في آخر الأمر، ومتى كان الأمر كذلك كان ما ذكره إبليس لازما، واعلم أنه تعالى لما حكى عن إبليس

ذلك حكى عن نفسه أنه تعالى قال له اذهب، وهذا ليس من الذهاب الذي هو نقيض المجيء وإنما معناه امض لشأنك الذي اخترته، والمقصود التخلية وتفويض الأمر إليه.

ثم قال: ﴿فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ مَوْفُورًا﴾، ونظيره قول موسى عليه السلام: ﴿فَكَالَ فَاذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾^(١)، فإن قيل أليس الأولى أن يقال: فإن جهنم جزاؤهم جزاء موفورا، ليكون هذا الضمير راجعا إلى قوله: ﴿فَمَنْ يَبْعَكَ﴾؟، قلنا فيه وجوه: الأول: التقدير فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤكم ثم غلب المخاطب على الغائب فقل جزاؤكم.

والثاني: يجوز أن يكون هذا الخطاب مع الغائبين على طريقة الالتفات.

والثالث: أنه عليه السلام قال: (من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)^(٢).

فكل معصية توجد فيحصل لإبليس مثل وزر ذلك العامل.

فلما كان إبليس هو الأصل في كل المعاصي صار المخاطب بالوعيد هو إبليس، ثم قال: ﴿جَزَاءُ مَنْ مَوْفُورًا﴾، وهذه اللفظة قد تحيى متعديا ولازما، أما المتعدي فيقال: (وفرته أفره وفرا ووفرة فهو موفور وموفر)، واللازم كقوله: وفر المال يفر وفورا فهو وافر، فعلى التقدير الأول: يكون المعنى جزاء موفورا موفرا.

وعلى الثاني: يكون المعنى جزاء موفورا وافرا، وانتصب قوله جزاء على المصدر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِزُ مَنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بَصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(١٦) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا، اعلم أن إبليس لما طلب من الله الإمهال إلى

(١) الآية: رقم ٩٧ من سورة طه.

(٢) الحديث: رواه الإمام مسلم في صحيحه من رواية جرير بن عبد الله البجلي برقم ٤٩٥٩.

يوم القيامة لأجل أن يحتك ذرية آدم، فالله تعالى ذكر أشياء:

أولها: قوله: ﴿أَذْهَبَ﴾، ومعناه: أمهلتك هذه المدة.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾، يقال: أفضه الخوف واستفزه أي أزعجه واستخفه، وصوته دعاؤه إلى معصية الله تعالى، وقيل: أراد بصوتك الغناء واللهو واللعب، ومعنى صيغة الأمر هنا التهديد كما يقال: اجهد جهدك فستري ما ينزل بك.

وثالثها: ﴿وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بَخِيلِكَ وَرَجْلِكَ﴾، في قوله: ﴿وَأَجْلَبَ﴾ وجوه: الأول: قال الفراء: إنه من الجلبة وهو الصياح، وربما قالوا: الجلب كما قالوا: الغلبة والغلب والشفقة والشفق، وقال الليث وأبو عبيدة: أجلبوا وجلبوا من الصياح.

الثاني: قال الزجاج: في فعل وأفعل، أجلب على العدو إجلابا إذا جمع عليه الخيول.

الثالث: قال ابن السكيت يقال: هم يجلبون عليه، بمعنى: أنهم يعينون عليه.

والرابع: روى ثعلب عن ابن الأعرابي: أجلب الرجل على الرجل، إذا توعده الشر وجمع عليه الجمع، فقوله: وأجلب عليهم، معناه: على قول الفراء صح عليهم بخيلك ورجلك، وعلى قول الزجاج: اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكائيدك وتكون الباء في قوله: ﴿بَخِيلِكَ﴾، زائدة على هذا القول، وعلى قول ابن السكيت، معناه: أعن عليهم بخيلك ورجلك ومفعول الإجلاب: على هذا القول محذوف كأنه يستعين على إغوائهم بخيله ورجله، وهذا أيضا يقرب من قول ابن الأعرابي.

واعلم أنه تعالى لما قال له افعل ما تقدر عليه فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾، وفيه قولان:

القول الأول: أن المراد كل عباد الله من المكلفين، وهذا قول أبي علي الجبائي، قال والدليل عليه أن الله تعالى استثنى منه في آيات كثيرة من يتبعه بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ﴾،

ثم استدل بهذا على أنه لا سبيل لإبليس وجنوده على تصريع الناس وتخييط عقولهم وأنه لا قدرة له إلا على قدر الوسوسة، وأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، وأيضا فلو قدر على هذه الأعمال لكان يجب أن يتخطأ أهل الفضل وأهل العلم دون سائر الناس ليكون ضرره أعظم.

والقول الثاني: أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾، أهل الفضل والعلم والإيمان لما بينا فيما تقدم أن لفظ العباد في القرآن مخصوص بأهل الإيمان، والدليل عليه أنه قال في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَنُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾، ثم قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرِّيكَ وَكِيلًا﴾، وفيه بحثان:

البحث الأول: أنه تعالى لما مكن إبليس من أن يأتي بأقصى ما يقدر عليه في باب الوسوسة، وكان ذلك سببا لحصول الخوف الشديد في قلب الإنسان قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرِّيكَ وَكِيلًا﴾، ومعناه: أن الشيطان وإن كان قادرا فالله تعالى أقدر منه وأرحم بعباده من الكل فهو تعالى يدفع عنه كيد الشيطان ويعصمه من إضلاله وإغوائه.

البحث الثاني: هذه الآية تدل على أن المعصوم من عصمه الله تعالى وأن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلالة، لأنه لو كان الإقدام على الحق والإحجام عن الباطل إنما يحصل للإنسان من نفسه لوجب أن يقال: وكفى الإنسان نفسه في الاحتراز عن الشيطان، فلما لم يقل ذلك، بل قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرِّيكَ﴾، علمنا أن الكل من الله، ولهذا قال المحققون: لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله، بقي في الآية سؤالان:

السؤال الأول: أن إبليس هل كان عالما بأن الذي تكلم معه بقوله: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ﴾، هو إله العالم أو لم يعلم ذلك؟ فإن علم ذلك، ثم إنه تعالى قال: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ وَكُفْرًا مَوْفُورًا﴾، فكيف لم يصر هذا الوعيد الشديد مانعا له من المعصية مع أنه سمعه من الله تعالى من غير واسطة؟ وإن لم يعلم أن هذا القائل هو إله العالم، فكيف قال:

﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾.

والجواب: لعله كان شاكا في الكل أو كان يقول في كل قسم ما يخطر بباله على سبيل الظن.

والسؤال الثاني: ما الحكمة في أنه تعالى انظره إلى يوم القيامة ومكنه من الوسوسة؟ والحكيم إذا أراد أمرا وعلم أن شيئا من الأشياء يمنع من حصوله فإنه لا يسعى في تحصيل ذلك المانع.

والجواب: أما مذهبنا فظاهر في هذا الباب، وأما المعتزلة فلهم قولان: قال الجبائي: علم الله تعالى أن الذين كفروا عند وسوسة إبليس يكفرون بتقدير أن لا يوجد إبليس، وإذا كان كذلك لم يكن في وجوده مزيد مفسدة.

وقال أبو هاشم: لا يبعد أن يحصل من وجوده مزيد مفسدة، إلا أنه تعالى أبقاه تشديدا للتكليف على الخلق ليستحقوا بسبب ذلك التشديد مزيد الثواب، وهذان الوجهان قد ذكرناهما في سورة الأعراف والحجر، وبالغنا في الكشف عنهما، والله أعلم.

أقوال المفسرين في آيات القصة

في سورة الكهف

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝﴾^(١).

١- قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره مذكراً هؤلاء المشركين حسد إبليس أباهم ومعلمهم ما كان منه من كبره واستكباره عليه حين أمره بالسجود له، وأنه من العداوة والحسد لهم على مثل الذي كان عليه لأبيهم: (وَ) اذكر يا محمد ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الذي يطيعه هؤلاء المشركون ويتبعون أمره، ويخالفون أمر الله، فإنه لم يسجد له استكباراً على الله، وحسداً لآدم ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، فقال بعضهم: إنه كان من قبيلة يقال لهم الجن، وقال آخرون: بل كان من خزّان الجنة، فنسب إلى الجنة، وقال آخرون: بل قيل من الجن، لأنه من الجن الذين استجنوا عن أعين بني آدم.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان اسمه قبل أن يركب المعصية عزازيل، وكان من سكان الأرض، وكان من أشدّ الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، فذلك هو الذي دعاه إلى الكبر، وكان من حيّ يسمى جناً)^(٢).

(١) الآية: رقم ٥٠ من سورة الكهف.

(٢) الأثر: أخرجه ابن أبي حاتم في كتابه التفسير ط الأصيل (ج ١ / ص ٨٤) و(ج ٥ / ص ١٤٤٣) والبيهقي في كتابه شعب الإيمان (ج ١ / ص ٣٠٥) والأباري في كتابه الأضداد (ص ٣٣٦) كلهم من طريق سعيد بن سليمان، ثنا عباد يعني ابن العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال فذكره. إسناده صحيح

وعن ابن عباس، قال: كان إبليس من حيٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجن، خلُقوا من نار السموم من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، قال: وكان خازنا من خزان الجنة، قال: وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحي، قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت.

وعن سعيد بن المسيب، قال: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا.

وعن ابن عباس، في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، قال: كان إبليس من خزان الجنة، وكان يدبر أمر سماء الدنيا، وقال ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة. وكان خازنا على الجنان، وكان له سلطان السماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض، وكان فيما قضى الله أنه رأى أن له بذلك شرفا وعظمة على أهل السماء، فوقع من ذلك في قلبه كبر لا يعلمه إلا الله، فلما كان عند السجود حين أمره أن يسجد لآدم استخرج الله كبره عند السجود، فلعنه وأخره إلى يوم الدين، قال: قال ابن عباس: وقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، إنما سمي بالجنان أنه كان خازنا عليها، كما يقال للرجل: مكّي، ومدني، وكوفي، وبصري، قاله ابن جريج.

وقال آخرون: هم سبط من الملائكة قبيلة، وكان اسم قبيلته الجن.

وعن ابن عباس، قال: إن من الملائكة قبيلة من الجن، وكان إبليس منها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فعصى، فسخط الله عليه فمسخه شيطانا رجيا، لعنه الله ممسوخا، قال: وإذا كانت خطيئة الرجل في كبر فلا ترجمه، وإذا كانت خطيئته في معصية فارجمه، وكانت خطيئة آدم في معصية، وخطيئة إبليس في كبر.

وقال ابن عباس: لو لم يكن من الملائكة لم يؤمر بالسجود، وكان على خزانة السماء الدنيا، قال: وكان قتادة يقول: جنّ عن طاعة ربه، وكان الحسن يقول: ألجأه الله إلى نسبه.

وعن الحسن، قال: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم عليه السلام أصل الإنس.

وقال آخرون: كان اسم قبيلة إبليس الجنّ، وهم سبط من الملائكة يقال لهم الجنّ، فلذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، فنسبه إلى قبيلته.

وعن سعيد، في قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، قال: من الجنان الذين يعملون في الجنان.

وعن شهر بن حوشب، قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، قال: كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة، فأسره بعض الملائكة، فذهب به إلى السماء.

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، يقول: فخرج عن أمر ربه، وعدل عنه ومال، كما قال رؤية:

يَهْوِينَ فِي نَجْدٍ وَغَوْرًا غَائِرًا ... فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرًا

يعني بالفواسق: الإبل المنعدلة عن قصد نجد، وكذلك الفسق في الدين إنها هو الانعدال عن القصد، والميل عن الاستقامة، ويحكى عن العرب سماعا: فسقت الرطبة من قشرها: إذا خرجت منه، وفسقت الفأرة: إذا خرجت من جحرها، وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول: إنها قيل: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، لأنه مراد به: ففسق عن رده أمر الله، كما تقول العرب: اتخمت عن الطعام، بمعنى: اتخمت لما أكلته.

وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل.

فعن مجاهد، في قول الله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، قال: في السجود لآدم.

وعن مجاهد، في قوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، قال: عصي في السجود لآدم.

وقوله: ﴿أَفَنَنْتَحِدُونَ، وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، يقول تعالى ذكره: أفتوالون يا بني آدم من استكبر على أبيكم وحسده، وكفر نعمتي عليه، وغره حتى أخرجته من الجنة ونعيم عيشه فيها إلى الأرض وضيق العيش فيها، وتطيعونه وذريته من دون الله مع عدواته لكم قديما وحديثا، وتتركون طاعة ربكم الذي أنعم عليكم

وأكرمكم، بأن أسجد لوالدكم ملائكته، وأسكنه جناته، وآتاكم من فواضل نعمه ما لا يحصى عدده، وذرية إبليس: الشياطين الذين يغرون بني آدم.

عن ابن جريج، عن مجاهد: ﴿أَفْتَخِذُونَهُ وَذَرِيَّتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾، قال: ذريته: هم الشياطين.

قال ابن زيد، في قوله: ﴿أَفْتَخِذُونَهُ وَذَرِيَّتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، وهو أبو الجن كما آدم أبو الإنس، وقال: قال الله لإبليس: إني لا أذرا لأدم ذرية إلا ذرات لك مثلها، فليس من ولد آدم أحد إلا له شيطان قد قرن به.

وقوله: ﴿يَتَسَلَّلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، يقول عز ذكره: بتس البذل للكافرين بالله اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله، وهم لكم عدو، من تركهم اتخاذ الله وليا باتباعهم أمره ونهيه، وهو المنعم عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم، المتفضل عليهم من الفواضل ما لا يحصى بدلا.

٢_ وقال الإمام الماتريدي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذَرِيَّتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَتَسَلَّلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.﴾

ذكر الله ﷻ: قصة آدم وإبليس في غير موضع من القرآن على الزيادة والنقصان، وإنما ذكر كذلك وكرر لما كذلك كان في الكتب المتقدمة مكررا معاديا؛ فذكر في القرآن على ما كان في تلك الكتب، ليكون ذلك آية لرسالة محمد حيث علموا أنه كان لا يعرف الكتب المتقدمة.

أو أن ما كرهه لحاجات كانت لهم ولفوائد تكون في التكرار؛ ليكون لهم عظة وتنبيه في كل وقت وكل حال، وقد يكرر الشيء ويعاد على التذكير والتنبيه، والله أعلم بذلك.

وقوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، اختلف فيه: قَالَ بَعْضُهُمْ: سمي من الجن، لأنه كان من الجن الذين يعملون في الجنان؛ فنسب إليهم.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إن من الملائكة قبيلة يقال لها: الجن، فكان إبليس منها؛ فنسب إليها. وقال الحسن: ما كان إبليس من الملائكة قط طرفة عين؛ ولكنه من الجن؛ كما قال الله فهو أصل الجن، وهو أول من عصى ربه من الجن، وإن آدم هو أصل الإنس، وهو أبوهم فعلى ذلك إبليس أبو الجن.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، أي: صار من الجن، وكذلك قالوا: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: صار من الكافرين.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: : ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، أي: كان في علم الله في الأزل أنه يكون من الجن، وكان في علم الله في الأزل أنه يكون من الكافرين وقت عصيانه ربه وإيائه السجود لآدم.

وقوله ﷻ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، قيل: عتا وعصى، وأصل الفسق: الخروج، أي: خرج عن أمر ربه، وكذلك قال الْقُتَيْبِيُّ: ففسق، أي: خرج عن طاعته، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها.

وقوله ﷻ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾، هذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه أراد بقوله: ﴿مِنْ دُونِي﴾، نفسه، فكأنه قال: أفتتخذونه وذريته أربابا وآلهة من دوني وهم لكم عدو، وليسوا بآلهة ولا أرباب؛ فكيف يجوز أن يتخذ العدو ربا وإلهة؟!

والثاني: أنه أراد بقوله: ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾، أي: من دون أوليائي؛ فكأنه قال: أفتتخذونه وذريته أولياء من دون أوليائي، وهم لكم عدو، أي: كيف تتخذون الأعداء أولياء، وتتركون من هم لكم أولياء ولا تتخذونهم أولياء؟! والله أعلم.

وقوله ﷻ: ﴿يَبْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، أي: بئس ما استبدلوا بعبادة ربهم أن عبدوا إبليس

وأطاعوه؛ فبئس ذلك لهم بدلا.

أو أن يكون قوله: ﴿يَتَسَلَّلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، ما اتخذوا أعداءهم أولياء بدلا عن أوليائه أو بدلا عن ألوهيته وربوبيته.

٣- وقال الإمام الرازي رحمه الله: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأمواهم وأعوانهم على فقراء المسلمين وهذه الآية المقصود من ذكرها عين هذا المعنى، وذلك لأن إبليس إنما تكبر على آدم لأنه افتخر بأصله ونسبه وقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فأنا أشرف منه في الأصل والنسب فكيف أسجد وكيف أتواضع له، وهؤلاء المشركون عاملوا فقراء المسلمين بعين هذه المعاملة فقالوا: كيف نجلس مع هؤلاء الفقراء مع أنا من أنساب شريفة وهم من أنساب نازلة ونحن أغنياء وهم فقراء، فالله تعالى ذكر هذه القصة هاهنا تنبيهًا على أن هذه الطريقة هي بعينها طريقة إبليس ثم إنه تعالى حذر عنها وعن الاقتداء بها في قوله: ﴿أَفَنَسْخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ﴾، فهذا هو وجه النظم وهو حسن معتبر، وذكر القاضي وجها آخر فقال: إنه تعالى لما ذكر من قبل أمر القيامة وما يجري عند الحشر ووضع الكتاب وكأن الله تعالى يريد أن يذكر هاهنا أنه ينادي المشركين ويقول لهم: أين شركائي الذي زعمتم وكان قد علم تعالى أن إبليس هو الذي يحمل الإنسان على إثبات هؤلاء الشركاء، لا جرم قدم قصته في هذه الآية إتماما لذلك الغرض، ثم قال القاضي: وهذه القصة وإن كان تعالى قد كررها في سور كثيرة إلا أن في كل موضع منها فائدة جديدة.

المسألة الثانية: أنه تعالى بين في هذه الآية أن إبليس كان من الجن، وللناس في هذه

المسألة ثلاثة أقوال:

الأول: أنه من الملائكة وكونه من الملائكة لا ينافي كونه من الجن، ولهم فيه وجوه.

الأول: أن قبيلة من الملائكة يسمون بذلك لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾^(١)، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾^(٢).

والثاني: أن الجن سموا جناً للاستتار والملائكة كذلك فهم داخلون في الجن.

الثالث: أنه كان خازن الجنة ونسب إلى الجنة كقولهم كوفي وبصري وعن سعيد بن جبیر أنه كان من الجنانين الذين يعملون في الجنات حي من الملائكة يصوغون حلية أهل الجنة مذ خلقوا رواه القاضي في تفسيره عن هشام عن سعيد بن جبیر.

والقول الثاني: أنه من الجن الذين هم الشياطين والذين خلقوا من نار وهو أبوهم.

والقول الثالث: قول من قال كان من الملائكة فمسخ وغير، وهذه المسألة قد أحكمناها في سورة البقرة وأصل ما يدل على أنه ليس من الملائكة أنه تعالى أثبت له ذرية ونسلا في هذه الآية وهو قوله: ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾، والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل فوجب أن لا يكون إبليس من الملائكة.

بقي أن يقال: إن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود فلو لم يكن إبليس من الملائكة فكيف تناوله ذلك الأمر، وأيضا لو لم يكن من الملائكة فكيف يصح استثنائه منهم، وقد أجبنا عن كل ذلك بالاستقصاء ثم قال تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، وفي ظاهره إشكال لأن الفاسق لا يفسق عن أمر ربه، فلهذا السبب ذكروا فيه وجوها: الأول: قال الفراء: ففسق عن أمر ربه أي خرج عن طاعته.

(١) الآية: رقم ١٥٨ من سورة الصافات.

(٢) الآية: رقم ١٠٠ من سورة الأنعام.

والعرب تقول فسقت الرطبة من قشرها أي: خرجت، وسميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها من البابين.

الثاني: حكى الزجاج عن الخليل وسيبويه أنه قال: لما أمر فعصى كان سبب فسقه هو ذلك الأمر، والمعنى: أنه لولا ذلك الأمر السابق لما حصل الفسق، فلأجل هذا المعنى حسن أن يقال: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾.

الثالث: قال قطرب: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، رده كقوله: ﴿وَسَلَّ الْقَرْيَةَ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَالْعِيرَ﴾^(٢)، أي: واسأل العير التي أقبلنا فيه، قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المقصود من هذا الكلام أن إبليس تكبر على آدم وترفع عليه لما ادعى أن أصله أشرف من أصل آدم فوجب أن يكون هو أشرف من آدم، فكأنه تعالى قال لأولئك الكافرين الذين افتخروا على فقراء المسلمين بشرف نسبهم وعلو منصبهم، إنكم في هذا القول اقتديتم بإبليس في تكبره على آدم فلما علمتم أن إبليس عدو لكم فكيف تقتدون به في هذه الطريقة المذمومة.

هذا هو تقرير الكلام، فإن قيل: إن هذا الكلام لا يتم إلا بإثبات مقدمات.

فأولها: إثبات إبليس، وثانيها: إثبات ذرية إبليس، وثالثها: إثبات عداوة بين إبليس وذريته وبين أولاد آدم.

ورابعها: أن هذا القول الذي قاله أولئك الكفار اقتدوا فيه بإبليس.

وكل هذه المقدمات الأربعة لا سبيل إلى إثباتها إلا بقول النبي محمد ﷺ.

(١) الآية: رقم ٨٢ من سورة يوسف.

(٢) الآية: رقم ٨٢ من سورة يوسف.

فالجاهل بصدق النبي جاهل بها.

إذا عرفت هذا فنقول المخاطبون بهذه الآيات هل عرفوا كون محمد نبيا صادقا أو ما عرفوا ذلك؟ فإن عرفوا كونه نبيا صادقا قبلوا قوله في كل ما يقوله فكلما نهاهم النبي ﷺ عن قول انتهوا عنه، وحينئذ فلا حاجة إلى قصة إبليس وإن لم يعرفوا كونه نبيا جهلوا كل هذه المقدمات الأربعة ولم يعرفوا صحتها فحينئذ لا يكون في إيرادها عليهم فائدة والجواب أن المشركين كانوا قد سمعوا قصة إبليس وآدم من أهل الكتاب واعتقدوا صحتها وعلموا أن إبليس إنما تكبر على آدم بسبب نسبه، فإذا أوردنا عليهم هذه القصة كان ذلك زاجرا لهم عما أظهروه مع فقراء المسلمين من التكبر والترفع.

المسألة الثانية: قال الجبائي: في هذه الآية دلالة على أنه تعالى لا يريد الكفر ولا يخلقه في العبد، إذ لو أَرَادَهُ وخلقَه فيه ثم عاقبه عليه لكان ضرر إبليس أقل من ضرر الله عليهم! فكيف يوبخهم بقوله: ﴿يَسْ لِّلْظَالِمِينَ بَدَلًا﴾، تعالى الله عنه علوا كبيرا.

بل على هذا المذهب لا ضرر البتة من إبليس بل الضرر كله من الله، والجواب: المعارضة بالداعي والعلم.

المسألة الثالثة: إنما قال للكفار المفتخرين بأنسابهم وأموالهم على فقراء المسلمين أفتتخذون إبليس وذريته أولياء من دون الله، لأن الداعي لهم إلى ترك دين محمد ﷺ هو النخوة وإظهار العجب.

فهذا يدل على أن كل من أقدم على عمل أو قول بناء على هذا الداعي فهو متبع لإبليس حتى أن من كان غرضه في إظهار العلم والمناظرة التفاخر والتكبر والترفع فهو مقتد بإبليس وهو مقام صعب غرق فيه أكثر الخلق فنسأل الله الخلاص منه، ثم قال تعالى: ﴿يَسْ لِّلْظَالِمِينَ بَدَلًا﴾، أي: بئس البديل من الله إبليس لمن استبدله به فأطاعه بدل طاعته.

٤_ وقال الإمام القرطبي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾.

قال أبو جعفر النحاس: وفي هذه الآية سؤال، يقال: ما معنى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، ففي هذا قولان: أحدهما: وهو مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى: أتاه الفسق لما أمر فعصى، فكان سبب الفسق أمر ربه، كما تقول: أطعمته عن جوع.

والقول الآخر: وهو مذهب محمد بن قطرب أن المعنى: ففسق عن رد أمر ربه ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾، وقف عليك الكفرة على جهة التوبيخ بقوله: ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ﴾ يا بني آدم ﴿وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، أي: أعداء، فهو اسم جنس، ﴿يَبْتَغِي لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، أي: بئس عبادة الشيطان بدلا عن عبادة الله، أو بئس إبليس بدلا عن الله.

واختلف هل لإبليس ذرية من صلبه، فقال الشعبي: سألتني رجل فقال هل لإبليس زوجة؟ فقلت: إن ذلك عرس لم أشهده، ثم ذكرت قوله: ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾، فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت: نعم، قال القشيري أبو نصر: والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس أتباعا وذرية، وأنهم يوسوسون إلى بني آدم وهم أعداؤهم، ولا يثبت عندنا كيفية في كيفية التوالد منهم وحدث الذرية عن إبليس، فيتوقف الأمر فيه على نقل صحيح.

قلت: الذي ثبت في هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين عن أبي عثمان عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فباض الشيطان وفرخ)^(١)، وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه، والله اعلم.

(١) الحديث له روايتان الأولى صحيحة وهي في صحيح مسلم من حديث سلمان الفارسي، والرواية الثانية ضعيفة وهي عند الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان.

قال ابن عطية: وقول: ﴿وَذَرَيْتَهُ﴾، ظاهر اللفظ يقتضي الموسوسين من الشياطين، الذين يأتون بالمنكر ويحملون على الباطل، وذكر الطبري وغيره أن مجاهدا قال: ذرية إبليس الشياطين.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود: (إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتفرقون فيقول الرجل منهم سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث)^(١).

وفي مسند البزار عن سلمان الفارسي قال: قال النبي ﷺ: (لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته)^(٢).

وفي مسند أحمد بن حنبل من حديث أبي موسى الأشعري قال: (إذا أصبح إبليس بث جنوده فيقول من أضل مسلما ألبسته التاج، قال: فيقول له القائل: لم أزل بفلان حتى طلق زوجته، قال: يوشك أن يتزوج، ويقول آخر: لم أزل بفلان حتى علق، قال: يوشك أن يبر، قال: ويقول القائل: لم أزل بفلان حتى شرب، قال: أنت! قال: ويقول: لم أزل بفلان حتى زنى، قال: أنت! قال: ويقول: لم أزل بفلان حتى قتل، قال: أنت أنت)^(٣).

وفي صحيح مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (أن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا؛ فيقول: ما صنعت شيئا، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله، قال: فيدنيه، أو قال: فيلتزمه؛ ويقول: نعم أنت)^(٤).

(١) الحديث: في صحيح مسلم - المقدمة - باب في الضعفاء والكذابين ومن يرغب عن حديثهم - حديث رقم ١٥.

(٢) الحديث: سبق تخريجه أعلاه.

(٣) الحديث: رواه سفيان الثوري واختلف عنه، فرواه ابن المبارك أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان (ص ٥٥) ومن طريقه ابن الجوزي في تلبس إبليس (ص ٣٠) وأبو نعيم الفضل بن دكين أخرجه ابن أبي شيبه في المصنفات كمال (ج ٧/ ص ١٤٢) عن سفيان، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن أبي موسى موقوفاً.

(٤) الحديث: في شرح النووي على مسلم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس

أقوال المفسرين فيه آيات القصة

فيه سورة (طه)

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦ قُلْنَا يَتَّادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ۝١١٩ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادُمُ هَلْ أَتُوكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾^(١).

١- قال الإمام الطبري رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، يقول تعالى ذكره: وإن يضيع يا محمد هؤلاء الذين نصرّ لهم في هذا القرآن من الوعيد عهدي، ويخالفوا أمري، ويتركوا طاعتي، ويتبعوا أمر عدوهم إبليس، ويطيعوه في خلاف أمري، فقد بيا ما فعل ذلك أبوهم آدم، ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ﴾، يقول: ولقد وصينا آدم وقلنا له: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾، ووسوس إليه الشيطان فأطاعه، وخالف أمري، فحلّ به من عقوبتي ما حلّ.

وأن مع كل إنسان قرينا، وفي مسند أحمد ابن حنبل _ مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه _ حديث رقم ١٤١٥٢ (١) الآيات: رقم ١١٥ - ١٢٤ من سورة البقرة.

وعنى جل ثناؤه بقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، هؤلاء الذين أخبر أنه صرّف لهم الوعيد في هذا القرآن، وقوله: ﴿فَنَسِيَ﴾، يقول: فترك عهدي.

فعن ابن عباس، في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾، يقول: فترك.

وعن مجاهد، في قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾، قال: ترك أمر ربه.

وقال ابن زيد، في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، قال: قال له: ﴿يَتَّعَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿لَا تَقْظُمُوا فِيهَا وَلَا تَصْحَحِي﴾، وقرأ حتى بلغ: ﴿وَمُلْكِي لَا يَبْلُغِي﴾، قال: فنسي ما عهد إليه في ذلك، قال: وهذا عهد الله إليه، قال: ولو كان له عزم ما أطاع عدوه الذي حسده، وأبي أن يسجد له مع من سجد له إبليس، وعصى الله الذي كرمه وشرّفه، وأمر ملائكته فسجدوا له.

وعن ابن عباس، قال: إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنسي.

وقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، اختلف أهل التأويل في معنى العزم هاهنا، فقال بعضهم: معناه: الصبر.

وعن قتادة، قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، أي: صبرا، وعن قتادة: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، قال: صبرا.

وقال آخرون: بل معناه: الحفظ، قالوا: ومعناه: ولم نجد له حفظا لما عهدنا إليه.

فعن ابن عباس، قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، يقول: لم نجد له حفظا.

قال ابن زيد، في قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، قال: العزم: المحافظة على ما أمره الله تبارك وتعالى بحفظه والتمسك به.

وعن أبي أمامة قال: (لو أن أحلام بني آدم جمعت منذ يوم خلق الله تعالى آدم إلى يوم الساعة، ووضعت في كفة ميزان، ووضع حلم آدم في الكفة الأخرى، لرجح حلمه

بأحلامهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، قال أبو جعفر: وأصل العزم اعتقاد القلب على الشيء، يقال منه: عزم فلان على كذا: إذا اعتقد عليه ونواه، ومن اعتقاد القلب: حفظ الشيء، ومنه الصبر على الشيء، لأنه لا يجزع جازع إلا من خور قلبه وضعفه، فإذا كان ذلك كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بينه الله تبارك وتعالى، وهو قوله: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، فيكون تأويله: ولم نجد له عزم قلب، على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه.

يقول تعالى ذكره: معلما نبيه محمدا ﷺ، ما كان من تضييع آدم ﷺ عهده، ومعرفة بذلك أن ولده لن يعدوا أن يكونوا في ذلك على منهاجه، إلا من عصمه الله منهم، (و) اذكر يا محمد ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾، أن يسجد له، ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾، ولذلك من شأنه لم يسجد لك، وخالف أمري في ذلك وعصاني، فلا تطيعاه فيما يأمركما به، فيخرجكما بمعصيتكما ربكما، وطاعتكما له، ﴿مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقَّى﴾، يقول: فيكون عيشك من كد يدك، فذلك شقاؤه الذي حذر به.

وعن سعيد، قال: أهبط إلى آدم ثور أحمر، فكان يحرث عليه، ويمسح العرق من جبينه، فهو الذي قال الله تعالى ذكره: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقَّى﴾، فكان ذلك شقاؤه، وقال تعالى ذكره: ﴿فَتَشَقَّى﴾، ولم يقل: فتشقى، وقد قال: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ﴾، لأن ابتداء الخطاب من الله كان لآدم ﷺ، فكان في إعلامه العقوبة على معصيته إياه، فيما نهاه عنه من أكل الشجرة الكفاية من ذكر المرأة، إذ كان معلوما أن حكمها في ذلك حكمه، كما قال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾^(١)، اجتزئ بمعرفة السامعين معناه من ذكر فعل صاحبه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۝

يقول تعالى ذكره: مخبرا عن قبلة لآدم حين أسكنه الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ﴾ يا آدم ﴿أَلَّا تَجُوعَ

(١) الآية: رقم ١٧ من سورة (ق).

فِيهَا وَلَا تَقْرَأَنَّ، و(أَنَّ) في قوله: ﴿أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَقْرَأَنَّ﴾ في موضع نصب بإن التي في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ﴾.

وقوله: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا﴾، اختلفت القراء في قراءتها، فقرأ ذلك بعض قراء المدينة والكوفة بالكسر: وإنك، على العطف على قوله: ﴿إِنَّ لَكَ﴾، وقرأ ذلك بعض قراء المدينة وعامة قراء الكوفة والبصرة وأنك، بفتح ألفها عطفاً بها على (أَنَّ) التي في قوله: ﴿أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَقْرَأَنَّ﴾، ووجهوا تأويل ذلك إلى أن لك هذا وهذا، فهذه القراءة أعجب القراءتين إليّ، لأن الله تبارك وتعالى ذكره وعد ذلك آدم حين أسكنه الجنة، فكون ذلك بأن يكون عطفاً على أن لا تجوع أولى من أن يكون خبر مبتدأ، وإن كان الآخر غير بعيد من الصواب، وعني بقوله: ﴿لَا تَظْمَأُ فِيهَا﴾، لا تعطش في الجنة ما دمت فيها ﴿وَلَا تَضْحَى﴾، يقول: لا تظهر للشمس فيؤذيكَ حرّها، كما قال ابن أبي ربيعة:

رَأْتُ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ ... فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالْعِشِيِّ فَيُخْصِرُ

فعن ابن عباس، قوله: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾، يقول: لا يصيبك فيها عطش ولا حرّ.

وفي رواية أخرى عنه يقول: لا يصيبك حرّ ولا أذى.

وعن سعيد بن جبير: ﴿لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾، قال: لا تصيبك الشمس.

قال تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّكِدُ مِنْ هَلْ أَتُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾.

وقوله: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾، يقول: فألقى إلى آدم الشيطان وحديثه: ﴿قَالَ يَتَّكِدُ مِنْ هَلْ أَتُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾، يقول: قال له: هل أدلك على شجرة إن أكلت منها خلدت فلم تمت، وملكت ملكاً لا ينقضي فيلبى.

فعن السدي: ﴿قَالَ يَتَدَامُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾، إن أكلت منها كنت ملكا مثل الله، ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾، فلا تموتان أبدا.

قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءٌ تَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (١٣) ثُمَّ اجْنَبْنَاهُ رَّبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ يقول تعالى ذكره: فأكل آدم وحواء من الشجرة التي نهيها عن الأكل منها، وأطاعا أمر إبليس، وخالفا أمر ربهما ﴿فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءٌ تَهُمَا﴾، يقول: فأنكشفت لهما عوراتهما، وكانت مستورة عن أعينهما.

فعن السدي، قال: إنما أراد، يعني إبليس بقوله: ﴿هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾، ليبيدي لهما ما توارى عنهما من سواتهما، بهتك لباسهما، وكان قد علم أن لهما سواة لما كان يقرأ من كتب الملائكة، ولم يكن آدم يعلم ذلك، وكان لباسهما الظفر، فأبى آدم أن يأكل منها، فتقدمت حواء، فأكلت ثم قالت: يا آدم كل، فإني قد أكلت، فلم يضرني، فلما أكل آدم بدت سواتهما.

وقوله: (وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) يقول: أقبلًا يشدان عليهما من ورق الجنة. كما حدثنا موسى، قال: ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط، عن السدي (وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) يقول: أقبلًا يغطيان عليهما بورق التين.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، يقول: يوصلان عليهما من ورق الجنة.

وقوله ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾، يقول: وخالف أمر ربه، فتعدى إلى ما لم يكن له أن يتعدى إليه، من الأكل من الشجرة التي نهاه عن الأكل منها، وقوله: ﴿ثُمَّ اجْنَبْنَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾، يقول: اصطفاه ربه من بعد معصيته إياه فرزقه الرجوع إلى ما يرضى عنه، والعمل بطاعته، وذلك هو كانت توبته التي تابها عليه، وقوله: ﴿وَهَدَى﴾، يقول: وهداه للتوبة، فوفقه لها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾.

يقول تعالى ذكره: قال الله تعالى لآدم وحواء: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، يقول: أنتم أعدو إبليس وذريته، وإبليس عدوكم وعدو ذريتكما.

وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، يقول: فإن يأتكم يا آدم وحواء وإبليس مني هدى: يقول: بيان لسبيلي، وما أختاره لخلق من دين، ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ يقول: فمن اتبع بياني ذلك وعمل به، ولم يزغ منه ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾، يقول: فلا يزول عن محجة الحق، ولكنه يرشد في الدنيا ويهتدي ﴿وَلَا يَشْقَى﴾ في الآخرة بعقاب الله، لأن الله يدخله الجنة، وينجيه من عذابه.

عن ابن عباس، قال: تضمن الله لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾.

٢_ وقال الإمام الماتريدي رحمته الله: وقوله عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.

قال الحسن وعامة أهل التأويل: إن قوله: ﴿فَنَسَىٰ﴾، أي: ضيع وترك، ليس نسيان السهو؛ لأنه عوتب عليه وعوقب به، ولا يعاتب المرء على ما هو حقيقة السهو والنسيان؛ فدل أنه على التضييع والترك، ليس على النسيان والسهو، إلى هذا يذهب هؤلاء، لكن يقبح هذا أن يقال: في آدم، أو في نبي من أنبيائه، أو في رسول من رسله صلوات الله عليهم: إنه ضيع، والنسيان عندنا على قسمين:

نسيان يكون عن غفلة منه وشغل: ما لو لا ذلك الشغل منه والغفلة، لحفظه وذكره ولا ينساه، وجائز المعاتبه على هذا النسيان؛ إذ لو كان تكلف لكان لا ينساه ولا يقع فيه.

ونسيان آخر يقع فيه من غير سبب كان منه لا يملك دفعه: وذلك نسيان ما لا يعاتب عليه ولا يعاقب به، وهكذا الكلفة من الله تعالى والمحنة: أنه جائز أن يكلف ويمتحن من لا يعلم ولا يعقل الكلفة وقت تكليفه إياه بعد أن يحتمل عقله إدراك ذلك لو استعمله، فأما من كان عقله لا يحتمل إدراك ما كلفه وإن استعمله وأجهد نفسه فيه، فإنه لا يكلف ألبتة؛ فعلى ذلك النسيان الذي ذكر من آدم جائز أنه لو تكلف، حفظه وذكره؛ فإنها عوتب لذلك، والله أعلم.

وقوله ﷻ: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، قال الحسن: أي: منعًا من الشيطان، وقال بعضهم: حفظًا لم يحفظ أمره، وقال بعضهم: صبرًا، ونحوه.

والعزم: حقيقة القصد والقطع على الشيء، وهو ضد النسيان الذي ذكر.

وقال بعضهم: العزم: هو المحافظة على أمر الله والتمسك به.

وقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾، قال بعضهم: لولا قول أهل التأويل في سجود الملائكة لآدم إلى حقيقة السجود، وإلا جائز أن يصرف الأمر بالسجود إلى الخضوع له، والسجود: هو الخضوع؛ حيث قال: ﴿يَتَّكِدُمْ أَئِنَّهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (٢)، وقد يؤمر الإنسان بالخضوع لمن يتعلم منه العلم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾، قال أهل التأويل: ليس شقاء الدين، ولكن تعب النفس والنصب في العمل.

وقوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَى﴾، كل من عصى ربه فقد غوى، العصيان والغواية واحد.

وقوله: ﴿ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ، فَابْغَى عَلَيْهِ وَهَدَى﴾، قوله: ﴿اجْنَبْهُ﴾ يحتمل وجوها:

أحدها: اجتباؤه للتوبة وهداه لها، أو: اجتباؤه ربه للرسالة وهداه لها، أو اجتباؤه ربه

للدين وهداه للتوحيد، وهذا جائز عندنا، للتوحيد والإيمان حكم التجدد والحدوث في كل وقت وكل ساعة؛ لأنه مأمور بترك الكفر ونفيه في كل وقت، فإذا كان مأمورًا بترك الكفر في كل وقت منهيًا عنه كان مأمورًا بالإيمان والتوحيد، فإذا كان ما ذكرنا دل أن للإيمان والتوحيد حكم التجدد والحدوث في كل وقت، وإلا ظاهر قوله: ﴿ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ﴾: أنه لم يكن يجنبه قبل ذلك فاجتباها من بعد، لكن الوجه ما ذكرنا من اجتباها إياه للرسالة، واجتباها للتوحيد والطاعات والخيرات ونحوه، والله أعلم.

وقوله ﷻ: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾، قال الحسن: قوله: ﴿أَهْبِطَا﴾ أي: آدم والشيطان، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، يعني: ذرية آدم وذرية إبليس بعضهم لبعض عدو.

وقال فيما قال: ﴿أَهْبِطُوا﴾، عنى: آدم وحواء وإبليس، والهبوط: ليس هو الانحدار والتسفل من المكان العالي المرتفع، إنما هو النزول في المكان، فجائز أن يكون قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، أراد ذريتهما: ذرية آدم وذرية إبليس، وعلى ذلك يخرج قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، يعني: الذرية، ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾، وقت اتباعه الهدى، أو لا يضل ولا يشقى إذا ختم بالهدى، أو لا يضل طريق الجنة ولا يشقى في النار، والله أعلم.

وقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى﴾، هو الشدة والضيق، ثم اختلفوا فيه:

قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، في الدنيا، وإن كانت في الظاهر واسعة عليه؛ لأنهم ينفقون ولا يرون لنفقتهم خلفًا ولا عاقبة، ويريدون الدنيا أنها تدوم، فذلك يمنعهم عن التوسيع في الإنفاق خوفًا لنفاد ذلك المال وبقاء أنفسهم؛ لما ذكرنا أنهم لا يرون لنفقتهم خلفًا ولا عوضًا ولا عاقبة لها، فذلك الضنك.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، لأنهم يعصون بما أعطوا من المال وأنعموا فيه، لأن توسعهم يكون في معصية، فنفى عنهم الانتفاع به كما نفى عنهم السمع والبصر واللسان باستعمالهم هذه الجوارح في المعصية على قيامها؛ لما ذهبت منافعها في الطاعة.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، في عذاب القبر، لكن لا يقال لمن في القبر: إن له معيشة ضنكا حتى يوصف بالضيق، وعذاب القبر سبيل معرفته السمع، فإن ثبت السمع وإلا فالترك أولى.

وقال قائلون: ذلك في الآخرة والله أعلم كقوله: ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ﴾^(١).

وقوله ﷻ: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾.

قَالَ بَعْضُهُمْ: نحشره أعمى عن حججه في دينه، لكن متى كانت له الحجج في الدنيا حتى يعمى عنها في الآخرة؟!

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نحشره يوم القيامة أعمى: عمى الحقيقة؛ كقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَبِكُمَا وَصَمًا﴾^(٢)، فهو على حقيقة عمى البصر، وهو أشبه، والله أعلم.

٣- وقال الإمام الرازي ﷺ: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُحْدِثْ لَهُ عَزْمًا﴾، اعلم أن هذا هي المرة السادسة من قصة آدم عليه السلام في القرآن: أولها: في سورة البقرة ثم في الأعراف ثم في الحجر ثم في الإسراء ثم في الكهف، ثم هاهنا.

واعلم أن في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوها:

أحدها: أنه تعالى لما قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِن أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾^(٣)، ثم إنه عظم أمر القرآن

(١) الآية: رقم ١٣ من سورة الفرقان.

(٢) الآية: رقم ٩٧ من سورة الإسراء.

(٣) الآية: رقم ٩٩ من سورة طه.

وبالغ فيه ذكر هذه القصة إنجازا للوعد في قوله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾. وثانيها: أنه لما قال: ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾^(١)، أردفه بقصة آدم عليه السلام كأنه قال: إن طاعة بني آدم للشيطان وتركهم التحفظ من وساوسه أمر قديم فإننا قد عهدنا إلى آدم من قبل، أي: من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد وبالغنا في تنبيهه حيث قلنا: إن هذا عدو لك ولزوجك، ثم إنه مع ذلك نسي وترك ذلك العهد، فأمرُ البشر في ترك التحفظ من الشيطان أمر قديم.

وثالثها: أنه لما قال لمحمد ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٢)، ذكر بعده قصة آدم عليه السلام فإنه بعد ما عهد الله إليه وبالع في تجديد العهد وتحذيره من العدو نسي، فقد دل ذلك على ضعف القوة البشرية عن التحفظ فيحتاج حينئذ إلى الاستعانة بربه في أن يوفقه لتحصيل العلم ويحنبه عن السهو والنسيان.

ورابعها: أن محمدا ﷺ لما قيل له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾^(٣)، دل على أنه كان في الجدل في أمر الدين بحيث زاد على قدر الواجب، فلما وصفه بالإفراط وصف آدم بالتفريط في ذلك فإنه تساهل في ذلك ولم يتحفظ حتى نسي، فوصف الأول بالتفريط والآخر بالإفراط ليعلم أن البشر لا ينفك عن نوع زلة.

وخامسها: أن محمدا ﷺ لما قيل له: ولا تعجل ضاق قلبه وقال في نفسه: لولا أني أقدمت على ما لا ينبغي وإلا لما نهيت عنه، فقليل له: إن كنت فعلت ما نهيت عنه فإنما فعلته حرصا منك على العبادة، وحفظا لأداء الوحي وإن أباك أقدم على ما لا ينبغي للتساهل وترك التحفظ فكان أمرك أحسن من أمره، أما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا آلَ آدَمَ مِنْ قَبْلُ﴾، فلا شك أن المراد بالعهد أمر من الله تعالى أو نهي منه، كما يقال في أوامر الملوك

(١) الآية: رقم ١١٣ من سورة طه.

(٢) الآية: رقم ١١٤ من سورة طه.

(٣) الآية: رقم ١١٤ من سورة طه.

ووصاياهم أشار الملك إليه وعهد إليه.

قال المفسرون: عهدنا إليه أن لا يأكل من الشجرة ولا يقربها، وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، وجوه.

أحدها: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد في القرآن.

وثانيها: قال ابن عباس: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، أن يأكل من الشجرة عهدنا إليه أن لا يأكل منها.

وثالثها: أي: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، محمد ﷺ والقرآن وهو قول الحسن، أما قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ فقد تكلمنا فيه على سبيل الاستقصاء في سورة البقرة، ونعيد هاهنا منه شيئاً قليلاً، وفي النسيان قولان: أحدهما: المراد ما هو نقيض الذكر، وإنما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة في الضبط حتى تولد منه النسيان، وكان الحسن رحمه الله يقول: والله ما عصي قط إلا بنسيان.

والثاني: أن المراد بالنسيان الترك وأنه ترك ما عهد إليه من الاحتراز عن الشجرة وأكل من ثمرتها، وقرئ: فُنسي، أي: فَنسَاهُ الشيطان، وعلى هذا التقدير يحتمل أن يقال: أقدم على المعصية من غير تأويل، وأن يقال: أقدم عليها مع التأويل، والكلام فيه قد تقدم في سورة البقرة، وأما قوله: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾، ففيه أبحاث:

البحث الأول: الوجود يجوز أن يكون بمعنى: العلم، ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾، وأن يكون نقيض العدم كأنه قال: وعدمنا له عزمًا.

البحث الثاني: العزم: هو التصميم والتصلب، ثم قوله: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾، يحتمل: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾، على القيام على المعصية فيكون إلى المدح أقرب، ويحتمل أن يكون المراد: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾، على ترك المعصية، أو: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾، على التحفظ والاحتراز عن الغفلة، أو: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾، على الاحتياط في كيفية الاجتهاد إذا قلنا: إنه عليه السلام إنما أخطأ بالاجتهاد.

وأما قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾، فهذا يشتمل على مسائل: إحداها: أن المأمورين كل الملائكة أو بعضهم، وثانيتهما: أنه ما معنى السجود.

وثالثتها: أن إبليس هل كان من الملائكة أم لا؟ وإن لم يكن فكيف صح الاستثناء وبأي شيء صار مأمورا بالسجود؟ ورابعتها: أن هذا يدل على أن آدم عليه السلام أفضل من محمد أم لا؟ وخامستها: أن قوله في صفة إبليس أنه أبى كيف لزم الكفر من ذلك الإباء وأنه هل كان كافرا ابتداء أو كفر بسبب ذلك.

واعلم أن هذه المسائل مرت على سبيل الاستقصاء في سورة البقرة.

أما قوله: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ ففيه سؤالات: السؤال الأول: ما سبب تلك العداوة؟ والجواب: من وجوه: أحدها: أن إبليس كان حسودا فلما رأى آثار نعم الله تعالى في حق آدم عليه السلام حسده فصار عدوا له.

وثانيها: أن آدم عليه السلام كان شابا عالما لقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، وإبليس كان شيخا جاهلا لأنه أثبت فضله بفضيلة أصله وذلك جهل، والشيخ الجاهل أبدا يكون عدوا للشباب العالم.

وثالثها: أن إبليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب فبين أصليهما عداوة فبقيت تلك العداوة.

السؤال الثاني: لم قال: ﴿فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾، مع أن المخرج لهما من الجنة هو الله تعالى.

الجواب: لما كان بوسوسته هو الذي فعل ما ترتب عليه الخروج صح ذلك.

السؤال الثالث: لم أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء مع اشتراكهما في الفعل.

الجواب: من وجهين: أحدهما: أن في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم كما أن في ضمن سعادته سعادتهم فاخص الكلام بإسناده إليه دونها مع المحافظة على رعاية الفاصلة.

الثاني: أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة، وروي أنه: أهبط إلى آدم ثور أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه.
أما قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۚ﴾ (١٣٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ۚ، ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ: (وأنت) بالفتح والكسر ووجه الفتح العطف على أن لا تجوع فيها، فإن قيل: أن لا تدخل على (أن) فلا يقال (أن أن) زيدا منطلق والواو نائبة عن (أن) وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها؟ قلنا: الواو لم توضع لتكون أبدا نائبة عن (أن)، إنما هي نائبة عن كل عامل، فلما لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق خاصة كان لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع (أن وأن).

المسألة الثانية: الشبع والري والكسوة والاكنتان في الظل هي الأقطاب التي يدور عليها أمر الإنسان، فذكر الله تعالى حصول هذه الأشياء له في الجنة من غير حاجة إلى الكسب والطلب وذكرها بلفظ النفي لأضدادها التي هي الجوع والعري والظما والضحي ليطرق سمعه شيئا من أصناف الشقوة التي حذر منها حتى يبالغ في الاحتراز عن السبب الذي يوقعه فيها، وهذه الأشياء كلها كأنها تفسير الشقاء المذكور في قوله: ﴿فَتَشْقَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُمْ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۚ﴾ (١٣٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لُهُمَا سَوْءٌ تُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن رَّرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُ، فَغَوَىٰ ۚ ﴿١٣١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۚ.

واعلم أنه سبحانه بين أنه عظم آدم ﷺ بأن جعله مسجودا للملائكة، وبين أنه عرفه

شدة عداوة إبليس له ولزوجته، وأنه لعداوته يدعوهم إلى المعصية التي إذا وقعت زالت تلك النعم بأسرها، ثم إنه مع ذلك اتفق منه ومن حواء الإقدام على الزلة ما اتفق، والعجب ما روي عن أبي أمامة الباهلي قال: (لو أن أحلام بني آدم إلى قيام الساعة وضعت في كفة ميزان ووضع حلم آدم في الأخرى لرجح حلمه بأحلامهم)^(١)، ولكن المكادحة مع قضاء الله تعالى ممتعة، واعلم أن واقعة آدم عجيبة وذلك لأن الله تعالى رغبه في دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله: ﴿فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۚ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۚ ۝١٣٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ۚ﴾، ورغبه إبليس أيضا في دوام الراحة بقوله: ﴿هَلْ أَذُكَّ عَلَىٰ شَجَرَةٍ مُّغْدِرٍ ۚ﴾، وفي انتظام المعيشة بقوله: ﴿وَمُلْكٌ لَا يَبْلَىٰ ۚ﴾، فكان الشيء الذي رغب الله آدم فيه هو الذي رغبه إبليس فيه إلا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة وإبليس وقفه على الإقدام عليها، ثم إن آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومرييه أعلمه بأن إبليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه لللعنة بسبب عداوته، كيف قبل في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بكمال عداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمربي.

ومن تأمل في هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الأمر أن هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه، وأن الدليل وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدره.

وأما قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾، فقد تقدم في سورة البقرة أنه كيف وسوس، وبماذا وسوس.

فإن قيل: كيف عدى وسوس تارة (باللام) في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، وأخرى: (بالي)؟.

(١) الحديث: أورده الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره ج ١٨ ص ٣٨٥، والإمام الرازي في تفسيره ج ٢٢ ص ١٢٦.

قلنا قوله: ﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا﴾، معناه: لأجله، وقوله: (فوسوس إليه)، معناه: أنهى إليه الوسوسة كقوله حدث له وأسر إليه ثم بين أن تلك الوسوسة كانت بتطميعة في أمرين: أحدهما: قوله: ﴿هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾، أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود لأن من أكل منها صار مخلدا بزعمه.

الثاني: قوله: ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبَلَى﴾، أي: من أكل من هذه الشجرة دام ملكه، قال القاضي: ليس في الظاهر أن آدم عليه السلام قبل ذلك منه بل لو وجدت هذه الوسوسة حال كون آدم عليه السلام نبيا لاستحال أن يكون آدم عليه السلام قبل ذلك منه، لأنه لا بد وأن تحصل بين حال التكليف وحال المجازاة فترة بالموت، وبالمعنى: فأدم عليه السلام لما كان نبيا امتنع أن لا يعلم ذلك.

قلنا: لا نسلم بأنه لا بد من حصول هذه الفترة بين حال التكليف وحال المجازاة، ولم لا يجوز أن يقال: لا حاجة إلى الفترة أصلا، وإن كان ولا بد فيكفي حصول الفترة بغشي أو نوم خفيف.

ثم إن كان ولا بد من حصول الفترة بالموت فلم قلت: النبي لا بد وأن يعلم ذلك، أليس قوم منكم يقولون إن موسى عليه السلام إنما سأل الرؤية لأنه ما كان يعرف امتناعها على الله تعالى فإذا جاز ذلك الجهل فلم لا يجوز هذا الجهل، ثم ما الدليل على أن آدم عليه السلام كان نبيا في ذلك الوقت فإن مذهبنا أن واقعة الزلة إنما حصلت قبل رسالته لا بعدها.

ثم إن الذي يدل على أن آدم عليه السلام قبل ذلك قوله تعالى عقيب ذكر الوسوسة: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾، وهذا الترتيب مشعر بالعلية كقولهم: (زنى ماعز فرجم)، (وسها رسول الله فسجد)، فإن هذه الفاء تدل على أن الرجم كالمسبب للزنا والسجود كالمسبب للسهو فكذلك هاهنا يجب أن يكون الأكل كالمعلل باستماع قوله: ﴿هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبَلَى﴾، وإنما يحصل هذا التعليل لو قبل آدم ذلك منه، فإنه لو رد قوله لما أقدم على الأكل بناء على قوله، فثبت أن آدم عليه السلام قبل ذلك من إبليس ثم إنه سبحانه بين أنها لما أكلتا

بدت لهما سوآتهما، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (عريا من النور الذي كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما)^(١)، وإنما جمع فقيل: سوآتهما كما قال: ﴿صَفَتْ قُلُوبُكُمَا﴾^(٢).

فإن قيل: هل كان ظهور سوآتهما كالجزء على معصيتهما، قلنا: لا شك أن ذلك كالمعلق على ذلك الأكل، لكن يحتمل أن لا يكون عقابا عليه، بل إنما ترتب عليه لمصلحة أخرى. أما قوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، ففيه أبحاث:

البحث الأول: قال صاحب الكشف: طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل وأخذ وأنشأ وحكمها حكم كاد في وقوع الخبر فعلا مضارعا وبينها وبينه مسافة قصيرة، وهي لل شروع في أول الأمر، وكاد لمقاربتة والدنو منه.

البحث الثاني: قرئ: يخصفان للتكثير والتكرير من خصف النعل، وهو أن يخرز عليها الخصاف أي يلزقان الورقة على سوآتهما للستر وهو ورق التين، أما قوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾، فمن الناس من تمسك بهذا في صدور الكبيرة عنه من وجهين: الوجه الأول: أن العاصي اسم للذم فلا ينطلق إلا على صاحب الكبيرة، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يَدْخُلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(٣)، ولا معنى لصاحب الكبيرة إلا من فعل فعلا يعاقب عليه.

والوجه الثاني: أن الغواية والضلالة اسمان مترادفان والغى ضد الرشد ومثل هذا الاسم لا يتناول إلا الفاسق المنهمك في فسقه.

أجاب قوم عن الكلام الأول فقالوا: المعصية مخالفة الأمر، والأمر قد يكون بالواجب والندب فإنهم يقولون: أشرت عليه في أمر ولده في كذا فعصاني، وأمرته بشرب الدواء

(١) الحديث: أورده ابن عادل والألوسي وغيرهما في التفاسير.

(٢) الآية: رقم ٤ من سورة التحريم.

(٣) الآية: رقم ٤١ من سورة النساء.

فعصاني، وإذا كان الأمر كذلك لم يمتنع إطلاق اسم العصيان على آدم لا لكونه تاركا للواجب بل لكونه تاركا للمندوب، فأجاب المستدل عن هذا الاعتراض: بأنا بينا أن ظاهر القرآن يدل على أن العاصي مستحق للعقاب والعرف يدل على أنه اسم ذم، فوجب تخصيص اسم العاصي بتارك الواجب، ولأنه لو كان تارك المندوب عاصيا لوجب وصف الأنبياء بأسرهم بأنهم عصاة في كل حال لأنهم لا ينفكون من ترك المندوب، فإن قيل: وصف تارك المندوب بأنه عاص مجاز والمجاز لا يطرد، قلنا: لما سلمت كونه مجازا فالأصل عدمه، أما قوله: أشرت عليه في أمر ولده في كذا فعصاني وأمرته بشرب الدواء فعصاني، قلنا: لا نسلم أن هذا الاستعمال مروي عن العرب،

ولئن سلمنا ذلك ولكنهم إنما يطلقون ذلك إذا جزموا على المستشير بأنه لا بد وأن يفعل ذلك الفعل وأنه لا يجوز الإخلال بذلك الفعل وحيثئذ يكون معنى الإيجاب، حاصلًا وإن لم يكن الوجوب حاصلًا، وذلك يدل على أن لفظ العصيان لا يجوز إطلاقه إلا عند تحقق الإيجاب، لكننا أجمعنا على أن الإيجاب من الله تعالى يقتضي الوجوب، فيلزم أن يكون إطلاق لفظ العصيان على آدم عليه السلام إنما كان لكونه تاركا للواجب، ومن الناس من سلم أن الآية تدل على صدور المعصية منه لكنه زعم أن المعصية كانت من الصغائر لا من الكبائر، وهذا قول عامة المعتزلة وهو أيضا ضعيف، لأننا بينا أن اسم العاصي اسم للذم، ولأن ظاهر القرآن يدل على أنه يستحق العقاب وذلك لا يليق بالصغيرة، وأجاب أبو مسلم الأصفهاني بأنه عصى في مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف وكذلك القول في غوى، وهذا أيضا بعيد لأن مصالح الدنيا تكون مباحة، ومن يفعلها لا يوصف بالعصيان الذي هو اسم للذم ولا يقال: ﴿فَدَلَّهُمَا بِقُرْورٍ﴾، وأما التمسك بقوله تعالى: فغوى، فأجابوا عنه من وجوه: أحدها: أنه خاب من نعيم الجنة، وذلك لأنه لما أكل من تلك الشجرة ليصير ملكه دائما ثم لما أكل زال فلما خاب سعيه وما نجح قيل إنه غوى، وتحقيقه أن الغي ضد الرشd، والرشd هو أن يتوصل بشيء إلى شيء يوصل إلى المقصود

فمن توصل بشيء إلى شيء فحصل له ضد مقصوده كان ذلك غيا.

وثانيها: قال بعضهم: غوى أي بشم من كثرة الأكل، قال صاحب الكشف: هذا وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسورة ما قبلها ألفا، فيقول في فني وبقي فنا وبقا، وهم بنو طيء فهو تفسير خبيث، واعلم أن الأولى عندي في هذا الباب والأحسم للشغب أن يقال: هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد شرحنا ذلك في سورة البقرة.

وها هنا بحث لا بد منه وهو: أن ظاهر القرآن وإن دل على أن آدم عليه السلام عصى وغوى لكن ليس لأحد أن يقول: إن آدم كان عاصيا غاويا، ويدل على صحة قولنا أمور: أحدها: قال العتبي: يقال لرجل قطع ثوبا وخاطه قد قطعه وخاطه، ولا يقال: خاط ولا خياط حتى يكون معاودا لذلك الفعل معروفابه، ومعلوم أن هذه الزلة لم تصدر عن آدم عليه السلام إلا مرة واحدة فوجب أن لا يجوز إطلاق هذا الاسم عليه.

وثانيها: أن على تقدير أن تكون هذه الواقعة إنما وقعت قبل النبوة، لم يجوز بعد أن قبل الله توبته وشرفه بالرسالة والنبوة، إطلاق هذا الاسم عليه، كما لا يقال لمن أسلم بعد الكفر إنه كافر بمعنى أنه كان كافرا، بل وبقتدير أن يقال: هذه الواقعة وقعت بعد النبوة لم يجوز أيضا أن يقال ذلك لأنه عليه السلام تاب عنها، كما أن الرجل المسلم إذا شرب الخمر أو زنى ثم تاب وحسنت توبته لا يقال له بعد ذلك إنه شارب خمر أو زان فكذا هاهنا.

وثالثها: أن قولنا: عاص وغاويوهم كونه عاصيا في أكثر الأشياء وغاويا عن معرفة الله تعالى ولم ترد هاتان اللفظتان في القرآن مطلقتين بل مقرونتين بالقصة التي عصي فيها، فكأنه قال: عصي في كيت وكيت وذلك لا يوهم التوهم الباطل الذي ذكرناه.

ورابعها: أنه يجوز من الله تعالى ما لا يجوز من غيره، كما يجوز للسيد في عبيده وولده عند معصيته من إطلاق القول ما لا يجوز لغير السيد في عبده وولده، أما قوله: ﴿ثُمَّ أَجْنَبَتْهُ رَبُّهُ﴾ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ، فالمعنى: ثم اصطفاه فتاب عليه أي عاد عليه بالعفو والمغفرة، وهداه

رشده حتى رجع إلى الندم والاستغفار وقبل الله منه ذلك، روي عن النبي ﷺ أنه قال: (لو جمع بكاء أهل الدنيا إلى بكاء داود كان بكاءه أكثر، ولو جمع كل ذلك إلى بكاء نوح ﷺ لكان بكاء نوح أكثر، وإنما سمي نوحا لنوحه على نفسه، ولو جمع كل ذلك إلى بكاء آدم ﷺ لكان بكاء آدم على خطيئته أكثر) (٢)، وقال وهب: إنه لما كثر بكاءه أوحى الله تعالى إليه وأمره بأن يقول: (لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين)، فقالها آدم ﷺ ثم قال قل: (لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين)، ثم قال قل: (لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم)، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هذه الكلمات هي التي تلقاها آدم ﷺ من ربه.

قوله: ﴿قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٣٢﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾.

اعلم أن على أول هذه الآية سؤالاً وهو أن قوله: اهبطا، إما أن يكون خطاباً مع شخصين أو أكثر فإن كان خطاباً لشخصين فكيف قال بعده: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، وهو خطاب الجمع وإن كان خطاباً لأكثر من شخصين، فكيف قال: ﴿أَهْطَا﴾ وذكروا في جوابه وجوها: أحدها: قال أبو مسلم: الخطاب لآدم ومعه ذريته ولإبليس ومعه ذريته فلكونهما جنسين صح قوله: ﴿أَهْطَا﴾، ولأجل اشتغال كل واحد من الجنسين على الكثرة، صح قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

ثانيها: قال صاحب الكشاف: لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلاً للبشر والسبب اللذين منهما تفرعوا جعلاً كأنهما البشر أنفسهم فخطباً مخاطبتهم فقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾، على لفظ الجماعة.

أما قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، فقال القاضي: يكفي في توفية هذا الظاهر حقه أن يكون إبليس والشياطين أعداء للناس والناس أعداء لهم، فإذا انضاف إلى ذلك عداوة بعض الفريقين لبعض لم يمتنع دخوله في الكلام، وقوله: ﴿فَأَمَّا يَا نِينَكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هَدَايَ﴾، فيه دلالة على أن المراد الذرية، وقد اختلفوا في المراد بالهدى، فقال بعضهم: الرسل، وبعضهم قال: الآخرة والأدلة، وبعضهم قال: القرآن، والتحقيق أن الهدى عبارة عن الدلالة فيدخل فيه كل ذلك، وفي قوله: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾، دلالة على أن المراد بالهدى الذي ضمن الله على اتباعه ذلك اتباع الأدلة، واتباعها لا يتكامل إلا بأن يستدل بها وبأن يعمل بها، ومن هذا حاله فقد ضمن الله تعالى له أن لا يضل ولا يشقى، وفيه ثلاثة أوجه: أحدها: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.

وثانيها: لا يضل ولا يشقى في الآخرة لأنه تعالى يهديه إلى الجنة ويمكنه فيها.

وثالثها: لا يضل ولا يشقى في الدنيا، فإن قيل: المتبع لهدى الله قد يلحقه الشقاء في الدنيا، قلنا: المراد لا يضل في الدين ولا يشقى بسبب الدين فإن حصل الشقاء بسبب آخر فلا بأس، ولما وعد الله تعالى من يتبع الهدى أتبعه بالوعيد فيمن أعرض، فقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾، والذكر: يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى على ما تقدم بيانه ويحتمل: أن يراد به الأدلة، وقوله: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ فالضنك: أصله الضيق والشدة وهو مصدر، ثم يوصف به فيقال: منزل ضنك، وعيش ضنك، فكأنه قال: معيشة ذات ضنك، واعلم أن هذا الضيق المتوعد به، إما أن: يكون في الدنيا، أو: أعمى وقد كنت بصيرا.

أقوال المفسرين في آيات القصة

في سورة (ص)

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۖ﴾ (٧١) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۖ﴾ (٧٢) ﴿فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۖ﴾ (٧٣) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۖ﴾ (٧٤) ﴿قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيدِي ۖ أَنتَ أَكْبَرُ ۚ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۖ﴾ (٧٥) ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۖ﴾ (٧٦) ﴿قَالَ فَأَخْرِجْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ ۖ وَإِن عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ ۚ أَلَدِينِ ۖ﴾ (٧٨) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۖ﴾ (٧٩) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۖ﴾ (٨٠) ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۖ﴾ (٨١) ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُنَّ أَجْمَعِينَ ۖ﴾ (٨٢) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۖ﴾ (٨٣) (١).

١- قال الإمام الطبري رحمه الله: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾، من صلة قوله: ﴿إِذْ يُخَوِّصُونَ﴾ (؟)، وتأويل الكلام: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَاِئِكَةِ إِذْ يُخَوِّصُونَ﴾ حين قال ربك يا محمد: ﴿لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، يعني: بذلك خلق آدم عليه السلام.

وقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، يقول تعالى ذكره: فإذا سويت خلقه، وعدلت صورته، ونفخت فيه من روحي، قيل: عني بذلك: ونفخت فيه من قدرتي.

فعن الضحاك: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، قال: من قدرتي، ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ يقول: فاسجدوا له وخرّوا له سجدًا.

وقوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، يقول تعالى ذكره: فلما سوى الله خلق ذلك

(١) الآيات: رقم ٧١-٨٣ من سورة (ص).

البشر، وهو آدم عليه السلام، ونفخ فيه من روحه، سجد له الملائكة كلهم أجمعون، يعني بذلك: الملائكة الذين هم في السموات والأرض، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾، يقول: غير إبليس، فإنه لم يسجد، استكبر عن السجود له تعظماً وتكبّراً، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يقول: وكان بتعظيمه ذلك، وتكبره على ربه ومعصيته أمره، ممن كفر في علم الله السابق، فجحد ربوبيته، وأنكر ما عليه الإقرار له به من الإذعان بالطاعة.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قال ابن عباس: كان في علم الله من الكافرين. قوله تعالى: ﴿قَالَ إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ.

يقول تعالى ذكره: ﴿قَالَ﴾ الله لإبليس، إذ لم يسجد لأدم، وخالف أمره: ﴿إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ يقول: أي شيء منعك من السجود ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ يقول: لخلق يدي، يخبر تعالى ذكره بذلك أنه خلق آدم بيديه.

وقوله: ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ يقول لإبليس: تعظمت عن السجود لأدم، فتركت السجود له استكباراً عليه، ولم تكن من المتكبرين العالين قبل ذلك، ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ يقول: أم كنت كذلك من قبل ذا علو وتكبر على ربك، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ﴾، يقول جل ثناؤه: قال إبليس لربه: فعلت ذلك فلم أسجد للذي أمرني بالسجود له لأني خير منه وكنت خيراً لأنك خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار تأكل الطين وتحرقه، فالنار خير منه، يقول: لم أفعل ذلك استكباراً عليك، ولا لأني كنت من العالين، ولكني فعلته من أجل أني أشرف منه، وهذا تقرع من الله للمشركين الذين كفروا بمحمد، وأبوا الانقياد له، واتباع ما جاءهم به من عند الله استكباراً عن أن يكونوا تبعاً لرجل منهم

حين قالوا: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾^(١)، و﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾^(٢)، فقصّ عليهم تعالى قصة إبليس وإهلاكه باستكباره عن السجود لآدم بدعواه أنه خير منه، من أجل أنه خلق من نار، وخلق آدم من طين، حتى صار شيطاناً رجيماً، وحققت عليه من الله لعنته، محذّراًهم بذلك أن يستحقوا باستكبارهم على محمد، وتكذيبهم إياه فيما جاءهم به من عند الله حسداً، وتعظماً من اللعن والسخط ما استحقه إبليس بتكبره عن السجود لآدم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾^(٣) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾.

يقول تعالى ذكره لإبليس: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا﴾ يعني: من الجنة، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ يقول: فإنك مرجوم بالقوم، مشتوم ملعون، فعن قتادة، قوله: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ قال: والرجيم: اللعين.

وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ يقول: وإن لك طردي من الجنة، ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ يعني: إلى يوم مجازاة العباد ومحاسبتهم، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، يقول تعالى ذكره: قال إبليس لربه: ربّ فإذ لعنتني، وأخرجتني من جنتك ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾ يقول: فأخّرني في الأجل، ولا تهلكني، ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، يقول: إلى يوم تبعث خلقك من قبورهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(٣) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾.

يقول تعالى ذكره: قال الله لإبليس: فإنك ممن انظرته إلى يوم الوقت المعلوم، وذلك الوقت الذي جعله الله أجلاً لهلاكه، وقد بيّنت وقت ذلك فيما مضى على اختلاف أهل

(١) الآية: رقم ٨ من سورة (ص).

(٢) الآية: رقم ٣ من سورة الأنبياء.

العلم فيه، وقال: ﴿فِعِزَّكَ لَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يقول تعالى ذكره: قال إبليس: فبعزتك: أي بقدرتك وسلطانك وقهرك ما دونك من خلقك ﴿لَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يقول: لأضلن بني آدم أجمعين، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾، يقول: إلا من أخلصته منهم لعبادتك، وعصمته من إضلالي، فلم تجعل لي عليه سبيلا فإني لا أقدر على إضلاله وإغوائه. فغن قتادة: ﴿قَالَ فِعِزَّكَ لَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قال: علم عدو الله أنه ليست له عزة.

٢- وقال الإمام الماتريدي رحمه الله: وقوله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾، ظاهر هذا أن يكون لا على القول منه لهم، ولكن على الخبر أنه كان ما ذكر، والله أعلم.

ثم ذكر الذي خلق منه آدم على أوصاف مختلفة: مرة ذكر أنه خلق من طين، ومرة من تراب، ومرة من حمأ مسنون، ومرة كالصلصال، ومرة كالفخار، ومرة لازب وغيره على اختلاف ما ذكر؛ فجائز أن يكون كل وصف من ذلك قد كان وصف عن حال، كان تراباً، ثم صار طيناً ثم ما ذكر ووصف، والله أعلم.

وقوله ﷻ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، إضافة الروح إلى نفسه كإضافة خلق من خلأقه إليه؛ إذ الروح خلق من خلأقه كسائر الخلأق.

وقوله ﷻ: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَجِدِينَ﴾، لولا صرف أهل التأويل سجود الملائكة لآدم إلى حقيقة السجود وإلا كنا نصرفه لآخر: إلى الخضوع له والاستسلام، كما أحوج الملائكة إلى معرفة هذه الأسماء إلى آدم وبه عرفوها حيث قال ﷻ: ﴿يَتَقَادَّمُ أَتْيَتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ﴾، لكن صرف أهل التأويل سجود الملائكة إلى حقيقة السجود له جائز؛ لأنهم ممتحنون بالأمر والنهي وقد بينا ذلك فيما تقدم.

ثم استثنى إبليس من الملائكة وأخبر أنه استكبر وأبي أن يسجد له حيث قال ﷻ: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٦﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

على قول من يقول: إن إبليس كان من الملائكة، فلما أبى السجود، خذله ووكله إلى نفسه صار كافراً؛ ليعلم أن كل أحد وإن عظم قدره وجلت منزلته يحتمل خلاف ما هو عليه وضده، وأنه متى امتحنه بأمر فترك أمره؛ تكبراً أو استخفافاً خذله ووكله إلى أمره ونفسه فصار كافراً مخذولاً حقيراً؛ ليكونوا أبداً على حذر وفزع إلى الله ﷻ على ما أخبر من عظم قدر الملائكة عند الله وجليل منزلتهم عنده إذا خذلهم ووكلهم إلى أنفسهم صاروا كما صار إبليس، والله أعلم.

ثم قوله ﷻ: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: كان في علم الله أنه يكفر، أو: كان بمعنى صار من الكافرين إذ أبى السجود واستكبر؛ كقوله ﷻ لآدم: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، أي: تصيرا من الظالمين، والله أعلم.

وقوله ﷻ: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾، قد ذكرنا فيما تقدم في غير موضع أن تخصيص إضافة الشيء الواحد إلى الله ﷻ يخرج تَعْظِيمَ ذلك الواحد وذلك الفرد؛ كقوله: بيت الله ومساجد الله ورسول الله وولي الله وأشياء ذلك، وخص هذه الأشياء بالإضافة إليه وإن كانت البقاع كلها والخلق كله له على التعظيم لذلك، فعلى ذلك يخرج إضافة خلق آدم إلى نفسه مخرج تعظيم آدم حيث قال: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾، وإن كان جميع الخلائق هو خلقهم، ويخرج إضافة كلية الأشياء إلى الله وكلية الخلائق إليه مخرج تعظيم الرب والمدح له؛ نحو قوله ﷻ: ﴿خَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(١)، ورزاق، يخلق منشأ العالم ومبدأه، وهو على كل شيء قدير، مالك الملك، وغير ذلك على ما ذكرنا فيما تقدم، والله أعلم.

وقوله ﷻ: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾، معناه والله أعلم: أستكبرت للحال عندما أبيت السجود له، أم كنت في اعتقادك من العالين أي المستكبرين؟

(١) الآية: رقم ١٠٢ من سورة الأنعام.

ويحتمل قوله ﷻ: ﴿أَمْ كُنْتَ﴾: أم صرت من العالين، أي: استكبرت وصرت من العالين على ما في قوله ﷻ: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: صار من الكافرين.

ثم حرفُ الشكِّ والاستفهام من الله قد ذكرنا أنه على الإيجاب والقطع كأنه قال: بلى كنت في علم الله أنك تكفر، أو يقول: صرت من العالين، أي: ممن يطلب العلو؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^(١)، وقوله ﷻ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، ظن إبليس عليه لعنة الله أن النار لما كان من طبعها الارتفاع والعلو ومن طبع الطين التسفل والانحدار أن الذي طبعه الارتفاع والعلو خير من الذي طبعه التسفل والانحدار، لذلك قال والله أعلم: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، أو: لما رأى أن إصلاح الأشياء كلها ونضجها بالنار فقال هذا عند ذلك.

لكن لو نظر الملعون وحقق النظر، لعلم أن الطين خير من النار؛ لأنه من الأرض، والأرض كالأصل والأم غيرها، لأن الأشياء يكون صلاحها ونضجها بالنار وأول بدئها من الأرض، كالابن من الأم والوالدة على ما ذكرنا، والله الموفق.

ثم كفره بإبائه السجود له لما لم ير أمر الله له بسجود من هو خير وأعلى لمن دونه حكمة وحقاً، فكفر لما رأى أنه وضع الأمر في غير موضع الأمر، والله أعلم.

وقوله ﷻ: ﴿قَالَ فَخَرِّجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾، قَالَ بَعْضُهُمْ: أي: اخرج من الجنة، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أي: اخرج من السماء إلى الأرض، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أي: اخرج من الأرض إلى جزيرة البحر، والله أعلم بذلك، وليس لنا أن نتكلف القطع على القول فيه: أن أمره بالخروج من كذا، وقد عرف اللعين أنه بماذا أمره بالخروج منها.

ثم ذكر مرة: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا﴾، ومرة قال: ﴿فَأَهْبِطْ مِنْهَا﴾، ونحو ذلك من الألفاظ المختلفة، وكذلك ما ذكر مرة قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدْنِي﴾، وقال في موضع آخر:

(١) الآية: رقم ٤ من سورة القصص.

﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، وقال في موضع: ﴿قَالَ يَتْلِيَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، ونحو ذلك على الألفاظ المختلفة، فذلك كله يدل على أن ليس على الناس حفظ الألفاظ والحروف، وكذلك ما ذكر في القصص على اختلاف الألفاظ مكررة معادة.

وقوله ﷻ: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾، أي: لعين، كأنه قال: فإنك لعين على ألسن الناس، ليس يذكره أحد من أعدائه وأتباعه وأوليائه إلا وقد لعنه.

وقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾، كانت اللعنة عليه إلى يوم الدين هي: خذلانه وطرده عن رحمته ودينه لما علم أنه لا يعود إلى اختيار توحيده وطاعته أبداً، وإلا كان عليه لعنته في الدنيا والآخرة: فأما في الدنيا ما ذكرنا من خذلانه وتركه في العمر، وأما في الآخرة مطرود عن جنته، والله أعلم.

ثم سأل ربه أن ينظره إلى يوم يبعثون فأجاب حيث قال ﷻ: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾، وإنما انظره والله أعلم لأنه يختار الكفر والخلاف له أبداً.

ثم قوله ﷻ: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾، هو يوم اختلف فيه:

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾: هو يوم البعث، إلى ذلك انظره على ما سبق منه السؤال على النظرة إلى يوم البعث حيث قال: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾: هو النفخة الأولى.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لم يبين له ذلك الوقت، ولذلك ذكر منه الخوف، وهو ما قال ﷻ: ﴿قَالَ إِنِّي بِرَبِّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، ولو كان بين له الوقت المعلوم لكان لا يخاف دون ذلك الوقت، ولكنه يأمن فدل خوفه أنه لم يبين له ذلك وهو معلوم عند الله، والله أعلم.

(١) الآية: رقم ١٦ من سورة الحشر.

وقوله: ﴿فَعَرَّزَكَ لَأَغْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ

أَتَبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، كأنه يقول والله أعلم: إن عبادي ليس لك عليهم سلطان أن تغوهم

إلا من كان في علمه أنه يختار الغواية ويؤثر اتباعه؛ فيكون له عليهم سلطان الإغواء، فأما

من كان في علم الله أنه يختار الإيمان والتوحيد، فلا سبيل لك عليهم، والله أعلم.

ثم قال بعضهم: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾، للتوحيد، فإن كان ذلك فيكون قوله تعالى:

﴿لَأَغْوَيْنَهُمْ﴾، يكون كفرا.

وقال بعضهم: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾، من الهلاك، فإن كان ذلك فيكون قوله: ﴿لَأَغْوَيْنَهُمْ﴾،

أي: لأهلكنهم.

وقال بعضهم: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾، من كل ذنب وكل معصية، لكن الوجهين الأولين

أشبه وأقرب، والله أعلم.

٣_ وقال الإمام السمرقندي رحمه الله: ثم قال ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾،

يعني: آدم عليه السلام، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾، يعني: جمعت خلقه، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾،

يعني: وجعلت الروح فيه، ﴿فَقَعُوا لَهُ سَجْدِينَ﴾، يعني: اسجدوا له، ﴿فَسَجَدَ الْمَلَكِكَةُ كُلُّهُمْ

أَجْمَعُونَ﴾، يعني: سجدوا كلهم دفعة واحدة، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أبي عن السجود، ﴿اسْتَكْبَرَ

وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، يعني: وصار من الكافرين، ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾، يعني: يا خبيث ما

مَنَعَكَ ﴿أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾، يعني: الذي خلقته بيدي، قال بعضهم: نؤمن بهذه الآية

ونقرؤها، ولا نعرف تفسيرها، يعني: قوله: ﴿يَدَيَّ﴾، يعني: الذي خلقت بيدي، وقال

بعضهم: تفسيرها كما قال الله تعالى: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾، ولا نفسر اليد.

ونقول: يد لا كالأيدي، وهذا قول أهل السنة والجماعة.

وقال بعضهم: نفسرها بما يليق من صفات الله تعالى، يعني: خلقه بقدرته، وقوته،

وإرادته.

فإن قيل: قد خلق الله ﷻ سائر الأشياء بقوته، وقدرته، وإرادته، فما الفائدة في التخصيص هنا؟ قيل له:

قد ذكر اليد في خلق سائر الأشياء أيضاً، وهو قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾^(١)، ويقال: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾، أي: بقوتي، قوة العلم، وقوة القدرة، ويقال: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾، أي: بهاء السماء وتراب الأرض، كقوله: ﴿ءَادَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾^(٢)، وكما قال عليه الصلاة والسلام: (خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْخَلْقَ مِنْ مَاءٍ)^(٣)، وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: (أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل حرف منها ظهر وبطن)^(٤)، وكذلك الأخبار قد جاء فيها أيضاً ما له ظهر وبطن.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لَا تَقُولُوا فَلَانٌ قَبِيحٌ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ)^(٥)، ومن قال: إن الله تعالى صورة كصورة آدم فهو كافر، ولكن المعنى في الخبر، كما روي عن بعض المتقدمين أنه قال: إن الله تبارك وتعالى اختار من الصور صورة، وخلق آدم ﷺ بتلك الصورة، فمن ذلك قال: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ)^(٦)، أي: على تلك الصورة التي اختارها الله.

روى شبل عن ابن كثير أنه قرأ: ﴿يَدَيَّ اسْتَكَبَّرْتَ﴾ موصولة الألف، وقراءة العامة بقطع الألف على الاستفهام، بدليل قوله ﷻ: ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِينَ﴾، ومن قرأ موصولة،

(١) الآية: رقم ١٦ من سورة الحشر.

(٢) الآية: رقم ١٦ من سورة الحشر.

(٣) الحديث: رواه الترمذي (٢٥٢٦)، قال الشيخ الألباني في "صحيح الترمذي": صحيح دون قوله (مِمَّ خُلِقَ الْخَلْقُ).

(٤) الحديث: روى ابن حبان في "صحيحه" (٧٥) من طريق أبي إسحاق الهمداني عن أبي الأحوص عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه.

(٥) الحديث: صحيح رواه مسلم بهذه الصيغة: (إذا قاتل أحدكم أخاه فليجنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته).

(٦) الحديث: سبق تخريجه أعلاه.

فهو على معنى الوجوب.

وتكون ﴿أَمْ﴾ بمعنى: بل، أَسْتَكْبَرْتَ يعني: تعظمت عن السجود أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ
يعني: بل كنت من العالين، من المخالفين لأمري.

قال إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

قوله ﷻ: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَچِيمٌ﴾ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ وقد ذكرناه من قبل،
﴿قَالَ فِعْزِكْ لَأَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾.

٤- وقال الإمام الزمخشري رحمه الله: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾،
فإن قلت: كيف صح أن يقول لهم: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا﴾، وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به
قبل؟ قلت: وجهه أن يكون قد قال لهم: إني خالق خلقا من صفته كيت وكيت، ولكنه
حين حكاه اقتصر على الاسم، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾، فإذا أتممت خلقه وعدلته، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، وأحييته وجعلته حساسا متنفسا، ﴿فَقَعُوا﴾، فخرّوا، كل: للإحاطة، وأجمعون:
للاجتماع، فأفادا معا أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد، وأنهم سجدوا
جميعا في وقت واحد غير متفرّقين في أوقات.

فإن قلت: كيف ساغ السجود لغير الله؟ قلت: الذي لا يسوغ هو السجود لغير الله
على وجه العبادة، فأما على وجه التكرمة والتبجيل فلا ياباه العقل، إلا أن يعلم الله فيه
مفسدة فينهى عنه.

فإن قلت: كيف استثنى إبليس من الملائكة وهو من الجن؟ قلت: قد أمر بالسجود
معهم فغلبوا عليه في قوله، ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾، ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم
استثناء متصلا، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أريد وجود كفره ذلك الوقت وإن لم يكن قبله

كافرا، لأن كان مطلق في جنس الأوقات الماضية، فهو صالح لأيا شئت، ويجوز أن يراد: وكان من الكافرين في الأزمنة الماضية في علم الله.

قوله تعالى: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِينَ﴾، فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾، قلت: قد سبق لنا أن ذا اليمين يباشر أكثر أعماله بيديه، فغلب العمل باليمين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما، حتى قيل في عمل القلب: هو مما عملت يداك، وحتى قيل ممن لا يدي له: يداك أوكتا، وفوك نفخ، وحتى لم يبق فرق بين قولك: هذا مما عملته، وهذا مما عملته يداك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلْتَ آيِدَيْنَا﴾، ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾؟ قلت: الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لآدم عليه السلام، واستنكف منه أنه سجد لمخلوق، فذهب بنفسه، وتكبر أن يكون سجوده لغير الخالق، وانضم إلى ذلك أن آدم مخلوق من طين وهو مخلوق من نار، ورأى للنار فضلا على الطين فاستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه في المنصب، وزلّ عنه أن الله سبحانه حين أمر به أعزّ عباده عليه وأقربهم منه زلفى وهم الملائكة، وهم أحق بأن يذهبوا بأنفسهم عن التواضع للبشر الضئيل، ويستنكفوا من السجود له من غيرهم، ثم لم يفعلوا وتبعوا أمر الله وجعلوه قدام أعينهم، ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له، تعظيما لأمر ربهم وإجلالا لخطابه: كان هو مع انحطاطه عن مراتبهم حرى بأن يقتدى بهم ويقتفى أثرهم، ويعلم أنهم في السجود لمن هو دونهم بأمر الله، أو غل في عبادته منهم في السجود له، لما فيه من طرح الكبرياء وخفض الجناح، فقيل له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾؟ أي: ما منعك من السجود لشيء هو كما تقول مخلوق خلفته بيدي، لا شك في كونه مخلوقا، امثالا لأمرى وإعظاما لخطايي كما فعلت الملائكة، فذكر له ما تركه من السجود مع ذكر العلة التي تشبث بها في تركه، وقيل له: لم تركته مع وجود هذه العلة، وقد أمرك الله به، يعنى: كان عليك أن تعتبر

أمر الله ولا تعتبر هذه العلة، ومثاله: أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم فيمتنع اعتبارا لسقوطه، فيقول له: (ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى على سقوطه)، يريد: هلا اعتبرت أمري وخطابي وتركت اعتبار سقوطه، وفيه: أنى خلقتة بيدي، فأنا أعلم بحاله، ومع ذلك أمرت الملائكة بأن يسجدوا له لداعي حكمة دعاني إليه: من إنعام عليه بالتكريمة السنية وابتلاء للملائكة، فمن أنت حتى يصرفك عن السجود له، ما لم يصرفني عن الأمر بالسجود له.

وقيل: معنى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَدَنِّي﴾، لما خلقت بغير واسطة.

وقرى: ﴿بَدَنِّي﴾، كما قرى: ﴿بِمُصْرِيحِكَ﴾، وقرى: بيدي، على التوحيد، ﴿مِنَ الْعَالِينَ﴾، ممن علوت وفقت، فأجاب بأنه من العالين حيث قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، وقيل: استكبرت الآن، أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين، ومعنى الهمزة: التقرير.

وقرى: استكبرت بحذف حرف الاستفهام، لأن أم تدل عليه، أو بمعنى: الإخبار، هذا على سبيل الأولى، أي: لو كان مخلوقا من نار لما سجدت له، لأنه مخلوق مثلي، فكيف أسجد لمن هو دوني لأنه من طين والنار تغلب الطين وتأكله، وقد جرت الجملة الثانية من الأولى وهي خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه في البيان والإيضاح.

قوله: ﴿قَالَ فَخَرَجْنَا مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٨﴾، ﴿مِنْهَا﴾، قيل: من الجنة، وقيل: من السماوات، وقيل: من الخلقة التي أنت فيها، لأنه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقتة، فاسودّ بعد ما كان أبيض، وقبح بعد ما كان حسنا، وأظلم بعد ما كان نورانيا.

والرجيم: المرحوم. ومعناه: المطرود، كما قيل له: المدحور والملعون، لأن من طرد رمى بالحجارة على أثره، والرجم: الرمي بالحجارة، أو لأن: الشياطين يرمجون بالشهب.

فإن قلت: قوله: ﴿لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾، كأن لعنة إبليس غايتها يوم الدين ثم تنقطع؟

قلت: كيف تنقطع وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِذْ مَوْذَنُ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(١)، ولكن المعنى: أن عليه اللعنة في الدنيا، فإذا كان يوم الدين اقترن له باللعنة ما ينسى عنده اللعنة، فكأنها انقطعت.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾، فإن قلت: ما الوقت المعلوم الذي أضيف إليه اليوم؟ قلت: الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى.

ويومه: اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه، ومعنى المعلوم: أنه معلوم عند الله معين، لا يستقدم ولا يستأخر.

قوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾، فَبِعِزَّتِكَ إقسام بعزة الله تعالى وهي سلطانه وقهره.

٥- وقال الإمام الرازي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، اعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر، وذلك لأن إبليس، إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر، والكفار إنما نازعوا محمدا ﷺ بسبب الحسد والكبر، فالله تعالى ذكر هذه القصة هاهنا ليصير سماعها زاجرا لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين والحاصل أنه تعالى رغب المكلفين في النظر والاستدلال، ومنعهم عن الإصرار والتقليد وذكر في تقريره أمورا أربعة: أولها: أنه نبأ عظيم فيجب الاحتياط فيه.

والثاني: أن قصة سؤال الملائكة عن الحكمة في تخليق البشر يدل على أن الحكمة الأصلية في تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبر.

الثالث: أن إبليس إنما خاصم آدم ﷺ لأجل الحسد والكبر، فيجب على العاقل أن

(١) الآية: رقم ٤٤ من سورة الأعراف.

يجتزئ عنها، فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات، واعلم أن هذه القصة قد تقدم شرحها في سور كثيرة، فلا فائدة في الإعادة إلا ما لا بد منه، وفيها مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾، سؤالات:

الأول: أن هذا النظم إنما يصح لو أمكن خلق البشر لا من الطين، كما إذا قيل: أنا متخذ سوارا من ذهب، فهذا إنما يستقيم لو أمكن اتخاذه من الفضة.

الثاني: ذكر هاهنا أنه خلق البشر من طين، وفي سائر الآيات ذكر أنه خلقه من سائر الأشياء كقوله تعالى في آدم إنه خلقه من تراب وكقوله: ﴿مِّنْ صَلَافٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، وكقوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾^(١).

الثالث: أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لما أخبر الملائكة بأنه: ﴿خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾، لم يقولوا شيئا، وفي الآية الأخرى وهي التي قال فيها: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، بين أنهم أوردوا السؤال والجواب فينبهما تناقض، والجواب عن الأول أن التقدير: كأنه سبحانه وصف لهم أولا أن البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية، فلما قال: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾، فكأنه قال: ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات، إنما أخلقه من الطين، والجواب عن الثاني: أن المادة البعيدة هو التراب، وأقرب منه الطين، وأقرب منه الحمأ المسنون، وأقرب منه الصلصال فثبت أنه لا منافاة بين الكل، والجواب عن الثالث: أنه في الآية المذكورة في سورة البقرة بين لهم أنه يخلق في الأرض خليفة، وبالآية المذكورة هاهنا بين أن ذلك الخليفة بشر مخلوق من الطين.

المسألة الثانية: قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، وهذا يدل على أن تخلق البشر لا يتم إلا بأمرين: التسوية أولا، ثم نفخ الروح ثانيا، وهذا حق لأن الإنسان مركب من جسد ونفس.

(١) الآية: رقم ٣٧ من سورة الأنبياء.

أما الجسد فإنه: إنما يتولد من المنى، والمنى إنما يتولد من دم الطمث وهو إنما يتولد من الأخلاط الأربعة، وهي إنما تتولد من الأركان الأربعة، ولا بد في حصول هذه التسوية من رعاية مقدار مخصوص لكل واحد منها، ومن رعاية كيفية امتزاجاتها وتركيباتها، ومن رعاية المدة التي في مثلها حصل ذلك المزاج الذي لأجله يحصل الاستعداد لقبول النفس الناطقة.

وأما النفس فإليها الإشارة بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، ولما أضاف الروح إلى نفسه دل على أنه جوهر شريف علوي قدسي، وذهبت الحلولية إلى أن كلمة: ﴿مِنْ﴾ تدل على التبعية، وهذا يوهم أن الروح جزء من أجزاء الله تعالى، وهذا غاية الفساد، لأن كل ما له جزء وكل، فهو مركب ويمكن الوجود لذاته ومحدث، وأما كيفية نفخ الروح: فاعلم أن الأقرب أن جوهر النفس عبارة عن أجسام شفافة نورانية، علوية العنصر، قدسية الجوهر، وهي تسري في البدن سريان الضوء في الهواء، وسريان النار في الفحم، فهذا القدر معلوم، أما كيفية ذلك النفخ فما لا يعلمه إلا الله تعالى.

المسألة الثالثة: الفاء في قوله: ﴿فَفَعَّلُوا لَهُ سَجِدِينَ﴾ تدل على أنه كما تم نفخ الروح في الجسد توجه أمر الله عليهم بالسجود، وأما أن المأمور بذلك السجود ملائكة الأرض، أو دخل فيه ملائكة السموات مثل جبريل وميكائيل، والروح الأعظم المذكور في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾^(١).

وقال بعض الصوفية: الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم، هم القوى النباتية والحيوانية الحسية والحركية، فإنها في بدن الإنسان خوادم النفس الناطقة، وإبليس الذي لم يسجد هو القوة الوهمية التي هي المنازعة لجوهر العقل، والكلام فيه طويل.

وأما بقية المسائل وهي: كيفية سجود الملائكة لآدم، وأن ذلك هل يدل على كونه

(١) الآية: رقم ٣٨ من سورة النبأ.

أفضل من الملائكة أم لا، وأن إبليس هل كان من الملائكة أم لا، وأنه هل كان كافرا، أصليا أم لا، فكل ذلك تقدم في سورة البقرة وغيرها.

المسألة الرابعة: احتج من أثبت الأعضاء والجوارح لله تعالى بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيِّ﴾، في إثبات يدين لله تعالى، بأن قالوا ظاهر الآية يدل عليه، فوجب المصير إليه، والآيات الكثيرة واردة على وفق هذه الآية، فوجب القطع به.

أما قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾، فالمعنى: أستكبرت الآن أم كنت أبدا من المتكبرين العالين، فأجاب إبليس بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْنَاهُ مِنْ طِينٍ﴾، فالمعنى: أني لو كنت مساويا له في الشرف لكان يقبح أمري بسجودي له فكيف وأنا خير منه ثم بين كونه خيرا منه بأن أصله من النار والنار أشرف من الطين، فذكر أن أصله خير من أصل آدم ومن كان أصله خيرا من أصله فهو خير منه فهذه مقدمات ثلاثة:

المقدمة الأولى: أن إبليس مخلوق من النار، يدل عليه قوله تعالى حكاية عنه: ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْنَاهُ مِنْ طِينٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَبَّانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُورِ﴾^(١).

المقدمة الثانية: أن النار أفضل من الطين ويدل عليه وجوه:

الأول: أن الأجرام الفلكية أشرف من الأجرام العنصرية، والنار أقرب العناصر من الفلك والأرض أبعدا عنه، فوجب كون النار أفضل من الأرض.

الثاني: أن النار خليفة الشمس والقمر في إضاءة هذا العالم عند غيبتها، والشمس والقمر أشرف من الأرض، فخليفتهما في الإضاءة أفضل من الأرض.

الثالث: أن الكيفية الفاعلة الأصلية، إما الحرارة أو البرودة والحرارة أفضل من البرودة لأن الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت.

(١) الآية: رقم ٢٧ من سورة الحجر.

الرابع: الأرض كثيفة والنار لطيفة واللطفة أشرف من الكثافة.

الخامس: النار مشرقة والأرض مظلمة والنور خير من الظلمة.

السادس: النار خفيفة تشبه الروح والأرض ثقيلة تشبه الجسد، والروح أفضل من الجسد، فالنار أفضل من الأرض ولذلك فإن الأطباء أطبقوا على أن العنصرين الثقيلين أعون على تركيب الأجساد وأن العنصرين الخفيفين أعون على تولد الأرواح.

السابع: النار صاعدة والأرض هابطة والصاعد أفضل من الهابط.

أما القائلون بتفضيل الأرض على النار فذكروا أيضا وجوها:

الأول: أن الأرض أمين مصلح فإذا أودعتها حبة ردتها إليك شجرة مثمرة والنار خائنة تفسد كل ما أسلمته إليها.

الثاني: أن الحس البصري أثنى على النار فليستمع ما يقوله الحس اللمسي.

الثالث: أن الأرض مستولية على النار فإنها تطفئ النار، وأما النار فإنها لا تؤثر في الأرض الخالصة.

وأما المقدمة الثالثة: فهي أن من كان أصله خيرا من أصله فهو خير منه، فاعلم أن هذه المقدمة كاذبة جدا وذلك لأن أصل الرماد النار وأصل البساتين النزهة والأشجار المثمرة هو الطين ومعلوم بالضرورة أن الأشجار المثمرة خير من الرماد، وأيضا فهب أن اعتبار هذه الجهة يوجب الفضيلة إلا أن هذا يمكن أن يصير معارضا بجهة أخرى توجب الرجحان مثل إنسان نسيب عار عن كل الفضائل فإن نسبه يوجب رجحانه، إلا أن الذي لا يكون نسبيا قد يكون كثير العلم والزهد فيكون هو أفضل من ذلك النسيب بدرجات لا حد لها، فالمقدمة الكاذبة في القياس الذي ذكره إبليس هو هذه المقدمة، فإن قال قائل هب أن إبليس أخطأ في هذا القياس لكن كيف لزمه الكفر من تلك المخالفة؟

وبيان هذا السؤال من وجوه:

الأول: أن قوله: اسجدوا أمر، والأمر لا يقتضي الوجوب بل الندب ومخالفة الندب لا توجب العصيان فضلا عن الكفر، وأيضا فالذين يقولون إن الأمر للوجوب فهم لا ينكرون كونه محتملا لندب احتمالا ظاهرا ومع قيام هذا الاحتمال الظاهر كيف يلزم العصيان فضلا عن الكفر.

الثاني: هب أنه للوجوب إلا أن إبليس ما كان من الملائكة فأمر الملائكة بالسجود لأدم لا يدخل فيه إبليس.

الثالث: هب أنه يتناوله إلا أن تخصيص العام بالقياس جائز فخصص نفسه عن عموم ذلك الأمر بالقياس.

الرابع: هب أنه لم يسجد مع علمه بأنه كان مأمورا به إلا أن هذا القدر يوجب العصيان ولا يوجب الكفر فكيف لزمه الكفر.

والجواب: هب أن صيغة الأمر لا تدل على الوجوب ولكن يجوز أن ينضم إليها من القرائن ما يدل على الوجوب، وهاهنا حصلت تلك القرائن وهي قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِينَ﴾، فلما أتى إبليس بقياسه الفاسد دل ذلك على أنه إنما ذكر ذلك القياس ليتوسل به إلى القدح في أمر الله وتكليفه وذلك يوجب الكفر.

إذا عرفت هذا فنقول إن إبليس لما ذكر هذا القياس الفاسد، قال تعالى: ﴿فَلَنُخْرِجَنَّ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾.

واعلم أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف وهاهنا الحكم بكونه رجيا ورد عقيب ما حكي عنه أنه خصص النص بالقياس، فهذا يدل على أن تخصيص النص بالقياس يوجب هذا الحكم، وقوله: منها أي من الجنة أو من السموات، والرجيم المرجوم وفيه قولان:

الأول: أنه مجاز عن الطرد، لأن الظاهر أن من طرد فقد يرمى بالحجارة وهو الرجم فلما كان الرجم من لوازم الطرد جعل الرجم كناية عن الطرد، فإن قالوا: الطرد هو اللعن، فلو حملنا قوله: رجم على الطرد لكان قوله بعد ذلك: ﴿وَلَانَ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾، تكرارا والجواب من وجهين:

الأول: أنا نحمل الرجم على الطرد من الجنة أو من السموات ونحمل اللعن على الطرد من رحمة الله.

والثاني: أنا نحمل الرجم على الطرد ونحمل قوله: ﴿وَلَانَ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾، على أن ذلك الطرد يمتد إلى آخر القيامة فيكون هذا فائدة زائدة ولا يكون تكريرا.

والقول الثاني: في تفسير الرجم أن نحمله على الحقيقة وهو كون الشياطين مرجومين بالشهب والله أعلم.

فإن قيل كلمة: ﴿إِن﴾ لانتهاى الغاية فقوله: ﴿إِن يَوْمَ الدِّينِ﴾، يقتضي انقطاع تلك اللعنة عند مجيء يوم الدين، أجاب صاحب الكشف: بأن اللعنة باقية عليه في الدنيا فإذا جاء يوم القيامة جعل مع اللعنة أنواع من العذاب تصير اللعنة مع حضورها منسية.

واعلم أن إبليس لما صار ملعونا قال: ﴿فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، قيل: إنما طلب الإنظار إلى يوم يبعثون لأجل أن يتخلص من الموت لأنه إذا نظر إلى يوم البعث لم يمت قبل يوم البعث، وعند مجيء يوم البعث لا يموت أيضا؛ فحيثئذ يتخلص من الموت، فقال تعالى: ﴿فَأَنْتَكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَفْتِ الْمَعْلُومِ، ومعناه: إنك من المنظرين إلى يوم يعلمه الله ولا يعلمه أحد سواه، فقال إبليس: ﴿فِعِزَّنَاكَ﴾، وهو قسم بعزة الله وسلطانه، ﴿لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فههنا أضاف الإغواء إلى نفسه وهو على مذهب القدر، وقال مرة أخرى: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، فأضاف الإغواء إلى الله على ما هو مذهب الجبر، وهذا يدل على أنه متحير في هذه المسألة.

وأما قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾، ففيه فوائد:

الفائدة الأولى: قيل: غرض إبليس من ذكره هذا الاستثناء أن لا يقع في كلامه الكذب لأنه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى أنه يغوي الكل لكان يظهر كذبه حين يعجز عن إغواء عباد الله الصالحين، فكان إبليس قال: إنما ذكرت هذا الاستثناء لئلا يقع الكذب في هذا الكلام، وعند هذا يقال: إن الكذب شيء يستنكف منه إبليس فكيف يليق بالمسلم الإقدام عليه؟ فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾^(١)، قلنا: إن إبليس لم يقل: إني لم أقصد إغواء عباد الله الصالحين بل قال: لأغوينهم وهو وإن كان يقصد الإغواء إلا أنه لا يغويهم.

الفائدة الثانية: هذه الآية تدل على أن إبليس لا يغوي عباد الله المخلصين، وقال تعالى في قصة يوسف: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٢)، فنصل من مجموع هاتين الآيتين أن إبليس ما أغوى يوسف عليه السلام، وذلك يدل على كذب الحشوية فيما ينسبون إلى يوسف عليه السلام من القبائح.

(١) الآية: رقم ٥٢ من سورة الحج.

(٢) الآية: رقم ٢٤ من سورة يوسف.

قصة آدم ﷺ بين سورة: البقرة

وكل من (سُور: الأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، و"ص")

قصة آدم في سورة البقرة تبدأ من أقدم نقطة في القصة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، لم تذكر هذه النقطة في أي مكان آخر في القرآن وهي أول نقطة نبدأ فيها القصص القرآني.

وأما قصة آدم في سورة الأعراف فقد بدأت من باب التكريم لآدم وذريته: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾^(١).

﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾: عتاب من الله تعالى على قلة شكرهم وهذا لم يرد في البقرة.

القصة في سورة البقرة واردة في تكريم آدم وما يحمله من العلم: والقصة كلها في عباراتها ونسجها تدور حول هذه المسألة.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾، ينسحب على ذريته في الخلافة في الأرض، والخلافة تقتضي أمرين:

الأمر الأول: حق التصرف: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(٢).

والأمر الثاني: القدرة على التصرف وهل هو قادر على القيام بالمهمة أم لا، (أثبت القدرة بالعلم)، فالله تعالى كرّم الإنسان بالعلم والعقل.

(١) الآية: رقم ١٠ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٢٩ من سورة البقرة.

أما سياق القصة في سورة الأعراف فقد ورد في العقوبات وإهلاك الأمم الظالمة من بني آدم وفي سياق غضب الله تعالى على الذين ظلموا، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُتْسَانًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾^(١)، وفي سياق العتب عليهم: ﴿فَلَيْلًا مَا تَدْكُرُونَ ، فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾.

وصف إبليس في سورة البقرة:

جمع تعالى لإبليس ثلاث صفات: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وهي: ، ﴿أَبَىٰ ، وَاسْتَكْبَرَ ، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، وهذه الصفات: لم تأت مجتمعة إلا في سورة البقرة لبيان شناعة معصية إبليس.

وأما في سورة الأعراف فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(٢)، ذكر صفة: واحدة فقط.

أسلوب الخطاب:

أما في سورة البقرة فقد جاء الخطاب بإسناد القول إلى الله تعالى: ﴿وَيَعَادُمْ أَسْكَنْتَ أَنْتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ فُكُلًا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، والملاحظ في القرآن أنه لما ينسب الله تعالى القول إلى ذاته يكون في مقام التكريم.

وأما في الأعراف عندما طرد إبليس فقد جمعها في الكلام: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ يَعْكَ مِنْهُمْ لَآ مَلَأَنَّا جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣) وَيَعَادُمْ أَسْكَنْتَ أَنْتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ فُكُلًا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

ذكر: ﴿رَعْدًا﴾:

(١) الآية: رقم ٥ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ١١ من سورة الأعراف.

(٣) الآيتان: رقم ١٨_١٩ من سورة الأعراف.

ذكر المولى سبحانه في سورة البقرة (رغداً) بقوله: ﴿وَقُلْنَا يَتَّخِذُ مَنْ شِئْتُمْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١)، وهو: المناسب للتكريم في السورة .

بينما لم ترد في سورة الأعراف (رغداً)، قال تعالى: ﴿وَيَتَّخِذُ مَنْ شِئْتُمْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).
ذكر: ﴿وَكُلَا﴾، ﴿فَكُلَا﴾:

الواو في ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ في سورة البقرة: تدل على مطلق الجمع وتفيد أن لآدم عليه السلام حق الاختيار في كل الأزمنة بمعنى اسكن وكل غير محددة بزمان. ومجيئها في سورة البقرة: في مجال التكريم أيضاً فلم يقيد الله تعالى آدم بزمن للأكل. وأما في الأعراف استخدام الفاء في قوله ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: تدل على التعقيب والترتيب، بمعنى اسكن فكل أي أن الأكل يأتي مباشرة بعد السكن مباشرة. فالفاء إذن هي: جزء من زمن الواو أما الواو فتشمل زمن الفاء وغيرها والجمع وغير الجمع فهي إذن أعم وأشمل.
ذكر: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾:

في سورة البقرة ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: تحتل أن تكون للسكن والأكل بمعنى اسكننا حيث شئتما وكلا حيث شئتما وفي هذا تكريم أوسع لأن الله تعالى جعل لهم مجال اختيار السكن والأكل والتناسب مع الواو التي دلت هي مطلقة فأوجبت السعة في الاختيار. وأما في سورة الأعراف ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: بمعنى من حيث شئتما للأكل فقط وليس

(١) الآية: رقم ٥ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ١٩ من سورة الأعراف.

للسكن، وبما أن الفاء استخدمت في السورة (فكلاً) والفاء مقتصرة اقتضى الحصر للأكل فقط.

ذكر ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، ﴿فَدَلَّهُمَا بِقُرْورٍ﴾

في سورة البقرة ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾: ليس بالضرورة الزلة إلى محل أدنى بل يمكن أن يكون في نفس المكان وقد سُميت زلة تخفيفاً في مقام التكريم الغالب على السورة.

وأما في الأعراف ﴿فَدَلَّهُمَا بِقُرْورٍ﴾: والتدلية لا تكون إلا من أعلى لأسفل إذن في مقام التكليف سهاها (زلة)، وفي مقام العقوبة سهاها ﴿فَدَلَّهُمَا﴾، فخفف المعصية في البقرة ولم يفعل ذلك في الأعراف.

معاقبة الله تعالى لآدم عليه السلام:

ففي سورة البقرة قال تعالى: ﴿فَلَقَّحَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١)، لم يذكر معاقبة الله تعالى لآدم عليه السلام وتوبيخه له وهذا يتناسب مع مقام التكريم في السورة حتى أنه لم يذكر في السورة اعتراف آدم ولم يقل أنها تابا أو ظلما أنفسهما فطوى تعالى تصريح آدم بالمعصية وهذا أيضاً مناسب لجو التكريم في السورة.

وفي الأعراف قال تعالى: ﴿فَدَلَّهُمَا بِقُرْورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٢)، في مجال التوبيخ والحساب ثم جاء اعتراف آدم عليه السلام ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وفي سورة الأعراف تناسب بين البداية والاختيار: (عتاب على قلة الشكر وعتاب على عدم السجود) الندم الذي ذكره آدم عليه السلام مناسب لندم ذريته عن معاصيهم وهذا ناسب لسياق الآيات في سورة الأعراف.

(١) الآية: رقم ٣٧ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ٢٢ من سورة الأعراف.

اتفق ندم الأيوين والذرية على الظلم: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١).

ذرية: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾^(٢)، بالصيغة الإسمية الدالة على الثبوت والإصرار وجاءت: ﴿ظَلَمْنَا﴾ بالصيغة الفعلية، أي: أن التوبة فعلية وصادقة وليس فيها إصرار لذا جاءت العقوبة مختلفة فتاب سبحانه على الأولين وأهلك الآخرين.

توبة الله على آدم:

ذكر الله تعالى في سورة البقرة: أنه تاب على آدم عليه السلام ولم يذكر أن آدم طلب المغفرة لكن وردت التوبة والمغفرة عليه وهذا مناسب لجو التكريم في السورة: ﴿فَلَقَّيْنَاهُ عَادَمٌ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْتَوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وفي سورة الأعراف: ذكر أن آدم طلب المغفرة لكن لم يذكر أن الله تعالى تاب عليه: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وفي سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(٣)، وفي الآية الأخيرة من السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾^(٤)، نفى تعالى عن الملائكة التكبر وأكد سجودهم ولكن بالنسبة لإبليس، ففي السورة نفى عنها السجود: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(٥)، وأكد له التكبر: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾^(٦).

(١) الآية: رقم ٢٣ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٥ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ١١ من سورة الأعراف.

(٤) الآية: رقم ٢٠٦ من سورة الأعراف.

(٥) الآية: رقم ١١ من سورة الأعراف.

(٦) الآية: رقم ١٣ من سورة الأعراف.

وفي سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ لَآتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾^(١)، وفي مقدمة القصة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾^(٢).

وفي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾^(٣)، اختار تعالى للتقوى كلمة اللباس الذي يوارى السوءات الباطنة، قال تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾^(٤)، واختيار الريش مناسب للباس الذي يوارى السوءات الخارجية.

وفي هذه الآيات تحذير من الله تعالى لذرية آدم قال تعالى: ﴿يَبْنَئِ آدَمُ قَدْ أَزَلْنَا عَنْكَ لِيَاسًا يُورِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِيَاسَ الْفَقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وأما في سورة الحجر فقد بدأت القصة ببيان مم خلق الإنسان الأول آدم ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾^(٥).

ثم أن المولى جل جلاله بعد أن بين ملائكته خلق هذا الإنسان آدم ﷺ لفت أنظارهم إلى كرامة هذا المخلوق عنده سبحانه وأمرهم بالسجود له تكرمة لا سجدود عبادة فقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٦) فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾.

(١) الآية: رقم ١٧ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ١٠ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ٢٠ من سورة الأعراف.

(٤) الآية: رقم ٢٦ من سورة الأعراف.

(٥) الآية: رقم ٢٨ من سورة الحجر.

(٦) الآيات: رقم ٢٩-٣١ من سورة الحجر.

— ولقد بينت لنا الآيات الكريبات من سورة الحجر نهاية القصة والتي ستستمر فصولها إلى يوم القيامة بين إبليس اللعين الطريد وبين ذرية آدم عليه السلام، والتي تقرأ كل يوم هذا الفصل من مشهد الحوار الذي دار وبحضور أبيهم آدم عليه السلام وجملة من كرام الملائكة الساجدين المطيعين لله، وما أُل إليه المشهد من تحدٍّ ومن توعدٍّ من إبليس لذرية آدم عليه السلام، لكن...

من يهده الله فلا مضل له، قال تعالى: ﴿قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلَاسِلٍ مِنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَخُذْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣).

وأما في سورة: (الإسراء) فقد بدأت القصة حين أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام وجرأة عدو الله إبليس في رد الأمر على الله جل وعلا بقوله سبحانه: ﴿قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ (١)، وقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٣)، ثم ردُّ الله تعالى على عدوه إبليس الطريد من رحمته مبيناً هوانه ومن تبعه من ذرية آدم، وحمايته لعباده المؤمنين منه وانه لا سلطان له على عباده المؤمنين، بقوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ جَاءَ مَوْفُورًا﴾ (١٣) وَأَسْتَفْزِزُ مَنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بَصُوتَكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٤) إِنَّ

(١) الآيات: رقم ٣٢-٤٣ من سورة الحجر.

(٢) الآية: رقم ٦١ من سورة الإسراء.

(٣) الآية: رقم ٢٨ من سورة الإسراء.

عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿١﴾.

وأما في سورة: (الكهف) فقد بين الله جل وعلا أمره للملائكة وكان إبليس معهم، على خلاف بين المفسرين هل هو من جملتهم حين توجه الأمر إليهم أم ليس منهم، إلا أن هذه الآية والتي يعتمد عليها كثير من المفسرين أن إبليس وإن كان بينهم فهو ليس منهم وإنما من الجن كما نصت الآية على ذلك صراحة، وسُمّت فئته التي ينتمي إليها أو ينحدر منها، وهناك قول ثالث يقول أنه من قوم من الملائكة يقال لهم: (الجنة) واستدلوا على رأيهم هذا بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَاً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (٢)، وذلك حينما زعموا زورا وبهتاناً أن الملائكة بنات الله وكذبوا العمر الله فيما زعموه قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٣).

وأما في سورة: (طه) فقد بدأت القصة بذكر العهد الذي أخذه الله تعالى على آدم عليه السلام أن لا يقترب وزوجه من الشجرة فَنَسِيَ آدم عليه السلام العهد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْذُلَهُ عَازِمًا﴾ (٤)، ثم ذكر بعد ذلك الأمر بالسجود لآدم عليه السلام على غرار ما مر من قصص في السور قبل هذه السورة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ (٥)، ولعناية الله ﷻ بهذا المخلوق الكريم على الله ﷻ فقد وجه سبحانه النصيح لآدم عليه السلام، وفقاً للقاعدة الفقهية الأصولية: (لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحال) فأخبره سبحانه: أن العداوة بينه وبين إبليس اللعين الطريد باقية مستمرة ما بقي الليل والنهار وأنها مستحكمة في نفس عدو الله أبليس الذي ما فتى

(١) الآيات: رقم ٦٣-٦٥ من سورة الإسراء.

(٢) الآية: رقم ١٥٨ من سورة الصافات.

(٣) الآية: رقم ٥٠ من سورة الكهف.

(٤) الآية: رقم ١١٥ من سورة طه.

(٥) الآية: رقم ١١٦ من سورة طه.

يوسوس للذرية كما وسوس لأبيهم من قبل، قال جل وعلا: ﴿فَقُلْنَا يَتَّعَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْوَانِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۚ﴾ (١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۚ (١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۚ (١٩)، لكن ما قدره الله تعالى على آدم وزوجه وقع ولا مفر من قدر، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعَدُمُ هَلْ أَذُنُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لَيْلَى ۚ﴾ (٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (٢١) ثُمَّ لَحْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلْ وَلَا يَشْقَى (٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۚ﴾ (٢٤).

وأما في سورة: (ص) فقد ذكر كذلك المادة التي خلق منها الإنسان الأول آدم ﷺ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۚ﴾ (٣).

ثم بين الله أن هذا المخلوق الذي خلقه بيديه كريمٌ عليه، وأمرهم بالسجود له، فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۖ﴾ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۚ (٧٤)، ثم وجه الحق تعالى الخطاب إلى إبليس الطريد من رحمته، فقال سبحانه: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ۚ﴾ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۚ﴾ (٨٥)، قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى

(١) الآيات: رقم ١١٧-١١٩ من سورة طه.

(٢) الآيات: رقم ١٢٠-١٢٤ من سورة طه.

(٣) الآية: رقم ٧١ من سورة ص.

(٤) الآيات: رقم ٧٢-٧٤ من سورة ص.

(٥) الآيات: رقم ٧٥-٨٥ من سورة ص.

ذكره: قَالَ اللهُ تَعَالَى: لِإِبْلِيسَ إِذْ لَمْ يَسْجُدْ لِآدَمَ، وَخَالَفَ أَمْرَهُ: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾، يقول: أَيُّ شَيْءٍ مَنَعَكَ مِنَ السَّجُودِ ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾، يقول: لَخَلَقْتُ يَدَيَّ، يُخْبِرُ تَعَالَى ذِكْرَهُ بِذَلِكَ أَنَّهُ خَلَقَ آدَمَ بِيَدَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾، يقول لإبليس: تَعَظَّمْتَ عَنِ السَّجُودِ لِآدَمَ، فَتَرَكْتَ السَّجُودَ لَهُ اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِ، وَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ الْعَالِينَ قَبْلَ ذَلِكَ، ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾، يقول: أَمْ كُنْتُ كَذَلِكَ مِنْ قَبْلُ ذَا عُلُوٍّ وَتَكَبُّرٍ عَلَى رَبِّكَ، إِلَى آخِرِ مَا جَاءَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ.

قصة أول الأنبياء والبشر

(نبي الله آدم فيه السنة المطهرة)

خلق الله سيدنا آدم عليه السلام جميل الشكل والصورة وحسن الصوت لأن جميع أنبياء الله الذين بعثهم الله لهداية الناس كانوا على صورة جميلة وشكل حسن وكذلك كانوا جميلي الصوت، قال عليه السلام: (ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت وإن نبيكم أحسنهم وجهًا وأحسنهم صوتًا)^(١).

كيف خلق آدم عليه الصلاة والسلام: وكان خلق آدم عليه السلام في الجنة آخر ساعة من يوم الجمعة من الأيام الست التي خلق الله فيها السموات والأرض، كما جاء في حديث مسلم، وروى مسلم وغيره أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم)^(٢).

شاء الله سبحانه وتعالى بمشيئته الأزلية التي لا تتبدل ولا تتغير وجود آدم عليه السلام فأبرزه بقدرته من العدم إلى الوجود، فقد أمر الله تعالى ملكًا من ملائكته الكرام أن يأخذ من جميع أنواع تراب الأرض التي نعيش عليها ليخلق منه آدم عليه السلام، فأخذ هذا الملك من جميع أنواع تراب الأرض من أبيضها وأسودها وما بين ذلك، ومن سهلها وحزنها أي قاسيها وما بين ذلك، ومن طيبها ورديتها ومما هو بين ذلك.

قال رسول الله ﷺ: (إن الله قبض قبضةً من الأرض من أبيضها وأسودها وما بين

(١) الحديث: رواه الإمام الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه، انظر: في شرح الشفا للملا علي القاري (١/ ٣٣٠):

(٢) الحديث: ورد في شرح النووي على مسلم - كتاب الجمعة - باب فضل يوم الجمعة ج ٦ ص ٤٥٥.

ذلك، ومن طيبتها ورديتها وما بين ذلك فجاء ذرية ءادم على قدر ذلك^(١)، رواه ابن حبان وغيره، وعند أحمد: (فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخيث والطيب وبين ذلك)، أي جاءت أحوال وألوان ذرية آدم ﷺ مختلفة بسبب هذا التراب المختلف الذي خُلِقَ منه آدم ﷺ.

فائدة ١: قيل: سمي آدم ﷺ بهذا الاسم لأنه من أديم الأرض أي من وجه الأرض. معنى قول الرسول ﷺ: (إن الله خلق ءادم على صورته).

يجوز أن يكون معنى هذا الحديث: (إنَّ اللهَ خلقَ ءادمَ على صورته)، أي: على صورة ءادم الأصلية التي خلقه عليها طوله ستون ذراعًا وعرضه سبعة أذرع، فيكون الضمير في: (صورته)، عائدًا إلى آدم ﷺ، ويجوز أن يكون الضمير في: (صورته)، عائدًا إلى الله تعالى فيكون التقدير: على الصورة التي خلقها الله وجعلها مشرفة مكرّمة، وتسمى هذه الإضافة إضافة الملك والتشريف لا إضافة الجزئية كإضافة الكعبة إلى نفسه، كقول الله تعالى لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾^(٢)، لأن الله سبحانه لا يوصف بالجسمية والجزئية فليس هو أصلًا لشيء ولا هو فرعًا عن شيء ولا يتحيز في جهة ومكان لأن التحيز للجسم اللطيف والكثيف.

الْخِلْقَةُ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا سَيِّدُنَا آدَمُ ﷺ:

لقد كان طول سيدنا ءادم عليه الصلاة والسلام ستين ذراعًا، وكان وافر الشعر شبّه رسول الله في الطول بالنخلة السُّحُوق، وجاء في حديث رسول الله ﷺ أنه قال: (إنَّ آدَمَ كَانَ طَوْلُهُ سِتِّينَ ذِرَاعًا)^(٣)، رواه أحمد والطبراني.

(١) الحديث: ورد في البداية والنهاية _ باب ما ورد في خلق آدم ﷺ _ ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم عليه الصلاة والسلام.

(٢) الآية: رقم ١٢٥ من سورة البقرة.

(٣) الحديث: رواه البخاري (٣٣٣٦) ومسلم (٧٠٩٢)، وفي لفظ مسلم: (فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله

فلما خلق الله آدم ﷺ، قال: (اذهب فسلم على أولئك، "نفر من الملائكة جلوس" فاستمع ما يُحيونك فإنها تحيتك وتحيه ذريّتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله)^(١).

وكل من يدخل الجنة يكون على صورة آدم ﷺ، في الطول فقد ورد في مسند الإمام أحمد بإسناد حسن عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: (أن أهل الجنة يدخلون الجنة على خلق آدم ستين ذراعاً في عرض سبعة أذرع)^(٢).

فائدة ٢: روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ: (إن الله عز وجل لما صوّر آدم ﷺ تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك)^(٣)، وعند أبي يعلى: (فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم)^(٤).

ففي هذا الحديث الصحيح: دليل على أن إبليس كان في الجنة لما خلق آدم ﷺ وذلك قبل أن يكفر لأنه كان مسلماً يتعبد مع الملائكة ولم يكن منهم من حيث الجنس والأصل لأن الملائكة أصلهم النور وإبليس أصله من مارج من نار أي لهب النار، وفيه أن إبليس كان يدور حول هيكل آدم ﷺ وذلك قبل أن ينفخ فيه الروح فراه أجوف أي شيئاً غير مُصمّتٍ بل له جوف، فعرف أنه خلق لا يتمالك أي ليس كالملائكة ولا كالجنادات بل هو أضعف من ذلك.

ومن الكذب الظاهر ما شاع من نظرية ابتدعها بعض الكفار وهي أن أصل البشر قرد

ستون ذراعاً فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن).

(١) الحديث: رواه البخاري (٣٣٣٦) ومسلم (٧٠٩٢).

(٢) الحديث: رواه الطبراني وابن أبي الدنيا عن أنس.

(٣) الحديث: رواه الإمام مسلم، انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح _ كتاب صفة القيامة والجنة والنار = باب بدء الخلق وذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وانظر: شرح النووي على مسلم _ كتاب البر والصلة والآداب _ باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب.

(٤) الحديث: رواه الإمام أبو يعلى في مسنده.

أو يشبه القرد وهذا فيه تكذيب لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(١)، فسيدنا آدم عليه السلام هو أول إنسان خلقه الله تبارك وتعالى، لم يكن أصله قرداً ثم ترقى حتى صار إنساناً، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾^(٢)، فنظرية داروين التي تقول إن الإنسان أصله قرد ثم ترقى بسبب العوامل المجهولة حتى صار هذا الإنسان هي نظرية باطلة لا تقوم على أساس علمي وتردها دلائل النقل وإن تلفقها المفتونون بكل جديد ولو كان سخيفاً باطلاً.

ذكر إخراج أرواح ذرية آدم عليه السلام من ظهره وأخذ الميثاق؛

روى النسائي وأحمد وابن جرير والحاكم في المستدرک بالإسناد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي قال: (إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فتشرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(٣) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنْهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(٤)).

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يقال: للرجل من أهل النار يوم القيامة، لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفقدياً به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك ما هو أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم عليه السلام أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي)^(٥)، وقد أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به.

(١) الآية: رقم ٤ من سورة التين.

(٢) الآية: رقم ٥ من سورة الكهف.

(٣) الحديث: رواه الإمام أحمد في المسند ج ١ ص ٢٧٢، وقال الأرنؤوط: رجاله ثقات رجال الشيخين غير كلثوم بن جبير فمن رجال مسلم، ورواه النسائي في الكبرى (١١٩١).

(٤) الآية: رقم ١٧٢ من سورة الأعراف.

(٥) الحديث: ورد في مسند الإمام أحمد _ باقي مسند المكثرين _ مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، ج ٣ ص ١٢٧، وانظر: في شرح النووي على مسلم "كتاب صفة القيامة والجنة والنار" باب لا أحد أصبر على أذى من الله ﷻ، وفي

فهذه الأحاديث كلها دالة على استخراجِه سبحانه وتعالى ذرية آدم ﷺ من ظهره كالذرّ ثم استنطقهم وأخذ عليهم العهد وأشهد عليهم أنفسهم.

خلق حواء عليها السلام:

خلق الله تعالى أمنا حواء من ضلع آدم الأيسر الأقصر: (ولأم مكانه لحما)^(١)، قيل: لذلك سميت حواء بهذا الاسم لأنها خلقت من شيء حيّ.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء)^(٢).

ولم يخلق الله تبارك وتعالى حواء طفلة صغيرة ثم طورها إلى الكبر، بل خلقها على هيئتها التي عاشت عليها كبيرة طويلة مناسبة لطول آدم ﷺ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْقُورًا رِيكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾^(٤)، وقد زوج الله تعالى آدم حواء وجعلها له حلالاً في الجنة ثم كانا كذلك في الأرض.

سجود الملائكة الكرام لنبي الله آدم ﷺ واعتراض إبليس اللعين:

أمر الله تبارك وتعالى الملائكة بالسجود لسيدنا آدم ﷺ فامتثل الملائكة لأمر الله وسجدوا كلهم لأن الملائكة كما وصفهم الله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٥).

صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً حديث رقم ٥١٤٧.

(١) الحديث: رواه الشيخان في صحيحيهما.

(٢) الحديث: ورد في فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب النكاح باب الوصاة بالنساء.

(٣) الآية: رقم ١ من سورة النساء.

(٤) الآية: رقم ١٨٩ من سورة الأعراف.

(٥) الآية: رقم ٦ من سورة التحريم.

وأما إبليس فقد استكبر واعترض على الله ولم يمثل لأمره وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(١)، فكفر وظهر منه ما قد سبق في علم الله تعالى ومشيتته من كفره واعتراضه باختياره، وقد ورد في الأثر أنه كان قبل كفره يسمى عزازيل.

وروى مسلم وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا قرأ ابن آدم السجدة "التي في بعض سور القرآن" فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار)^(٢).

ثم بعد أن عرف إبليس اللعين أنه ملعون طلب من الله أن ينظره، أي: يؤخره إلى يوم البعث، أي: يوم الخروج من القبور، ولكن الله لم يجبه إلى ذلك بل أخره إلى النفخة الأولى ليدوق الموت الذي حكم الله به على خلقه، قال تعالى مخبراً عن قول إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(٣) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾^(٤).

ومعنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٥)، أي: إلى زمن نفخة الإهلاك وهي نفخة إسرافيل في البوق فيموت كل حي من الإنس والجن من هول ذلك الصوت، قال البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، أي: إلا ملكه، ومعناه: سلطان الله لا يهلك).

ثم إن إبليس اللعين لما اعترض وكفر أمره الله بالخروج من الجنة، قال تعالى: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مُدْحُورًا﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾^(٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٦١﴾.

(١) الآية: رقم ١٧٢ من سورة الأعراف.

(٢) الحديث: رواه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الآيات: رقم ٧٩_٨١ من سورة (ص).

(٤) الآية: رقم ٨٨ من سورة العنكبوت.

(٥) الآية: رقم ١٨ من سورة الأعراف.

(٦) الآية: رقم ٧٧_٧٨ من سورة (ص).

وقد كان إبليس قبل ذلك الوقت مسلماً مؤمناً من الجنّ يعبد الله مع الملائكة، وذلك قبل أن يكفر ويعترض على الله، وليس صحيحاً أنه كان طاووس الملائكة ولا رئيساً لهم كما يزعم بعض الجاهل.

قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وقال شهر بن حوشب: كان من الجن، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾^(٢)، فلو كان من الملائكة لم يعص ربه لأن الله تعالى وصفهم في القرآن الكريم بقوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

ومما يدل أيضاً على أن إبليس ليس من الملائكة بل هو من الجن قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ آلَا نَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، ففي هذه الآية دليل على أن إبليس مخلوق من نار، بخلاف الملائكة فإنهم خلقوا من نور، كما جاء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن رسول الله ﷺ قال: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وُصف لكم)^(٣).

أما سجود الملائكة لآدم ﷺ فكان سجود تحية وإكرام لا عبادة لآدم ﷺ، وكان سجود المخلوق للمخلوق جائزاً في شرائع الأنبياء ثم حرمه الله في شرع سيدنا محمد ﷺ.

خلافة بني آدم في الأرض:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، هذه الآية تخبر أن الله قضى على آدم وبنيه باستخلاف الأرض لعمارها والانتفاع بما أودعه فيها من نبات وحيوان ومعادن ويتولى بعضهم على بعض بالحكم وغير ذلك.

(١) الآية: رقم ٥٠ من سورة الكهف.

(٢) الآية: رقم ٣٠ من سورة الحجر.

(٣) الحديث: في صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها.

وقد أخبر الله الملائكة وأعلمهم أنه سيجعل بني آدم خليفة في الأرض يسعون فيها ويمشون في مناكبها ويتشر نسلهم في أرجائها، ويأكلون من نباتها ويستخرجون الخيرات من باطنها ويخلف بعضهم بعضاً فيها.

فسألت الملائكة ربها للاستكشاف عن الحكمة في جعله خليفة في الأرض لا للاعتراض على الله وقالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نحن نعبدك دائماً ولا يعصيك منا أحد.

فبيّن الله للملائكة الحكمة من جعل بني آدم خليفة في الأرض وهو أن البشر وإن كان فيهم من يفسد الدماء ويفسد في الأرض، لكن منهم الأنبياء والأولياء، ونصب لهم دليلاً على فضل آدم عليه السلام أن علمه أسماء كل شيء فتفوق على الملائكة بذلك، وقال الله لأدم: ﴿أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، فصار آدم عليه السلام يقول لهم هذا اسمه كذا هذا اسمه كذا فعرفوا أن هذا الجنس أفضل منهم.

كيف عرف الملائكة أن بني آدم يفسدون:

عرف الملائكة ذلك من أنه كان مضى قبل ذلك جن يعيشون في الأرض فأفسدوا فأحرقتهم الملائكة على ما ورد في بعض الآثار، وليس السبب ما قال بعض الناس أنه سبق قبل آدم عليه السلام، أو: آدم كثير حتى قال بعضهم كان مائة ألف آدم، وهذا قول هراء ليس له أساس من الصحة.

أما سجود الملائكة لأدم عليه السلام فكان سجود تحية وإكرام لا عبادة لأدم، وكان سجود المخلوق للمخلوق جائزاً في شرائع الأنبياء ثم حرمه الله في شرع سيدنا محمد ﷺ.

سكنى آدم وزوجته حواء الجنة:

أمر الله تعالى سيدنا آدم وزوجته حواء التي جعلها حلالاً له أن يسكنوا الجنة، وهي جنة الخلد التي سيدخلها المؤمنون يوم القيامة.

وقد أباح الله لآدم ﷺ وحواء سكنى الجنة والأكل من ثمارها والشرب من مياهها والتنعم بنعيمها من غير مشقة ولا تعب يلحقهما في الحصول على ما يريدان من طعام وشراب، إلا شجرة واحدة حرّمها عليهما ونهاهما عن الأكل منها، وحذرهما من عداوة إبليس وإغوائه لهما، ولم يرد في القرآن الكريم ولا في الحديث الثابت الصحيح عن رسول الله ﷺ ما هي هذه الشجرة، لذلك اختلف العلماء في تعيينها ف قيل: هي الحنطة، وقيل: هي التفاح، وقيل: هي النخلة، وقيل: التين، وقيل: غير ذلك، فقد تكون واحدة من هذه وقد تكون من غيرها، وقال بعضهم: هذا الخلاف لا طائل تحته لأنه لا يتعلق بتعيينها حكم شرعي ولا فائدة تاريخية وإلا لعينها لنا القرآن.

وسكن آدم وزوجه حواء الجنة وصارا يتمتعان بما فيها من نعيم وما فيها من كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، فكان يتنقل بين أشجارها ويقطف من ثمارها ويتنعم بفاكهتها ويشرب من عذب أنهارها ومياهها، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

سبب خروج آدم من الجنة:

السبب في ذلك أن آدم خالف النهي الذي نهاه الله لأنه أعلمه بالمنع من أكل شجرة واحدة من أشجار الجنة، وأباح له ما سواها فوسوس الشيطان له ولحواء أن يأكلا منها فقال لهما ما أخبر الله تعالى به في القرآن: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ نِيهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾، فأخرجهما الله تعالى من الجنة، وكان ذلك قبل أن تنزل عليه النبوة والرسالة لأنه إنما نبئ بعد أن خرج من الجنة فتابا من تلك المعصية، ولا تعد تلك المعصية معصية كبيرة، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْنَبْنَاهُ رَبُّهُ، فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.

ثم بعد خروجهما من الجنة تناسلا فعلم آدم ﷺ أولاده أمور الإسلام فكل ذريته

كانوا على الإسلام، ثم نُبي بعد آدم ابنه شيث عليه السلام، ثم بعد وفاة شيث نُبي إدريس عليه السلام ثم كفر بعض البشر بعبادة الأصنام فبعث الله الأنبياء بالتبشير لمن أطاعهم بالجنة والإنذار بالنار لمن خالفهم بعبادة غير الله وتكذيبهم.

مما ابتلي به ءادم وحواء بعد أكل الشجرة أنه نزع عنهما لباسهما وانكشف لهما سوءاتهما فطفقا يلصقان عليهما من ورق الجنة وكان لباسهما الذي كان عليهما من نور، وقد دل القرءان العظيم على أنه كان عليهما لباس في قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا﴾ ^(١)، ثم بعد أن نزلوا إلى الأرض علمه الله تعالى أسباب المعيشة فأنزل له القمح وعلمه كيف يبذر وكيف يحصد وكيف يعمل للأكل، وعلمه التقدين الذهب والفضة فعمل الدراهم والدنانير.

فآدم عليه السلام له فضل كبير على البشر لما له عليهم من حق الأبوة وتعليم أصول المعيشة فلا يجوز تنقيصه، فمن نقصه أو أنكر رسالته فهو كافر.

تنبيه: لا يقال طرد الله آدم عليه السلام من الجنة لأن هذا اللفظ فيه تحقير لسيدنا آدم بل يقال أهبط كما يفيد نص القرءان.

مدة إقامة آدم عليه السلام في الجنة واليوم الذي خرج فيه من الجنة:

اختلف العلماء في مقدار مقام آدم عليه السلام في الجنة فروى الحاكم في مستدركه: (أن آدم لم يمكث في الجنة إلا ما بين العصر إلى الغروب)، والأقوى أنه: (مكث مائة وثلاثين عامًا). ولا ينافي هذا بالنسبة لتلك الأيام الستة أن يكون أدرك فيها مائة وثلاثين عامًا ثم أكمل الألف في الأرض كما يفهم ذلك من بعض الآثار.

وقد ورد أن اليوم الذي أخرج فيه آدم عليه السلام من الجنة وهبط فيه إلى الأرض كان يوم

(١) الآية: رقم ٢٧ من سورة الأعراف.

الجمعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها)^(١).

مكان نزول آدم عليه السلام على الأرض:

أمر الله سيدنا آدم وحواء بالهبوط من الجنة إلى الأرض، وأمر إبليس بالهبوط إليها أيضًا، وأخبرهما أن العداوة بينهما وبين إبليس اللعين ستظل قائمة وبالتالي ستكون بين إبليس وبنی آدم قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، فيروى أن آدم عليه السلام نزل في أرض الهند في أرض تسمى سرنديب على أشهر الأقوال، ونزلت حواء عليها السلام في أرض أخرى قيل إنها جُدَّة، فجاء سيدنا آدم عليه السلام في طلبها حتى أتى جمعا فازدلفت أي: اقتربت إليه حواء فلذلك سميت المزدلفة وهي بين مكة وعرفة، وقيل إنها تعارفا في عرفات لذلك سميت عرفات، وأما إبليس اللعين فقيل: إنه نزل بالأبلة أرض في العراق، وقيل: سميت عرفات لأن جبريل عليه السلام لما علم إبراهيم عليه السلام المناسك قال له عَرَفْتُ، قال: عَرَفْتُ، لذلك سميت عرفات.

فائدة ٣: قيل: إن أطيب بقعة في الأرض ريحاً الأرض التي أهبط بها آدم فعلق بشجرها من ريح الجنة، وقيل: إن تلك الأرض التي نزل بها آدم من أصح بلاد الأرض فناسبت أن تكون موطنه لكونه قريب بعهد بالجنة.

بناء البيت الحرام الكعبة المشرفة:

أمر الله آدم عليه السلام أن يبنى البيت الحرام فقدم مكة وبنى البيت من خمس أجبل: من طور سيناء، وطور زيتي، ولبنان، والجودي، وبنى قواعده من حراء، فلما فرغ من بنائه أرسل الله له ملكاً علمه المناسك، ثم بقي كذلك حتى أغرق الله قوم نوح عليه السلام فرفع البيت وبقي أساسه فجاء سيدنا إبراهيم عليه السلام فبناه.

(١) الحديث: رواه مسلم، ورواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

قصة هابيل وقابيل:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَاثِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِثُ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

تتلخص قصة هابيل وقابيل أن حواء عليها السلام ولدت أربعين بطناً على قول بعض العلماء، وقال بعضهم: ولدت عشرين بطناً، وكانت تلد في كل بطن ذكراً وأنثى، وكان سيدنا آدم عليه السلام يُزوج ذكر كل بطن بأنثى من بطن آخر، ويقال إن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل التي كانت أجمل من أخت هابيل لكن قابيل أراد أن يستأثر بها، فأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قرباناً وهو ما يتقرب به إلى الله تعالى وذهب آدم إلى مكة ليحج، وقرب كل واحد منهما قربانه بعد ذهاب أبيهم آدم عليه السلام. فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم، وأما قابيل فقرب حزمة من زرع رديء وكان صاحب زرع، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب قابيل غضباً شديداً، وقال لأخيه هابيل: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي، فقال له: إنما يتقبل الله من المتقين.

وذات ليلة أبطأ هابيل في المرعى، فبعث سيدنا آدم عليه السلام (وكان قد رجع من الحج) أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذ هو به، فقال له: تقبل منك ولم يتقبل مني، فقال

له هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين، فغضب عندئذ قابيل، ثم أتاه وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها رأسه، وقيل خنقه خنقاً شديداً.

وأما قول هابيل لقابيل: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ، فمعناه: أريد ترك مقاتلتك وإن كنت أشد منك وأقوى فتتحملُ إثم قتلي مع ما لك من الآثام المتقدمة قبل ذلك.

وقيل: لما قتل قابيل هابيل ندم على ذلك، فضمه إليه حتى تغيرت رائحته، وعكفت عليه الطير والسباع تنتظر حتى يرمي به فتأكله، وكره أن يأتي به آدم فيحزنه، ولم يزل يحمله حتى جاء غرابان، فاقتتلا أمام قابيل فقتل أحدهما الآخر، فعمد إلى الأرض يحفر له بمنقاره فيها، ثم ألقاه ودفنه وجعل يحثي عليه التراب حتى واره، فقال عندها قابيل: ﴿يَتَوَلَّىٰ أَعْرَجْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَ الْغَرَابِ فَأُورِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾، ثم أخذ يفعل به ما فعل ذاك الغراب فواراه ودفنه تحت التراب.

وليعلم أن ابن آدم قابيل الذي قتل أخاه هابيل كان مسلماً مؤمناً ولم يكن كافراً، وإنما ارتكب معصية كبيرة بقتله أخاه هابيل ظلماً وعدواناً.

فائدة ٤: روى الجماعة سوى أبي داود وأحمد في مسنده عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل)^(١)، أي: ظلماً، فعلم من ذلك أن قابيل ما تاب من قتله لهابيل.

موت سيدنا آدم وحواء عليهما السلام:

عاش سيدنا آدم عليه السلام ألف سنة قيل قضى منها مائة وثلاثين سنة في الجنة، وبقيّة الألف عاشها على هذه الأرض التي نزل إليها.

(١) الحديث: ورد في صحيح مسلم كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات _ بيان إثم من سن القتل _ باب بيان إثم من سن القتل.

ولما مات بقيت ذريته على دين الإسلام يعبدون الله تعالى وحده ولم يشركوا به شيئاً، فعاش البشر ألف سنة أخرى على دين الإسلام، ولم يكن فيهم كفر ولا شرك، وإنما حصل الكفر والشرك بعد نبي الله إدريس عليه السلام، فكان سيدنا نوح عليه السلام أول نبي بعث إلى الكفار. وقد ورد في الأثر أن آدم عليه السلام دفن في مكة أو في منى قريب مسجد الحيف حيث دفن سبعون نبياً، وقبورهم مخفاة ولا يوجد علامات تدل عليها، وقيل دفن عند الجبل الذي أهبط عنده في الهند، وقيل بجبل أبي قبيس بمكة، والله أعلم.

جاء في صحيح الإمام البخاري _ كتاب أحاديث الأنبياء _ باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته: ﴿مَلَصَلِي﴾: طين خلط برمل فصلصل كما يصلصل الفخار، ويقال: متنن يريدون به صل كما يقال صر الباب وصرصر عند الإغلاق، مثل: كبكبته يعني كببته، ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾: استمر بها الحمل فأتمته، ﴿أَلَا تَسْجُدُ﴾: أن تسجد وقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

قال ابن عباس: ﴿مَلَا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾: إلا عليها حافظ، وقوله: ﴿فِي كَبَدٍ﴾: في شدة خلق، ورياشا: المال، وقال غيره: الرياش والريش واحد وهو ما ظهر من اللباس، وقوله: ﴿تُتَمَنُّونَ﴾: النطفة في أرحام النساء، وقال مجاهد: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْوَةٍ لَقَائِدٍ﴾: النطفة في الإحليل، وقوله: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ﴾: في أحسن خلق، وقوله: ﴿تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾: نعظمك، وقوله: ﴿يَتَسَنَّهَ﴾: يتغير، وقوله: ﴿مَاسِنٍ﴾: متغير، والـ ﴿مَسْنُونٍ﴾: المتغير، وقوله: ﴿حَمَلٍ﴾: جمع حمأة، وهو الطين المتغير، وقوله: ﴿يَخْصِفَانِ﴾: أخذ الخصاف من ورق الجنة، يؤلفان الورق ويخصفان بعضه إلى بعض، وقوله: ﴿سَوَاءٌ تَهُمَا﴾: كناية عن فرجيهما، وقوله: ﴿وَمَتْنَعُ الْإِحْنِ﴾: ها هنا إلى يوم القيامة، فالحين عند العرب: من ساعة إلى ما لا يحصى عدده، وقوله: ﴿وَقَبِيلُهُ﴾: جيله الذي هو منهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ثم قال

أذهب فسلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيونك تحيتك وتحية ذريتك، فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن^(١).

روى الترمذي والنسائي والبخاري وصححه ابن حبان من طريق سعيد المقبري وغيره عن أبي هريرة مرفوعا: (إن الله خلق آدم من تراب فجعله طينا ثم تركه، حتى إذا كان حماً مسنونا خلقه وصوره ثم تركه، حتى إذا كان صلصالا كالفخار كان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم، ثم نفخ الله فيه من روحه، وكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه، فعطس فقال: الحمد لله، فقال الله: يرحمك ربك)^(٢).

وفي الباب عدة أحاديث: منها: حديث أبي موسى مرفوعا: (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض)^(٣).

ومنها: حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفعه: (لما خلق الله آدم تركه ما شاء أن يدعه، فجعل إبليس يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه لا يتمالك)^(٤)، وآدم: اسم سرياني وهو عند أهل الكتاب آدام بإشباع فتحة الدال بوزن خانام وزنه فاعال، وامتنع صرفه للعجمة والعلمية. وقال الثعلبي: التراب بالعبرانية آدام فسمي آدم به، وحذفت الألف الثانية.

وقيل: هو عربي جزم به الجوهري والجواليقي، وقيل: هو بوزن أفعل من الأدمة، وقيل: من الأديم لأنه خلق من أديم الأرض وهذا عن ابن عباس، ووجهه بأن يكون كأعين ومنع الصرف للوزن والعلمية، وقيل: هو من أدمت بين الشيئين إذا خلطت بينهما لأنه كان ماء وطينا فخلطا جميعا.

(١) الحديث: رواه البخاري (٦٢٢٧) ومسلم (٢٨٤١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٢) الحديث: سبق تخريجه.

(٣) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وصححه ابن حبان.

(٤) الحديث: رواه أحمد ومسلم.

وقال الإمام أحمد في (مسنده): عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: (خلق الله آدم حين خلقه، فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الدر، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، فقال للذي في يمينه إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في كتفه اليسرى إلى النار ولا أبالي)^(١).

وقال ابن أبي الدنيا: عن الحسن رضي الله عنه قال: (خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى، فآلقوا على وجه الأرض منهم الأعمى، والأصم، والمبتلى، فقال آدم: يا رب ألا سويت بين ولدي؟ قال: يا آدم إني أردت أن أشكر)^(٢).

وقد رواه أبو حاتم، وابن حبان في (صحيحه) فقال: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس، فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذن الله، فقال له ربه: يرحمك ربك يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملائمتهم جلوس فسلم عليهم، فقال: السلام عليكم، فقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه فقال: هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم، وقال الله ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت، فقال: اخترت يمين ربي، وكلتا يدي ربي يمين مباركة، ثم بسطهما، فإذا فيهما آدم وذريته فقال: أي رب ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، وإذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عينيه، وإذا فيهم رجل أضوؤهم أو من أضوئهم، لم يكتب له إلا أربعون سنة قال: يا رب ما هذا؟ قال: هذا ابنك داود وقد كتب الله عمره أربعين سنة، قال: أي رب زد في عمره، فقال: ذاك الذي كُتب له، قال: فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة، قال: أنت وذاك، اسكن الجنة، فسكن الجنة ما شاء الله، ثم هبط منها، وكان آدم يعد لنفسه فأتاه ملك الموت فقال له آدم: قد عجلت قد كتب لي ألف سنة، قال: بلى، ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة،

(١) الحديث: ورد في مسند أحمد ابن حنبل من مسند القبائل من حديث أبي الدرداء عويمر حديث رقم ٢٦٨٧٠.

(٢) الحديث: ورد في كتاب الشكر لابن أبي الدنيا الشكر لابن أبي الدنيا حديث رقم ١٦٢.

فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته، فيومئذ أمر بالكتاب والشهود^(١).

وفي البخاري: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: (خلق الله آدم وطوله ستون ذراعًا، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة، واستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن)^(٢).

وقال الإمام أحمد: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (كان طول آدم ستين ذراعًا في سبع أذرع عرضًا)^(٣). انفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلت آية الدين، قال رسول الله ﷺ: (إن أول من جحد آدم، إن أول من جحد آدم، إن الله لما خلق آدم ومسح ظهره، فأخرج منه ما هو ذارئ إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه، فرأى فيهم رجلًا يزهر، قال: أي رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود، قال: أي رب كم عمره؟ قال: ستون عامًا، قال: أي رب زد في عمره، قال: لا إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف عام، فزاده أربعين عامًا، فكتب الله عليه بذلك كتابًا، وأشهد عليه الملائكة، فلما احتضر آدم أتته الملائكة لقبضه، قال: إنه قد بقي من عمري أربعون عامًا، فقيل له: إنك قد وهبتها لابنك داود، قال: ما فعلت، وأبرز الله عليه الكتاب، وشهدت عليه الملائكة)^(٤).

ورواه الطبراني عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغير واحد، عن الحسن قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ: (إن أول من جحد آدم) ثلاثًا، وذكره^(٥).

(١) الحديث: ورد في السنن الكبير للبيهقي كتاب الشهادات باب الاختيار في الإشهاد حديث رقم ١٨٨٥٧، ورواه

الحاكم والترمذي وقال الألباني: صحيح، (صحيح الجامع: ٥٢٠٩).

(٢) الحديث: سبق تخريجه.

(٣) الحديث: رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) الحديث: رواه الإمام أحمد في مسنده ج ١ ص ٢٥١.

(٥) الحديث: سبق تخريجه أعلاه.

وقال الإمام مالك بن أنس رحمه الله في موطنه: عن مسلم بن يسار الجهني رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ ^(١)، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال: (إن الله خلق آدم عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله فقيم العمل؟، قال رسول الله ﷺ: "إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخل به الجنة، وإذا خلق الله العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخل به النار" ^(٢).

وهذه الأحاديث كلها دالة على استخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر، وقسمتهم قسمين: أهل اليمين، وأهل الشمال، وقال: (هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي) ^(٣).

فأما الإشهاد عليهم، واستنطاقهم بالإقرار بالوحدانية، فلم يجمع في الأحاديث الثابتة.

فأما الحديث الذي رواه أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا جرير يعني ابن حازم، عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: (إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها، فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ ^(٤) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ^(٥).

(١) الآية: رقم ١٧٢ من سورة الأعراف.

(٢) الحديث: ورد في سنن الترمذي _ كتاب تفسير القرآن _ باب ومن سورة الأعراف ج ٥ ص ٢٤٩، وفي صحيح ابن حبان كتاب التاريخ ذكر إخراج الله جل وعلا من ظهر آدم ذريته، وإعلامه حديث رقم ٦٢٧٢.

(٣) الحديث: سبق تخريجه، وهذا جزء منه.

(٤) الحديث: ورد بإسناد جيد قوي على شرط مسلم، رواه النسائي، وابن جرير، والحاكم في (مستدرکه)، من حديث حسين بن محمد المروزي به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

واستأنس القائلون بهذا القول، وهو أخذ الميثاق على الذرية وهم الجمهور بما قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثني شعبة، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: (يقال: للرجل من أهل النار يوم القيامة لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك ما هو أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي)^(١).

وقال أبو جعفر الرازي: عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٣﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٤﴾﴾^(٢)، قال: فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فخلقهم، ثم صورهم، ثم استنطقهم، فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهد عليهم أنفسهم، ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ الآية، قال: فإني أشهد عليكم السماوات السبع، والأرضين السبع، أشهد عليكم أباكم آدم، أن لا تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، ولا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رسلاً، ينذرونكم عهدي، وميثاقي، وأنزل عليكم كتابي، قالوا: نشهد أنك ربنا، وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك، فأقروا له يومئذ بالطاعة، ورفع أباهم آدم، فنظر إليهم، فرأى فيهم الغني، والفقير، وحسن الصورة، ودون ذلك، فقال: يا رب لو سويت بين عبادك؟ فقال: إني أحببت أن أشكر، ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج، عليهم النور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة، والنبوة، فهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا ﴿٣﴾﴾، وهو الذي يقول: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ

(١) الحديث: سبق تخريجه.

(٢) الآيتان: رقم ١٧٢-١٧٣ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ٧ من سورة الأحزاب.

النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴿١﴾، وفي ذلك قال: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ (٢)، وفي ذلك قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لَكُمْ فِيهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (٣)، رواه الأئمة عبد الله بن أحمد، وابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مردويه، في تفاسيرهم، من طريق أبي جعفر. وروى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وقتادة، والسدي، وغير واحد من علماء السلف، بسياقات توافق هذه الأحاديث.

وتقدم أنه تعالى، لما أمر الملائكة بالسجود لآدم، امتثلوا كلهم الأمر الإلهي، وامتنع إبليس من السجود له، حسداً وعداوة له، فطرده الله وأبعده، وأخرجه من الحضرة الإلهية، ونفاه عنها، وأهبطه إلى الأرض، طريداً ملعوناً شيطانياً رجيماً.

الآية: رقم ٧ من سورة الأحزاب.

وقد قال الإمام أحمد: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيت، فلي النار) (٤).

ثم لما أسكن آدم الجنة التي أسكنها، سواء كانت في السماء، أو في الأرض، على ما تقدم من الخلاف فيه، أقام بها هو وزوجته حواء عليهما السلام، يأكلان منها رغداً حيث شاءا، فلما أكلتا من الشجرة، التي نهيأ عنها، سلبا ما كانا فيه من اللباس، وأهبطا إلى الأرض.

وقد ذكرنا الاختلاف في مواضع هبوطه منها، واختلفوا في مقدار مقامه في الجنة فقيل: بعض يوم من أيام الدنيا.

وقد قدمنا ما رواه مسلم، عن أبي هريرة مرفوعاً: (وخلق آدم في آخر ساعة من

(١) الآية: رقم ٣٠ من سورة الروم.

(٢) الآية: رقم ٥٦ من سورة النجم.

(٣) الآية: رقم ١٠٢ من سورة الأعراف.

(٤) الحديث: ورواه مسلم من حديث وكيع، وأبي معاوية، عن الأعمش به.

ساعات يوم الجمعة^(١).

وتقدم أيضًا حديثه عنه: (وفيه يعني يوم الجمعة خلق آدم، وفيه أخرج منها، فإن كان اليوم الذي خلق فيه، فيه أخرج)^(٢).

وقلنا: إن الأيام الستة كهذه الأيام، فقد لبث بعض يوم من هذه، وفي هذا نظر، وإن كان إخراجهم في غير اليوم الذي خلق فيه.

أو قلنا: بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف سنة، كما تقدم عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، واختاره ابن جرير.

فقد لبث هناك مدة طويلة.

قال ابن جرير: ومعلوم أنه خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة، والساعة منه: ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، فمكث مصورًا طينًا قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة، وأقام في الجنة قبل أن يهبط ثلاثًا وأربعين سنة وأربعة أشهر، والله تعالى أعلم.

وقد روى عبد الرزاق، عن هشام بن حسان، عن سوار، خبر عطاء بن أبي رباح: أنه كان لما أهبط رجلاه في الأرض، ورأسه في السماء، فحطه الله إلى ستين ذراعًا، وقد روي عن ابن عباس نحوه.

وفي هذا نظر لما تقدم من الحديث المتفق على صحته، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعًا، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن)^(٣).

(١) الحديث: رواه مسلم في "صحيحه" (٢٧٨٩)، وأحمد في "مسنده" (٣٢٧ / ٢)، وأبو يعلى في "المسند" (١٠ / ٥١٣)، وابن خزيمة في "صحيحه" (١١٧ / ٣)، وابن حبان في "صحيحه" (٣٠ / ١٤)، والطبراني في "الأوسط" (٣ / ٣٠٣)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٣ / ٩)، والطبري في "تفسيره" (٤٣٣ / ٢١) وغيرهم.

(٢) الحديث: أخرجه الإمام مسلم في صحيحه انظر: شرح النووي على مسلم - كتاب الجمعة - باب فضل يوم الجمعة.

(٣) الحديث: رواه الشيخان رواه البخاري (٣٣٣٦) ومسلم (٧٠٩٢)، انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء - باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته.

وهذا يقتضي أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعاً، وأن ذريته لم يزلوا يتناقص خلقهم حتى الآن.

وذكر ابن جرير، عن ابن عباس، إن الله قال: (يا آدم إن لي حرماً بحيال عرشي فانطلق فابن لي فيه بيتاً، فطف به كما تطوف ملائكتي بعرشي، وأرسل الله له ملكاً فعرفه مكانه، وعلمه المناسك، وذكر أن موضع كل خطوة خطاها آدم، صارت قرية بعد ذلك).

وعنه: أن أو طعام أكله آدم في الأرض، أن جاءه جبريل عليه السلام بسبع حبات من حنطة، فقال: ما هذا؟ قال: هذا من الشجرة التي نهيت عنها، فأكلت منها، فقال: وما أصنع بهذا؟ قال: ابذره في الأرض فبذره، وكان كل حبة منها زنتها أزيد من مائة ألف، فنبتت، فحصده، ثم درسه، ثم ذراه، ثم طحنه، ثم عجنه، ثم خبزه، فأكله بعد جهد عظيم وتعب ونكد، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ ^(١)، وكان أول كسوتها: من شعر الضأن، جزاه، ثم غزلاه، فنسج آدم له جبة، ولحواء درعاً، وخماراً.

واختلفوا: هل ولد لهما بالجنة شيء من الأولاد؟، فقيل: لم يولد لهما إلا في الأرض.

وقيل: بل ولد لهما فيها، فكان قابيل، وأخته، ممن ولد بها، والله أعلم.

وذكروا أنه كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، وأمر أن يزوج كل ابن، أخت أخيه التي ولدت معه، والآخر بالآخرى، وهلم جرا، ولم يكن تحل لأخت لأخيها الذي ولدت معه.

ما هي القصة من فوائد ودروس وعبر

ذكر كثير من العلم جملة من الفوائد والدروس العبر تستخلص من قص نبي الله ﷺ آدم عليه السلام وسوف نعزي كل قول إلى قائله في المتن مخالفة لما سلكناه في طريق كتابتنا من عزو القول إلى أصحابه في الهوامش وذلك كما يلي:

(١) الآية: رقم ١١٧ من سورة طه.

- ١- إثبات القول لله ﷻ: وأنه بحرف وصوت، وهذا مذهب السلف الصالح، فالله تعالى يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء، قاله ابن عثيمين.
- ٢- إثبات الأفعال لله: وأنه يفعل ما يريد، وهذا من كماله وتمام صفاته، قاله ابن عثيمين.
- ٣- الملائكة عالم غيبي: خلقهم الله تعالى من نور، وجعل لهم وظائف وأعمالا مختلفة، وهم ذوو عقول، لأن الله وجه إليهم الخطاب وأجابوا، قاله ابن عثيمين.
- ٤- أن بني آدم يخلف بعضهم بعضا: على أحد القولين في معنى: ﴿حَلِيفَةٌ﴾، وهذا من حكمة الله تعالى لأن الناس لو من ولد بقي، لضاقت الأرض بما رحبت، ولما استقامت الأحوال ولا حصلت الرحمة للصغار إلى غير ذلك من المصالح العظيمة، قاله ابن عثيمين.
- ٥- أن استفهام الملائكة ليس للاعتراض: وإنما للاستطلاع والاستعلام، قاله ابن عثيمين.
- ٦- كراهة الملائكة للإفساد في الأرض: قاله الإمام ابن عثيمين.
- ٧- وجوب نصب الخليفة: ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطي الفواحش، قاله الإمام القرطبي.
- ٨- جاء تخصيص سفك الدماء بعد العموم في قوله تعالى: ﴿يَفْسِدُ فِيهَا﴾ لبيان شدة مفسدة القتل، قاله الإمام السعدي.
- ٩- قيام الملائكة بعبادة الله تعالى، وشدة تعظيمهم له لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ سُبِّحٌ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، قاله الإمام ابن عثيمين.
- ١٠- أن وصف الإنسان نفسه بما فيه من الخير لا بأس به: إذا كان المقصود مجرد الخبر دون الفخر لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ سُبِّحٌ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، قاله الإمام ابن عثيمين.

١١- أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والمأمورات فعليه التسليم: واتهام عقله، والاقرار لله تعالى بالحكمة، قاله الإمام السعدي.

١٢- فضل وشرف آدم على الملائكة: بما اختصه الله به من العلم عليهم، قاله الإمام ابن كثير.

١٣- فضيلة العلم: وأن الله تعالى عرّف الملائكة فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد، قاله الإمام السعدي.

١٤- بيان أن الله قد يمن على بعض عباده: بعلم لا يعلمه الآخرون، قاله الإمام ابن عثيمين.

١٥- جواز امتحان الإنسان: بما يدعي أنه مجيد فيه، قاله الإمام ابن عثيمين.

١٦- جواز التحدي بالعبارات التي يكون فيها شيء من الشدة لقوله تعالى: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾، قاله الشيخ ابن عثيمين.

١٧- أن الملائكة تتكلم: واعترافهم بأنهم لا علم لهم إلا ما علمهم الله تعالى، قاله الإمام ابن عثيمين.

١٨- ينبغي للإنسان أن يعرف قدر نفسه: فلا يدعي علم ما لا يعلم، قاله الإمام ابن عثيمين.

١٩- شدة تعظيم الملائكة لله ﷻ: حيث اعترفوا بكماله وتنزيهه عن الجهل بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، واعترفوا لأنفسهم بأنهم لا علم عندهم واعترفوا لله تعالى بالفضل بقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، قاله الشيخ ابن عثيمين.

٢٠- إثبات اسمي العليم والحكيم لله ﷻ: قاله ابن عثيمين.

٢١- إثبات القول والكلام لله ﷻ: وأنه يتكلم بكلام مسموع مترتب بعضه سابق

لبعض، قاله الشيخ ابن عثيمين.

٢٢- تين للملائكة فضل آدم عليهم: وحكمة الباري في استخلاف هذا الخليفة، قاله الشيخ السعدي.

٢٣- اعتناء الله بشأن الملائكة: وإحسانه عليهم بتعليمهم ما جهلوا، وتنبههم على ما لم يعلموه، قاله الشيخ السعدي.

٢٤- امتثال آدم وطاعته لله: فلم يتوقف بل بادر الملائكة وأنبأهم، قاله ابن عثيمين.

٢٥- بيان عموم علم الله: وأنه يتعلق بالمشاهد والغائب، قاله الشيخ ابن عثيمين.

٢٦- أن السموات ذات عدد: والأرض جاءت مفردة والمراد بها الجنس وإلا فهي عدد، قاله الشيخ ابن عثيمين.

٢٧- أن الملائكة لها إرادات تُبدي وتكتم، ولها قلوب لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾^(١)، قاله الشيخ ابن عثيمين.

٢٨- أن الله عالم بما في القلوب سواء أبدي أم خفي: قاله الشيخ ابن عثيمين.

ومن فوائد قصة آدم عليه السلام المبسوبة في كتاب الله تعالى ما ذكره الدكتور أمين بن عبد الله الشقاوي في مقالته ما يلي:

١- إن هذه القصة العظيمة ذكرها الله في كتابه في مواضع كثيرة صريحة لا ريب فيها ولا شك: وهي من أعظم القصص التي اتفقت عليها الرسل، ونزلت بها الكتب السماوية، واعتقدتها جميع أتباع الأنبياء من الأولين والآخرين، وما ذكره بعضهم من أن الإنسان كان حيواناً قرداً أو شبيهاً بالقرود حتى ارتقى إلى هذه الحال

(١) الآية: رقم ٢٣ من سورة سبأ.

الموجودة، هؤلاء اغتروا بنظرياتهم الخاطئة المبنية على ظنون عقول من أصلها فاسدة، وتركوا لأجلها جميع العلوم الصحيحة، خصوصاً ما جاءتهم به الرسل، وصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾^(١).

٢_ فضيلة العلم: وأن الملائكة لما تبين لهم فضل آدم عليه السلام بعلمه عرفوا بذلك كماله، وأنه يستحق الإجلال والتوقير.

٣_ أن مَنْ مَنَّْ الله عليه بالعلم عليه أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن يقول كما قالت الملائكة والرسل: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾، وأن يتوقى التكلم بما لا يعلم، فإن العلم أعظم المنن، وشكر هذه النعمة الاعتراف لله بها، والثناء عليه بتعليمها، وتعليم الجاهل، والوقوف على ما علمه العبد، والسكوت عما لم يعلمه.

٤_ أن الله جعل هذه القصة لنا معتبراً: وأن الحسد والكبر والحرص من أخطر الأخلاق على العبد، فكبر إبليس وحسده لآدم عليه السلام صيره إلى ما ترى، وحرص آدم عليه السلام وزوجه حملهما على تناول الشجرة، ولولا تدارك رحمة الله ﷻ لهما لأودت بهما إلى الهلاك، ولكن رحمة الله تكمل الناقص، وتجبر الكسير، وتنجي الهالك، وترفع الساقط.

٥_ أنه ينبغي للعبد إذا وقع في ذنب أن يبادر إلى التوبة والاعتراف: ويقول ما قاله الأبوان من قلب خالص، وإنابة صادقة، فما قص الله تعالى علينا صفة توبتهما إلا لتقتدي بهما فننور بالسعادة، وننجو من الهلكة؛ وكذلك ما أخبرنا بما قال الشيطان من توعدها وعزمه الأكيد على إغوائنا بكل طريق إلا لنستعد لهذا

(١) الآية: رقم ٨٣ من سورة غافر.

العدو الذي تظاهر بهذه العداوة البليغة المتأصلة، والله تعالى يجب منا أن نقاومه بكل ما نقدر عليه من تجنب طرقه وخطواته، وفعل الأسباب التي يخشى منها الوقوع في شباكه، ومن عمل الحصون من الأوراد الصحيحة، والأذكار القلبية، والتعوذات المتنوعة، ومن السلاح المهلك له من صدق الإيمان، وقوة التوكل على الله، ومراغمته في أعمال الخير، ومقاومة وساوسه والأفكار الرديئة التي يدفع بها إلى القلب كل وقت بما يضادها، ويبطلها من العلوم النافعة والحقائق الصادقة.

٦_ أن فيها دلالة لمذهب أهل السنة والجماعة: المثبتين لله تعالى ما أثبتته لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات كلها، لا فرق بين صفات الذات، ولا بين صفات الأفعال.

٧_ إثبات اليمين لله كما هو في قصة آدم صريحاً: قال تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَدَنِي﴾^(١)، فله يدان حقيقة، كما أن ذاته لا تشبهها الذوات، فصفاته تعالى لا تشبهها الصفات.

٨_ ذكر العلماء أن أول ذنب عُصي الله به الحسد: وذلك أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم، امتثلوا كلهم الأمر الإلهي، وامتنع إبليس من السجود له، حسداً وعداوة له، فطرده الله وأبعده، وأخرجه من الحضرة الإلهية ونفاه عنها، وأهبطه إلى الأرض طريداً ملعوناً، شيطاناً رجياً^(٢).

روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ، اغْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَمِينِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ _ وَفِي رَوَايَةٍ أَبِي كُرَيْبٍ: يَا وَيْلِي _ أَمَرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ، فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَيْتُ فَلَئِي النَّارُ)^(٣).

٩_ ألا يتساهل المسلم في المعاصي: فمعصية واحدة كانت سبباً لخروج آدم ﷺ من الجنة، ومعصية واحدة كانت سبباً لهزيمة الصحابة في معركة أحد عندما أمرهم

(١) انظر: مجموع مؤلفات الشيخ الرحمن السعدي، قسم التفسير وعلوم القرآن (٣/ ١٧٦-١٧٧).

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١/ ٢١٣).

(٣) الحديث: رواه الإمام مسلم في الجزء الثاني ص ٢٥٢ باب بيان إطلاق إسم الكفر على من ترك الصلاة.

النبي ﷺ ألا ينزلوا من الجبل، فعصوه ونزلوا، فقتل سبعون^(١)، ومعصية واحدة كانت سبباً في دخول امرأة النار، ففي الصحيحين من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: (دَخَلَتْ امْرَأَةُ النَّارِ فِي هِرَّةٍ، رَبَطْتُهَا فَلَمْ تُطْعَمْهَا، وَلَمْ تَدْعُهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ)^(٢).

قال الإمام الأوزاعي: عن بلال بن سعد قال: (لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت)^(٣).

وجاء في كتاب البرهان في علوم القرآن عدة فوائد:

حذف الجملة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، قيل: المعنى جاعل في الأرض خليفة يفعل كذا وكذا وإلا فمن أين علم الملائكة أنهم يفسدون وباقي الكلام يدل على المحذوف.

فوائد الآية:

الفائدة الأولى: قال الإمام الرازي: المسألة الأولى: الجمهور الأعظم من علماء الدين اتفقوا على عصمة كل الملائكة عن جميع الذنوب ومن الحشوية من خالف في ذلك ولنا وجوه:

الوجه الأول: قوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٤)، إلا أن هذه الآية مختصة بملائكة النار فإذا أردنا الدلالة العامة تمسكنا بقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٥)، فقوله ويفعلون ما يؤمرون يتناول جميع فعل المأمورات

(١) الحديث: رواه الإمام البخاري في صحيحه برقم ٣٩٨٦.

(٢) الحديث: في الصحيحين رواه الإمام البخاري برقم ٣٤٨٢ والإمام مسلم برقم ٢٢٤٥.

(٣) انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤ / ٤٥١).

(٤) الآية: رقم ٦ من سورة التحريم.

(٥) الآية: رقم ٥٠ من سورة النحل.

وترك المنهيات لأن المنهي عن الشيء مأمور بتركه.

فإن قيل ما الدليل على أن قوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، يفيد العموم قلنا لأنه لا شيء من المأمورات إلا ويصح الاستثنائي ما نبينا على -خلده لا لولاهم ملاكلان مجريخ على شمسلا او مبدء بمقفلنا لوصاً

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٣٦) لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ^(١)، فهذا صريح في براءتهم عن المعاصي وكونهم متوقفين في كل الأمور إلا بمقتضى الأمر والوحي.

الوجه الثالث: أنه تعالى حكى عنهم أنهم طعنوا في البشر بالمعصية ولو كانوا من العصاة لما حسن منهم ذلك الطعن.

الوجه الرابع: أنه تعالى حكى عنهم أنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ومن كان كذلك امتنع صدور المعصية منه.

الفائدة الثانية: قال المراغي أخذنا من كلام محمد عبده وفائدة ذكر ذلك لنا من نواح عدة: (١) بيان أن لا مطمع للإنسان في معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها، فالملائكة وهم أولى منا بعلمها عجزوا عن معرفتها.

(٢) أن الله قد هدى الملائكة بعد حيرتهم، وأجابهم عن سؤالهم، بأن أرشدهم إلى الخضوع والتسليم أولاً بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثم بالدليل ثانياً بأن: علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة.

ومن ثم تفضل على الملائكة وأبان لهم الحكمة في خلق هذا النوع، فعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، فعلموا أن في فطرة هذا النوع استعدادا لعلم ما لم يعلموا،

(١) الآيتان: رقم ٢٦-٢٧ من سورة الأنبياء.

وأنة أهل للخلافة في الأرض، وأن سفك الدماء لا يذهب بحكمة الاستخلاف.

وخلاصة هذا: إن الملائكة تشوّفوا لمعرفة الحكمة في استخلاف ذلك المخلوق الذي من شأنه ما قالوا، ومعرفة السر في تركهم وهم المجلولون على تسييحه وتقديسه، فأعلمهم أنه أودع فيه من السر ما لم يودعه فيهم.

الفائدة الثالثة: قال المراغي: وبهذا القصص نعرف ما امتاز به النوع الإنساني عن غيره من المخلوقات، وأنه مستعدّ لبلوغ الكمال العلمي إلى أقصى الغايات، دون الملائكة، ومن ثمّ كان أجدر بالخلافة منهم.

الفائدة الرابعة: قال صاحب المنار: فعلمنا أنّ السلف والخلف متفقون على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به من شئون المخلوقين، وعصمة ملائكته عما لا يليق بهم من الاعتراض أو الإنكار.

الفائدة الخامسة: قال محمد دروزة في كتاب التفسير الحديث: في تعليقه على الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ والآيات التسع التالية لها: ننبه على أن ما جاء في هذه المجموعة لم يرد شيء منه في سفر التكوين المتداول اليوم الذي ذكر قصة خلق السموات والأرض وخلق آدم وخروجه من الجنة مع زوجته بسبب أكلهما من الشجرة.

الفائدة السادسة: قال الشيخ الشعراوي: تعطينا هنا وقفة، هل الملائكة قالوا الله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، هل قالها الملائكة فعلا وجها، أم أنهم قالوها في أنفسهم ولم ينطقوا بها، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، تعطينا إشارة إلى أن الملائكة ربما قالوا هذا سرا ولم يبدوه، وعلى أية حال، سواء قالوه جهرا أو قالوه سرا، فقد علمه الله، لأن الله جل جلاله بكل شيء محيط.

قال صاحب المنار: فعجبوا كيف يخلق الله هذا النوع من الخلق وسألوا الله تعالى بلسان المقال إن كانوا ينطقون، أو بلسان الحال والتوجيه إليه لاستفاضة المعرفة بذلك وطلب

الْبَيَانَ وَالْحِكْمَةَ، وَعَبَّرَ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ بِالْقَوْلِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمَعْهُودُ بِالِاسْتِعْلَامِ وَالِاسْتِنْفَهَامِ عِنْدَ الْبَشَرِ الَّذِينَ أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ.

الفائدة السابعة: قال الأمثل: الملائكة يبينوا حقيقة من الحقائق، ولذلك لم ينكر الله عليهم قولهم، بل أشار إلى أن ثمة حقائق أخرى إلى جانب هذه الحقيقة، حقائق ترتبط بمكانة الإنسان في الوجود، وهذا ما لم تعرفه الملائكة.

الفائدة الثامنة: قال الأمثل: الملائكة يعلمون أن الهدف من الخلقة هو العبودية والطاعة، وكانوا يرون في أنفسهم مصداقاً كاملاً لذلك، فهم في العبادة غارقون، ولذلك فهم أكثر من غيرهم للخلافة لائقون، غير عالمين أن بين عبادة الإنسان المليء بألوان الشهوات، والمحاط بأشكال الوسواس الشيطانية والمغريات الدنيوية وبين عبادتهم، وهم خالون من كل هذه المؤثرات بون شاسع.

فأين عبادة هذا الموجود الغارق وسط الأمواج العاتية، من عبادة تلك الموجودات التي تعيش على ساحل آمن؟!

الفائدة التاسعة: قال د. إبراهيم الصعبي: ولعل في ذكرهم لسفك الدماء ما يتصل بصلة وشيجة بالدم المسفوك في قصة البقرة.

الفائدة العاشرة: قال أبو السعود: فكأنهم شعروا بما فيهم من القوة الشهوية التي رذيلتها الإفراطية الفساد في الأرض والقوة الغضبية التي رذيلتها الإفراطية سفك الدماء فقالوا ما قالوا وذهلوا عما إذا سخرت القوة العقلية ومرنتها على الخير (فإنه) يحصل بذلك من علو الدرجة ما يقصر عن بلوغ رتبة القوة العقلية عند انفرادها في أفاعيلها، كالإحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات واستنباط الصناعات، واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل وغير ذلك مما نيط به أمر الخلافة، قال النورسي: فبتجاوز القوة الشهوية يحصل الفساد وبتعدي القوة الغضبية ينشأ السفك والظلم.

لغات بلاغية فيه آيات قصة الخلق الأول

السر البلاغي في تكرير (فيها): في قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾.

القول الأول: قال الألوسي: وتكرار الظرف للدلالة على الإفراط في الفساد ولم يكرره بعد للاكتفاء مع ما في التكرار مما لا يخفى.

وقال الطوسي: وقال قوم: المعنى فيه ان الله اعلم الملائكة انه جاعل في الارض خليفة، وان الخليفة فرقة تسفك الدماء وهي فرقة من بني آدم فأذن الله للملائكة ان يسألوه عن ذلك وكان اعلامه إياهم هذا زيادة على التثبيت في نفوسهم انه يعلم الغيب فكأنهم قالوا: أتخلق فيها قوما يسفك الدماء، ويعصونك وانما ينبغي انهم إذا عرفوا أنك خلقتهم ان يسبحوا بحمدك كما نسبح ويقدسوا كما نقدس؟ ولم يقولوا: هذا إلا وقد اذن لهم، لأنهم لا يجوز ان يسألوا ما لا يؤذن لهم ما فيه، ويؤمرون به، لقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، إن قيل من اين لكم أنهم كانوا علموا ذلك؟ قيل ذلك محذوف لدلالة الكلام عليه، لانا علمنا أنهم لا يعلمون الغيب وليس إذا فسد الجن في الارض، وجب أن يفسد الانس وقوة السؤال تدل على أنهم كانوا عالمين.

وقال الإمام المطعني: تكرار الجار والمجرور في ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، لأن سلامة المعنى بلاغيا تقتضي هذا التكرار لأنه لو حذف الأول لما تعين جعل الخليفة في الأرض ولفات توكيد هذا الجار والمجرور لقوله تعالى: ﴿جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ولو حذف الثاني لما تعين أن يكون الإفساد وسفك الدماء في الأرض لذلك كان تكرار الجار في الموضعين واجبا بلاغيا

وقال الإمام أبو السعود: والظرف الأول متعلق بـ (تجعل) وتقديمه لما مر مراراً

والثاني بـ (يُفْسِدُ)، وفائدته تأكيد الاستبعاد لما أن في استخلاف المفسد في محل إفساده من البعد ما ليس في استخلافه في غيره.

وقال الإمام الألوسي رحمته: تكرار الظرف للدلالة على الإفراط في الفساد ولم يكرره بعد للاكتفاء مع ما في التكرار مما لا يخفى.

وقال الإمام النورسي رحمته: وإن ﴿فِيهَا﴾ مع ﴿فِيهَا﴾، مع قصر المسافة فللتنصيص والإيحاء إلى معنى ما حكمة جعل البشر روحاً منفوخاً في جسد الأرض لحياتها مع وجود الفساد والإماتة من حيث الأحياء.

وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير: وتكرير ضمير الأرض للاهتمام بها والتذكير بشأن عمرانها وحفظ نظامها ليكون ذلك أدخل في التعجب من استخلاف آدم وفي صرف إرادة الله تعالى عن ذلك إن كان في الاستشارة ائتمار.

وقال أبو حيان رحمته: وكرر فيها لأن في ذلك تنبيه على أن ما كان محلاً للعبادة وطاعة الله ﷻ كيف يصير محلاً للفساد؟ كما مر مثله في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾^(١)، ولم يحتج إلى تكرير فيها بعد قوله تعالى: ﴿وَيَسْفِكُ﴾، اكتفاء بما سبق وتنكبا أن يكرر فيها ثلاث مرات.

عطف: ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ على ﴿يُفْسِدُ فِيهَا﴾، من: عطف الخاص على العام والمغزى البلاغي من هذا العطف التنبه على فظاعة سفك الدماء وبيان شدة مفسدة القتل وعظم هذه المعصية لأنه بها تتلاشى الهياكل الجسمانية فيخيل أن الإفساد كله بجميع صورته قسم وسفك الدماء قسم آخر يماثله في القبح.

وقال الطبرسي رحمته: قالوا: يعني: الملائكة لله تعالى: ﴿أَجْعَلْ فِيهَا﴾، أي: في الأرض، ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالكفر والمعاصي، ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ بغير حق.

(١) الآية: رقم ١١ من سورة البقرة.

وقال أبو حيان رحمه الله: ولما كانت الصلة **﴿يُفْسِدُ﴾**، وهو فعل في سياق الإثبات، فلا يدل على التعميم في الفساد.

نصوا على أعظم الفساد، وهو: سفك الدماء، لأنه به تلاشي الهياكل الجسمية التي خلقها الله، ولوم ينصوا عليه لجاز أن لا يراد من قولهم: **﴿يُفْسِدُ﴾**، وقال سعيد عن قتادة: فقالوا: **﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾**، وقد علمت الملائكة من علم الله أنه لا شيء أكره إلى الله من سفك الدماء والفساد في الأرض.

وقال الطوسي رحمه الله: وقد علمت الملائكة من علم الله أنه لا شيء عند الله أكبر من سفك الدماء والافساد في الارض.

قال بعضهم: هذه الآية تدل على كراهة الملائكة للإفساد في الأرض.

عطف: **﴿وَتَقَدَّسُ لَكَ﴾** على **﴿تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾** من: عطف العام على الخاص عكس الأول لأن التقديس أعم من التسبيح بحمده والمغزى البلاغي هو التدرج في الشناء.

توكيد الخبر في: **﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**، لإزالة ما في نفوس الملائكة من دهشة واستغراب من أمر الاستخلاف الذي غابت عنهم الحكمة منه.

هل من فارق بين نقديس لك ونقدسك؟

الفعل يقديس: فعل متعدي يأخذ مفعولاً به دون حرف الجر اللام فنقول نقديس الله لكن الآية أدخلت اللام على الكاف فما فائدة هذه اللام؟ فائدتها للتخصيص أي: التقديس لك لا لغيرك، فالملائكة لا تعصي الله ما أمرها، فهي لا تقديس إلا الله بخلاف البشر الذين قد يقديسون الله ومع تقديسهم لله قد يقديسون غيره.

الخاتمة

_ إن هذه القصة العظيمة ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم في مواضع كثيرة صريحة لا ريب فيها ولا شك، وهي من أعظم القصص التي اتفقت عليها الرسل، ونزلت بها الكتب السماوية، واعتقدها جميع أتباع الأنبياء من الأولين والآخرين، وما ذكره بعضهم من أن الإنسان كان حيواناً قرداً أو شبيهاً بالقرد حتى ارتقى إلى هذه الحال الموجودة، هؤلاء قومٌ اغتروا بنظرياتهم الخاطئة المبنية على ظنون عقول فاسدة، ومعتقدات خربة، وتركوا لأجلها جميع العلوم الصحيحة، خصوصاً ما جاءهم به الرسل، وصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾^(١).

_ أن آدم عليه السلام أبو البشر، وهذا ما تكاد تُجمع عليه جميع الديانات السماوية، حيث كان آدم يتبوأ منزلة في الجنة، لكنه لما استجاب لغواية إبليس وإغرائه، أُخرج منها إلى الأرض، وتوالدت منه ومن زوجته البشرية، كما قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُورًا رُكَّامًا الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾^(٢).

_ أن آدم عليه السلام أخطأ في أكله من الشجرة التي نهاه الله عن الاقتراب منها، ولكن هذا الخطأ لم يكن مقصوداً، بل كان عن ضعف ونسيان، كما قال سبحانه: ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾^(٣).

(١) الآية: رقم ٨٣ من سورة غافر.

(٢) الآية: رقم ١ من سورة النساء.

(٣) الآية: رقم ١١٥ من سورة طه.

— سعة رحمة الله وفضله، وسابغ كرمه، وقبوله لتوبة التائبين، كما قال تعالى: ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

— أن آدم عليه السلام خلق من طين لازب، ومن حمأ مسنون، كما نصت على ذلك العديد من الآيات، نحو قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾^(٢).

— اقتضت إرادة الله أن يجعل في الأرض خليفة له، هو آدم عليه السلام ومن توالد من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣)، وقال سبحانه أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٤).

— أن العداوة بين إبليس وذريته، وبين آدم وذريته عداوة قديمة ومستحكمة ومستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾^(٥).

— أن المتقلب في نعمة يجب أن يحافظ عليها، ويشكر الله ويدعوه بدوامها، ولا يعمل عملاً فيه مخالفة لأمر الله تعالى، لأن كفران النعم مُذهب بها، وقد قال ﷻ: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(٦).

— أن قوة الإيمان تتغلب على كيد الشيطان، وأن عباد الرحمن ليس لإبليس عليهم سلطان، قال تعالى مخاطباً إبليس ومبشراً عباده المؤمنين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^(٧).

(١) الآية: رقم ٣٧ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ٧ من سورة السجدة.

(٣) الآية: رقم ٣٠ من سورة البقرة.

(٤) الآية: رقم ١٦٥ من سورة الأنعام.

(٥) الآية: رقم ٣٦ من سورة البقرة.

(٦) الآية: رقم ٧ من سورة إبراهيم.

(٧) الآية: رقم ٤٢ من سورة الحجر.

فهرس المواضع

الرقم	الموضوع	رقم الصفحة
	تقديم	٥
—	مقدمة السلسلة	١١
—	(مقدمة الإصدار الأول)	٢٣
—	القصص القرآني	٢٥
—	القصة لغة	٢٦
—	القصة اصطلاحاً	٢٧
—	أهمية القصة في القرآن الكريم	٢٩
—	أنواع القصص القرآني	٣٣
—	مزايا القصص القرآني	٣٥
—	خصائص القصص القرآني	٣٩
—	عظمة قصص القرآن	٤٣
—	فوائد قصص القرآن	٤٥
—	أغراض القصص القرآني	٤٩
—	مقاصد القصص القرآني	٥٣
—	أهداف القصص القرآني	٥٩
—	حكمة التكرار في قصص القرآن	٦٣
—	آيات ورد فيها كلمة (القص) ومشتقاتها في القرآن الكريم	٧٧
—	مقدمة القصة	٧٩
—	أحداث بين يدي القصة	٨١
—	(آيات القصة في سور القرآن)	٨٥
—	(أقوال المفسرين في القصة)	٨٩

٨٩	أقوال المفسرين في آيات القصة في سورة (البقرة)	-
٨٩	ما قاله الإمام الطبري (2) في تفسيره المسمى (الجامع لأحكام القرآن):	١
٨٩	قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾	-
٩٢	قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾	-
٩٦	قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾	-
٩٦	ما قاله الإمام الطبري (3) في الآية.	-
١٠٢	وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾	-
١٠٣	وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَكَاذِبُ أَتُنَبِّئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾	-
١٠٦	وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	-
١٠٩	وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَتَكَاذِبُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾	-
١١٤	قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا﴾	-
١١٦	الخلاصة	-
١٢٤	قوله تعالى: ﴿فَلَقَّيْنِي آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَثَابَ عَلَيْهِ﴾	-
١٢٦	الخلاصة	-
١٢٧	ما قاله الإمام الزجاج في (1) في كتابه (معاني القرآن)	٢
١٢٧	قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
١٢٧	وقوله عز وجل: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
١٣١	وقوله تعالى: ﴿فَلَقَّيْنِي آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾	-
١٣١	وقال ابن أبي حاتم (1) في تفسيره	٣
١٣١	قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
١٣٢	قول الله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
١٣٤	﴿فَلَقَّيْنِي آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَثَابَ عَلَيْهِ﴾	-
١٣٥	ما قاله الإمام الماتريدي (2) في تفسيره	٤
١٣٥	قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
١٣٦	قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
١٣٧	وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ سُيِّحٌ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾	-

١٣٨	وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ﴾	-
١٣٩	وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾	-
١٤٣	وقوله تعالى: ﴿فَنَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾	-
١٤٤	ما قاله الإمام السمرقندي رحمته الله في تفسيره: (بحر العلوم)	٥
١٤٤	قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾	-
١٤٥	قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾	-
١٤٥	قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾	-
١٤٦	قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَدُمُّ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾	-
١٤٧	قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	-
١٤٨	قوله تعالى: ﴿فَارْزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾	-
١٤٨	وقوله عز وجل: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾	-
١٤٨	قوله تعالى: ﴿فَنَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾	-
١٤٩	وقال الإمام ابن أبي زمنين رحمته الله في تفسيره: (تفسير القرآن العزيز)	٦
١٤٩	قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي﴾	-
١٤٩	فَقَالَتِ الْمَلَأَكَةُ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾	-
١٥٠	قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ﴾	-
١٥٠	قوله تعالى: ﴿فَارْزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾	-
١٥٠	وقال الإمام الثعلبي رحمته الله في تفسيره: (الكشف والبيان)	٧
١٥٠	قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾	-
١٥١	قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
١٥٣	قوله تعالى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾	-
١٥٣	قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَتَدُمُّ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾	-
١٥٤	قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	-
١٥٦	وقال مكّي بن أبي طالب رحمته الله في كتابه: (الهداية)	٨
١٥٦	قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾	-
١٥٩	قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
١٦٠	وقال الإمام الماوردي رحمته الله (١) في كتابه (النكت والعيون)	٩

١٦٠	وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾	-
١٦٢	وفي خلافة آدم وذريته ثلاثة أفاويل	-
١٦٢	وقوله عز وجل: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾	-
١٦٢	وفي قوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثلاثة أفاويل:	-
١٦٥	وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	-
١٦٦	وقوله عز وجل: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾	-
١٦٧	وقوله عز وجل: ﴿فَنَلَقَيْنَا آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ﴾	-
١٦٨	وقال الإمام القشيري رحمه الله في كتابه لطائف الإشارات	١٠
١٦٨	وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي﴾	-
١٦٩	وقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
١٧٠	وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾	-
١٧١	وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	-
١٧٢	وقوله عز وجل: ﴿فَنَلَقَيْنَا آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ﴾	-
١٧٢	وقال الإمام الواحدي رحمه الله في تفسيره الوسيط	١١
١٧٢	وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	-
١٧٢	فقال له ولجندة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾	-
١٧٤	وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
١٧٥	وقوله عز وجل: ﴿يَتَّكِدُمْ أَنفُسُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾	-
١٧٦	وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	-
١٧٧	وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾	-
١٧٨	وقال الإمام السمعاني رحمه الله في تفسيره	١٢
١٧٨	﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
١٧٩	وقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
١٨١	وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَّكِدُمْ أَنفُسُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾	-
١٨١	وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	-
١٨٢	وقوله تعالى: ﴿فَنَلَقَيْنَا آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾	-

١٣	وقال الإمام الراغب الأصفهاني رحمه الله في تفسيره	١٨٣
-	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي﴾	١٨٣
-	قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	١٨٦
١٤	وقال الإمام الكرماني رحمه الله في تفسيره: (غرائب التفسير وعجائب التأويل)	١٨٧
-	قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾	١٨٨
-	قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾	١٨٨
١٥	وقال الإمام البغوي رحمه الله في تفسيره: (معالم التنزيل)	١٨٨
-	قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾	١٨٨
-	وقال رحمه الله: قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾	١٨٨
-	وقال رحمه الله: قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَتَدَأْمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾	١٩٠
١٦	وقال الزمخشري رحمه الله في تفسيره: (الكشاف)	١٩٠
-	﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	١٩٠
-	وقال رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾	١٩١
١٧	وقال ابن عطية رحمه الله في تفسيره: (المحرر الوجيز)	١٩٣
-	قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾	١٩٣
-	وقال رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾	١٩٣
-	وقال الإمام ابن عطية رحمه الله: ﴿أَنْبِئُهُمْ﴾، معناه	١٩٦
-	وقال الإمام ابن عطية رحمه الله: ﴿وَإِذْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾	١٩٦
١٨	وقال بيان الحق رحمه الله في تفسيره: (باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن)	١٩٨
-	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي﴾	١٩٨
-	وقال رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾	١٩٨
١٩	وقال الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره: (مفاتيح الغيب)	١٩٩
-	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي﴾	١٩٩
-	وقال رحمه الله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	٢٠٢

٢٠٦	وقال ﷻ: قوله تعالى: ﴿فَلَقَّحْءَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾	-
٢٠٧	وقال القرطبي ﷻ في تفسيره: (الجامع لأحكام القرآن)	٢٠
٢٠٧	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي﴾	-
٢٠٨	وقال ﷻ: وقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
٢١١	وقال ﷻ: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَّادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾	-
٢١٣	وقال ﷻ: قوله تعالى: ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا﴾	-
٢١٦	وقال البيضاوي ﷻ في تفسيره (أنوار التنزيل)	٢١
٢١٦	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي﴾	-
٢١٧	وقال ﷻ: قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
٢٢٠	وقال ﷻ: ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا﴾	-
٢٢١	وقال أثير الدين الأندلسي ﷻ في تفسيره (البحر المحيط)	٢٢
٢٢١	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي﴾	-
٢٢٣	وقال ﷻ: ﴿قَالَ يَتَّادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾	-
٢٢٨	وقال السمين الحلبي ﷻ في تفسيره (الدر المصون)	٢٣
٢٢٨	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾	-
٢٣٠	وقال ﷻ: قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ﴾	-
٢٣٢	وقال ﷻ: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	-
٢٣٣	وقال ﷻ: قوله: ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾	-
٢٣٥	وقال ابن كثير ﷻ في تفسيره: (تفسير القرآن العظيم)	٢٤
٢٣٥	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي﴾	-
٢٣٧	فصل في ماهية الملائكة	-
٢٣٨	فصل في شرح كثرتهم	-
٢٣٨	فصل فيمن قيل له من الملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
٢٣٩	فصل في بيان علام الجواب في الآية:	-
٢٤٠	وقال ابن عرفة ﷻ في تفسيره: (تفسير الإمام ابن عرفة)	٢٥

٢٤١	وقال ﷻ: قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
٢٤٢	وقال ﷻ: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَكَاذِبُونَ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾	-
٢٤٥	وقال الإمام النيسابوري ﷻ في تفسيره: (غرائب القرآن و رغائب الفرقان)	٢٦
٢٤٥	القراءات في الآية	-
٢٤٥	الوقوف في الآية	-
٢٤٥	التفسير في الآية	-
٢٤٨	وقال ﷻ: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	-
٢٥٠	وقال الثعالبي ﷻ: وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
٢٥٠	وقال الإمام الثعالبي ﷻ في تفسيره: (الجواهر الحسان)	٢٧
٢٥٠	وقال ﷻ: وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَكَاذِبُونَ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾	-
٢٥١	وقال ﷻ: قوله تعالى: ﴿فَلَقَّيْنَاهُ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾	-
٢٥١	وجاء في تفسير البقاعي ﷻ في تفسيره: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور):	٢٨
٢٥١	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
٢٥٥	وقال الإمام الإيجي ﷻ في تفسيره المسمى: (جامع البيان في تفسير القرآن)	٢٩
٢٥٥	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
٢٥٦	وقال ﷻ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
٢٥٦	وقال الإمام السيوطي ﷻ في تفسيره: (الدر المنثور)	٣٠
٢٥٦	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
٢٥٦	قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
٢٦٠	وقال الإمام الخطيب ﷻ في تفسيره: (السراج المنير):	٣١
٢٦٠	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
٢٦١	وقال ﷻ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾	-

٢٦٢	وقال ﷺ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، اذكر ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	-
٢٦٢	وقال الإمام أبو السعود ﷺ في تفسيره: (إرشاد العقل السليم)	٣٢
٢٦٣	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
٢٧٠	وقال الإمام ابن عجيبة ﷺ في تفسيره: (البحر المديد)	٣٣
٢٧٠	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
٢٧٠	وقال ﷺ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
٢٧١	وقال ﷺ: يقول الحق جل جلاله: واذكر إذ ﴿قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	-
٢٧٢	وقال الإمام المظهري ﷺ في تفسيره	٣٤
٢٧٢	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
٢٧٢	وقال ﷺ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
٢٧٣	وقال الإمام محمد صديق خان ﷺ في تفسيره: (فتح البيان في مقاصد القرآن)	٣٥
٢٧٣	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
٢٧٥	وقال الإمام الفاسمي ﷺ في تفسيره: (محاسن التأويل)	٣٦
٢٧٥	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
٢٧٥	وقال ﷺ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
٢٧٥	تنبيهات في وجوه فوائد من الآية	-
٢٧٦	وقال ﷺ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	-
٢٧٧	وفي هذه الآية عدة تنبيهات	-
٢٧٨	وقال الإمام المراغي ﷺ في تفسيره	٣٧
٢٧٨	وقال ﷺ: قوله عز وجل: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
٢٨٠	وقال الإمام السعدي ﷺ في تفسيره: (تيسير الكريم الرحمن)	٣٨
٢٨٠	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
٢٨٢	وقال الإمام ابن عاشور ﷺ في تفسيره (التحرير والتنوير)	٣٩
٢٨٢	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-

٢٨٤	وقال ﷺ: قوله عز وجل: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
٢٨٧	وقال ﷺ: وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَدُمُّ أُنْبِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾	-
٢٨٧	وقال ﷺ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	-
٢٨٩	وقال الإمام أبو زهرة ﷺ في تفسيره (زهرة التفاسير)	٤٠
٢٨٩	عوالم العقلاء	-
٢٨٩	الأول من هذه العوالم: هو عالم الملائكة	-
٢٩٠	والثاني من هذه العوالم: هو عالم الجن	-
٢٩٠	والثالث من هذه العوالم: هو عالم الإنسان	-
٢٩١	وقال ﷺ: ولذلك قالوا لربهم مستغربين: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ﴾	-
٢٩٢	وقال ﷺ: ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا﴾	-
٢٩٣	وقال الشيخ الجزائري ﷺ في تفسيره (أيسر التفاسير)	٤١
٢٩٣	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
٢٩٣	وقال الإمام حجازي محمد محمود ﷺ في (التفسير الواضح)	٤٢
٢٩٣	وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
٢٩٦	وقال الإمام الزحيلي ﷺ في تفسيره (التفسير المنير)	٤٣
٢٩٦	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
٢٩٦	الإعراب في الآية	-
٢٩٧	البلاغة في الآية	-
٢٩٧	وقال الأستاذ سيد قطب ﷺ في تفسيره	٤٤
٢٩٧	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
٣٠٠	وقال الإمام الألوسي ﷺ في تفسيره (روح المعاني)	٤٥
٣٠٠	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي﴾	-
٣٠١	وقال الشيخ ابن باز ﷺ	٤٦
٣٠١	قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾	-
٣٠٢	وجاء في تفسير ابن عثيمين: قوله عز وجل:	٤٧
٣٠٢	﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾	-

٣٠٣	وقال ﷻ: لکن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾	-
٣٠٧	أقوال المفسرين في آيات القصة في سورة الأعراف	-
٣٠٧	ما قاله الإمام الطبري ﷻ	١
٣٠٧	وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا﴾	-
٣١٠	قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾	-
٣١٣	قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾	-
٣١٤	قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾	-
٣١٥	قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	-
٣١٨	قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَنبَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾	-
٣١٩	قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾	-
٣٢١	قوله تعالى: ﴿وَيَتَادَمُّ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾	-
٣٢١	قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ﴾	-
٣٢٣	قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ﴾	-
٣٢٤	قوله تعالى: ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا﴾	-
٣٢٥	قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾	-
٣٢٦	قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾	-
٣٢٧	قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾	-
٣٢٧	وقال الإمام السمعاني ﷻ: قوله تعالى	٢
٣٢٧	﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِ﴾	-
٣٢٨	وقال الإمام الرازي ﷻ: قوله تعالى	٣
٣٢٨	﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِ﴾	-
٣٣١	قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾	-
٣٣٣	قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾	-
٣٣٦	قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾	-
٣٣٩	قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	-
٣٤٠	أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَنبَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾	-
٣٤١	قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾	-

٣٤١	قوله تعالى: ﴿وَيَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾	-
٣٤١	قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ﴾	-
٣٤٧	وقال الإمام القرطبي رحمه الله: قوله تعالى	٤
٣٤٧	﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾	-
٣٤٩	قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾	-
٣٥٠	قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾	-
٣٥١	قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	-
٣٥٢	قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ﴾	-
٣٥٣	قوله تعالى: ﴿وَيَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ﴾	-
٣٥٤	قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ﴾	-
٣٥٦	أقوال المفسرين في آيات القصة في سورة الحجر	-
٣٥٦	قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ﴾	-
٣٥٦	قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد	١
٣٥٦	قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾	-
٣٥٧	فقال الله تعالى ذكره: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾	-
٣٥٧	قوله تعالى: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ﴾	-
٣٥٧	قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾	-
٣٥٨	قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا آغَاوَيْتَنِي لِأَرِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾	-
٣٥٨	وقال الإمام الماتريدي رحمه الله: وقوله عز وجل:	٢
٣٥٨	﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ﴾	-
٣٥٨	وقوله عز وجل: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾	-
٣٥٩	وقوله عز وجل: ﴿قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾	-
٣٦٠	وقوله عز وجل: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾	-
٣٦٠	وقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾	-
٣٦١	وقوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾	-
١٦٣	وقوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا آغَاوَيْتَنِي لِأَرِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾	-

٣٧٥	أقوال المفسرين في آيات القصة في سورة الإسراء	-
٣٧٥	قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا﴾	-
٣٧٥	قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ	١
٣٧٥	﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾	-
٣٧٥	وقوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾	-
٣٧٦	قوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾	-
٣٧٦	قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أُسْطَظَّتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ﴾	-
٣٨٠	قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾	-
٣٨٠	وقال الإمام الزجاج رحمه الله: قوله تعالى	٢
٣٨٠	﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾	-
٣٨٠	وقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾	-
٣٨١	وقوله: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾	-
٣٨١	وقال الإمام الماتريدي رحمه الله: وقوله عز وجل	٣
٣٨١	﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾	-
٣٨٢	وقوله عز وجل: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾	-
٣٨٣	وقوله عز وجل: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾	-
٣٨٦	وقوله عز وجل: ﴿وَشَارَكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾	-
٣٨٨	وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾	-
٣٨٩	وقال الإمام الرازي رحمه الله: قوله تعالى	٤
٣٨٩	﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾	-
٣٩١	ثم قال تعالى حكاية عنه: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾	-
٣٩٣	ثم قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾	-
٣٩٣	وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أُسْطَظَّتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ﴾	-
٣٩٤	قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾	-
٣٩٧	أقوال المفسرين في آيات القصة في سورة الكهف	-

٣٩٧	قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾	-
٣٩٧	قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره مذكراً هؤلاء المشركين حسد إبليس	١
٣٩٨	قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾	-
٣٩٩	وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾	-
٣٩٩	وقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾	-
٤٠٠	وقال الإمام الماتريدي رحمه الله: قوله تعالى	٢
٤٠١	وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾	-
٤٠٢	وقال الإمام الرازي رحمه الله: في قوله تعالى	٣
٤٠٢	﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾	-
٤٠٥	ثم قال تعالى: ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾	-
٤٠٦	وقال الإمام القرطبي رحمه الله	٤
٤٠٦	﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾	-
٤٠٦	قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾	-
٤٠٨	أقوال المفسرين في آيات القصة في سورة طه	-
٤٠٨	قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً﴾	-
٤٠٨	قال الإمام الطبري رحمه الله: قوله تعالى	١
٤٠٨	﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً﴾	-
٤١٠	قوله تعالى ذكره: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾	-
٤١٠	قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾	-
٤١٠	قوله: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾	-
٤١١	قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ﴾	-
٤١٢	قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تَهُمَا وَطَفِقَا﴾	-
٤١٢	وقوله ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾	-

٤١٣	يقول تعالى ذكره: قال الله تعالى لأدم وحواء: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾	-
٤١٣	وقال الإمام الماتريدي رحمه الله: وقوله عَزَّ وَجَلَّ	٢
٤١٣	وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾	-
٤١٤	وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾	-
٤١٥	وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾	-
٤١٥	وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾	-
٤١٦	وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾	-
٤١٦	وقال الإمام الرازي رحمه الله: في قوله تعالى	٣
٤١٦	وأما قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾	-
٤١٩	أما قوله: ﴿فَقُلْنَا يَتَّادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾	-
٤٢٠	أما قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾	-
٤٢٠	قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ﴾	-
٤٢٦	قوله: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾	-
٤٢٨	أقوال المفسرين في آيات القصة في سورة (ص)	-
٤٢٨	وقال الإمام الطبري رحمه الله:	١
٤٢٨	﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ من صلاة قوله: ﴿يَخْلَصُمُونَ﴾	-
٤٢٨	وقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾	-
٤٢٩	قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَاسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدَّتِي﴾	-
٤٣٠	قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاحْرَجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾	-
٤٣٠	قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾	-
٤٣١	وقال الإمام الماتريدي رحمه الله: وقوله عَزَّ وَجَلَّ	٢
٤٣١	وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَسْتَكَبرَتْ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾	-
٤٣٣	وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقَنَّهُ مِنْ طِينٍ﴾	-
٤٣٤	وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾	-

٤٣٥	وقال الإمام السمرقندي رحمه الله: ثم قال عز وجل	٣
٤٣٥	﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾	-
٤٣٧	وقال الإمام الزخشي رحمه الله: قوله تعالى	٤
٤٣٧	﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾	-
٤٣٨	فما معنى قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾	-
٤٣٩	قوله: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ﴾	-
٤٤٠	وقال الإمام الرازي رحمه الله: قوله تعالى	٥
٤٤٠	﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾	-
٤٤٣	أما قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِينَ﴾	-
٤٤٨	قصة آدم عليه السلام بين سورة البقرة والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، و(ص)	-
٤٤٨	قصة آدم في سورة البقرة تبدأ من أقدم نقطة في القصة	-
٤٤٨	قصة آدم في سورة الأعراف فقد بدأت من باب التكريم لآدم وذريته	-
٤٤٨	القصة في سورة البقرة واردة في تكريم آدم وما يحمله من العلم	-
٤٤٩	وصف إبليس في سورة البقرة	-
٤٤٩	أسلوب الخطاب	-
٤٤٩	أما في سورة البقرة فقد جاء الخطاب بإسناد القول إلى الله تعالى	-
٤٤٩	وأما في الأعراف عندما طرد إبليس فقد جمعها في الكلام	-
٤٥٠	ذكر المولى سبحانه في سورة البقرة (رغداً)	-
٤٥٠	بينما لم ترد في سورة الأعراف (رغداً)	-
٤٥٠	في سورة البقرة ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾	-
٤٥٠	وأما في سورة الأعراف ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾	-
٤٥١	في سورة البقرة ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾	-
٤٥١	وأما في الأعراف ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾	-
٤٥١	معاتبه الله تعالى لآدم عليه السلام:	-
٤٥١	ففي سورة البقرة قال تعالى: ﴿فَلَنَلَقِيَنَّآ أَدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ﴾	-
٤٥١	وفي الأعراف قال تعالى: ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾	-
٤٥١	وفي سورة الأعراف تناسب بين البداية والاختيار	-

٤٥٢	اتفق ندم الأبوين والذرية على الظلم	-
٤٥٢	توبة الله على آدم	-
٤٥٢	ذكر الله تعالى في سورة البقرة: أنه تاب على آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ	-
٤٥٢	وفي سورة الأعراف: ذكر أن آدم طلب المغفرة لكن لم يذكر أن الله تعالى تاب عليه	-
٤٥٢	وفي سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾	-
٤٥٣	وفي سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَهُمْ مِنْ يَمِينٍ وَلَا شِمَالٍ وَمَنْ خَلَقَهُمْ﴾	-
٤٥٣	وفي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿فَوَسَّوْا لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ﴾	-
٤٥٣	وفي هذه الآيات تحذير من الله تعالى لذرية آدم قال تعالى: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ﴾	-
٤٥٣	وأما في سورة الحجر فقد بدأت القصة ببيان مم خلق الإنسان الأول آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ	-
٤٥٣	﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾	-
٤٥٤	وأما في سورة: (الإسراء) فقد بدأت القصة حين أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ	-
٤٥٥	وأما في سورة: (الكهف) فقد بين الله جل وعلا أمره للملائكة وكان إبليس معهم	-
٤٥٥	وأما في سورة: (طه) فقد بدأت القصة بذكر العهد الذي أخذه الله تعالى على آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ	-
٤٥٦	وأما في سورة: (ص) فقد ذكر كذلك المادة التي خلُق منها الإنسان الأول آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ	-
٤٥٦	﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾	-
٤٥٨	(قصة أول الأنبياء والبشر نبي الله آدم في السنة المطهرة)	-
٤٥٩	معنى قول الرسول ﷺ : (إن الله خلق آدم على صورته)	-
٤٥٩	الخلقة التي خلق عليها سيدنا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ	-
٤٦١	ذكر إخراج أرواح ذرية آدم من ظهره وأخذ الميثاق	-
٤٦٢	خلق حواء عَلَيْهَا السَّلَامُ	-
٤٦٢	سجود الملائكة الكرام لنبي الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ واعتراض إبليس للعين	-

٤٦٣	معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾	-
٤٦٤	خلافة بني آدم في الأرض	-
٤٦٥	كيف عرف الملائكة أن بني آدم يفسدون	-
٤٦٥	سكنى آدم وزوجته حواء الجنة	-
٤٦٦	سبب خروج آدم من الجنة	-
٤٦٧	مدة إقامة آدم ﷺ في الجنة واليوم الذي خرج فيه من الجنة	-
٤٦٨	مكان نزول آدم ﷺ على الأرض	-
٤٦٨	بناء البيت الحرام الكعبة المشرفة	-
٤٦٩	قصة هابيل وقابيل	-
٤٧٠	موت سيدنا آدم وحواء عليهما السلام	-
٤٧٩	ما في القصة من فوائد ودروس وعبر	-
٤٨٢	ومن فوائد قصة آدم ﷺ المبسوط في كتاب الله عز وجل	-
٤٨٥	وجاء في كتاب البرهان في علوم القرآن عدة فوائد	-
٤٨٩	لفترات بلاغية في آيات قصة الخلق الأول	-
٤٨٩	السر البلاغي في تكرير (فيها): في قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾	-
٤٩١	توكيد الخبر في: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾	-
٤٩١	هل من فارق بين نقدس لك ونقدسك؟	-
٤٩٣	الخاتمة	-

